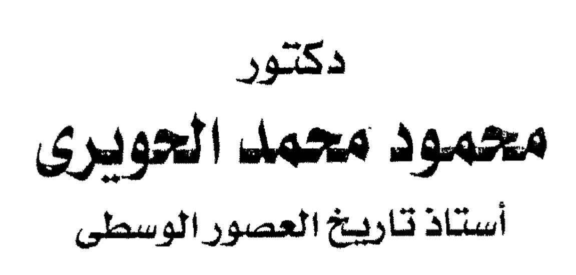


دكتور

محمود محمد الحويرى

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

مصر فى العصور الوسطى

من العصر المسيحى حتى الفتح العثمانى

الطبعة الثانية ٢٠٠٢ م

المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات - تليفاكس : ٣٦٥٥٤٨٧

مصر في العصور الوسطى

من العصر المسيحي حتى الفتح العثماني

تأليف
دكتور محمود محمد الحويرى
أستاذ تاريخ العصور الوسطى

الطبعة الثانية
٢٠٠٢م

الكتاب: مصر فى العصور الوسطى

تأليف: دكتور/ محمود محمد الحويرى

رقـــم الإيداع: ٢٠٠١/١٧٥٧
الترقيم الدولى: ISBN
977--5841-56--9

تاريخ النشر: ٢٠٠٢

الناشر: المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات (طباعة ـ نشر ـ تصدير كتب)

الإدارة: ٥ ش مصطفى طموم ـــ المنيل ـــ القاهرة
تليفاكس: ٣٦٥٥٤٨٧

مقدمة الطبعة الثانية

هذا الكتاب الذى يشرفنى أن أقدمه إلى القارىء العربى محاولة متواضعة للبحث عن خيط عام يربط بين مراحل التاريخ المصرى فى العصور الوسطى، ويبرهن على أنه تاريخ شعب واحد لاشعوب متباينة متعددة. وقد تطلب منى هذا الكتاب فى طبعته الثانية إصلاح ما جاء بالطبعة الأولى بعد أن نفذت. ولايسعنى إلا أن أتقدم بخالص شكرى وعظيم تقديرى لزملائى وأصدقائى وطلبتى على ملاحظاتهم القيمة، ونقدهم المفيد لموضوعات الكتاب.

وقد يظن ظان أن البداية الحقة لأحداث تاريخ مصر فى العصور الوسطى تبدأ من الفتح العربى لمصر سنة ٦٤١هـ (٢١هـ). وفى هذا الظن إجحاف وإنكار للموضوعية، إ لايمكن إغفال تاريخ مصر قبل ذلك عندما كانت تحت حكم الرومان ثم البيزنطيين، وهو تاريخ يرتبط ارتباطا وثيقا بحقبة العصور الوسطى بشقيها الشرقى والغربى. ويشهد على ذلك تحول مصر من الوثنية إلى المسيحية.

ومن المعروف أن مصر المسيحية لعبت دوراً بالغ الأهمية فى تاريخ الشرق الأدنى، وحافظت على طابعها الخاص وشخصيتها المتميزة. وفى سبيل تلك الديانة ناهضت مصر الاحتلال الرومانى ثم البيزنطى بالتحدى الكامن فى الاعتزاز بتقاليدها وعاداتها. والتفت الأساقفة والرهبان حول الشعب المصرى، وأمدوه بقوة روحية هائلة ساعدته على احتمال الاحتلال الأجنبى الذى استنزف مواردها، واضطهد عقيدتها. ومن هنا لم يكن تاريخ مصر المسيحية تاريخا عاديا هادئا، بل كان مفعما بالحركة والحيوية، إلى أن جاء الفتح العربى لمصر، فرحبت به، أملاً فى التمتع بحياة مليئة بالرخاء والطمأنينة.

والله يوفقنا لما فيه الخير.

المؤلــــف

ثكنات المعادى فى فبراير ٢٠٠١م

ذو القعدة ١٤٢١هـ

مقدمة الطبعة الأولى

هذا الكتاب ليس من مقصده أن يكون سرداً كاملاً لتاريخ مصر السياسى والحضارى فى العصور الوسطى، منذ أن فتحت مصر على ايدى العرب الذين خرجوا من شبه جزيرتهم لنشر الدين الإسلامى فى القرن السابع الميلادى، حتى الفتح العثمانى لمصر سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م)، وهى فترة تقرب من ستة قرون، تعرضت مصر خلالها لتغيرات عظيمة فى النواحى السياسية والاجتماعية والفكرية، فهذا الموضوع تناوله بالدراسة والتفصيل مؤرخون بارزون متخصصون فى حقل التاريخ الإسلامى والعصور الوسطى، بعضهم قضى نحبه مخلفا مؤلفات رائعة أفدنا منها، وبعضهم ما يزال على قيد الحياة، يعطى ويواصل نشاطه، ونذين بالشيء الكثير لكتاباتهم.

والغرض من هذا الكتاب أن كثيراً من المؤلفين، وخاصة غير المهتمين بدراسة التاريخ، عند تناولهم الحديث عن مصر الإسلامية والدول الحاكمة التى تعاقبت عليها وعلاقاتها بالمصريين، يرددون دوماً أن حكام مصر كانوا أجانب عنها لاينتمون إلى أرضها وترابها، ويكشفون عن تحامل وإجحاف يستهدف فى صورة مباشرة أو غير مباشرة التشكيك فى قدرة هؤلاء الحكام وقدرهم واهميتهم، والتنديد بجهودهم. والواقع أن هذه النظرة الضيقة البعيدة عن الانصاف تنم عن ظلم فادح لهؤلاء الحكام. إذ ينبغى أن نضع فى الاعتبار أن العصور الوسطى لم تعرف العرقية، تلك الأكذوبة السخيفة التى يركز عليها البعض، فى الوقت الذى لم تعرف تلك العصور القومية التى ظهرت فى أوربا فى أواخر القرن الثامن عشر، وقد تبلورت علي أوضح صورة فى الثورة الفرنسية بأفكارها ومثلها وشعاراتها. ومن فرنسا انتقلت إلى أقطار أوربية عديدة بطرق التأثير الفكرى أولاً، وبسبب الأحتكاك العسكرى ثانياً. وعلاوة على ذلك ليس ثمة شعب فى العالم منذ أن وعت البشرية تاريخها وسطرته، حتى الوقت الحاضر، بمنجاة عن الاختلاط، سواء أخذ هذا الاختلاط صورة هجرات سليمة لشعب أثر فى شعب آخر، أو حروب قامت بين دولتين، نتج عنها التفاعل والتداخل بين شعبيها، مما يدحض النظرية التى تقوم على نقاوة الدم أو عقدة الاستعلاء بين بعض الشعوب.

ولو كان المقصود بأجنبية الأسرات الحاكمة فى مصر الإسلامية أنها امتصت ثروات مصر، ونهبت خيراتها، كما حدث فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، عندما احتلت فرنسا

مصر بقيادة نابوليون بونابرت فى آواخر القرن الثامن عشر سنة ١٧٩٨م، وما عرفته مصر على ايدى الاحتلال البريطاني الذى نكبت به سنة ١٨٨٢م، فالأمر يختلف تماماً. ذلك أن الفرنسيين والإنجليز أتوا من وراء البحر، من الغرب الأوربى، واحتلوا مصرتأميناً لمصالحهم بعد أن لفت نظرهم موقعها الفريد. ولكن مصر الإسلامية كانت تقع فى إطار الدولة الإسلامية الضخمة بحضارتها الزاهية التى عاش فى ظلها المسلمون وغير المسلمين. وتتابعت على أرض مصر الإسلامية سلسلة من الأسرات الحاكمة التى جعلت مصر دولة مستقلة، وبذلت كل جهودها للنهوض بها، وتنمية ثرواتها، وتعزيز مكانتها فى العالم الإسلامى، أبرزت الخدمات الجليلة التى أسدتها مصر للإسلام والمسلمين، وحافظت على أمنها، ودافعت عنها ضد الأخطار الكبرى التى هددتها من قبل الصليبيين والمغول، وتقربت الى الشعب المصرى، فالتف حولها، ومارس شئون حياته فى أمن واستقرار.

لقد شهدت مصر فى فترات من تاريخها الطويل حكاماً لم ينتموا فى أصولهم إلى أرض مصر، ولكنهم مارسوا حكمهم على مصر كدولة مستقلة لها خصائصها. فعلى سبيل المثال فى التاريخ القديم، لم تكن مصر على أيام البطالمة ـ وهم من أصل مقدونى ـ دولة تابعة، بل كانت دولة مستقلة ذات سيادة وأصبحت الاسكندرية عاصمة الدنيا كلها، ومركز الاشعاع الحضارى فى العالم القديم. وفى التاريخ الوسيط حكم مصر المماليك الذين يرجعون فى أصولهم إلى جنسيات متعددة بعيدة عن الأصل المصرى الصميم، هؤلاء المماليك لم يجعلوا مصر تابعة للبلاد التى أتوا منها، لأنهم أتوا إليها أطفالاً صغاراً، ونشأوا فيها، ورفعوا رأسها عالياً فى العالم الإسلامى، وحققوا وزناً عالياً فى السياسة العالمية. وفى العصر الحديث حقق محمد على استقلال مصر داخل كيان الدولة العثمانية، فشمل نفوذه شبه الجزيرة العربية والشام والسودان وكريت. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل غزا محمد على الدولة العثمانية فى الأناضول حتى سار قريباً من الاستانة (استنبول)، لولا ان تحالفت عليه الدول الأوربية، وقضت على الأسطول المصرى فى موقعة نافارين سنة ١٨٢٧م.

ومما يجدر ذكره، أن الحكام داخل العالم الإسلامى فى العصور الوسطى كانوا يتنافسون ويتصارعون، ويتحركون من بلد إلى آخر، ويفتحون أو يضمون بلداً، دون حساسيات إقليمية أو قومية، ودون أى مدلول أو محمول استعمارى[1]. كما كان لأى فرد

(١) جنال حمدان: شخصية مصرية (القاهرة، ١٩٨١م)، جـ٢، ص ص٦٥٨.

ينتمي إلى العالم الإسلامي مطلق الحرية في التنقل من بلد إلى آخر في أى وقت للإقامة أو التجارة أو لطلب العلم، دون أن تعترضه أية حواجز مصطنعة و قيود كالتي نراها في الوقت الحاضر، وقد امتلأت كتب التراجم والطبقات في التاريخ الإسلامي بأسماء العديد من الشخصيات البارزة والعادية التي وفدت على مصر قادمة من المشرق الإسلامي ومغربه، واختارتها سكناً لها، وعلى مر السنين نسيت أصولها الأولى، واندمجت في الشعب المصرى، وأصبحت جزءاً من نسيجه.

وفي ثنايا هذا الكتاب، وعلى قدر ما يسمح به نطاقه الضيق، نقدم للقارىء الكريم صفحات تتناول أهم سمات التاريخ السياسى والحضارى لمصر في العصور الوسطى، ودور حكامها البارزين في تدعيم تاريخها وحضارتها، وتفاعلهم مع الشعب المصرى، بعيدا عن أى طموح أو استغلال بشع، وفي هذه الصفحات تجنبت ذكر الأحداث الثانوية والتفاصيل الكثيرة.

والله أسأل أن أكون قد وفقت في هذه المحاولة المتواضعة، والله ولى التوفيق.

المؤلـــف

ثكنات المعادى في أغسطس ١٩٩٦م

ربيع الأول ١٤١٧

تمهيد

نظرة عامة في مصر قبل الفتح الإسلامى

حبت الطبيعة مصر ببيئة جغرافية فريدة ممتازة، ففيها يجرى نهر النيل العظيم الذى لعب دوراً هاماً فى توحيد واديه، وأوجد سبل التضامن والنظام والطاعة بين سكانه فى مختلف العصور التاريخية. ولاشك أن موقع مصر الجغرافى لعب دوراً خطيراً فى حياتها وأثر فيها، فمصر تتوسط البحرين المتوسط والأحمر، أولهما يربط مصر بالغرب الأوربى والمحيط الأطلسى، وثانيهما يصل مصر بالمحيط الهندى وبلاد الشرق الأقصى.

على أن هذا الموقع كان نعمة لمصر فى فترات قوتها، ووبالاً عليها فى فترات ضعفها، ففى العصور التى استمسكت فيها مصر بوحدتها، ازدهرت حضارتها، وامتد نفوذها، وردت الطامعين فى أرضها، وفى العصور التى انحلت فيها وحدتها، وعمتها الفوضى طمع فيها الطامعون، وسعى إليها الغزاة من أدنى الأرض وأقصاها، وصارت مصر الضعيفة أداة يسخرها العالم ويستغل موقعها، ويوجهها وجهات كثيرة، قد غيرت عليها أكثر من مرة مظهر ثقافتها،وإن لم تستطع أن تغير من أسس حضارتها الأولى[1].

وقد أثرت التضاريس فى طابع مصر، فعاش المصريون فى واديهم الطويل الضيق على ضفاف النيل، تفصلهم عن العالم الخارجى صحروات شاسعة على الجانبين، تقيه كأنها الدروع شر الغزوات، ولذلك كان الشعب المصرى دائماً يكاد أن يكون منفصلاً عن العالم المجاور له. وفضلاً عن ذلك كان للصحارى أثرها المعروف، والذى تمثل فى أن عبورها كان عسيراً على المهاجرين من الرعاة، فلم يصل مصر منهم إلا عناصر قليلة، بل كان سبباً فى أن مصر لم يصلها فى أى وقت من الأوقات هجرات كبيرة العدد، تغير معالم سكانها الجنسية تغييراً أساسياً، كما حدث فى بعض البلاد المجاورة الأخرى، فلم نسمع فى تاريخ مصر الطويل بغزوة كبيرة العدد غيرت مظهر مصر وتكوينها الجنسى، كما حدث فى غزوةالآريين لشمال الهند، أو غزوات المغول لسهل الصين الشمالى أو لجنوب سهل روسيا، أو حتى غزوات الساميين لمنطقة آشور القديمة. ولعل هذا هو السبب فى أن سكان مصر استطاعوا على الدوام أن يحافظوا على تكوينهم الجنسى العام، فاستوعبوا الغزاة وهضموا أعدادهم القليلة أو المعقولة، والتى سمحت بها قسوة الصحراء[2].

---

(١) سليمان حزين: حضارة مصر أرض الكنانة (القاهرة ١٩٩١)، ص ١٢٤،

(٢) المرجع السابق، ص٢٤٢

وكان يقطن فى جنوب مصر شعوب كانت على الدوام أقل من المصريين تحضراً، ولم تكن للمصريين صلات بحضارات تضارع حضارتهم إلا عن طريق البحر المتوسط وعن طريق الدلتا، فكان من الطبيعى أن تكون نظمهم السياسية مستقلة بذاتها إلى حد بعيد، وأن يتمسكوا بعاداتهم وتقاليدهم الموغلة فى القدم، وأن يتولد فيهم أيضاً قدر من العزلة الروحية والاعتداد القومى، وهى صفات فى وسعنا أن نلمسها فى كثير من الأساطير والتقاليد القومية[1].

ويلاحظ أن العدو الزاحف على مصر من ناحية البحر المتوسط يجد صعوبة فى اختراق شبكة قنوات المياه التى تقطع أنحاء الدلتا، خاصة أيام الفيضان، مثلما حدث لجيش الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا فى سنة ١٢٥٠م، ومثلما حدث «لشعوب البحر» ـ كما أطلق عليهم المصريون ـ من قبل بزمن طويل فى عهد رمسيس الثالث (١١٨٢ ـ ١١٥١ق.م). والزاحف على مصر من ناحية الغرب تعترضه الصحراء. مثلما أدرك القائد الألمانى روميل صعوبة القتال على بعد مئات الأميال عن قاعدة تموينه بلا عون سوى الصحراء فى مؤخرته ضد خصومه الإنجليز، الذين كانوا بوسعهم أن يعتمدوا على موارد النيل كافة[2]. ومن الثابت أن الغزاة نجحوا مرتين فى فتح مصر من جهة الغرب، كما فعل نيقتاس Nicetas فى حملته سنة ٦٠٩م. وكان هرقل الحاكم البيزنطى لولاية أفريقية قد وضع خطة للتخلص من الامبراطور البيزنطى فوقاس (٦٠٢ ـ ٦١٠) الذى صار عاجزاً عن إدارة أمور القسطنطينية لقسوته، فأرسل ابن أخيه نيقتاس لغزو مصر والاستيلاء عليها، بهدف أن يقطع عن القسطنطينية إمدادات القمح التى كانت تصلها مصر، وتوجه إلى الإسكندرية حيث اشتبك فى قتال مع حاكمها البيزنطى، انتهى لصالح نيقتاس. أما المرة الثانية التى نجح فيها الغزاة فى فتح مصر من ناحية الغرب، فقد حدثت على أيدى الفاطميين سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م)، وذلك عندما أرسل الخليفة الفاطمى المعز لدين الله قائده القدير جوهر الصقلى لفتح مصر، فخرج جوهر بجيشه وسار فى نفس الطريق الذى

---

(١) بل (هـ. آيدرس): مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى. دراسة فى انتشار الحضارة الهلينية واضمحلالها، ترجمة عبد اللطيف أحمد على (القاهرة ١٩٦٨)، ص ٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٢.

سلكه فيما بعد القائد الألماني روميل، ولكنه كان يعلم مدى ما يعانيه الجيش من صعاب عند عبور الصحراء الممتدة الجدباء، ولهذا فقد عبد الطرق، وحفر الآبار، وبنى المنازل للاستراحة على طول الطريق من تونس إلى مصر، ووصل جوهر الإسكندرية ودخلها دون قتال، وواصل طريقه إلى الفسطاط، فدخلها. وباستثناء هاتين المرتين اللتين وفق فيهما نيقتاس وجوهر الصقلي في دخول مصر من ناحية الغرب، نلاحظ أن القاعدة صحيحة بوجه عام، وهي أن الغزاة الذين نجحوا في فتح مصر أتوا من ناحية المشرق عبر شبه جزيرة سيناء زاحفين بمحاذاة الفرع الشرقي للنيل إلى حيث توجد القاهرة الآن. أما من ناحية الجنوب، فوادي النيل نفسه يهيء مدخلاً للغزاة، غير أنه لم يحدث إلا نادراً أن كانت بجنوب مصر دولة قوية تستطيع أن تهدد مصر بأكثر من غارات تخريبية، بالإضافة إلى أن ضيق الخانق شمالي أسوان وصعوبة الملاحة الناجمة عن الشلال الأول، تجعل من السهل الدفاع عن هذا المدخل الجنوبي للبلاد[1].

وينقسم تاريخ مصر على مداه الطويل منذ توحيد الوجهين البحري والقبلي في دولة مركزية واحدة وكيان سياسي واحد على يد مينا أونارمر أول ملوك الأسرة الأولى حوالي ٣٢٠٠ ق.م. وحتى وقتنا الحاضر، إلى عصرين متميزين هامين: عصر الفراعنة وفيه نشأت أول إمبراطورية على ضفاف النيل، واستمرهذا العصر حتى نهاية الدولة الحديثة تقريباً، تلاه أن خضعت مصر لقوى دخيلة وأصبحت مستعمرة. أما العصر الآخر، فقد بدأ منذ أن دخل الإسلام إلى مصر سنة ٦٤١م وطبعها بطابعه، ولم تخرج عنه منذ ذلك التاريخ.

وفي مصر الفرعونية احتفظ شعبها بملامحه الجسمية والنفسية إلى حد بعيد حتى نهاية العصور القديمة، وما تلاها من عصور، بصورة قلما نجدها في معظم الشعوب القديمة التي تحللت في أقوام أخرى بفعل أحداث التاريخ. وشيدت مصر الفرعونية حضارة عريقة متصلة نابعة من داخلها هي أقدم الحضارات جميعاً فكانت مصرية في ديانتها وعاداتها وتقاليدها. وقد لعبت تلك الحضارة دوراً حيوياً في التأثير على العالم المجاور لها، فعبرت البحر المتوسط إلى اليونان، واجتازت بوابة مصر الشرقية إلى بلاد الشام والرافدين.

---

(١) بل: المرجع السابق ص ٤.

ولما آذن العصر الفرعونى بالزوال، دخلت مصر مرحلة جديدة من تاريخها، كان للمدينة فيها المقام الأول. وكان الإسكندر الأكبر (ت ٣٢٣ ق.م) أول من أزاح الستار عن تلك المرحلة التى توصف إجمالاً بأنها حضارة جديدة تكونت من عناصر مختلفة صهرت فى بوتقة المدينة المصرية. فالمدينة هى حجر الزاوية فى الإمبراطورية التس شيدها الإسكندر، وخيرمثال لذلك مدينة الإسكندرية التى عرفت رسميا بأنها «الإسكندرية المتاخمة لمصر»، فليست هى مصر أو من مصر[١]. والحقيقة أن الإسكندرية كانت مدينة عجيبة، فرغم اتصالها بالداخل عن طريق النيل، إلا أنها لم تنتم أبداً إلى مصر، ولم تكن مركزاً لقطر بقدر ما كانت بنيتها الفوقية، وقد تحدث السكان عن السفر من الإسكندرية «إلى مصر» Ad Aegyptum، أى إلى الوادى، فدورها الرئيسى ظل مركزاً هللينستيا، كما أن وظيفتها الأولى لاتخرج عن كونها ميناء رئيسيا لشرق البحر المتوسط وعاصمة لإمبراطورية، فى حين ظل الجانب الأكبر من البلاد فى الصعيد والدلتا مصريا خالصاً(٢)، وكلما بعدنا عن الإسكندرية قل التحدث باليونانية.

وفى عصر البطالمة (٣٢٣ ـ ٣٠ ق.م) الذين ورثوا الإسكندر فى حكم مصر، لعبت مصر دوراً خطيراً فى السياسة العالمية، فكانت الإسكندرية كبرى المدن الهللينستية، ومنافسة روما، محوراً أساسياً من محاور صراع القوى، وكانت مصر مستقلة فعلاً تحت حكم البطالمة وإن كانوا أجانب عن مصر. وفى عصر البطالمة لم تتجاوز موارد مصر حدودها، بل عملوا على استغلال تلك الموارد فى النهوض بمصر، فاعتنوا بالزراعة ونظموا طرق المواصلات والتجارة. وكان كثيراً من الملوك البطالمة يتوجون طبقاً للتقاليد المصرية القديمة فى ممفيس، حتى أنهم كانوا يقلدون الفراعنة بالزواج من أخواتهم لينالوا رضاء الآلهة من جهة، وليحافظوا على نقاوة دم الأسرة الملكية من جهة أخرى. وفى عصر البطالمة امتزج الإغريق بالمصريين باطراد، حتى أصبح الزواج شائعا بينهما، وفى وثائق هذا العصر نجد أسماء إغريقية ومقدونية ومصرية داخل الأسرة الواحدة[٣]. أما المصريون فى هذا العصر فقد عاشوا

---

(١) محمد شفيق غربال: تكوين مصر (القاهرة ١٩٥٧)، ص ٤٥.

(2) Grant (M); From Alexander to Cleoparta.(London; 1982), pp. 37-39; Hany (Edward Rochie, Christain Egypt; Church and people (new york, 1952), pp 6-7, Mango (Cyril), Byzantium (London, 1980), p. 20.

(3) Wallis Budge 9E.A.), Egypt under the Saites, Persians and Ptolmies, (Netherlands, 1986),Vol, vii, pp. 123-129

ـ دوجه عام ـ كما كان يعيش اجدادهم من قبل، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم، يعبدون آلهتهم، ويخضعون إلى حد كبير لقوانينهم الفرعونية[1]. ونتيجة لذلك لم تتأثر مصر بالحضارة اليونانية إلا تأثراً سطحياً، على الرغم من وفود الإغريق زرافات ووحدانا، واستقرارهم فى قراها، وامتزاجهم بأهلها حقبة طويلة امتدت إلى ثلاثة قرون، وانتهى الأمر لابتأغرق المصريين بل بتمصر الاغريق[2].

وقد حافظ البطالمة على نفوذهم فى مصر بجيش صغير من المرتزقة تألف من المقدونيين والإغريق، وفرضوا عليها نظاماً مركزياً عالياً، غير أنهم أثقلوا المصريين بالضرائب الفادحة والاحتكارات، يهدف الحصول على دخل وفير يمكنهم من العيش بترف فى بلاطهم الرائع فى الاسكندرية[3] من ناحية، وتمويل سياستهم التوسعية من ناحية أخرى، الأمر الذى جعل قلوب المصريين تشتعل بكراهية البطالمة، وتمتلىء نفوسهم غضباً، وأظهروا نقمتهم فى إشعال لهيب الثورات ضدهم، خاصة فى أقصى الجنوب.

وقد اختلف وضع مصر فى العصر الرومانى عنه فى العصر البطلمى. فالرومان الذين شيدوا أكبر إمبراطورية عرفها تاريخ البشرية، والتى تأتى أهميتها من أنها جاءت فى نهاية العالم القديم، اعتبروا الشعوب الخاضعة لهم أجانب عنهم برابرة، وهومصطلح أطلقه الرومان على الشعوب الأجنبية، وأطلقوه أيضاً على اليونان صاحبة الفضل على الحضارة الرومانية، وذلك لأن بلاد اليونان خضعت لنفوذ الرومان. ومنذ أن أضحت مصر ولاية رومانية فى سنة (٣٠ ق.م) ألحق أوكتافيانوس أوغسطس مصر بممتلكات الامبراطورية الرومانية، وجعلها تابعةً له مباشرة، فلم يسمح لأى سناتور بدخولها إلا بأذن منه، وقد دفعه إلى ذلك أن مصر بمواردها الغنية وموقعها الاستراتيجى من المحتمل أن تكون مصدر خطر على الإمبراطورية إذا وضعت تحت حكم سناتور. وهو أمر يغريه على الثورة ضد الامبراطور والاستقلال بمصر[4].

---

(١) إبراهيم نصحى: «مصر فى عصر البطالمة» موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثانى (القاهرة بدون تاريخ)، ص ٧٨.

(٢) عبد اللطيف أحمد على: كفاحنا ضد الغزاة (القاهرة ١٩٥٧)، ص ٨٢ ـ ٨٣.

(3) Sinnigen (W.G.) & Book (A.E.R), A Hist o Rome to A.D. 565 (U.S.A. 1977), pp. 117-118.

(4) Jones (A.H.M.), A Hist of Rome through the fifth century (new york 197), Vol II/,p. 173.

وترتب على الفتح الرومانى لمصر أن صار الإمبراطور الرومانى وريثا للفراعنة والبطالمة، والسيد المطلق على مصر، والمالك الوحيد لها[1]. وظلت مدينة الإسكندرية درة الجزء الشرقى من البحر المتوسط المدينة الكبيرة الوحيدة الجديرة باسمها، واستمرت فى الازدهار، وأصبحت المدينة الثانوية فى الإمبراطورية والعاصمة الثقافية للعالم الهللينستى ومركزاً ضخماً للتجارة والصناعة، يتردد عليها العرب والأثيوبيون والهنود وغيرهم[2].

وفى ظل الحكم الرومانى عانى الفلاحون المصريون بصورة لم يسبق لها مثيل، فالضرائب المفروضة عليهم صارت أشد وطأة عما كانت عليه فى أواخر حكم البطالمة، كما كان على الفلاح المصرى أن يدفع ضريبة الرأس Poll tax التى كانت مقررة على البالغين من سن الرابعة عشر حتى سن الستين، فى حين كان يعفى منها الطبقات العليا المؤلفة من الرومان والإغريق، واليهود الذين كانوا يعيشون فى المدن، وأعضاء أكاديمية الإسكندرية، وعدد معين من الكهنة[3]. ومما يدل على تعسف السلطات الرومانية فى مصر فى جمع الضرائب أن الإمبراطور تيبريوس (١٤ ـ ٣٧م) خليفة أوغسطس قيل أنه عنف حاكم مصر لإرساله ضرائب زائدة عن النصاب السنوى المحدد إلى روما، وكتب إليه قائلا: «لقد وليتك على مصر لتجز صوفها لا لتسلخها حية»[4].

عاشت روما على قمح مصر دون مقابل، فقد كان على مصر أن ترسل إلى روما ثلث احتياجاتها من القمح الذى تستهلكه سنوياً، وكان معدل ما ترسله مصر سنوياً حوالى ستة ملايين أردب أى حوالى ١٣٥ ألف طن، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كان على مصر أن تطعم جيش الاحتلال الرومانى المقيم بأراضيها[5]. فإذا أضفنا أن العصر الرومانى لم يكن عصر استصلاح أو توسع زراعى أو تقدم خاص فى وسائل الرى والانتاج، أدركنا مدى الاستنزاف الذى تعرضت له مصر والذى وقع عبؤه الأكبر على الفلاح المصرى[6].

---

(1) Naphtali (lewis), life in Egypt under Roman Rule. (Oxford, 1985), pp. 25-26.

(2) Rostovtzeff (M.), Rome. (New york, 1960), p.224.

(3) Naphtali, op. Cit., p. 169.

(4) Naphtali, op. Cit., 160.

(5) Naphtali, op. cit., p. 165.

(٦) جمال حمدان: شخصية مصر، جـ٢ ص ٦٢٤ ـ ٦٢٥.

ومع أن المصريين فقدوا استقلالهم السياسى على أيدى الرومان، وعانوا ماعانوه من قهر واستغلال واستنزاف، إلا أنهم استمسكوا بديانتهم القديمة، وظلوا مخلصين لآلهتهم، ويصلحون المعابد لعبادتهم[1].

وقد كان الرومان فى بادىء الأمر ينظرون إلى معتقدات المصريين الدينية نظرة احتقار وازدراء، ولكنهم لم يلبثوا أن أخذوا يتطلعون إلى تعرف أسرارها، فاستهوتهم تلك الأسرار وما يقترن بها من أساطير، فخضعوا لسلطان تلك الآلهة وشاركوا رعاياهم المغلوبين على أمرهم فى عبادتهم وتقديم القرابين إليها، بل أقاموا التماثيل والمعابد لبعضها حتى فى روما ذاتها[2].

ففى عصر الإمبراطور فسباسيان (٦٩ ـ ٧٩م) vespasian أول أباطرة أسرة فلافيوس بدأ العصر الذهبى لعبادة لإيزيس فى روما، ويوجد نقش من عصر هذا الإمبراطور كتبه أحد العبيد تعظيما لإيزيس التى لاتقهر. وقد شجع الامبراطور دوميتيان (٨١ ـ ٩٦م) ديانة إيزيس، ومن أجلها بنى معبداً لإيزيس وسرابيس[3].

وفى العصر البيزنطى، وهو العصر الذى يراه بعض المؤرخين يبدأ فى مصر بسنوات حكم الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م) أو بعصر قنسطنطين الكبير (٣٠٦ ـ ٣٣٧م)، كان إنهاك الشعب المصرى بالضرائب الثقيلة مصدراً من مصادر شقائه، كما قاسى من مغالاة الموظفين البيزنطيين المستمرة ليكونوا لهم ثروة خاصة على حسابه، وكانت مصر فى نظر الأباطرة البيزنطيين ـ مثلما كانت فى عصر الأباطرة الرومان ـ حقلاً كبيراً ينتج القمح، فاستغلوها كما لو كانت مواردها لاتنتهى، واستغلوا أهلها كما لو كان منجماً من ذهب لا ينضب معينه، ولم يهمهم أمر الأمن فى الريف، ولا الفاقة والقحط والجوع الذى كان يجتاحهم بين حين وآخر[4]. وفى أخريات العصر البيزنطى تدهور الاقتصاد الزراعى والانتاج بالاهمال والعجز والبطش إلى حد الانهيار. ووصل ابتزاز الفلاح

---

(1) Rostovtzeff, op. Cit., p. 225.

(٢) ابراهيم نصحى: «مصر فى عصر الرومان» (٣٠ ق.م ـ ٢٨٤م)»، ص ١٣٧.

(٣) أنظر: محمود الحويرى: رؤية فى سقراط الإمبراطورية الرومانية (القاهرة ١٩٩٣)، ص ٥٢.

(٤) مراد كامل: «من دقلديانوس إلى دخول العرب»، موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثانى، ص٢٠٨.

إلى حد المصادرة والإرهاب والتعذيب، حتى أوشك أن يتحول إلى طبقة أقنان الأرض، وهبطت حالته الاجتماعية إلى نقطة الحضيض فى كل تاريخ مصر تقريباً[1]. كل ذلك كان باعثاً للمصريين على الترحيب بالعرب الفاتحين فى القرن السابع الميلادى، يحدوهم الأمل فى أن يتمتعوا بحياة فيها رخاء وطمأنينة.

حول رأى المؤرخ بتلر فى المصريين:

ومما يجدر ذكره أن المؤرخ بتلر Butler فى كتابه «فتح العرب لمصر»[2] فى أثناء حديثه عن مقاومة المصريين للمذهب الدينى المعروف باسم المونوثيليتية (مذهب الإرادة الواحدة) Monotheletism الذى أراد الإمبراطور البيزنطى هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م) فرضه، واضطهدهم من أجل ذلك اضطهاداً شديداً، فسَّر ذلك قائلا: «فالحق أن المصالح السياسية تأتى فى المرتبة الثانوية بالنسبة للمصالح الدينية. ولم تكن أمور الحكم هى التى قامت عليها الأحزاب، واختلف بعضها عن بعض فيها، بل كان كل الخلاف على أمور العقائد والديانة، ولم يكن نظر الناس (المصريين) إلى الدين أنه المعين الذى يستمد منه ما يعينهم على العمل الصالح، بل كان الدين فى نظرهم هو الاعتقاد المجرد فى أمور معينة. وكان الناس لايكادون يحسون بشىء اسمه حب الوطن، وما كانت عداوتهم عند أختلاف الجنس والوطن لتثور ويتقد لهيبها على الأكثر إلا إذا اختلف معها المذهب الدينى. فكان اختلاف الناس ومناظراتهم العنيفة كلها تقوم على خيالات صورية من فروق دقيقة بين المعتقدات، وكانوا يخاطرون بحياتهم فى سبيل أمور لاقيمة لها وفى سبيل فروق فى أصول الدين وفى فلسفة ما وراء الطبيعة يصعب فهمها. فحق على مصر قول الشاعر جوفنال[3]،

---

(١) جمال حمدان: شخصية مصر، جـ٢، ص ٦٢٥.

(2) Butler, the Arab Conquest of Egypt, pp. 44 - 54.

والترجمة العربية: بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد (القاهرة ١٩٣٣)، ص ١٤ ـ ٢٤.

(٣) كان الدين راسخاً فى حياة المصريين القدماء، وتمسكوا به فى العصرين البطلمى والرومانى. وكان الأجانب الذين يزورون مصر فى العصر الرومانى يسجلون عادة ما يرونه فى ديانة مصر على سبيل التسلية أو الازدراء، خاصة فيما يتعلق بعبادة الحيوانات. وعندما أتى أوكتافيانوس أوغسطس إلى مصر وضمها إلى روما سنة ٣٠ق.م. رفض زيارة معبد أبيس، قائلاً أنه تعود عل عبادة الآلهة لا الماشية. وقد احتقر الشاعر جوفينال (حوالى ٦ ـ ١٢٨م) عبادة الحيوانات احتقاراً شديداً، وقال: «فى مكان يعبدون التمساح، وفى آخر يعبدون أبيس، والبعض فى مصر يقدسون القطط، والبعض السمك، =

إذ يصف ما كان بين قومه من النزاع والشقاق على أيها أفضل فى العبادة عبادة التماسيح أم عبادة القطط، إذ قال: «كل مكان يكره الآلهة التى لجيرانه، ويعتقد أن الآلهة الحقيقية هى التى يعبدها هو». وفى مكان آخر يتحدث فيه بتلر[1] عن كراهية المصريين للمذهب المونوثيليتى قائلاً: وقد كان استقلالهم فى أمور الدين أكبر ما تتعلق به نفوسهم، فإنهم لم يعرفوا الاستقلال القومى قط، ولعلهم لم يحلموا بمثل ذلك الأمل. وأما الاستقلال فى أمور الدين فقد ناضلوا من أجله، وجاهدوا فى سبيله، لم يثنوا عن ذلك فى وقت من الأوقات منذ مجمع خلقيدونية (٤٥١). وكانوا حريصين على بلوغ ذلك الغرض لاتغفل عنه قلوبهم، ولايحجمون عن بذل كل شىء فى سبيله مهماعظم. ذلك هو سر حوادث تاريخهم جميعاً».

ويقصد بتلر بذلك أن الشخصية المصرية شخصية سلبية تميل إلى الخضوع والاستسلام، كما أن المصريين لم يذوقوا طعم الاستقلال قط، وإن كانوا قد عرفوا الاستقلال فى مجال الدين، فناضلوا من أجله، وضحوا فى سبيله بكل غال ونفيس. ولاشك أن بتلر لم يلتزم الحقيقة والموضوعية بل لم يستطع أن يجرد نفسه من المصالح التى يأتى بها عمداً فى كتاباته. فقد أراد أن يخدم غرضاً مشوهاً بتفسيره التاريخ تفسيراً لايمت إلى الحقيقة بصلة، وهو يعنى بذلك أن مصر خلال تاريخها الطويل لم تذق طعم الاستقلال منذ آخر عصر الفراعنة. ولم يحكم المصريون أنفسهم من ذلك العصر، وهدفه من ذلك أن يبث فى نفوس المصريين الذل والخنوع والاستسلام للاحتلال البريطانى الذى نكبت به مصر فى سبتمبر سنة ١٨٨٢م. وللأسف الشديد فإن بعض الباحثين قد أخذوا برأى بتلر فى تفسيره المغرض، ناسين أن مصر ببيئتها الفريدة قد غرست فى المصريين روح الاستقلال والإحساس بانتمائهم للأرض، وهم بذلك أكثر شعوراً بالاستقلال من أى شعب آخر. ومصر خلال تاريخها الطويل لم تمت فيها روح الكفاح، وثارت على الظلم دوما.

=وبعض المدن تقدس الكلب»وكان الإغريقى والرومان الذين يفدون على مصر لمشاهدة معالمها السياحية، يقومون بجولة قصيرة فى المعابد لمشاهدة الكهنة وهم يطعمون التمساح الذى يعيش فى بحيرة مقدسة فى معبده فى آرسينوى (الفيوم)، وقد كان هذا بالنسبة لهم منظراً سياحياً، فى حين أنه بالنسبة لأهالى آرسينوى إلههم الحارس سوبك Sobk. أنظر:
Nabhtali, life iin Egypt under Roman Rule., p. 90.

(١) فتح العرب لمصر، ص ١٦٠.

فإذا رجعنا إلى الوراء، وتأملنا فى تاريخ مصر الفرعونية، وجدنا أن الهكسوس زحفوا بجموعهم من فلسطين واحتلوا مصر فى سنة ١٧٢٠ ق.م، ولكن مصر كلها لم تقع فى أيديهم. إذ لم يجرأوا على الانتشار جنوباً، بل تركزوا فى الدلتا الفنية وفرضوا الجزية على الصعيد، وأسسوا عاصمة لهم فى أواريس Ausris فى الطرف الشمالى الشرقى من دلتا النيل[١]. وتذكر المصادر التاريخية المصرية أن أجيالاً عديدة من المصريين عاشت وماتت تحت وطأة الاحتلال الأجنبى، وذاق المصريون مرارة الاستعباد حتى أنهم أطلقوا على الهكسوس الطاعون الذى ابتلوا به. وكان أن ظهر بطل التحرير أحمس فى طيبة، وقاد معظم حروبه ضد الهكسوس، وفى المعركة الفاصلة فى الدلتا استطاع أن يلحق هزيمة ساحقة بأبوفيس الثالث Apophis III آخر ملوك الهكسوس، وطردهم من الدلتا، وتعقبهم فى فلسطين حيث ألحق بهم هزيمة أخرى طوت صفحتهم من التاريخ، فاعتبر بذلك مؤسسا للأسرة الثامنة عشرة حوالى سنة ١٥٨٠ ق. م، التى تعتبر بداية العهد الإمبراطورى لمصر[٢].

وبعد ألف سنة من غزو الهكسوس لمصر، نكبت بالاحتلال الثانى على يد الآشوريين. ففى عام ٦٧٠ ق.م.، استولى الآشوريون بقيادة ملكهم آسر حدون Esarhadon على ممفيس والدلتا. ولما مات هذا الملك فى سنة ٦٦٨ ق.م. خلفه ابنه آشور بانيبال، فلم يلبث أن استولى على طيبة وقام بنهبها وتخريبها. وعانت مصر على يد الآشوريين المصاعب والشدائد. إلى أن استطاع بسماتيك الأول أمير سايس (صالحجر) الواقعة فى أعلى النيل الغربى على بعد ثلاثين ميلاً من البحر المتوسط أن يجهز جيشاً قويا من الصعيد والدلتا ومرتزقة من الاغريق، اكتسح الآشوريين فى عام ٦٥٢ ق.م. وطردهم نهائياً من مصر، ووحد مصر تحت حكمه، مؤسساً بذلك أسرة جديدة هى الأسرة السادسة والعشرين[٣].

غير أن استقلال مصر لم يدم طويلا، فقد ظهرت دولة الفرس ظهوراً قويا، وأصبحت سيدة غرب آسيا دون منازع، وكانت مصر من البلاد التى تطلعت إلى ضمها إلى ممتلكاتها. ففى ربيع سنة ٥٢٥ ق.م استطاعت الجيوش الفارسية بقيادة الملك قمبيز أن

---

(1) Asimov *Isaak), the Egyptians (U.S.A., 1967), pp. 64-69; Wood travis (4), Pharaoh to Farouk; (London, 1956), p. 7.

(2) Asimov, Op. Cit., p. 69.

(3) Asimov, O. Cit., pp. 115-116.

توقع الهزيمة بالمصريين فى الفرما (بيلوزيوم)، واجتاحت الدلتا، وضيقت الحصار على منف، حتى اضطرت حاميتها إلى التسليم، ثم توغلت جنوبا حتى وصلت إلى بلاد النوبة[1]. وعلى الرغم من أن قمبيز جعل من نفسه مصريا، واعتلى عرش الفراعنة باعتباره سيداً شرعياً، وارتدى الزى الملكى الفرعونى، وزعم أنه ابن إله الشمس رع، واعتنق الديانة المصرية، إلا أن المصريين لم ينسوا أنهم أصحاب تاريخ يمتد إلى ثلاثة آلاف سنة[2]، وتفيض قلوبهم بحب عميق لوطنهم، ويتمسكوا باستقلاله، ولايرون فى الفرس إلا عناصر شبه متبربرة لابد من الثورة عليهم وطردهم من بلادهم[3].

وكانت أولى الثورات التى رفعها المصريون ضد الاحتلال الفارسى فى عهد الملك الفارسى داريوس الأول (٥٢١ ـ ٤٨٦ ق.م) ـ إبن قمبيز ـ أعظم ملوك الفرس، ولكنه استطاع إخمادها فى سنة ٤٩٠ ق.م[4]. وفى سنة ٤٥٦ ق.م. هبت ثورة عاتية فى الدلتا بقيادة إيناروس أحد الأمراء المصريين، ولم يستطع الحاكم الفارسى أن يقضى عليها، فأسرع إلى فارس للحصول على قوات تمكنه من إخضاع تلك الثورة، فأمده الملك الفارسى أرتاكسركسيس الأول Artaxerxes I بقوات ضخمة، وقامت معركة فاصلة، فى الدلتا سنة ٤٥٥ ق.م، انتهت بالقضاء على تلك الثورة، والقبض على إيناروس، حيث جرى إعدامه، بعد أن تكبد الفرس خسائر فادحة، ودفعوا ثمنا باهظا لاسترجاع مصر[5]. على أن سنة ٤٠٤ ق.م، شهدت ثورة عارمة أشعلها المصريون ضد الاحتلال الفارسى، وفى هذه المرة بدأت تلك الثورة من أسوان، وعجز الفرس عن إخمادها، وانتهت بتحرير مصر واستقلالها، وتوحدت من جديد، ونعمت بالهدوء والطمأنينة، واستمر الحال على ذلك ستين عاما، إلى أن اعتلى أرتاكسركسيس الثالث عرش فارس، والذى صمم على استرداد مصر، فزحف على رأس جيوشه إلى مصر فى سنة ٣٤٠ ق.م، واستطاع أن يوقع بنختنبو

---

(1) Wallis Budge, Egypt under the Saites, Persians, and Ptolemies, Vol. vII, pp. 71-72 Asimov, the Egyptians, p. 133; Roges (R.W.), A Hist of the Ancient Persia (New York, 1977), pp. 77-78.

(2) Rogers, op. cit., p. 79, Marolowe (John); Four Aspects of Egypt (London, 1966), p. 151.

(3) Asimov, op. cit., p. 135.

(4) Asimov, op. cit., p. 136. Wallace Budge, op. cit., Vol, vii, p. Rogers, op. cit., p. 138.

(5) Asimov, op. cit., pp. 137-138, Wallace Boudge, vol. vii, pp. 80-83, Rogers, op, cit., pp. 174-176.

الثانى ملك مصر هزيمة ساحقة فر على إثرها إلى بلاد النوبة، وفى هذه المرة انهال الفرس على مصر نهباً وتدميرا، ويعتبر نختنبو الثانى آخر سلسلة طويلة من ملوك مصر القدية بدأت بمينا أونارمر، وقد انهى المؤرخ مانيتو قائمة أسراته الثلاثين بهذا الملك[1].

وعلى أية حال، لم تمض إلا سنوات قليلة حتى أتى الإسكندر المقدونى إلى مصر فى سنة ٣٣٢ ق.م، وأطاح بالفرس، وبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ مصر، ويذكر البعض أن البطالمة احترموا عادات المصريين، وقدموا القرابين للآلهة المصرية، ولهذا لم يقم المصريون بثورة خطيرة ضد البطالمة، مثلما فعلوا ضد الهكسوس والآشوريين والفرس[2]. والواقع أن المصريين لم تنقطع رغبتهم فى تقويض حكم البطالمة الأجنبى والسعى إل نيل استقلالهم، بسبب النظام الإقتصادى الجائر الذى وقع على كاهلهم، وقصر الامتيازات على الإغريق والمقدونيين.وبمعنى آخر، فرض البطالمة على المصريين ضرائب ثقيلة وصلت إلى حد الابتزاز دون رحمة، وعصروا الفلاحين حتى آخر نقطة فى دمائهم ، ويجدر الإشارة هنا إل إن ثروة البلاط البطلمى وبذخه وترفه كانت تأتى من حصيلة هذه الضرائب(٣)، الأمر الذى أدى إلى انتشار القلاقل والفوضى فى مصر، وإضعاف مواردها حتى وقعت فريسة سهلة فى أيدى الرومان.

ومن المعروف أن بطليموس الرابع فيلوباتور (٢٢١ ـ ٢٠٣ ق.م) قام بتجنيد المصريين فى حروبه ضد الملك السليوقى أنطيوخوس الثالث، وقد انتصر بطليموس على خصمه فى معركة رفح الشهيرة سنة ٢١٧ ق.م، بفضل بسالة المصريين، ويشير المؤرخ بولبيوس إلى أن المصريين أشعلوا الثورة ضد البطالمة بعد معركة رفح، واعتدوا بأنفسهم بعد الانتصار الحاسم الذى حققوه فى تلك المعركة، وأخذوا يبحثون عن قائد مصرى يلتفون حوله بهدف أن ينالوا استقلالهم[4]. ولم يأخذ البعض برواية بولبيوس على أساس أنه من السذاجة أن نفترض أن المصريين ثاروا لمجرد أنهم حققوا النصر العظيم فى معركة رفح، إذ من الواضح أن السبب

(1) Asimov, op. cit.,pp.139-142, Wallace Bidge, Vol, vii, pp. 109-110, Rogers, op. cit., p. 252.

(2) Asimov, the Egyptians.,p.153.

(3) Wallace Budge, Egypt under the Saits, persians and ptolemies, p. 131.

(4)Wallace (Shermon le Roy)., Census and Poll-Tax in Tiolemaic Egypt., Reprinted from the American Journal of Philology. Vol. Lix, no 4. October, 1938, p. 429.

الحقيقى لثورة المصريين يرجع إلى الضرائب الفادحة التى فرضها بطليموس الرابع على الفلاحين المصريين(١). وبعد أن مات بطليموس الرابع، وخلفه بطليموس الخامس إبيفانس اشتعلت ثورة المصريين مرة أخرى فى الدلتا والصعيد، إلى أن سحقها جنود الملك، ولكن الثورة لم تنته إلا بعد أن قدم الملك البطلمي تنازلات ثقيلة فى الضرائب(٢).

ومما يجدر ذكره أن منطقة طيبة حملت راية الثورة ضد البطالمة لبعدها عن السلطة المركزية فى الإسكندرية من ناحية، ولبقاء التقاليد المصرية الفرعونية فيها راسخة قوية من ناحية أخرى. ومما يدل على ذلك ما ذكره المؤرخ «بل»(٣) من أن منطقة طيبة بدت فى بعض الأحيان كأنها استقلت فعلاً عن حكومة الإسكندرية. ففى عام ٨٥ ق.م. اشتعلت ثورة عنيفة بهذه المنطقة، أجبرت الملك البطلمى بطليموس العاشر على الزحف بنفسه إلى طيبة عاصمة مصر أيام مجدها التليد وقام بتدميرها، وأصبحت مجرد مجموعة من القرى المتناثرة فوق الاطلال التى لانزال نراها على الضفة الغربية للنيل قبالة الأقصر.

وعندما وقعت مصر فى قبضة الاحتلال الرومانى سنة ٣٠ ق.م، عانى المصريون أشد المعاناة، وساءت حالتهم من جراء الفاقة وانعدام القوت وثقل الضرائب العديدة المفروضة عليهم، لدرجة جعلتهم لايستطيعون التحمل، فانفجر البعض منهم غاضباً، ولكن القوات العسكرية، الرومانية المحتشدة فى مصر كان بإمكانها إخماد هذا الغضب، أما البعض الآخر فقد اتسع احتجاجه الذى انتشر سريعاً فى صورة ثورات عامة على الغزاة الجدد(٤). فبعد عدة شهور من الغزوالرومانى لمصر نشبت فى الطرف الغربى من الدلتا بمدينة هيرونبوليس (تل المسخوطة) الواقعة على الطريق المؤدى إلى فلسطين، ثورة عنيفة أشار إليها المؤرخ سترابون الذى زار مصر فى صدر العصر الرومانى، وقد اتجه كورنيليوس جاللوس أول حاكم رومانى على مصر إلى مكان الثورة على رأس قوات عسكرية لإخمادها(٥).

---

(1) Ibid.,p. 425.

(2) Ibid., p. 429.

(٣) مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ص ٨٣، محمد عواد حسين: كفاحنا ضد الغزاة، ص ٨٢ ـ ٨٣.

Wllace, op. cit., p. 441.

(4) Asimov, the Egyptiams, p. 205.

(٥) إبراهيم نصحي: «مصر فى عصر الرومان»،موسوعة تاريخ الحضارة المصرية،المجلد الثانى، ص ١٨٦، عبد اللطيف أحمد على: كفاحنا ضد الغزاة، ص ١٥٤.

وقد شهدت مدينة الإسكندرية ثورات ضد الاحتلال الرومانى.ففى سنة ١٢٢م قام المصريون فى تلك المدينة بثورة فى أثناء الاحتفال بعجل آبيس الجديد، وبلغ الامبراطور هادريان (١١٧ ـ ١٣٨)، نبأ الاضطرابات فى أثناء زيارته لبلاد الغال (فرنسا)، فكاد يقطع رحلته ويعود لولا أن نائبه فى مصر استطاع أن يحشد القوات اللازمة لقطع الثورة[١]. وعندما أتى هادريان إلى مصر، وزار مدينة طيبة فى سنة ١٣٠م، وجد نفسه أمام شعب ثائر، وكتب إلى قريبه سرفيانوس، يصف زيارته لمصر: «لقد تقصيت أحوال مصر يا عزيزى سرفيانوس، التى كنت تشيد بها، فإذا هى بلاد طائشة، قلب، لاتكف عن المشاغبة.. والشعب هنا فى الإسكندرية شعب يحتدم ثورة، سليط اللسان، شديد الغرور»[٢].

وفى عصر الأمبراطور أنطونينوس بيوس (١٣٨ ـ ١٦١م) اندلعت ثورة عنيفة بمدينة الإسكندرية، لانعلم شيئاً عن أسبابها ونتائجها، فيما عدا أنها هددت بخطورة بالغة المؤن فى روما، وكلفت والى مصر الرومانى حياته(٣)، وفى عام ١٧٢م أشعل المصريون ضد الرومان ثورة أشد عنفاً من الثورة السابقة فى مستنقعات بوكوليا فى منطقة الدلتا الساحلية شرقى الإسكندرية فى عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ ـ ١٨٠م). ونحن لانعرف أسباب تلك الثورة، إلا أنه مما لاشك فيه أنها كانت ثورة قومية بحتة تضطرم بالحقد على المحتلين،وقد هيأت أحوال الإمبراطورية آنذاك الظروف لاندلاعها، وفى مقدمتها الوباء الذى اجتاحها وأظهر عجز السلطة،فى الوقت الذى سحبت فيه روما فرقة عسكرية من الفرقتين الموجودتين بمصر لمساعدتها فى قتال القبائل الجرمانية التى كانت تضغط على جبهة الداتوب[٤]. وقد تولى زعامة الثورة راهب يدعى إسيدوروس انضوت تحت لوائه جموع ضخمة من الفلاحين المسلحين،وتمكن الثوار من إيقاع الهزيمة بوحدات رومانية وبلغوا أبواب مدينة الإسكندرية، حتى كادت أن تقع فى أيديهم. وكان أن أمر الإمبراطور حاكم سوريا أفيديوس كاسوس بالتوجه إلى مصر على رأس قواته لإخماد ثورة المصريين وإعادة الأمور إلى نصابها فى مصر، ولكنه لم يجرؤ على مواجهة الجموع الغفيرة من الثوار، فلجأ

---

(١) عبد اللطيف أحمد: كفاحنا ضد الغزاة، ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) حسين فوزى: سندباد مصرى (القاهرة، ١٩٩٠)، ص ١٢٦.

(3) Asimov, the Egyptians, p. 205.

(4) Naphtali, life in Egypt under Roman Rule, p. 205

إلى حيلة المفاوضات حتى نجح فى بث الفرقة والوقيعة بين صفوف الثوار، فمزق وحدتهم، ثم قاتلهم متفرقين وانتصر عليهم[١].

وفى خلال حكم البيزنطيين، اقترنت المسيحية فى مصر بحركات المقاومة الوطنية. فقد ازدادت الكنيسة المصرية اقتراباً من الشعب، وشاركتهاآلامه ومتاعبه. ويظهر ذلك واضحاً فى كراهيتها الشديدة لكل ما هو يونانى، ووقوفها منه موقف العداء، واعتناقها المذهب المونوفيزيتى ـ أو مذهب الطبيعة الواحدة ـ المناهض لمذهب بيزنطة. ولاشك أن المسيحية أيقظت الشعور الوطنى عند المصريين،وعبرت عن شخصية مصر فى العصر البيزنطى. فقد أمد الأساقفة الشعب المصرى بقوة روحية على احتمال الاستبدادالسياسى، ولم يلبث الشعب أن سار وراء زعامته، وأظهر كراهيته لكل ما هو أجنبى، وظل وثيق الصلة بتقاليده وموروثاته الوطنية. ولذا لم تنجح الإمبراطورية البيزنطية فى جعل اللغة اليونانية لغة المصريين، الذين تمسكوا بلغتهم القبطية، وبعثت الحياة فى تلك اللغة.

وصفوة القول إن مصر لم تستسلم خلال عصورها التاريخية الطويلة للغزاة الذين اقتحموا أبوابها، ونعموا بخيراتها، واستنزفوا مواردها. وواجهت مصر الفرعونية الغزاة الهكسوس وطردتهم من أراضيها، وأشعلت الثورات والقلاقل ضد الفرس والاشوريين والبطالمة، وناهضت مصر الاحتلال الرومانى ثم البيزنطى بالتحدى الكامن فى الاعتزاز بتقاليدها وعقائدها. ولسنا بحاجة إلى القول إن الأدلة التاريخية تؤكد الثورات التى قام بها المصريون فى التاريخ الحديث والمعاصر ضد الحملة الفرنسية والاستعمار البريطانى.

---

(١) إبراهيم نصحى: «مصر فى عصر الرومان»، ص ٨٦، عبد اللطيف أحمد على: كفاحنا ضد الغزاة، ص ١٥٦ ـ ١٥٨.

الفصل الأول

مصر المسيحية

ـــ الآريوسية والأثناسيوسية.
ـــ بطريركية الإسكندرية.
ـــ مصر المونوفيزتية.
ـــ إنهيار النفوذ البيزنطى فى مصر.
ـــ فتح الفرس لمصر.
ـــ البطريريك قيرس.
ـــ قيام الرهبنة وإحياء القومية.

انتشرت المسيحية فى مصر الرومانية فى القرن الأول الميلادى، بعد أن تسربت إليها من فلسطين القريبة منها، وزاد انصارها بسرعة فى القرن التالى، وخاصة فى أواخر عهد الأمبراطور كومودوس (١٨٠ ـ ١٩٢). غير أن الرومان نظروا إلى قوة المسيحية فى مصر نظرة ارتياب باعتبارها مصدراً للفوضى وإثارة التمرد على الحكومة الرومانية ومحاولة هدم كيانها، وبعبارة أخرى رأى الرومان فى المسيحية ثورة اجتماعية تعمل على تقويض أركان المجتمع الرومانى وتقليده. وقد قامت الإمبراطورية الرومانية ببعض محاولات غير جدية ذات طابع محلى لمنع انتشار المسيحية فى القرن الثانى الميلادى، غير أن أول اضطهاد شامل وجهته الامبراطورية ضد المسيحية فى مصر بدأ فى عهد الأمبراطور دكيوس Decius (٢٤٩ ـ ٢٥١)، عندما أصدر مرسوماً فى سنة ٢٥٠م يقضى بأن يقدم أهالى مصرما يثبت بأنهم قدموا القرابين للآلهة الوثنية، بهدف الوقوف على أتباع الديانة المسيحية الذين يدفعهم إخلاصهم لها للامتناع عن تقديم القرابين للآلهة الوثنية، الأمر الذى يعرضهم للإدانة والحكم عليهم بالموت، أما أولئك الذين يقدمون القرابين، فعليهم تقديم شهادات رسمية من الحاكم تشهد بذلك. ومما يلفت النظر أن أتباع المسيحية المخلصين فى مصر لقوا أشد أنواع التنكيل، راح ضحيته عدد كبير من الشهداء، نذكر منهم جوليانوس العجوز، والصبى ديوسقوروس، والعذراء أبولوينا، ومقار الليبى، وعدة جنود، ومنهم من هرب فراراً بدينه، أما ضعاف الإيمان أو الذين أظهروا غير ما يبطنون، فقد قدموا شهادات للسلطات، تثبت أنهم قدموا القرابين والنذور وآيات الشكر للوثنية(١).

وقد بلغ الإضطهاد مداه فى عصر الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥)، ففى الصنصف الأخير من مدة حكمه شهدت مصر قلاقل ضخمة، وذلك بعد أن بلغ المسيحيون فى مصر نسبة كثيرة من السكان، وتزايد أعدادهم ولاسيما فى مصر السفلى، وقد أرادت الحكومة الرومانية فرض عبادة الإمبراطور وتأليهه وتقديم القرابين والأضحية له،ولكن المسيحيين فى مصر قاوموا هذا الإجراء بشدة، بصورة لانجد لها مثيلاً فى أى

---

(1) Milne (Grafton, M.A.), A Hist. of Egypt under Roman Rule., Vol. v. (London, 1924), pp. 69-70, Munier (H.) L'Egypte Byzantine de Diocletien a la Conquéte Arabe. (Caire, 1932), p. 9.

محمود الحويرى: رؤية فى سقوط الأمبراطورية الرومانية، ص ٦٢.

مكان آخر، وقد عرضوا أنفسهم لموجة حادة من الإضطهاد والتعذيب فى سبيل عقيدتهم. ومن الصعب علينا أن نقدر على وجه التحقيق أعداد أولئك الذين استشهدوا من جميع الطبقات فى مصر من جراء موقفهم الشجاع من الاضطهاد الدينى الذى قاده الرومان بغضب وحماقة، ولاشك أن اعدادهم كانت بالآلاف، وقد تركت بشاعة الإضطهاد أثراً عميقاً فى مصر والمصريين، حتى أن الكنيسة القبطية أطلقت على حركة الإضطهاد فى عصر دقلديانوس «عصر الشهداء» Era of Martyrs[1]. وقد اتخذت الكنيسة القبطية فى مصر والحبشة سنة ٢٨٤م التى جلس فيها دقلديانوس على عرش روما بداية للتقويم القبطى المعروف بتقويم الشهداء تخليداً لذاكراهم وجهادهم فى سبيل المسيحية.

وعلى الرغم من الإضطهادات القاسية التى تعرض لها المصريون على أيدى السلطات الرومانية، فلم يزدهم ذلك إلا تمسكاً بعقيدتهم المسيحية التى أمدتهم بقوة روحيةعلى احتمال الإستبداد الرومانى، ووجدوا فيها متنفساً لما يعانونه من ضيق اقتصادى، ولم يكد ينتهى القرن الثالث الميلادى حتى صارت مصر وطناً مسيحياً. ولاشك أن الاضطهاد الدينى العنيف الذى تعرضت له مصر على أيدى الرومان فى حقيقته صراعاً قومياً وحروب تحرير ضد الرومان، أصبحت المسيحية والقبطية فيه رمزاً وتعبيراً عن القومية المصرية[2]. وما لبث الامبراطور قنسطنطين الكبير (٣٠٦ ـ ٣٣٧)أن أصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣م اعترف فيه بالمسيحية كديانة رسمية، ووضعها على قدم المساواة مع بقية الديانات الأخرى المعترف بها داخل الإمبراطورية.

لم تكد مصر المسيحية تتخلص من اضطهاد السلطات الرومانية، حتى وجدت الفرصة سانحة فى المنازعات المذهبية لمناوأة تلك السلطات، والحفاظ على طابعها الخاص وشخصيتها. وقد اشتهر بطاركة الإسكندرية بشجاعتهم وثباتهم الوطيد على الإيمان. نحملوا راية المقاومة ضد الأباطرة والولاة الرومان، ولم تكن هذه المقاومة مجرد حركة فردية من قبل البطاركة،وإنماكانت حركات شعبية شاملة يقوم فيها البطاركة بدورالزعامة، كما كانت أحياناً حركات شعبية محضة بعيدة عن تأثير البطاركة أو قيادتهم[3].

---

(1) Milne, op. cit., Vol. v., p. 32.

(٢) جمال حمدان: شخصية مصر، جـ٢، ص ٦٢٥.

(٣) مراد كامل: «من دقلديانوس إلى دخول العرب»، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

الآريوسية والأثناسيوسية:

ظهرت شخصية مصر الدينية واضحة قوية فى الكنيسةالمسيحية فى النزاع المذهبى الذى قام بين رجلين من رجال اللاهوت فى مدينة الإسكندرية وهما أريوس وأثناسيوس. حول طبيعة المسيح أو العلاقة بين الأب والأبن، الأمر الذى كانت له نتائج سياسيةهامة أثرت تأثيراً عميقاً فى تاريخ مصر[١]. إذ نادى أريوس أن الإبن (المسيح) أقل من الأب فى الجوهر. ووضعه بين بقية المخلوقات، حقيقة قال بسمو هذا المخلوق. ولكنه وضعه بين سائر البشر، وأقرت الأريوسية أن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن. بيد أن الأثناسيوسية رفضت هذا الرأى قائلة أن الأب والإبن من جوهر واحد أو مادة واحدة «هوموأوسيوس» -Homoousios[٢]. ولما انتقل النزاع الدينى من مصر إلى غيرها من أقاليم الإمبراطورية، أراد الإمبراطور قنسطنطين الكبير وضع حد لهذا النزاع فى مرحلته المبكرة للإحتفاظ بوحدة الكنيسة،فدعا إلى عقد مجمع دينى فى نيقية سنة ٣٢٥م لإرساء قواعد الإيمان ووضع صيغة للعقيدة، وهو ما عرف بقانون الإيمان المسيحى.وقد ضم هذا المجمع ٣١٨ أسقفا فى أول مجمع مسكونى عرفته الكنيسة، كان من أبرزهم الكسندر بطريرك الإسكندرية.وفى بداية المجمع قال قنسطينين أنه لم يرغب فى شىء أفضل من أن يوجد فى وسط الأساقفة، وانه يتألم إذ يرى انقساماً وخصاماً داخل الكنيسة، وتمنى أن تبلغ الكنيسة الوحدة وتصبح قلباً واحداً وروحاً واحدة، وتهب العالم كل السلام والوئام والإنسجام[٣]. وفى هذا المجمع عرض أثناسيوس وجهة نظره، واستطاع ببلاغته ومقدرته تفنيدآراء أريوس، وانتهى المجمع إلى رفض آراء الأخير ونفيه إلى تربيه فى بلاد الغال وإدانة أنصاره بالهرطقة، ونتيجة لذلك ارتفع شأن اثناسيوس، واكتسب نفوذاً قوياً فى مصر والعالم المسيحى، وأهلته مكانته لأن يخلف الكسندر فى بطريركيته الإسكندرية بعد وفاته فى أبريل سنة ٣٢٨م[٤].

غير أن النزاع بين الأريوسية والأثناسيوسية لم يقف عند هذا الحد، فقد شرع قنسطنطيوس(٣٣٧ ـ ٣٦١) الذى خلف أباه قنسطنطين الكبير،شريكا مع أخويه

---

(1) Milne, op. Cit., Vol. v. p. 84.

(٢) انظر:محمود الحويرى: رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية،ص ٧٨ ـ ٨٠.

(٣) لوريمر (جون): تاريخ (الكنيسة) جـ٣ (القاهرة ١٩٨٢)، ص ٤٦ ـ ص٤٧.

(2) Milne. A Hist of Egypt under Roman Rule,Vol, v. p. 84.

قسطنطين الثانى وقنسطانز فى حكم الإمبراطورية، يبحث بنفسه أبوة المسيح، حتى انتهى رأيه إلى اعتناق مذهب آريوس. ومالبث قنسطنطيوس بعد أن نجح فى توحيد الإمبراطورية تحت يده، واستقرت الأموراله سنة ٣٥٣م، أن قرر طرد أثناسيوس من كرسى الإسكندرية، ولكن هذا القرار تجاهله أثناسيوس، واستمرفى أداء واجباته الدينية، وعطل تنفيذه ما يزيد على سنتين. وكان أن حشد سريانوس Syrianus قائد الحامية العسكرية الرومانية ـ وكان أريوسيا ـ قواته بمدينة الإسكندرية، وهاجم الكنيسة التى كان يؤدى فيها أثناسيوس وانصاره الصلاة، فقتل الكيرين من أفراد الشعب، ولكن أثناسيوس لم يصب بأذى، واستطاع بفضل أتباعه المخلصين أن يهرب من الكنيسة فى خلال الفوضى التى أعقبت اقتحامها، ونجح بفضل أنصاره فى الإفلات من مطاردته، وفى خلال المدة الباقية من عهد الامبراطور قنسطيطيوس قضى أثناسيوس معظم وقته مختفيا بين الرهبان أو فى أديرة مصر، وبلغت به الجرأة أحياناً أنه كان يقوم بزيارة الإسكندرية دون أن يستطيع أحد العثور عليه[١]. وقد بلغ أثناسيوس أن الأريوسيين يتهمونه بالجبن لهروبه من الاضطهاد، فكتب دفاعاً عن نفسه قال فيه: «هم يعضون أصبع الندم لأنهم لم يتمكنوا من قتلى، وها هم يلوموني على هربى غير عالمين أنه لو كان فى الهرب جناية لكان فى الاضطهاد جنايات، لقد هربت ليلا لئلا أقتل، وهم يقتفون أثرى لئلا أنجو من القتل، فليكفوا عن اضطهادى لأكف عن الهرب، وكيف لايعلمون أن فى فرارى منهم حجة عليهم»[٢].

ولما فشلت السلطات الحكومية فى القبض على أثناسيوس، اختار الأريوسيون جورج الكبادوكى بطريركا على الإسكندرية،حيث بدأ فى التو سلسلة من الإجراءات العنيفة لإرغام الناس على قبول المذهب الأريوسى، وقد استخدم القوة العسكرية فى سحق كل أولئك الذين رفضوا اعتناق مذهبه، وذلك بتعذيبهم أو قتلهم أو نفيهم[٣].

---

(1) Milne, op, cit., Vol. V., p. 88.

الباز العرينى: مصر البيزنطية، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) منسى يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية (القاهرة ١٩٨٣)، ص ١٣١.

(3) Milne, op. cit.,Vol. V., pp. 88-89.

منسى يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية ص ١٣٢، لوريمر: تاريخ الكنيسة، جـ٣، ص ٧٧، الباز العرينى: مصر البيزنطية، ص ٥٣.

وباعتلاء جوليان المرتد (٣٦١ ـ ٣٦٣) عرش الإمبراطورية الرومانية، أخذ النزاع الديني في الإسكندرية طابعاً جديداً، ذلك أنه على الرغم من العداء بين الأريوسيين والأثناسيوسيين حول العقيدة، فقد نشط أنصار المذهبين في تدمير المعابد الوثنية أو تحويلها هي وآثار الوثنيين لصالح المسيحية، دون النظر إلى العواقب الوخيمة التي ستقع عليهم من قبل السلطات االرومانية. ولكن اتباع الوثنية وجدوا في الإمبراطور جوليان الذي ارتد عن المسيحية خير سند، فصبوا جام غضبهم على المسيحيين في مصر، وانتقموا لما حل بهم على أيديهم[1]. حدث هذا في الوقت الذي نال جورج الكبادوكي كراهية أهل الإسكندرية، ويرجع السبب في ذلك إلى أنه كان قد اقترح الإمبراطور قنسطنطيوس فرض ضريبة على بيوت الإسكندرية House-tax، ومن ناحية أخرى وضع الوثنيون أمامه صورة عن معابدهم التي فقدوها على أيدي المسيحيين، وما تعرضوا له من اضطهاد على أيدي الأثناسيوسيين. ولذلك ما أن وصلت الأخبار إلى مصر بوصول جوليان المرتد إلى العرش الإمبراطوري، حتى ثار الشعب المصري في الإسكندرية ثورة عامة أدت إلى مقتل جورج الكبادوكي ومعه أثنان من كبار الموظفين الماليين[2].

ومهما يكن من أمر، فقد ظهر أثناسيوس مرة أخرى في الإسكندرية علانية، وعاد إلى كرسيه، فثار الإمبراطور جوليان، وأصدر أوامره بطرد أثناسيوس من الإسكندرية ومصر كلها، ولكن هذا الأمر لم يجر طاعته على الفور، فقد سافر وفد من الإسكندرية إلى بلاط الامبراطور على أمل أن يصرف النظر عن هذا الأمر، بيد أن الإمبراطور رفض أن يجيب الوفد إلى طلبه، ووجه اليه لوماً قاسياً على الوقوف في جانب أثناسيوس، وأصر على نفيه خارج مصر. ولكن أثناسيوس لم يغادر مصر، بل انسحب إلى طيبة في الجنوب، حيث وجد في أديرتها الملاذ من غضب جوليان، مثلما فعل من قبل مع قسطنطيوس[3].

---

(1) Milne, A Hist. of Egypt under Roman Rule,Vol, v., p. 89.
(2) Ibid., p. 89.
(3) Ibid.,p. 90.

البارز العريني: مصر البيزنطية، ص ٥٥.

وبعد مصرع الإمبراطور جوليان، تولى جوفيان (٣٦٣ ـ ٣٦٤) عرش الإمبراطورية، فأعاد على الفور للمسيحيين حقوقهم وامتيازاتهم، ووجد فيه الأثناسيوسيون خير نصير لهم،ويظهر ذلك واضحاً فى خروج أثناسيوس من مخبئه وعودته إلى كرسيه مرة أخرى. على أن حالة السلام بين المصريين والإمبراطورية لم تدم طويلا. إذ تولى ڤالنز (٣٦٤ ـ ٣٧٨) عرش الإمبراطورية، وكان أريوسيا متحمسا، فأصدر مرسوماً بنفى أثناسيوس مرة أخرى، الأمر الذى جعل أغلبية الشعب المصرى يسخط عليه، ويدخل فى نزاع معه(١). ولكن الصراع حول العرش فى عاصمة الإمبراطورية، دفع ڤالنز إلى أن يلغى مرسومه بعد أربعة شهور فقط من إصداره، ذلك أن أحد القادة العسكريين ويدعى بروكوبيوس Procopius انتهز فرصة غياب ڤالنز فى مدينة أنطاكية، وانشغاله فى التصدى للقوات الفارسية على جبهة الفرات، وأعلن نفسه إمبراطوراً قرب نهاية سنة ٣٦٥م، الأمر الذى أفزع ڤالنز. وهنا نلاحظ أن التوقيت الذى اختاره بروكوبيوس للخروج عن ڤالنز وتنصيب نفسه امبراطوراً، قصد به أن يكون متزامنا مع سخط المصريين على ڤالنز الذى تعسف فى معاملة أثناسيوس، لكى يضمن وقوف مصر دون تردد إلى جانبه، انتقاماً من ڤالنز، ونتيجة لذلك أبصر ڤالنز حرج موقفه تماماً، وخوفا من ضياع مصر، أمر بإعادة كرسيه فى أول فبراير سنة ٣٦٦م(٢)، لتهدئة ثائرة المصريين.

عاد أثناسيوس إلى الإسكندرية، وتولى الأسقفيةمن جديد،وقضى السنوات السبع الباقية من حياته فى سلام وسكون، حتى توفى فى ربيع عام ٣٧٣م، وبعد أن احتمل الكثير من اضطهاد الأباطرة للأريوسية، دون أن يخضع أويلين فى سبيل المحافظة على الإيمان المسيحى. ولعل أبلغ وصف لما قام به أثناسيوس ذلك المثل الذى اشتهر حينئذ وبقى بعده، وهو «أثناسيوس ضد العالم كله» Athanasius Contra Mundum، ويضرب ذلك المثل لمن يثبت على رأيه رغم إجماع الناس على معارضته(٣). وفى خلال الإضطهادات التى ألمت بأثناسيوس اختبأ فى مغارات الرهبان فى الجبال وفى أديرتهم فى الصحراء. وفى بيوت

---

(1) Milne, A Hist. of Egypt., p. 90.

(٢) رأفت عبد الحميد محمد: «مصر والعرش البيزنطى»،مصر وعالم البحر المتوسط،إعداد د. رؤوف عباس (القاهرة ١٩٨٦)، ص ٨٨ ـ ٨٩.

(٣) منسى يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية، ص ١٣٧.

أنصاره فى الإسكندرية. وقد كتب خلال فترة اختفائه كثيراً من المقالات للرد على الهراطقة والأريوسيين، والدفاع عن موقفه وعن مجمع نيقية، فضلاً عن رسائل التشجيع التى وجهها للرهبان[1].

وعلى أية حال، استمر الإمبراطور ڤالنز فى اضطهاده للمصريين بعد وفاة أثناسيوس، ونفى تلميذه وخليفته بطرس الثانى (٣٧٣ ـ ٣٨٠). وأهم من ذلك أن ڤالنز أصدر قانوناً جديداً يقضى بإلغاء الامتياز الذى كان ممنوحاً من قبل للرهبان ولسكان بعض المدن مثل أوكسيرنيخوس (البهنسا) والمناطق التابعة للأديرة. وهو الإعفاء من الخدمة العسكرية، ولكن الرهبان قاوموا بعنف المحاولة الرامية إلى انخراطهم فى الجيش، وجازف الكثيرمنهم بحياتهم على الالتحاق بخدمة القوات الإمبراطورية[2].

بطريركية الإسكندرية:

وفى عهد الامبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٨ ـ ٣٩٥) تلقت الوثنية ضربة قاصمة، فقد أصدر مرسوماً أعلن فيه بطلان العبادات الوثنية ومنع تقديم القرابين،وإحراق البخور، وإراقة الخمور، وممارسة الكهانة، ومعرفة الغيب، وما إلى ذلك من العادات والتقاليد الوثنية[3]، وإغلاق المعابد الوثنية ومصادرتها. ولكن الأساقفة فى مصر ذهبوا إلى أبعد من هذا، فقد جدوا فى تدمير المعابد الوثنية ومراكزها العلمية ومكتباتها، وجندوا أنفسهم لتحويل الوثنية إلى المسيحية[4]. وعقد بطريرك الإسكندرية ثيوفيلوس (٣٨٥ ـ ٤١٢) Theophilus عزمه على تنفيذ المرسوم الإمبراطورى بدقة وحزم، وقد عاونه المسيحيون والقوات الإمبراطورية، فدمر معبد ديونسيوس Dionysos وعرض الرموز المقدسة الخاصة به فى الإسكندرية، وشن هجوماً على معبد الأكربول السكندرى الشهير، فر على أثره الوثنيون بزعامة الفيلسوف أوليمبيوس[5]. وقد جرى تحويل المعابد الأخرى إلى كنائس، وأبرز مثال على ذلك ما حدث فى الإسكندريةفى سنة ٣٩١، فقد تحصن الوثنيون فى معبد

---

(1) Milne, A Hist-of Egypt under Roman Rule, Vol. :. p. 91.

(2) Ibid.,pp. 91-92.

(٣) محمود الحويرى: رؤية فى سقوطالإمبراطورية الرومانية، ص ٩٦.

(4) Milne, A Hist. of Egypt. Vol. v.,p. 95.

(5) Munier, 1' Egypt Buzantine, pp. 36-37.

سرابيوم المنيع المقام للإله سيرابيس Serapis الذى كانوا يعتقدون أنه كان يضبط ارتفاع النيل وانخفاضه. واشترك ثيوفيلوس ومعه والى مصر الرومانى فى الاستيلاء على هذا المعبد، وأتى الجند بالتمثال الخشبى للإله، فأمر ثيوفيلوس بفصل رأسه.ولما نفذ الأمر أنطلق من جوف التمثال حشد من الفئران، وجرى تحطيم التمثال وإشعال النار فيه، أما الرأس المفصول فقد حمله المسيحيون وداروا به حول مدينة الإسكندرية. ومن الطريف أنه وجد من بين المسيحيين من انزعج خوفا من أن لايرتفع النيل فى تلك السنة، ولكن البطريرك ثيوفيلوس أجابهم قائلاً: «لإن تبقى مصر بدون رى أفضل من أن يرتفع النيل بالسحر والشعوذة»[1]، وشيدت على أطلال المعبد كنيستان. أما المتحف والمكتبة الشهيرة التى أسسها البطالمة الأوائل فى عاصمتهم الوليدة آنذاك (الإسكندرية)، والتى أثراها حلفاؤهم بالكتب الأدبية والعلمية والمجموعات الرائعة من المخطوطات، فقد فقدت تلك المخلفات الثمينة منذ القرن الرابع الميلادى[2].

وعلى الرغم من المراسيم التى أصدرها الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير فى سنتى ٣٩٢ و٣٩٤م القاضية بتحريم القرابين الوثنية والألعاب الأولمبية ومصادرة المعابد الوثنية وتحويلها إلى كنائس، فإن الوثنية لم تلفظ أنفاسها، وإن كان أنصارها قد استمروا فى ممارسة عبادتهم فى سرية تامة خوفاً من المسيحيين[3]. على أنه فى خلال عهد هذا الإمبراطور، نلاحظ أن الأريوسية التى أقضت مضاجع كنيسة الاسكندرية وأرهقت قوتها حيناً من الدهر، قد أنطفأت شعلتها واختفت على وجه التقريب من أرض مصر. ويرجع الفضل فى ذلك إلى البطريرك تيموثاوس وأعوانه فى تغيير عقيدة كثير من الأريوسيين إلى العقيدة الصحيحة، تنفيذاً للمرسوم الذى أصدره الإمبراطور فى سنة ٣٨٠م، والذى جاء فيه: «نحن نريد من جميع رعايانا أن يتبعوا الديانة التى بشر بها القديس بطرس،والتى يقرها الآن البابا داماس (٣٦٦ ـ ٣٨٤) وبطرس أسقف الأسكندرية»[4].

---

(١) لوريمر: تاريخ الكنيسة، جـ٣ص ١٣٤.

(2) Milnc, A Hist. of Egypt., vol. v. p. 37.

(3) Ibid., p. 37.

(4)Ibid., p. 37-39.

ومما يجدر ذكره أن بطاركة الإسكندرية منذ ذلك الوقت سيطروا بصورة واضحة على مقدرات تاريخ مصر السياسى وتحكموا فى مسيرته. من ذلك أن البطريرك ثيوفيلوس دأب على التدخل فى السلطة المدنيةوانتحلها لنفسه، الأمر الذى يعتبر تطوراً خطيراً. إذ يعنى ذلك الاستخفاف بأوامر الإمبراطور والاستقلال عنها، وهى السياسة التى تبناها أثناسيوس وأدت إلى ثورة عامة فى العهود التالية[1]. ومما يدل على ذلك أنه عندما توفى ثيوفيلوس سنة ٤١٢م وصارت مسألة اختيار خليفة له مدار بحث، ظهر قائد الحامية الرومانية فى مصر على مسرح الأحداث فى محاولة منه للتأثير على قرار اختيار البطريرك الجديد، ولكن جهوده الرامية إلى انتصار مرشحه المفضل باءت بالفشل[2]. أما البطريرك الجديد كيرلس Cyrill (٤١٢ ـ ٤٤٤) الذى جرى اختياره فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ ـ ٤٥٠) المعروف بحبه للكنيسة المصرية، فقد تمتع بحرية واسعة فى تصريف الأمور، وأضحى له من النفوذ والهيبة ما جعل خصومه يطلقون عليه «فرعون مصر»[3].

كان كيرلس رجلاً قديراً طموحا، عارض من البداية سياسة الوالى الرومانى، مستهدفاً بذلك أن يجعل نفسه حاكم الإسكندرية الحقيقى. وقد بدأ عهده بالإنقضاض على الهرطقة، وأغلق كنائسهم، وصادر أموالهم، ثم هاجم اليهود فى المدينة، وأجرى مذبحة مريعة فيهم، مما يعنى أن اليهود منذ أيام البطالمة قد شكلوا جزءاً جديراً بالاعتبار من سكان مدينة الاسكندرية، وصارت لهم قوة بالغة التأثير. وكان كيرلس على رأس المظاهرات التى اشتعلت ضد اليهود. وتوجه بها إلى معابدهم. فهدمها رأساً على عقب، وطارد كل يهودالمدينة، ونهب أموالهم. وعندما وصلت الأمور إلى هذا الحدفى الإسكندرية رفع الوالى الرومانى أورستيز Orestes ـ وكان يميل إلى اليهود ـ شكوى إلى القسطنطينية بما فعله كيرلس، موضحاً الخسارة الاقتصادية التى منيت بها مدينة الاسكندرية وضياع الثروة العامة، ولكن دون جدوى، بل استمر كيرلس فى إنزال الأضرار باليهود دون أن يرده أحد[4].

---

(1) Ibid., p.96-97.

(2) Ibid., pp. 97-98.

(٣) مراد كامل: «من دقلديانوس إلى دخول العرب»، ص ٢١٧، السيد الباز العرينى: مصر البيزنطية (القاهرة بدون تاريخ)، ص ٦٣.

(4) Levtchenco (M.V.), Byzance des Origines A 1453, (Paris, 1949), pp. 36-37

والحقيقة أننا لانعرف سبب غضب كيرلس على اليهود والفتك بهم، ومن المحتمل أن ذلك يرجع إلى الكراهية التقليدية التى يكنها عامة السكندريين لليهود، وعلى وجه الخصوص رغبة الطبقات الدنيا فى نهب أفراد المجتمع الأغنياء. ونلاحظ أن الانفجار الذى أشعله جموع الرهبان والعامة والمشرودن،وما ترتب عليه من سرقة كبار تجار الاسكندرية الذين يعتمد رخاء المدينة عليهم أساساً. كان حدثاً لم تتوقعه السلطات الرومانية، ولهذا فقد حاول الوالى الرومانى أورستيز التدخل لإنقاذالمدينة من الفوضى التى تردت فيها، ولكن قواته عجزت عن ذلك،فأظهر الرهبان كراهيتهم له وسخطهم عليه، وهاجموه فى شوارع المدينة. وأصيب بجرح، ولم ينج إلا بعد عناء شديد، وبذلك واصل كيرلس انتصاراته[1]، دون أن يكترث بالوالى البيزنطى.

وقد حاول كيرلس أيضا القضاء على المدارس الفلسفية الوثنية التى دأب فلاسفتها ومفكروها على مهاجهة الكنيسة بشدة . وكانت هيباتيا Hypatia الشخصية البارزة لافكار تلك المدارس . وقد ولدت هيباتيا فى الاسكندريه فى سنه ٣٧٠م ودرست الرياضيات والفلسفة فى شبابها، وورثت عن أبيها المشهور نيون مواهبه التعليمية، ونالت شهرة واسعة فى الشرق كله، وظلت مخلصة للهللينستية التى كان يطلق عليها آنذاك الوثنية، وكان أن اتهمهاالرهبان الثائرون بالسحر والوثنية، وفى مارس سنة ٤١٥م قبض عليها بعض الرهبان وقادوها إلى كنيسة قيصريوم Caesareum حيث قتلوها شر قتلة، ولم يستطع الوالى الرومانى فرض حمايته عليها وإنقاذها من مصيرها. ونتيجة لذلك أرسل الامبراطور مبعوثاً خاصاً لبحث هذا الموضوع، فاضطرالبطريرك كيرلس إلى تخفيض عدد فرقة الرهبان المهتاجين الذين يعرفون بإسم Parabolans، وأيضاً الإخوة العلمانيين الذين استخدموا أداة للعنف والفوضى،ولكنه لم يلبث أن جندهم فى العام التالى (٤١٦م) بعد أن نسى الناس مقتل هيباتيا[2].

والواقع أن مصرع هيباتيا على الصورة التى ذكرناها، لم يخمد أنفاس الوثنية فى الاسكندرية، ذلك أننا نلتقى فى آخر الخامس الميلادى بنخبة من الأساتذة والفلاسفة

(1) Milinc, A Hist. of Egypt., Vol., p. 98.

(2) Ibid., pp. 98-99, Levtcheko, op. Cit., p. 37.

السيد الباز العرينى: مصر البيزنطية، ص ٢٧٧ ٢٧٨.

الوثنيين، رجالا ونساء، وكرسوا حياتهم لدراسة الفلسفة[1]، وقدموا لنا مختارات من كتب المؤلفين القدامى. كما ظلت بعض المعابد الوثنية قائمة فى أقاصى الصعيد، وخاصة فى جزيرة فيلة، التى أصبحت بمثابة المعقل الأخير لمن كتب لهم النجاة من موجات النقمة على الوثنية، غير أن الإمبراطور جستينان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) أرسل قوة إلى جزيرة فيلة، حيث حطمت معبدها الخاص بإيزيس، وألقت القبض على الكهنة هناك، وتم إرسالهم مع كنوزهم وتماثيلهم إلى القسطنطينية.

النسطورية:

وفى منتصف القرن الخامس الميلادى أخذ النزاع بين الكنائس المسيحية صورة جديدة، فلم يعد يدور حول الطبيعتين الإلهية والبشرية التى حددها مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، بل حول شخص المسيح. ذلك أن مدرسة أنطاكية بحثت فى كلمة الله المتجسدة وهى الصلة بين البشر والله، وأقرت أن المسيح له طبيعتين واضحتين، وجعلت تلك المدرسة الطبيعة البشرية هى الغالبة فى المسيح، وقالت إن المسيح بشر استقرت فيه الألوهية، وأن مريم ليست «أم الله» أو Theotokes، ولكنها أم المسيح البشر، الأمر الذى جعل تلك المدرسة تصطدم برأى آباء الكنيسة المجمع عليه. وقد حدث أن راهباً من أنطاكية من تلاميذ تلك المدرسة يدعى نسطوريوس أعتلى كرسى بطريركية القسطنطينية فى سنة ٤٢٨م، وراح ينشر آراء تلك المدرسة بحماس شديد ومهارة فائقة[2].

ولما وصلت أفكار أنطاكية إلى الإسكندرية وتأثر بها بعض الرهبان ورجال الدين. دخل كيرلس فى معركة عنيفة ضد نسطوريوس حول كلمة أم الله، مثلما فعل سلفه أثناسيوس عندما أوضح أن الأب والأبن من جوهر واحد Homoousios. وقد اعتبر كيرلس قول نسطوريوس بدعة وهرطقةلاهوتية، وجرى تبادل الرسائل بين البطريركين، ولكن نسطوريوس تمسك برأيه[3] وأصدر قرار الحرمان ضد كيرلس. واستمال نسطوريوس إلى جانبه يوحنا

(1) Bill (H.I.) "Egypt and the Byzantine Empire" in the Legacy of Egypt.,(ed. by S.R.K. Glanvill, (London, 1942), p. 42.

السيد الباز العرينى: المرجع السابق، ص ٢٧٧.

(2) Munier, I Egypte Byzantine, pp. 42-4, Diehl (Charles) Histoire de L'Empire, Byzantine, (Paris, 1920), pp. 11-12.

(3) Munier, op. cit., p. 44.

أسقف أنطاكية، واعتمد على ما لقيه من عطف الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ ـ ٤٥٥)، ثم تحدى كيرلس علانية واتهمه بالعناد وبأنه يقوم فى مصر بدور فرعون[١]. وكان أن كتب كيرلس رسالة إلى بابا روما سلستين الأول Celestin يفند فيها آراء نسطوريوس ويطلب منه رأيه، فوقف البابا إلى جانب كيرلس، وأعلن إدانة نسطوريوس واعتبر آراءه هرطقة. ولم يلبث كيرلس أن عقد مجمعا فى الإسكندرية أعلن فيه إدانة نسطوريوس ورماه باثنى عشر لعنة،ولكن نسطوريوس لم يأبه لذلك، ورد على التهم التى وجهها إليه كيرلس بأن رماه باثنى عشر لعنة. وحسماً للخلاف دعا الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى إلى عقد مجمع دينى فى عيد العنصرة ٧ يونيو سنة ٤٣١ بمدينة أفسوس بآسيا الصغرى ـ وهو المجمع المسكونى الثالث ـ لإصدارقرار فى هذا. وتوجه كيرلس إلى مكان المجمع ومعه مؤيدوه من الرهبان والأساقفة المتحمسين المدججين بالسلاح، وقدم نسطوريوس وأتباعه إلى المجمع متأخرين، وقد حكم المجمع بإدانة نسطوريوس المسيحى، وهنف كرسى البطريريكة. وسرعان ما علت الفرحة شاملة فى جميع أنحاء العالم المسيحى، وهتف الناس باسم كيرلس فى شوارع العاصمة،وسمعت الصيحات مدوية بالفرح: «يعيش أسم كيرلس دوما، ويحيا إسمه أجيالا بعد أجيال»[٢].

ولاشك أن النصر الذى أحرزه كيرلس على خصمه، قد علا من شأنه، ومكنه من تدعيم كنيسة الإسكندرية، حتى اتخذ المصريون لأنفسهم لقب الأثوذكس، بمعنى أصحاب العقيدة الصحيحة. وقد وقفت إلى جانب كيرلس الكنيسة الكاثوليكية الممثلة فى بابا روما خليفة القديس بطرس الذى عهد إليه المسيح برعاية أتباعه العديدين. وهكذا حقق بطاركة الإسكندرية العظام أثناسيوس وثيوفيلوس وكيرلس النصر لكنيسة الإسكندرية، وقد أثمرت اخيراً قيادتهم لها، وحققوا زعامة الإسكندرية على القسطنطينية. ومن الطبيعى أن تلك السياسة التى سار عليها أولئك البطاركة، قد حركت فى المقام الأول الشعور الوطنى للمصريين، وألهبت كراهيته للاحتلال البيزنطى[٣].

---

(١) مراد كامل: «من دقلديانوس إلى دخول العرب» ص ٢١٨.

(2) Munier, op. cit., p. 44.

لوريمر: تاريخ الكنيسة، ـ٣ ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

(3) Munier, L'Egypte Byzantine., pp. 44-45.

مصر المونوفيزتية:

توفى كيرلس فى سنة ٤٤٤م بعد جهد شاق فى الدفاع عن الكنيسة المصرية والسهر على مصالحها، ووقع اختيار الكنيسة وأتباعه على ديوسقورس (٤٤٤ ـ ٤٥٤) Dioscorus ليكون بطريركا على كرسى الإسكندرية، فبدأ عهده بجو من الهدوء والألفة، وأجهد نفسه فى ملء خزانة البطريركية بعد أن كانت خاوية،واستطاع أن يكسب إلى صفه العديد من الأتباع بتوزيع الهبات عليهم[1].

وفى تلك الأثناء ظهر راهب فى القسطنطينية يدعى إيوتيخيوس (أوتيخا) Eutyches (٣٧٨ ـ ٤٥٤) أقلق بال الإسكندرية، إذ اعتنق مبادىء كيرلس، ولكنه أضاف بقوله إنه كانت هناك طبيعتان للمسيح قبل التجسد طبيعة إلهية وطبيعة بشرية، ولكن بعد التجسداتحدت الطبيعتان معا حتى أصبح للمسيح طبيعة واحدة فقط هى الطبيعة الإلهية، وبمعنى أخر أن الطبيعة البشرية فى المسيح تلاشت فى طبيعته الإلهية كما تتلاشى تماما نقطة خل فى المحيط، ومن ثم أصبح للمسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة الآلهية. وهوما يعرف بالمذهب المونوفيزتى أو مذهب الطبيعة الواحدة Monophsitism[2].

وعارض بطريرك القسطنطينية فلاڤيانوس مذهب الطبيعة الواحدة، إذ نادى بطبيعتين فى المسيح بعد الاتحاد، وتقرر استدعاء أو تيخا لحضور مجمع محلى بالقسطنطينية فى نوفمبر سنة ٤٤٨م للنظر فى ذلك، فلما حضر قرر بأن للمسيح طبيعتين قبل تجسيده، ثم صار للمسيح طبيعة واحدة بعد تجسيده، ولايمكنه أن يتحدث عن طبيعتين بعد الاتحاد، وأنه يتمسك فى ذلك بإيمان أثناسيوس وكيرلس، ومن ثم فقد قرر المجمع إدانته وعزله[3]. وقد ديوسقورس بطريرك الإسكندرية إلى جانب أوتيخا، أما بابا روما ليو الأول (٤٤٠ ـ ٤٦١)، فقد وقف اقتنع بأن فلاڤيانوس كان مصيبا فى قراره، بينما كان أوتيخا مخطئا[4].

---

(1) Ibid.,p. 46.
(2) Ibid., p. 46.

لوريمر:تايرخ الكنيسة، جـ٣، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.
(٣) الباز العرينى: مصر البيزنطية، ص ٧٠ ، سعد قوسة سعد: أمجاد العصر القبطى. مراجعة الأنبا اغريغوريوس (القاهرة ١٩٧١)، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٤) الباز العرينى: المرجع السابق، ص ٧٠ ـ ٧١.

وعندما زادت حدة الخلاف حول مذهب الطبيعة الواحدة، دعا الامبراطور ثيودوسيوس الثانى إلى عقد مجمع كنسى - وهو المجمع المسكونى الرابع - فى مدينة إفسوس Ephesus فى ٨ أغسطس سنة ٤٤٩م، واسند رئاسته إلى ديوسقورس بطريرك الإسكندرية، وفى هذا المجمع الذى أطلق عليه بابا روما مجمع اللصوص،قرر المجتمعون تبرئة أوتيخا من الهرطقة التى نسبت إليه وأثبت صحة إيمانه، وتقرر عزل فلاڤيانوس بطريرك القسطنطينية الذى أدان أوتيخا، وبذلك أحرزت كنيسة الإسكندرية نصراً هائلاً[١].

وفى السنة التالية (٤٥٠م) مات الامبراطور ثيودوسيوس الثانى وخلفه على عرش الإمبراطورية مارقيان (٤٥٠ - ٤٥٧)، وهو جندى قدير، تزوج من أخت سلفه بولكريا Pulcheria. وقد حاول هذا الإمبراطور القضاء على الخلاف الدينى الذى هدد وحدة الامبراطورية. فدعا إلى عقد دينى فى أكتوبرسنة ٤٥١م فى مدينة خلقدونية على الشاطىء الاسيوى للبوسفور لقربها من القسطنطينية. وقرر هذا المجمع إدانة بطريرك الإسكندرية ديوسقورس وعزله ونفيه إلى جانجرا فى بافلاجونيا بآسيا الصغرى، وندد بقرار مجمع إفسوس المعروف بمجمع اللصوص، وأنكر المجمع مذهب الطبيعة الواحدة، ونادى بوجود المسيح فى طبيعتين مستقلتين غير منفصلتين إلهية وبشرية، وأن خلاص البشر أتى عن طريق منقذ Savior له كل صفات الألوهية وكل صفات الإنسان[٢]. ولذلك عرف مذهب الطبيعتين بالمذهب الملكى أو الملكانى أو المرقيانى نسبة إلى الإمبراطور مرقيان.

وكان لقرارات مجمع خلقيدونية نتائج بالغة الأهمية فى التاريخ البيزنطى، فقد أدت تلك القرارات إلى إتساع فجوة الخلاف بين الإمبراطورية البيزنطية وأقاليمها الشرقية، مثل الشام ومصر، حيث ساد مذهب الطبيعة الواحدة، فى الوقت الذى ازدادت العلاقات بين الإمبراطورية وكنيسة الاسكندرية توتراً، ووجد المصريون فى الخلاف الدينى سبيلا للخروج على بيزنطة والقيام بحركات مقاومة ضدها[٣].

---

(1) Ostrogorsky (Horge), History of the Byzantine State (U.S.A., 1969), p. 59.

(2) Ibid.,pp. 59-60., Mongo (Cyril), Byzantium. the Empire of the new Rome (London, 1980), p. 95.

لوريمر: تاريخ الكنيسة، جـ٣، ص ٢٢٦.

(3) Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine state., p. 60.

وعلى أية حال، بعد أن عزل ديوسقورس فى مجمع خلقيدونية، عين الامبراطورمرقيان مكانه بطريركا من أصحاب مذهب الطبيعتين يدعى بروتيريوس Proterius، وعهد إليه بتولى أمر الكنيسة المصرية أثناء غيابه فى مجمع خلقيدونية، ولكنه وافق على قرارات هذا المجمع[1]. وقد رفض الشعب المصرى البطريرك الجديد، واعتبروه خائنا للكنيسة ووطنه، وثاروا ضده ثورة عارمة، حتى اضطرت القوات الامبراطورية التى صاحبته إلى تمكينه من دخول الكنيسة، وأخذت فى مطاردة زعماء الشعب من الرهبان فى معبد سرابيس القديم، حث احترقوا هم ومن كانوا فى المعبد. على أن بروتيريوس لم يبق فى منصبه طويلا، إذ استغل الاسكندريون فرصة استدعاء قائد الحامية الرومانية إلى مصر العليا، وثاروا ضده ثورة عنيفة انتهت بقتله والتمثيل بجثته أشنع تمثيل، وأقاموا بدلا منه راهبا مونوفيزتيا يدعى تيموثاوس الثانى إيلورس بطريركا عليهم فى سنة ٤٥٧م، وذلك قبل أن يعود القائد إلى الإسكندرية. بيد أن الإمبراطور ليو الأول (٤٥٧ ـ ٤٧٤) رفض الاعتراف باختيار تيموثاوس الثانى بطريركا على الإسكندرية، وعين مكانه بطريركا على مذهب الطبيعتين هو تيموثاوس سالوفسيولس Timothy Salophaciolusسنة ٤٦٠م، أماتيموثاوس الثانى فقد أصدر الإمبراطور أمراً بنفيه[2].

وبعد وفاةالإمبراطور ليو الأول سنة ٤٧٤م، حدثت متاعب فى القسطنطينية حول العرش البيزنطى، انتهت بوصول زينون (٤٧٤ ـ ٤٩١) إليه. واستتبع ذلك أن عاد البطريرك تيموثاوس الثانى من منفاه إلى بطريركيته فى الإسكندرية، وظل فى منصبه حتى وفاته عام ٤٧٤م. وعندئذ قام الإسكندريون باختياربطرس الثالث المعروف باسم بطرس مونجوس بدلا منه فى منصب البطريركية، ولكن الإمبراطور قام بعزله ونفيه وأعاد بدلا منه تيموثاوس سالوفاسيولس فى سنة ٤٨٢م. ولم يلبث هذا البطريرك أن توفى، وتبع ذلك أن ظهرت مشكلة جديدة بسبب اختيار الشعب المصرى ليوحنا التبنيسى John of Tabenna لمنصب البطريركية. إذ سبق ليوحنا أن أوفد إلى القسطنطينية ممثلا للكنيسة المصرية، وسأل الإمبراطور زينون يأن يأذن للمصريين فى حق اختيار بطريركهم فى المستقبل، دون تدخل من

---

(١) الباز العرينى: مصر البيزنطية، ص ٧٦، منسى يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية، ص ٢٣٩.

(٢) الباز العرينى: المرجع السابق، ص ١٤٩.

Milne, A Hist. of Egypt under Roman Rule., pp. 101-102.

السلطات البيزنطية، بيد أن زينون طلب إليه قبل أن يمنحه الامتياز المطلوب أن يقسم على أنه سوف لايشغل منصب البطريركية إذا عرض عليه. ونتيجة لذلك بعث الإمبراطور إلى واليه فى مصر برفض اختيار يوحنا التبنيسى لمنصب البطريركية، طالما أنه أخل بقسمه، واستدعاء بطرس الثالث الذى اختاره كنيسة الإسكندرية لشغل هذا المنصب[١].

وقد حاول الإمبراطور زينون التوفيق بين أصحاب مذهب الطبيعة الواحدةوبين أصحاب مذهب الطبيعتين، فنشرفى يوليو سنة ٤٨٢، وبموافقة بطريرك القسطنطينية أكاسيوس Acacius مرسومه الشهير المعروف باسم هينوتيكون Henotikon أو مرسوم الاتحاد (الوحدة)، واعترف هذا المرسوم بقرارات المجامع المسكونية الثلاث الأولى السابقة لمجمع خلقيدونية، وهى نيقية والقسطنطينية وإفسوس، وقد تحاشى هذا المرسوم ذكر تعبير «مذهب الطبيعة الواحدة»، كمحاولة لإيجاد حل وسط الغرض منه إعادة الهدوء إلى مختلف الكنائس. والواقع أنه كان من الصعب الوصول إلى أى توفيق فى المسائل الدينية،لأن المرسوم لم يرض أتباع مجمع خلقيدونية، ولا أتباع المونوفيزتية، ومن ثم زاد الخلاف بين الفريقين. وفضلا عن ذلك أعلن بابا روما رفضه لمرسوم الاتحاد، وأصدرقرار الحرمان ضد بطريرك القسطنطينية، فرد الأخير على هذا بأن ذكر إسم البابا من الشعائر الدينية، الأمر الذى أدى إلى شقاق بين روما والقسطنطينية استمر أكثر من ثلاثين عاما[٢].

وجاء بعد زينون الإمبراطور أنستاسيوس الأول (٤٩١ ـ ٥١٨)، وفى اليوم الأول من اعتلائه عرش الإمبراطورية وجد المشكلة الدينية على أشدها، فأعلن أنه من أنصار مذهب الطبيعتين، وإن كان فى حقيقته متحمسا للمونوفيزتية، ولكنه أظهر تدريجيا سياسته، المونوفييزتية، إلى أن أعلن تأييده لها سنة ٥١٠، فكان ذلك مصدر فرح كبير للأقباط فى مصر والسوريين[٣].

ولما تولى جستين الأول (٥١٨ ـ ٥٢٧) عرش الإمبراطورية البيزنطية،كان على كرسى البطريركية الإسكندرية تيموثاوس الثالث (٥١٧ ـ ٥٣٥). وقد حاول هذا

---

(1) Ibid., p. 102.

(2) Ostrogorsky. Hist of Byzantine State., p. 64., Frend (W.H.C.)., in Relation between East & West in the Middle Ages. ed. by Ferek baker (London, 1972), pp. 17-18.

(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 66, Mango, Byazantium, p. 96.

الإمبراطور إرغام كنيستى الإسكندرية وأنطاكية على قبول مذهب الطبيعتين. فلما رفض ساويرس بطريرك أنطاكية نفاه عن كرسيه، فجاء إلى مصر، وظل فيها هاربا من أعين السلطات الرومانية، يتنقل من مدينة إلى مدينة، ومن دير إلى دير،محاطا بمحبة المصريين الذين قبلوه كزعيم معلم فى الكنيسة، وظل هو من جانبه يشجعهم ويثبتهم فى الإيمان. كما أخذ هذا الإمبراطور يضطهد تيموثاوس بطريرك الإسكندرية وأمر بنفيه، وجرت بسبب ذلك مذبحة مروعة راح ضحيتها الآلاف من الأقباط الذين حاولوا حماية بطريركهم من أيدى الجنود الرومانيين، ولكنهم تمكنوا من القبض عليه وتم نفيه، وبقى فى منفاه ثلاث سنوات رجع بعدها إلى كرسيه، واستمر مدافعا عن الإيمان بالاشتراك مع ساويرس بطريرك أنطاكية فى عهد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥).

انهيار النفوذ البيزنطى فى مصر:

وعندما تولى جستنيان عرش الإمبراطورية البيزنطية لم يستطع أن يتخذ موقفا حازماً أو سياسة ثابتة من مشكلة المونوفيزيتية.ذلك أن سياسته الرامية إلى مدنفوذ الإمبراطورية على الغرب الأوربى واسترداد الأراضى التى انتزعها الجرمان فى الغرب، جعلته ينزل على رأى البابوية والقول بمذهب الطبيعتين، الأمر الذى زاد عداء مصر وبلاد الشام للإمبراطورية البيزنطية من ناحية، وأعطى دفعة جديدة لما يحمله الأقباط وسكان بلاد الشام من ميول انفصالية عن تلك الإمبراطورية من ناحية أخرى. وكان من الواضح أن السلام مع الغرب الأوروبى لايمكن أن يتم إلا على حساب الشرق، وبالمثل فإن أى اقتراب من الكنائس المونوفيزيتية فى مصر وبلاد الشام،يعنى وجود فجوة فى العلاقات مع البابوية والأقاليم البيزنطية فى الشرق التى تدين بمذهب الطبيعتين[2].

وقد حاول جستنيان أن يجد حلالا لمشكلة المونوفيزيتية، فبعد وفاة بطريرك الإسكندرية تيموثاوس الثالث فى سنة ٥٣٥م، خلفه ثيودوسيوس الأول (٥٣٥ ـ ٥٦٧)، فعرض عليه الإمبراطور أن يقبل المذهب الخلقيدونى (مذهب الطبيعتين)، ويساعد على نشره، ووعده فى

---

(١) مراد كامل: «من دقلديانوس إلى دخول العرب»، ص ٢٢٣، منسى يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية،ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(2) Ostrogorsky, p. 78.

مقابل ذلك أن يمنحه كرسى البطريركية والولاية فى مصر، ويكون جميع أساقفة إفريقية تحت طاعته،وهدده بأنه إذا لم يطع أوامره بالخروج من الكنيسة والمضى إلى حيث يشاء. فرفض ثيودوسيوس الأول التخلى عن مذهب الطبيعة الواحدة، وقال لرسل الإمبراطور: «ليس لمولاكم سلطان إلا على جسدى الفانى، ولكن نفسى فى يد مخلصى، ومهما أردتم فافعلوه، وأما أنا فأتبع إيمان آبائى»، وترك كرسيه واتجه إلى الصعيد. وعندئذ أرسل الإمبراطوريدلا منه بطريركا ملكانيا ـ أى تابع للمذهب الخلقيدونى ـ هو بولس التبنيسى (٥٣٦ ـ ٥٣٩) ليتولى كرسى الإسكندرية. فلما وصل بولس لم يقبله المصريون وأطلقوا عليه لقب «يهوذا الخائن»[١]. أما البطريرك ثيودسيوس الأول، فقد أقام فى المنفى بقية حياته. واستخدم بولس التبنيسى ضد المصريين من وسائل الإضطهاد ما لم يستخدمه إلا الأباطرة والحكام الوثنيون، فصار يلقى بالمصريين فى الحمامات ليكونوا وقوداً لتسخين مياهها[٢]. ومنذ ذلك الوقت اعتاد المصريون على مشاهدة بطاركة ملكانيين تابعين للحكومة البيزنطية.

وخلف جستنيان على حكم الامبراطورية جستين(٥٦٥ ـ ٥٧٨)، وقد اشتهر بالتسامح، وحاول فى أول الأمر التخلى عن سياسة سلفه، فأعلن فى مستهل حكمه «إن الله لايجيز لنا أن نلقى القبض على أحد، أو نقذف به فى السجن من أجل العقيدة الدينية». على أنه حين مات بطريرك الإسكندرية المونوفيزيتى ثيودوسيوس فى منفاه، وأراد المصريون اختيار خليفة له، عارض جستين الثانى أشد المعارضة فى أن تعود البطريركية المونوفيزيتية، ولم يلبث أن بعث إلى مصر من قبله رسولا اسمه فوتين Photin، وعهد إليه أن يعيد الهدوء فى كل كنائس مصر والإسكندرية، ومنحه سلطات استثنائية ضخمة.على أن جستين الثانى لم يكن موفقاً فى اختيار هذا الشخص للقيام بهذا العمل، لما اشتهر به من الجشع والقسوة. ولما فشل جستين فى استمالة المونوفيزيتية، لجأ فى سنة ٥٧١م إلى اتخاذ وسائل العنف لقمعهم، فاستأنف الإضطهاد ضد المصريين[٣].

---

(١) مراد كامل:المرجع السابق، ص ٢٢٣، منسى يوحنا: المرجع السابق، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٢) الباز العرينى: مصر البيزنطية، ص ٣٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٦٧.

أمـا تيـبـريوس الشـانى (٥٧٨ ـ ٥٨٢) الذى خلف چسـتين الشـانى على عـرش الإمبراطورية البيزنطية، فقد اتخذ سياسة أكثر تسامحاً، واستغل المونوفيزيتيون هذه الصفة لاستعادة نفوذ كنيستهم. ففى شهر أغسطس سنة ٥٧٥م قام أثنان من كبار رجال الكنيسة المونوفيزتية بالإسكندرية بدعوة لونجينوس Longinus أسقف كنيسة النوبة للقدوم إلى مصر للاشتراك فى اختيار بطريرك جديد، فوافق لونجيبنوس على ذلك وقدم سراً إلى مريوط. ورشح لهذا المنصب راهب يدعى تيودورس، كان ينزل بأحد الأديرة فى صحراء ليبيا، واشتهر بالزهد والتقشف فتقرر تنصيبه بطريركا. غير أن أهل الإسكندرية ورجال الدين بها عارضوافى ذلك أشد المعارضة، لأنه لم يشترك فى عملية الانتخابات إلا جماعة قليلة العدد، ولأن الانتخاب تم سراً. ولأنه لم تجر استشارتهم فى ذلك، واعتبروا ذلك انتهاكاً لقوانين الكنيسة، فاضطرب الناس وطالبوا بانتخاب بطريرك جديد، فولى البطريركية راهب اسمه بطرس كان زميلا للبطريرك ثيودوسيوس فى منفاه. ومن أقرب الناس إليه، أما تيودورس فقد رأى أنه من الخير أن يتنازل عن ترشيح نفسه حتى لايثير الشقاق والنزاع[١]. وعلى الرغم من أن نفوذ البطريرك الجديد الذى عرف باسم بطرس الرابع تضاءل أمام نفوذ البطريرك الملكانى بالإسكندرية، حتى اضطر أن يقيم بدير يبعد تسعة أميال عن الإسكندرية، فإن عودة البطريركية المونوفيزتية تعتبر فى حد ذاتها أمراً هاما[٢].

وجاء بعد بطرس الرابع البطريرك دميان (٥٧٨ ـ ٦٠٠)، وذلك بفضل ماالشتهر به من الذكاء والحماس والشجاعة والنشاط. فصار يتردد إلى الإسكندرية، ويكثر الاقامة بها، ويعقد بها المجامع الدينية، ويعظ فى الكنائس. وحرص دميان على أن يعيد لكنيسة الإسكندرية هيبتها، متحدياً بذلك الملكانيين أنفسهم، واهتم أيضاً بالعمل على إعادة الوحدة للكنيسة المونوفيزتية، ولذلك اشتد فى مهاجمة المذاهب المخالفة لها، كل ذلك أعاد لكنيسة مصر القوة والحيوية والرخاء، وازدهرت فى عهده أيضاً الأديرة[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٦٨.

(٢) المرجع السابق والصفحة.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٦٩.

على أن الكنيسة الملكانية ظلت أيضا قوية، ذلك أن رجال الدين الملكانيين شغلوا كل كنائس الإسكندرية ومعظم الكنائس الأخرى، بينما لم يكن للمونوفيزيتية مقر لبطريركتهم في المدينة. واشتهر زعماء الكنيسة الملكانية أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع بحرصهم على رفع شأن كنيستهم[1]. ومن البارزين فيهم حنا المتصدق (٦١٢ ـ ٦١٩) John of the Almoner . وقد أطلق عليه ذلك اللقب لما كان يأتيه من أعمال البر والإحسان ، ولكن كرمه لم يكن عبثا، إذ كان يبعث من حوله ليجوسوا خلال المدينة فيأتوه بخبر «سادته ومساعديه»، فلما سألوه عما يعنيه بقوله أجاب قائلا: «أقصد من تسمونهم أنتم الفقراء والمساكين» وأسميهم أنا «السادة والمساعدين» لإنهم في الحق يساعدونا ويمنحونا ملكوت السموات»، وعلى هذا كان يقوم بإطعام سبعة آلاف وخمسمائة فقير في الإسكندرية[2].

ومن خلال سيرة يوحنا المتصدق نجد أن كنيسة الإسكندرية تتمتع بمكانة قوية، وهو قبرصي من أسرة بارزة، عينه الإمبراطور هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١) على كنيسة الإسكندرية، ليضع حداً لمشاكل الكنيسة المصرية والقضاء على المونوفيزتية، ويبدو أنه أحرز نجاحاً كبيراً في ذلك. وكان يوحنا رئيسا لجهاز بيروقراطي ضخم يشمل عدة مئات من الموظفين، ووقف نفوذه على قدم المساواة مع نفوذ الوالي الروماني في مصر. وكان للكنيسة الملكانية في عهده أراضي زراعية تغل عليها إيراداً كبيراً. بالإضافة إلى أنها كانت تتلقى الهبات الضخمة من الناس. ويفضل الموارد المالية التي كانت في أيدي البطريرك الملكاني يوحنا المتصدق، كانت الكنيسة تملك أسطولاً تجاريا للتجارة مع الغرب الأوربي[3]، وقيل إن إحدى سفن ذلك الأسطول ساقتها الريح عن طريقها وعليهاعشرون ألف مُدٍّ من القمح، فبلغت سواحل بريطانيا وكان بها قحط شديد، ثم عادت تحمل من هناك القصدير فباعه البيزنطيون في بنطابوليس في غرب مصر. كما أن ثلاث عشرة سفينة كان يحمل كل منها عشرة آلاف مد من القمح، ضاع كل ما فيها في البحر الإدرياتي في أثناء عاصفة، وكانت

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٦٩.

(٢) بتار: فتح العرب لمصر، ص ٤٤ ـ ٤٥.

(3) Mango, Byzantim., pp. 37-38.

لها ملكا للكنيسة وتحمل عدا القمح حمولة أخرى من الفضة والمنسوجات وغير ذلك من المتاح الثمين[١].

فتح الفرس لمصر:

وفى تلك الأثناء كانت الإمبراطورية البيزنطية تمر بحالة بالغة الضعف، وفى حالة يرثى لها، فقد سادتها الفوضى والفتن والاضطرابات، وكادت خزائنها أن تكون خاوية من المال. وفى أوائل القرن السابع الميلادى تدفقت جموع كبيرة من الصقالبة والأثار فى انحاء شبه جزيرة البلقان، واجتاحت جيوش الفرس الساسانيين كثيراً من أراضيها، وأخذوا يتوغلون فى الشرق الأدنى. وتطلعت فارس إلى انتزاع الشام ومصر من الإمبراطورية البيزنطية لتحقق لنفسها الزعامة الاقتصادية والتجارية فى شرق البحر الأبيض المتوسط. فبعد أن استولى الفرس على أنطاكية التى تعتبر من أكبر المدن فى الأقاليم الشرقية للإمبراطورية فى سنة ٦١٣م. زحفوا جنوبا خلال سوريا وفلسطين، واستولوا على بيت المقدس بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع فى سنة ٦١٥، وجعلوا المدينة نهبا للحرائق والقتل. ثم أخذ الفرس الطريق المألوف لغزو مصر أغنى ولاية فى الإمبراطورية البيزنطية فى خريف ٦١٦م، فاستولوا على الفرما (بيلزيوم)، ثم اخترقوا الجانب الشرقى من الدلتا إلى بابليون، ويبدو أنهم لم تقابلهم أية مقاومة خطيرة، حتى وصلوا إلى أسوار مدينة الإسكندرية، وقد ظلوا هناك بضعة شهور، خربوا خلالها الأماكن المحيطة بالمدينة وأعملوا فيها النهب والسلب، ولكنهم عجزوا عن الاستيلاء عليها لمناعتها وحصانتها، على أن جماعة من الفرس نجحت بمساعدة خائن فى الاستيلاء على أبواب المدينة ليلا، فانسحب الوالى والبطريرك الملكانى يوحنا (المتصدق) بعد أن أدركا استحالة وصول أى مساعدات من القسطنطينية[٢]. وقد ذبح الفرس الكثير من الأهالى ونهبوا المدينة، وفى أماكن أخرى من مصر العليا أحدث الفرس مذابح مشابهة فى الأهالى أثناء صعودهم فى النيل. وبعد أن وضع الفرس أيديهم على مصر كلها، يبدو أنهم تبنوا سياسة دينية أكثر تسامحاً، وسمحوا للبطريرك المونوفيزيتى أندرونيقوس بالإقامة فى

---

(١) بتلر: المرجع السابق، ص ٤٦.

(2) Milne, A Hist. of Egypt under the Roman Rule, Vol V., pp. 114-115, Ostrogorsky, Hist of the Byzantine State., p. 95.

الإسكندرية[1]، وهى المرة الأولى منذ زمن طويل يسمح فيها للبطريرك المونوفيزيتى بالبقاء فى تلك المدينة.

وبعد موت البطريريك أنا.رونيقوس فى سنة ٦٢٣، انتخب بنيامين خلفا له. وكان بنيامين راهبا مصريا، ينتمى إلى أسرة قبطية ثرية من قرية فرشوط بالصعيد، وقد ظل نحو أربعين سنة يوجه إدارة الكنيسة المونوفيزتية فى أحوال وظروف بالغة التغيير[2].

وقد دام الحكم الفارسى فى مصر حوالى عشرة أعوام، إلى أن نجحت حملات الإمبراطور هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١) فى دخول فارس نفسها سنة ٦٢٨، وإجبار القوات الفارسية على الإنسحاب من بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام ومصر، وبذلك عادت مصر إلى السيطرة البيزنطية[3].

البطريرك قيرس:

بعد أن انتهى هرقل من حروبه مع الفرس، وجه عنايته إلى المشكلة الدينية المزمنة التى بلغت ذروتها فى عهده، وقد دفعه إلى ذلك اعتقاده أن انتصاره السياسى على الفرس سيساعده على تدعيم الإمبراطورية وحقيق الوحدة الدينية، فتبنى فكرة المشيئة الواحدة أو الإرادة الواحدة التى تقول إن للمسيح فى الواقع طبيعتين ولكن له إرادة واحدة، وهو المذهب الذى عرف باسم المونوثيليتية Monothteism أى مذهب الإرادة الواحدة. وقد أيد سرجيوس بطريرك الإسكندرية هذا المذهب، ودخل فى مفاوضات مع الكنائس الشرقية، بغرض التوفيق بين مذهب الطبيعة الواحدة وأصحاب مذهب الطبيعتين. غير أن المذهب المونوثيليتى لم يوافق عليه من أى جانب[4]، بل أدى إلى مزيد من السخط والهياج.

وعندئذ عين هرقل فى سنة ٦٣١ بطريركا على الإسكندرية وحاكما أغسطيا (والياً رومانيا) Augustal Prefect على مصر فى نفس الوقت، وهو أسقف يدعى قيرس Cyr-us، ويعرف عند مؤرخى العرب باسم المقوقس، أى أنه أسند الرئاسة الدينية والسياسية

(1) Milne, op. cit., p. 115.

(٢) الباز العرينى: مصر البيزنطية، ص ٣٩٠ ـ ٣٨١.

(3) Milne, op. cit., 115, Ostrogorsky, op. cit., pp. 107-108.

(4) Bell, "Egypt and the Btzantine Empire"in the legacy of Egypt., p. 345.

لشخص واحد، ليكون قادراً على قهر الأقباط، وهو من الذين اعتنقوا مذهب الإرادة الواحدة[١].

ولم يكد يصل قيرس إلى الإسكندرية فى خريف سنة ٦٣١، حتى هرب البطريرك بنيامين، ولكنه قبل هروبه، عقد مجمعا بالاسكندرية شهده القسس والرعية، وألقى فيهم خطابا يحضهم فيه «على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت»، ثم كتب إلى أساقفته جميعا يأمرهم بالهجرة إلى الجبال والصحاوى ليتواروا فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه، وأنبأهم أن البلاد سيحل بها الوبال، وأنهم سيلقون الظلم والعسف عشر سنين ثم يرفع عنهم. ثم تسلل بنيامين فى كنف الليل إلى صعيد مصر سائراً على جانب الصحراء، إلى أن بلغ مدينة قوص، ولاذ هناك بدير صغير بالصحراء غير بعيد عن تلك المدينة[٢].

أما قيرس فقد أخذ يشرح للمصرين فى الإسكندرية المذهب المونوثليتى، عل أنه لم يلق منذ البداية التوفيق وكان نصيبه الفشل الذريع، ومن ثم أخذ يضطهدهم اضطهاداً رهيباً استمر عشر سنوات، وتشير الروايات إلى أن أعمال الاضطهاد والتعذيب ثم تنل من إيمان المصريين، من ذلك ما حدث لمينا شقيق البطريرك بنيامين، فقد تعرض للتعذيب، بأن أوقدت المشاعل، وسلطت نارها عل جسمه، فأخذ يحترق، «حتى سال دهنه من جانبيه على الأرض»، ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه، فخلعت أسنانه، ثم وضعوه فى كيس مملوء بالرمل، وحمل فى البحر، وأخذوا يعرضون عليه الحياة إذا هو آمن بما أقره مجمع خلقيدونية، لعلوا ذلك ثلاثا وه ويرفض فى كل مرة، فرموا به فى البحر، فمات غرقا[٣].

وحاول الإمبراطور هرقل أن يفرض سياسة التوفيق، بأن أوعز لسرجيوس بطريرك القسطنطينية بأن يحصل من بابا روما هونوريوس الأول (٦٢٥ ـ ٦٣٨م)، على إقرار صيغة للتوفيق، يستطيع بمقتضاها أن يحمل المونوفيزيتيون المصريون على قبولها، واقترح سرجيوس على البابا أن يقبل المونوثوليتية، أى مذهب الإرادة الواجدة، روافق البابا على الصيغة التى

---

(١) بل: مصر من الأسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ص ١٤٩.
(٢) بتار: فتح العرب لمصر، ص ١٥٦ ـ ١٥٨، منسى يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية، ص ٣٠٥.
(٣) بتلر: المرجع السابق، ص ١٦٣، منسى يوحنا: المرجع السابق، ص ٣٠٤.

اقترحها سرجيوس فى المرسوم الذى عرف باسم الإيكثيسيز Echesis سنة ٦٣٨، ولكن خلفاء البابا حاربوه بقوة[1].

ولاشك أن تعيين قيرس بطريركا وحاكما على الإسكندرية أتى على مصر بكارثة، ذلك أن الاضطهادات العنيفة التى أنزلها بالمونوفيزيتيين فى مصر، وعارضوها بشدة، أثبتت ضعف مصر فى وقت الأزمات، وأجمعت مصر كلها على قطع علاقتها بالإمبراطورية البيزنطية قبل مجيىء العرب إلى مصر[2]. ويقول المؤرخ ميخائيل السريانى: «لم يسمح الإمبراطور لكنيستها المونوفيزتية بالظهور فى أيامه، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التى نهبت، ولهذا فقد انتقم الرب منه.. لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء الينا من الجنوب أبناء اسماعيل لينقذوننا من ايدى الرومان، وتركنا العرب نمارس عقيدتنا بحرية، وعشنا فى سلام»[3].

قيام الرهبنة وإحياء القومية:

الرهبنة تعنى الزهد والتنسك، أى الانعزال والانفراد بقصد التبتل والعبادة مع اختيار الفقر طوعا، كما تعنى تطهير الروح واحتقار الجسد والإعراض عن شهواته، وقد ظهر الزهد بين عدة طوائف وجماعات مختلفة فى ممالك الشرق القديم قبل ظهور المسيحية بقرون، وظل فيها قائما حتى القرون الأولى للمسيحية، ومن أهم تلك الطوائف طائفة البراهمة المشهورة فى بلاد الهند وهم يدينون بمذهب كونفوشيوس وبوذا، ومنها طائفة اليهود الأسينيين التى نشأت منذ القرن الثانى قبل الميلاد وعاشت بعيدا عن بيت المقدس، حيث انفردت بمساكنها حول شواطىء البحر الميت[4]. ولكن الرهبنة ظهرت لأول مرة فى المسيحية على ضفاف وادى النيل، وكانت اتجاها مسيحيا أصيلا غير متأثر بحركات النسك السابقة للرهبنة المصرية، لاختلافها عنها فى الهدف والفلسفة والأسلوب، كما أن الرهبان الأوائل الذين أسسوا حياة الرهبنة لم تكن ظروفهم البيئية أو العملية تمكنهم الإطلاع أو

---

(1) Ostrogorsky, op. cit., pp. 108-109.

الباز العرينى: مصر البيزنطية، ص ٢ ص٣٧.

(2) Bell, op. cit., pp. 345-346.

(3) Mango, Byzantium, pp. 96-97.

(٤) رؤوف حبيب: تاريخ الرهبانية والديرية فى مصر وآثارهما الإنسانية على العالم (القاهرة ١٩٧٨)، ص ٢٣ ـ ٢٤، مراد كامل: «من دقلديانوس إلى دخول العرب»، ص ٣٠٥.

السماع عن هذه الحركات حتى يحذوا حذوها. ومع انتشار المسيحية فى مصر، بدأت مظاهر النسك تنتشر تدريجيا، وسمعنا عن شخص يدعى فرونتونيوس (١٣٨ ـ ١٦١م) رحل إلى برية نيتريا (وادى النطرون) وفي صحبته سبعون مسيحيا ليعيشوا حياة الرهبنة والزهد[١].

والواقع أن جذور حياة الرهبنة والزهد فى مصر المسيحية ترجع إلى سوء الأحوال الإقتصادية فى مصر الرومانية، فقد أرهق الرومان المصريين بشتى الضرائب، ولاسيما ضريبة الرأس، وأثقلوا كاهلهم بمختلف الأعباء الإلزامية، كزراعة الأراضى المهجورة بالرغم عنهم، حتى ضاق الفلاحون ذرعا بالحياة، فكان سلاحهم القاطع عندما يفيض بهم الكيل أو يفوق ما يعانونه حد الإحتمال هو الامتناع عن دفع الضرائب، أو الفرار من قراهم إلى قرى أخرى أو إلى الأدغال أو إلى الصحراء[٢] النائية. هذا فضلا عن الاضطهاد الدينى البشع الذى لقيه المسيحيون، والذى بلغ أشده فى عهد الإمبراطور دقلديانوس، أجبرهم على الفرار والبحث عن ملاذ فى الصحراء، فأخذوا يهربون من المدن وهجروا الأهل ومسقط رؤوسهم، وذلك للعيش بعيداً فى حياة قاسية يزاولون فيها الصلاة وتطهير النفس من الشهوات[٣].

ومن الذين فروا من قسوة الاضطهادات التى أنزلها بهم الرومان، الراهب بولس. وقد ولد بولس من أبوين موسرين حوالى عام ٢٥٠م، وأصبح يتيما فى السادسة عشرة من عمره، فتولى الوصاية عليه زوج أخته. وكان بولس قد اعتنق المسيحية، ولذلك عزم زوج أخته على تسليمه إلى الوالى الرومانى طمعا فى ماله، ولماعلم بولس بذلك فر بدينه تجاه البحر الأحمر بالقرب من جبل القلزم، وظل فى عزلته التامة عن المجتمع حتى مات فى المغارة التى سكنها[٤].

على أن الرهبنة أخذت وضعها الثابت المعروف على يد القديس أنطونيوس حتى أطلق عليها المؤرخون اسم «الرهبنة الأنطونية» نسبة اليه، لأن ما سبق ذلك لايمكن اعتباره إلا بمثابة مقدمات ارتجالية مهدت لنظام أنطونيوس. وقد ولد أنطونيوس فى سنة ٢٥٠م، من

(١) رؤوف حبيب: المرجع السابق، ص ص٣٥ ـ ٣٦، مراد كامل: المرجع السابق، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٢) عبد اللطيف أحمد على: كفاحنا ضد الغزاة، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(3) Munier, L'Egypt Byzantine, p. 14.

(4) Ibid.

أسرة ثرية فى قمن العروس مركز الواسطى بإقليم بنى سويف من صعيد مصر، ولما مات والده ترك له ثروة طائلة، ولكنه تنازل عنها ووزعها، ورحل إلى سفوح الجبال الشرقية المجاورة لحافة الوادى، حيث بنى لنفسه صومعة انفرد فيها، وظل يواصل رحلته حتى استقر به الحال نهائيا فى الجبال الواقعة قرب ساحل البحر الأحمر، واجتذبت شهرته جماعة من الرهبان تتلمذوا على يديه. ومات أنطونيوس فى سنة ٣٥٦ بعد أن بلغ من العمر مائة وست سنوات، وقد احتذى مثاله أعداد كثيرة من الرهبان، حتى صارت جبال الصحراء الشرقية كلها مزدحمة بهم[١]. وهنا نلاحظ أن النظام الذى سار عليه أنطونيوس ظل فى أساسه نظاما فرديا قوامه العزلة والتقشف، وتعذيب الجسد وإذلاله لخلاص الروح، وكان الرهبان أتباع أنطونيوس يتنافسون فى ذلك إلى حدود تفوق الوصف[٢].

وقبل منتصف القرن الرابع الميلادى، وضع القديس ياخوم (٢٩٠ ـ ٣٤٨) نظامه الجديد فى الرهبنة الذى يجمع بين الرغبة فى الإنقطاع للعبادة من جهة، وبين طبيعة البشر الاجتماعية من جهة أخرى[٣]، فأصبح فى الواقع مؤسس الرهبنة الجماعية أو الديرية الجماعية، وهو النظام الشائع فى الشرق والغرب. وقد ولد باخوم من أبوين وثنين، وخدم فى شبابه فى جيش الإمبراطور قنسطيطين الكبير (٣٠٦ ـ ٣٣٧)، وحدث أثناء وجود فرقته فى ضواحى إسنافى مصر العليا، أن خرج الأهالى المسيحيون يحملون إليه هو وزملاؤه الطعام والشراب، فأثر فى نفسه ما لمسه من عطفهم وكرمهم، فتحول إلى المسيحية، وتتلمذ على أيدى راهب يدعى بلامون Palamon، حتى صار له الكثير من الأتباع والمريدين. وفى طيبة أسس أنطونيوس ديره الأول، واستخدم فى إدارته نظاماً يقوم على حياة الفقر والتبتل والطاعة والابتهال، فضلا عن الأعمال اليدوية التى يقوم بها الرهبان تحت إدارة رئيس منهم[٤].

وكان باخوم يشترط على من يريد الالتحاق بالدير أن يقضى ثلاث سنوات تحت الاختبار، وكان الطعام يقدم للرهبان فى قاعة المائدة مرتين فى كل يوم، فى الظهر وفى

---

(1) Ibid

(٢) رؤوف حبيب: تاريخ الرهبنة، والديرية فى مصر، ص ٣٩.
(٣) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ ص ١٦٠.

(4) Munier, l'Egypt Byzantine, p. 14.

المساء، وفى وقت الأكل كانوا يستمعون لأحد الرهبان وهو يقرأ فصلا من الكتب المقدسة. على أنه يلاحظ بخصوص الأديرة الباخومية أنها جعلت الأعمال اليدوية إجبارية لفوائدها الروحية التى تشغل الراهب عن الشرود فى أفكار لاتتفق وطبيعته، فى الوقت الذى كانت تلك الأعمال يكسب بها الراهب قوته الضرورى حتى لايكون عالة فى المجتمع. وقد اهتم باخوم بتعليم الرهبان، ولهذا نظم لها ثلاثة دروس يومية فى النهار للمبتدئين، ودروساً أخرى عامة يعقدها رؤساء الأديرة يومى الأربعاء والجمعة فى تفسير الكتب المقدسة، وكان حضورها إجبارياً[١].

ولما كثر عدد المنضمين إلى دير باخوم فى طيبة وضاق بهم الدير، أنشأ باخوم أديرة أخرى فى تبانيسى القريبة من دندرة الحالية بمحافظة قنا، وأنشأ ديراً أخر فى فبو (حاليا فاو). وشيد ديراً ثالثاً فى شينست يعرف الآن بدير بلامون، وكل دير من تلك الأديرة يبعد عن الآخر بمسافة قليلة، وعلاوة على ذلك شيد باخوم مؤسسات ديرية أخرى[٢]. ولم يكتف باخوم بإنشاء أديرة للرهبان، بل أنشأ أيضاً أول دير للنساء فى ناحية السليمات التابعة لمدينة دشنا بمحافظة قنا، عهد إلى أخته بإدارته، وقد أحرز هذا الدير الذى يعرف بدير العذارى نجاحاً هائلاً، جعل المعاصرين يشيدون أديرة النساء على نفس القاعدة[٣].

ومن الرهبان الذين تركوا أثراً واضحاً فى تطور الديرية فى مصر القديس شنودة (٣٣٣ ـ ٤٥١)، وقد وصفه المؤرخ الأمريكى وريل Worell بأنه أعجب شخصية أخرجها القبط فى أى عصر من عصور تاريخهم الطويل، وبأنه مؤسس المسيحية القبطية[٤]. فقد كثر عدد رهبانه حتى صاروا حوالى خمسة آلاف، وكان أيضا أبا لألف وثمانمائة راهب، وقد كتب لهم عدداً وفيراً من الرسائل توضح تعمقه فى الدين، واهتم بتثقيف رهبانه، ووضع لهم أنظمة أشد صرامة من أنظمة باخوم. وبينما ضمت أديرة باخوم أجناساً عديدة، اقتصر شنودة فى أديرته على الأقباط، وبذلك أصبحت أديرته معاقل مصرية صميمة. وفى الوقت

---

(١) مراد كامل: «من دقلديانوس إلى دخول العرب»، ص ٣٠٨.

(2) Munier, L'Egypte Byzantine., p. 15.

(3) Ibid.,

(٤) عزيز سوريال عطية: «الكنيسة القبطية والروح القومى فى مصر فى العصر البيزنطى» المجلة التاريخية المصرية، العدد الأول، مايو ١٩٥٠، ص ٦.

الذى كانت كنائس باخوم خاصة بالرهبان فقط، فتح شنودة كنيسة الدير الأبيض للشعب يأتون إليها فى أيام الآحاد والأعياد، فيعظهم ويرشدهم[1].

وكان شنودة محبا للشعب، يقاسمه آلامه،ويعطف على الفلاحين المضطهدين من الرومان فهاجم ظلم الحاكم وكبار الملاك، ودعا للرفق بالفقراء. وقد لعب شنودة دوراً بارزاً فى حماية رهبانه واتباعه من المجاعة والعدوان، فكان الدير الذى بناه بعيدا عن مدينة سوهاج بحوالى ثمانية كيلومترات ويعرف بالدير الأبيض، أعظم نموذج للنظام القلاعى، فبناؤه يقدم لنا سوراً مصمتاً خارجياً ضخما على رأس تل، لا يتخلله إلا نوافذ عالية ومدخلين صغيرين من السهل سدهما. وقد استطاع هذا الدير أن يصمد لحصار طويل ضد بدو الصحراء، وبوسعنا أن ندرك كمية المؤن التى احتفظ بها هذا الدير من الوصف الذى جاء فى كتاب «حياة شنودة»، إذ احتفظ ديره لمدة ثلاثة شهور بحوالى عشرين ألف مواطن ـ رجالا ونساء وزطفالا ـ تم إنقاذهم من غزوات القبائل الجنوبية المعروفة باسم البليميين Blemyes عندما قامت بالإغارة على المنطقة المحيطة به، وأطعمهم شنودة ٨٥ ألف أردب من القمح لابد أنها كانت مخزونة فى هذا الدير[٢].

ولاشك أن شنودة كان علماً من أعلام إفاقة الوعى القومى، واحتل المكانة الأول فى حركة إحياء القومية المصرية، فقد دفعته غريزته الاستقلالية للعمل فى تحرير الفكر المسيحى المصرى من التقاليد والتعاليم الهللينية، وتقوية المذهب المونوفيزيتى المصرى ضد الطابع اليونانى الذى انطبعت به الكنيسة البيزنطية، وقد دفعته كراهيته لكل ما هو يونانى إلى استئصال الألفاظ الإغريقية الدخيلة فى القداس والصلوات والتراتيل القبطية، فى الوقت الذى تعمد بطريقة منظمة تهذيب اللغة القبطية وتحريرها من كل نفوذ أغريقى سواء أكان ذلك فكريا أو لفظياً[٣].

كانت حياة الرهبنة والنظام الديرى هما الإسهام البارز للكنيسة المصرية الذى ترك أقوى أثر فى المسيحية، وذلك بفضل رجال نشأوا على حب الفضيلة والطهارة وإنكار الذات، واجتذبت شهرتهم أنحاء العالم المسيحى، فجاءت جماعات من الفلسطينيين

---

(١) مراد كامل: «من دقلديانوس إلى دخول العرب»، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.
(2) Milne, A Hist. of Egypt under the Roman Rule, Vol. V., pp. 223-224.
(٣) عزيز سوريال عطية: المرجع السابق، ص ٦ ـ ٧

والسريان والحبش والأرمن واللاتين إلى صحراوات مصر[1]، لتنهل من مورد النظام الديرى الذى ابتكرته العبقرية المصرية.

فمن فلسطين وفد على مصر الراهب هيلاريون Hilarion فى أوائل القرن الرابع الميلادى ليتعلم على أيدى أنطونيوس، وبعد أن لازمه شهرين، وشاهد الأعداد الغفيرة التى أتت لزيارة أنطونيوس رجع إلى وطنه، وعاش فى صومعة صغيرة بالقرب من غزة، اتخذها سكناً له لمدة خمسين سنة، وبعد موته بسنوات قليلة انتشرت الأديرة فى جميع أنحاء فلسطين على النمط المصرى[2]. وفى سنة ٣٨٥م غادر القديس چيروم القسطنطينية بصحبة الراهبة بولا St. Paula وبعض النساء الرومانيات إلى الأرض المقدسة بفلسطين، ومن هناك واصل چيروم ومن معه الرحلة إلى مصر، حيث زاروا أديرة وادى النطرون. وبعد عودتهم إلى فلسطين استقروا فى مدينة بيت لحم، حيث شيدت بولا أربعة أديرة، ثلاثة منهم للراهبات، وواحد للرهبان، وهو الذى أقام فيه چيروم، وأتم فيه معظم أعماله الأدبية[3].

ويعتبر القديس باسيل أسقف قيصرية بآسيا الصغرى صاحب الفضل فى تأسيس العديد من الأديرة فى آسيا الصغرى وبلاد اليونان. فقد جاء إلى مصر فى القرن الرابع الميلادى، وعاش عدة سنوات فى أديرة باخوم فى الصعيد، ودرس نظامها[4]، ولكنه أدخل تغييرات أساسية فيها.

والديرية شأنها شأن المسيحية دخلت الحبشة (أثيوبيا) من مصر. ويقال أنه فى سنة ٤٨٠م أخذ القديس أراجاوى St. Argawi نظام الديرية على النسق الباخومى، وقد سافر معه إلى الحبشة ثمانية رهبان من دير القديس أنطونيوس، وقد عرف أراجاوى وهؤلاء الرهبان فى الكنيسة الحبشية بإسم «القديسين التسعة»، وإليهم يرجع الفضل فى تشييد الأديرة وتثبيت العقيدة المسيحية[5].

(1) Meinardus (Otto), Christian Egypt and Modern (Cairo, 1977), p. 21.
(2) Ibid.,
(3) Ibid., pp. 22-23.
(4) Ibid., p. 22.
(5) Ibid., p. 22.

وممن يرجع الفضل إليهم فى نشر نظام الرهبنة المصرى فى غرب أوربا، الراهب والكاتب الكنسى يوحنا كاسيان (٣٦٠ ـ ٤٣٥)، فقد غادر بلاد الغال (فرنسا) إلى مدينة بيت لحم بفلسطين، وقضى بعض الوقت فى أديرتها، ثم توجه إلى مصر لزيارة النساك المصريين فى صحراء وادى النطرون، حيث عاش مع الرهبان سبع سنوات، ثم عاد بعد ذلك إلى القسطنطينية[1]. وفي مرسيليا فى جنوب بلاد الغال أسس كاسيان ديراً على النسق المصرى، وعلى مقربة منه شيد القديس هونوراتوس St. Honoratus دير ليران فى سنة ٤٠٠م، حيث ظل يطبق النظام الديرى المصرى، إلى أن أدخل فيه النظام البندكتى فيما بعد[2].

ومهما يكن من أمر، فقد وصل نظام الرهبنة المصرية إلى جهات بعيدة خارج حدود مصر وأثر فيها تأثيراً كبيراً، فى الوقت الذى توالت على مصر جماعات عديدة قدمت من أنحاء الشرق والغرب لمشاهدة وتعلم الديرية المصرية التى سمعوا عنها كثيراً. وإذا كان نظام الرهبنة والديرية فى مصر فى القرن الرابع قد أدى إلى اعتزال آلاف من المصريين ميدان الحياة العملية وشل كثير من مرافق الحياة العامة، فالحقيقة التى لايمكن أغفالها أن الإمبراطورية البيزنطية كانت وراء ذلك، فهى التى فرضت الالتزامات الثقيلة على الفلاحين واضطرتهم إلى ترك أراضيهم، هذا فى الوقت الذى حرصت على الاستقلال بكنيستها، ولقيت فى سبيل ذلك أشد أنواع الاضطهاد والتنكيل والتعذيب، ونتيجة لذلك لجأت الغالية من الشعب المصرى إلى المقاومة السبية، وذلك بالفرار إلى الإديرة، وبهجر مزارعهم وقراهم، مما أءى إلى إنتشار الفوضى فى البلاد واضطراب جميع مرافقها، ووجه الأهمية هنا أن الإمبراطورية لم تغير من واقع الأمر شيئا، فبقيت نفوسهم تضطرم بنيران الكراهية ضدها، وتطلعوا إلى اليوم الذى يتخلصون فيه من مساوىء الحكم البيزنطى البغيض. ولهذا فقد التف الأساقفة والرهبان حول الشعب المصرى. وأمدوه بقوة روحية هائلة على احتمال الاستبداد السياسى والاضهاد الدينى. وسار الشعب المصرى وراء زعامته الروحية، وظل وثيق الصلة بتقاليده الوطنية ولغته القومية.

---

(1) Ibid., 21-22.
(2) Ibid., p. 22.

الفصل الثانى

مصر ولاية عربية
(٢١ ـ ٢٥٤هـ/ ٦٤١ ـ ٨٦٨م)

ـ الفتح العربى لمصر.

ـ حريق مكتبة الإسكندرية.

ـ مصر ولاية تابعة للخلافة الإسلامية.

ـ انتشار الإسلام واللغة العربية.

ـ العرب والأقباط.

ـ موقف مصر من أحداث الخلافة الإسلامية.

الفتنة ضد عثمان.

النزاع بين على ومعاوية.

حركة عبد الله بن الزبير.

مصر فى أواخر عصر الدولة الأموية.

مناهضة العلويين فى مصر للخلافة العباسية.

موقف مصر من النزاع بين الأمين والمأمون.

ـ أحوال مصر الحضارية فى عصر الولاة.

الحياة الإقتصادية.

البحرية.

الحياة العلمية.

من الثابت أن الصلات بين مصر وشبه الجزيرة العربية صلات قديمة، وقد عرفت مصر هجرة القبائل العربية منذ زمن بعيد، برجع إلى أقدم عصور مصر الفرعونية على الأقل. فسجلات التاريخ الفرعونى تشير باستمرار وبانتظام إلى جماعات البدو الشرقية تطلب الإذن بدخول مصر أو تتسلل عبر سيناء من شبه الجزيرة العربية والشام إلى صحراء مصر الشرقية وأطراف الوادى حيث تضرب بجذورها إلى الأبد، ومعنى ذلك أن «تعريب مصر» إن جاز التعبير فى تلك المرحلة هو سابق للإسلام، أو على أية حال، فإن الاختلاط الجنسى بين المصريين والعرب ظل قائما[١]. وهنا نلاحظ أن عرب الجنوب القحطانية كانوا يعبرون البحر الأحمر ويستقرون فى الوادى يختلطون بالسكان لأنهم ـ كأهل مصر ـ أهل استقرار وزرع وضرع، أما عرب الشمال العدنانية، فقد كانوا يجوبون الصحارى الشرقية المصرية، ولم يختلطوا بالسكان كثيرا، لأنهم أهل بداوة وترحال، وهم الذين حاربهم الفراعنة طوال تاريخ مصر القديم[٢]. وحسب رواية المؤرخ هيرودوت، سميت المناطق الشرقية من مصر ببلاد العرب Arabia فى القرن الخامس قبل الميلاد(٣). وقد عرفت مصر منذ أقدم العصور كثيراً من التجار من العرب، وذلك عن طريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية، حتى أن الجغرافى والمؤرخ سترابون (٦٣/٦٤ ق. م ـ حوالى ٢١م) قال عن مدينة قفط Koptes ـ إحدى مراكز محافظة قنا بالصعيد ـ إنها مدينة نصف عربية[٤].

وكانأن ظهر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى، واستطاع الرسول ﷺ أن يضع نواة الدولة العربية الإسلامية، ويوحد القبائل العربية بعد أن كانت متفرقة متنازعة. ويجعل من العرب قوة هائلة. وبعد وفاة الرسول الكريم خرج العرب المسلمون من شبه جزيرتهم لنشر الإسلام فى أنحاء العالم المعروف وقتذاك، وضربوا أروع الأمثلة فى الفضائل والقدوة الحسنة، وحملوا راية التوحيد شعارها «لا إله إلا الله، محمد رسول لالله»، ومعهم دستور إلهى محكم وهو القرآن الكريم.

---

(١) جمال حمدان: شخصية مصرية، ص ٢٩٨.

(٢) حسين مؤنس: مصر ورسالتها (القاهرة ١٩٨٩)، ص ٨٦.

(3) Ashrot (E.), A Social and Ecocomic Hist. of the Near Est in the Middle Ages (london, 1976), p. 12.

(١) سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الولاة من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية (القاهرة بدون تاريخ)، ص ١٢ ـ١٣.

ويزعم المؤرخ والمستشرق الإنجليزى توماس آرنولد[1] وغيره من أن العرب قاموا بفتوحاتهم الكبرى فى القرن السابع الميلادى بسبب دوافع اقتصادية، جعلتهم حريصين على الخروج من دائرة بلادهم الجرداء إلى بلاد أخرى كثيرة الموارد وفيرة الخيرات، وفى ذلك يقول: «إن حركة التوسع العربى على أصح تقدير هجرة جماعة نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة، وتجتاح بلاداً أكثر خصباً كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظاً». ويضيف أرنولد قائلاً: «إن الحماسة الدينية، وبواعث العقيدة لم تكن تسربت إلا قليلا فى نفوس أبطال الجيوش العربية». ومن الواضح أن هذا الرأى يتضمن الكثير من المبالغة، لأنه يغفل أثر الحماس الدينى، والرغبة الصادقة فى الجهاد والتضحية والاستشهاد.

الفتح العربى لمصر:

كان فتح مصر بعد الشام ضرورة حربية، فقد رأى قادة المسلمين بالشام أن مصر ليست قاعدة هامة يمكن أن تقضى على فتوحاتهم فحسب، بل إن موقعها الجغرافى الاستراتيجى يمثل خطورة على بلاد العرب نفسها حينما يفيق البيزنطيون إلى أنفسهم. كما أن المسلمين بفتحهم مصر يحققون هدف الفتوحات العربية، وهو نشر الدعوة الإسلامية فى مناطق جديدة من الإمبراطورية البيزنطية، فضلا عن حرمان القسطنطينية من القمح الذى كانت مصر تزودها به. وقد رأينا من قبل ما لقيه الأقباط سكان مصر من اضطهاد وتنكيل وتعذيب بسبب الاختلافات الدينية بينهم وبين البيزنطيين، ولذلك تمنى المصريون الخلاص من حكم البيزنطيين، ولو حلت دولة أخرى محلهم. وليس أدل على ذلك من أن الأقباط رحبوا بالفرس عندما غزوا مصر سنة ٦١٦م، وفضلوا الحكم الفارسى على السيادة البيزنطية، لما عانوه من اضطهاد مذهبى[2].

أرسل الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العاص لفتح مصر، فسار عمرو من قيسارية بفلسطين فى سنة ١٨ هـ (٦٣٩م) على رأس جيش بلغت عدته أربعة آلاف

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وزميليه (القاهرة ١٩٧٠)، ص ٦٤.

(2) Hardy, Christian Egypt., p. 186.

مقاتل، وكان أول بلد استولى عليه داخل حدود مصر هو العريش، وقد استولى عليه بسهولة في أوائل سنة ١٩هـ (٦٤٠). ثم تابع عمرو سيره في طريق صحراوى وعر إلى أن وصل الفرما (بيلوزيوم) الواقعة شرقى بورسعيد الحالية والتى تعتبر مفتاح مصر من جهة الشرق، ففرض عليها حصاراً استمر شهراً واحداً إلى أن سقطت فى يده، وهدم أسوارها وحصونها حتى لايستفيد منها البيزنطيون، وبعد ذلك واصل عمرو زحفه حتى وصل بلبيس، ولم تجد نفعاً مقاومة البيزنطيين، فلم تلبث أن سقطت فى يده[1].

وبعد بلبيس صار عمرو جنوبا حتى وصل قرية تندونياس الواقعة على النيل شمال حصن بابليون والتى سماها العرب فيما بعد أم دنين (حاليا موضع حديقة الأزبكية). وفى تلك القرية هاجم عمرو حسن بابليون أمنع المعاقل البيزنطية فى مصر. ودار قتال عنيف بين المسلمين والبيزنطيين الذين تحصنوا فى الحصن ودافعوا عنه دفعاً شديداً، فلم يجد عمرو بداً من طلب النجدة من الخليفة عمر بن الخطاب. وريثما تصل الإمدادات قرر عمرو أن يتوجه على رأس فريق من جنده لغزو الفيوم، فسار إليها فى صيف سنة ٦٤٠م (١٩هـ)، وقضى فى غزوته أسابيع، لحقت بالبيزنطيين خلالها خسائر كبيرة.

وكان أن وصلت الإمدادات العسكرية بقيادة الزبير بن العوام، وبلغ عددهم أربعة آلاف محارب، وقيل إثنا عشر محارب. فعاد عمرو بن العاص إلى حصن بابليون وضيق عليه الخناق بضعة أشهر، وعندما طال وقت القتال، أرسل المقوقس (البطريرك قيرس) جماعة إلى عمرو، قالوا له: «نكم قوم قد ولجتم فى بلادنا، والححتم على قتالنا، وطال مقامكم فى أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة، وقد أظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ماتحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن يغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام ولانقدر عليه، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لطلبتكم ورجائكم»[2]. ولكن عمرو أرسل للمقوقس قائلا:

---

(١) ابن عبد الحكيم: فتوح مصر وأخبارها (القاهرة ١٩٩١)، ص ٥٨، الكندى: الولاة، ص ١٠٠.
Htti (Philip. K.), Hist. of the Arabs, (London, p. 1972), p. 160.

(٢) المقريزى: المواعظ الاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ١، ص ٢٨٩.

«ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال، إما أن دخلتم فى الإسلام، فكنتم إخواننا، وكان لكم مالنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال، حتى يحكم الله بيننا، وهو أحكم الحاكمين»[١]. ولم يكن ذلك ما أراده المقوقس، فأرسل إليه أن يبعث إليه رسلا، ليتشاور معهم فى أمر الصلح، فأرسل إليه وفداً برئاسة عبادة بن الصامت، على ألا يجيب البيزنطيين إلى شىء إلا إلى إحدى هذه الخصال الثلاث. وبعد أن تبين للمقوقس عجز البيزنطيين عن الوقوف ضد العرب، وافق على عقد الصلح ودفع الجزية وأن تبقى الجيوش حيث هى، بشرط موافقة الامبراطور على الصلح، فإن أقره أصبح نافذاً، غير أن الإمبراطور رفض إقرار الصلح ووجه اللوم إلى المقوقس وقادته فى مصر، وأمرهم بمعاودة قتال العرب. وعندئذ هاجم المسلمون الحصن بالمنجنيقات، وقام الزبير بن العوام باقتحامه ببسالة فائقة وتبعه المسلمون فى السادس من أبريل سنة ٦٤١م[٢]. واضطر المقوقس إلى عقد معاهدة مع عمرو بن العاص عرفت باسم صلح بابليون، وبمقتضى هذه المعاهدة صار المصريون أهل ذمة يؤدون الجزية التى ارتبطت بمقدار ارتفاع مياه النيل وانخفاضها، وأن تدفع على ثلاثة أقساط من السنة[٣].

ويمكن القول إنه بفتح حصن بابليون، أنجز عمر وبن العاص المرحلة الأولى من فتح مصر وصار الطريق مفتوحاً أمامه بعد ذلك إلى الوجه البحرى والإسكندرية. وكانت الإسكندرية عاصمة مصر البيزنطية، وأشدها منعة وتحصينا، فتوجه عمرو على رأس جيوشه إلى تلك المدينة وفرض الحصار عليها، ولكن البيزنطيين قاوموه بشدة. حدث هذا فى الوقت الذى سادت بيزنطة الفوضى بعد وفاة الإمبراطور هرقل فى فبراير سنة ٦٤١م، وحالت دون وصول إمدادات جديدة إلى الإسكندرية، وبالتالى لم يتفرغ البيزنطيون لأمر الإسكندرية، وأضحى الدفاع عنها مستحيلا. ولم ير المقوقس بداً من طلب الصلح مع العرب، فرحب به عمرو، وعقدت معاهدة ثانية فى نوفمبر سنة ٦٤١م، اشتهرت باسم صلح الإسكندرية، تقرر

---

(١) الخطط، جـ١ ص ٢٨٩.

(٢) بتلر: فتح العرب لمصر، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧

Hittil, op. cit., p. 160.

(٣) بتلر: المرجع السابق، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

بمقتضاها عقد هدنة بين العرب والبيزنطيين تنتهي في سبتمبر سنة ٦٤٢، يتم خلالها جلاء الحامية البيزنطية عن الإسكندرية، وألا يعود البيزنطيون إلى الإسكندرية، واشترط أيضا ألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء، وأن يبقى اليهود في المدينة(١).

وبعد أن استكمل عمرو بن العاص فتح مصر، كان من الطبيعي أن يفكر في أن يمد الفتوحات العربية إلى الغرب في الشمال الإفريقي، تأميناً لحدود مصر الغربية من خطر البيزنطيين، وتطبيقاً لخطة استمرار الفتح بغية نشر الدين الإسلامي، ولم يكن تمسك عمرو بمواصلة الفتح طلبا للغنائم التي تعود عليه وعلى جنده، كما يردد ذلك بعض المستشرقين ومن يرى رأيهم من المؤرخين. وكان عمرو قبل أن ينتهي من فتح مصر قد بادر بإرسال القائد عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة لكشف أحوال برقة. ويبدو أن عمراً ارتاح إلى ما قاله عقبة عن أحواله التي تشجع على الفتح، بدليل أنه عجل بتسيير جيوشه لفتحها(٢)، وسار على رأس قوة من فرسانه غربا حتى وصل برقة في سنة ٦٤٢م. ومن المرجح أن أهل برقة كانوا ساخطين على الحكم البيزنطي لظلمه وعسفه، فتطلعوا إلى الخلاص على أيدي العرب، ويفسر ذلك استسلامهم طائعين، فصالحهم عمرو نظير جزية يؤدونها له. ولم يكد عمرو ينتهي من فتح برقة، حتى شرع في فتح مدينة طرابلس، وهي مدينة حصينة مسورة، فسار إليها وفرض الحصار عليها إلى أن استولى عليها، ولس من المستبعد أن عمراً فكر في غزو بلاد المغرب، إذ كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يسأله المدد، ولكن الخليفة الذي كان على ما يبدو مطلعا على أحوال إفريقية، وعلى معرفة بشدة مراس البربر، خاف على المسلمين، فلم يأذن لعمر بمواصلة الفتح. ويرى البعض أن ما فعله عمر بن الخطاب كان عين الصواب ويدل على بعد نظره، ذلك أن تغلغل عمرو بن العاص في أراضي المغرب الواسعة وبلاده الشاسعة بجيشه القليل قد يستنفدقوته من غير أن يفوز بطائل، خاصة أن البيزنطيين لم يزالوا من القوة بحيث يتمكنوا من استرداد مصر والقضاء على حاميتها القليلة أثناء انشغال عمرو بغزو هذه البلاد(٣).

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨، حسن إبراهيم حسن: تاريخ عمرو بن العاص، ص ١٠١ ـ ١٠٦.

(٢) ابن عبد الحكيم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٧٠.

(٣) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ١٢٧.

كما أحس العرب بعد أن فتحوا مصر بضرورة حماية حدودها الجنوبية، خشية أن تقوم مملكة النوبةالمسيحية بمشروع تحالف مع الدول البيزنطية لاسترداد مصر. فبعث عمرو بن العاص فرقة من الخيالة بقيادة نافع بن القيس الفهرى لغزو النوبة[1]. ويبدو أن تلك الغزوة لم تحمل معها فكرة الفتح التام، لأن الفرقة رجعت من حيث أتت بعد أن حلت بها الهزيمة على أيدى النوبيين. وأعقب ذلك أن أرسل عمرو حملة أخرى بقيادةعبد الله بن سعد بن أبي سرح لغزو النوبة عام ٢١هـ، إلا أن عزوها استعصى عليه أيضا. ونتيجة لذلك النجاح الذى حققه النوبيون فى صد غزوات المسلمين عن أراضيهم، فقد استمروا يشنون الإغارات المتقطعة على أسوان بضع سنوات، حتى اختير عثمان بن عفان خليفة للمسلمين، فعين عبد الله بن أبى سرح واليا على مصر بدلا من عمرو بن العاص. ويبدو أن ابن أبى سرح عزم على وضع حد لإغارات النوبيين، فسار على رأس حملة إلى بلاد النوبة، وأوغل بجنده جنوبا حتى وصل دنقلة عاصمة البلاد، ففرض عليها حصاراً عنيفاً، واشتد القتال، الأمر الذى أجبر ملك النوبة على طلب إيقاف القتال، وانتهت الحملة بمعاهدة عقدت بين مصر والنوبة عام ٦٥٢م (٣١هـ) عرفت بالبقط. وقد جاء فى تلك المعاهدة ألا يقوم المسلمين بغزو النوبة، ولايغزوا أهل النوبة المسلمين، وأن يحافظوا على المسجد الذى ابتناه المسلمون بدنقلة، وأن يسمح بتنقل التجار[2]، أى أنها معاهدة أمن وسلام بين الطرفين.

على أن الأمور لم تستقر للعرب فى مصر، إذ بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب فى نوفمبر سنة ٦٤٤، استدعى الخليفة الجديد عثمان بن عفان عمراً بن العاص، وعين بدلا منه عبد الله بن أبى سرح واليا على مصر كما ذكرنا، فشجع ذلك البيزنطيين على القيام بهجوم مضاد، وأبحر أسطول ضخم بقيادة مانويل Manuel، واستطاع هذا القائد أن يباغت الحامية العربية الموجودة فى الإسكندرية واستعادها فى سنة ٦٤٥م (٢٥هـ)، ولكن النصر الذى أحرزه لم يستمر طويلا، فقد أرسل الخليفة عثمان بن عفان على وجه السرعة عمراً ابن العاص إلى مصر، حيث اشتبك فى قتال عنيف مع قوات مانويل عند نيقيوس Nikiu

(١) ابن على الحكم: المرجع السابق، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.
(٢) الخطط، جـ ١ ١٩٨ ـ ١٩٩، انظر: محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى، ص ٥٠ ـ ٥١.

انتهى بهزيمتها، ودخل عمرو الإسكندرية مرة أخرى فى صيف سنة ٦٤٦، واضطر مانويل إلى الهروب إلى القسطنطينية. ورحب الأقباط فى الإسكندرية بقيادة البطريرك بنيامين بالمسلمين ترحيباً بالغا، وبذلك فقدت الدولة البيزنطية أغنى ولاياتها إلى الأبد، وتأكد الفتح العربى لمصر[١].

حريق مكتبة الإسكندرية:

ارتبط باستيلاء العرب على الإسكندرية موضوع حريق مكتبة الإسكندرية الذى نسبه بعض المؤرخين إلى عمرو بن العاص.وقد وضع نواة تلك المكتبة بطليموس الأول مؤسس دولة البطالمة التى ورثت الإسكندر الأكبر، ثم تعهدها برعايته بطليموس الثانى حتى غدت أعظم المكتبات فى العالم القديم[٢]. وكان أول من تحدث عن حريق هذه المكتبة المؤرخ والجغرافى عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢هـ (١٢٣١م) ـ أى بعد ٥٩١ سنة من وقوع تلك الحادثة ـ فى كتابه «الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»[٣]. وذلك عند حديثه عن عمود السوارى بالإسكندرية، فقال: «ورأيت أيضا حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة، والأعمدة تحمل السقف، وعمود السوارى عليه قمة حاملها، وأرى أن الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده، وأنه دار العلم الذى بناه الإسكندر حين بنى مدينته، وفيها كانت خزانة الكتب التى حرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضى الله عنه». وزاد هذه الرواية مؤرخ آخر جاء بعد عبد اللطيف البغدادى، وهو ابن الفرج بن هارون الملطى المعروف بابن العبرى المتوفى سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م). فذكر فى كتابه «تاريخ مختصر الدول»[٤]. أنه عندما تم فتح الإسكندرية سنة ٦٤٢م، اتصل بعمرو بن العاص أحد علماء البلاد المشهورين وهو يحيى النحوى (يوحنا

---

(١) بتلر فتح العرب لمصر، ٤٠٧ ـ ٤١٠،

Ostrogorsky, Hist - of the Byzantine Empire., p. 115.

(٢) ابراهيم نصحى: «مصر فى عهد البطالمة» موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثانى ص ٨٢.

(٣) ص ٥١ ـ ٥٢.

(٤) ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

غراما طيقوس)، وأعجب عمرو بعلمه، فقربه إليه. ثم طلب يحيى من عمرو أن يعطيه كل كتب الحكمة الموجودة فى الخزائن الملكية (مكتبة الإسكندرية)، فأرسل عمرو كتابا بهذا الشأن إلى الخليفة عمر بن الخطاب، فأتاه الجواب يقول: «وأما الكتب التى ذكرتها، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففى كتاب الله غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها، فشرع عمرو بن العاص بذلك، فأمر بتفرقتها على حمامات الإسكندرية وإحراقها فى مواقدها، فاستنفذت فى ستة أشهر». وقد أشار المقريزى[1] إلى حريق مكتبة الإسكندرية إشارة عابرة، وذلك أثناء كلامه عن عمود السوارى، فقال: «ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطوطاليس، الذى كان يدرس به الحكمة، وأنه كان دار علم، وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص بإشارة عمر بن الخطاب رضي الله عنه».

وقد تناول موضوع حريق مكتبة الإسكندرية كثير من المورخين المحدثين، فمنهم من أيد اتهام عمرو بن العاص بإحراق المكتبة، وحشد الأدلة الخاطئة بغرض تشويه سمعه الإسلام والمسلمين، وإثبات عدائهم للحضارة العالمية، ومنهم من أنكرها تماما، وكان أشهر من درسها بموضوعية ونزاهة المؤرخ ألفرد بتلر فى كتابه «فتح العرب لمصر» وغيره من المؤرخين. ومما يدل على اختلاق تلك التهمة التى نسبت إلى عمرو بن العاص الملاحظات الأتية:

أولاً: إن اتهام المسلمين بإحراق المكتبة ظهر لأول مرة عند عبد اللطيف البغدادى وابن العبرى بعد فتح الإسكندرية بأكثر من خمسمائة سنة، مما يضعف هذا الاتهام، إذ لم يرد لها ذكر عند المؤرخين السابقين ممن عاصر أحداث الفتح العربى لمصر مثل سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨هـ (٩٦٠م) ومثل حنا النقيوسى وهو مؤرخ عاش فى القرن السابع الميلادى. كذلك لم يشر إلى هذا الإتهام أحد من المؤرخين المسلمين أمثال الطبرى واليعقوبى وابن عبد الحكم.

ثانياً: أثبت المؤرخ بتلر صاحب كتاب «فتح العرب لمصر» أن يحيى النحوى الذى نسب اليه ابن العبرى روايته عن حريق مكتبة الإسكندرية أنه لم يكن حياً فى سنة ٦٤٢م،

---

(١) الخطط، جـ١، ص ١٥٨.

فمن المعروف أن يحيى النحوى كان يكتب فى عام ٥٤٠، ولعله كان يكتب قبل اعتلاء جستنيان عرش الإمبراطورية البيزنطية (٥٢٧ ـ ٥٦٥)، وقد يكون أدرك القرن السابع وعاش بضع سنين فى أوله، وبحساب سنى حياته يكون قد توفى قبل دخول عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة، وهذا يهدم رواية ابن العبرى من أساسها.

ثالثاً: لم يكن للمكتبة الملكية التى أشار إليها ابن العبرى أى وجود زمن الفتح العربى للإسكندرية، لأن الكتب التى كانت بها أتلفتها النار سنة ٤٨ق. م، بسبب الحريق الذى احدثه يوليوس قيصر ليرد أعداءه عن أسطوله، ويؤيد ذلك المؤرخ إميانوس مارسيللينوس وبلوتارك وديوكاسيوس وغيرهم. ويميل الدكتور ابراهيم نصحى إلى الأخذ بما تذكره بعض المصادر القديمة من أنه عندما أحرق يوليوس قيصرالأسطول المصرى فى خلال «حرب الإسكندرية»، وامتد اللهيب إلى رصيف الميناء، وأحرق المبانى المجاورة له، ذهبت المكتبة الكبرى طعماً للنيران، بدليل أن أنطونيوس عوّض كليوباترا عن تلك الخسارة الفادحة بإهدائها ٢٠٠ ألف مجلد من مكتبة برجام. أما المكتبة الصغرى ـ أو الثانية ـ وهى مكتبة السرابيوم، فإنها كانت فى حجرات متصلة ببناء معبد السرابيوم، وقد أحرق هذا المعبد فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير سنة ٣٩١م على أيدى المسيحيين الذى كان يقودهم رئيسهم ثيوفيلوس. ومما يدل على ذلك أن أحد الرحالة الرومان واسمه أوراسيوس الذى زار مصر فى أوائل القرن الخامس الميلادى وكتب عنها سنة ٤١٦، ذكر أنه لم يجد سوى رفوف خالية من الكتب فى هذه المكتبة، ولم يشر إلى وجود أى مكتبة تستحق الذكر فى الإسكندرية.

رابعاً: نصت معاهدة الإسكندرية (نوفمبر ٦٤١) على أن العرب لن يدخلوا الإسكندرية إلا بعد هدنة مداها أحد عشر شهرا، وهى هدنة طويلة كان باستطاعة البيزنطيين خلالها أن يحملوا متاعهم، وبالتالى جميع ما يروق لهم من كنوز مكتبة الإسكندرية إن كان لها وجود آنذاك.

خامساً: تكشف تفاصيل الرواية التى ذكرها المؤرخ ابن العبرى عن أكاذيب وخرافات، إذ جاء فى تلك الرواية أن الكتب وزعت على أربعة آلاف حمام، وأنها ظلت تستخدم

وقوداً لتسخين المياه مدة ستة شهور. فهذه المدة تكفى لمن يريد الحصول على شيء منها ولاسيما يحيى النحوى أن يجمع ما يشاء سواء دون مقابل أو بثمن بخس. ثم إن أكثر هذه الكتب كانت مكتوبة على الرق، والرق لا يصلح للوقود، ولاسيما فى تسخين مياه الحمامات.

سادساً: يرى المؤرخ مونييه فى كتابه «مصر البيزنطية من دقلديانوس إلى الفتح العربى» أن مكتبة الإسكندرية الشهيرة التى أسسها البطالمة الأوائل فى عاصمتهم الوليدة، والتى أثراها خلفاؤهم بالكتب الأدبية والعلمية والمجموعات الرائعة من المخطوطات، قد فقدت كنوزها الثمنية فى القرن الرابع الميلادى، من جراء الصراع بين الوثنية والمسيحية فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٨ ـ ٣٩٥)(١).

مما سبق يتبين لنا أن عمرو بن العاص لم يحرق مكتبة الإسكندرية، وأن اتهامه بحرقها لا يقوم على سند من الحقيقة، وبات من المؤكد أن المكتبة كانت غير موجودة قبل الفتح العربى لمصر.

مصر ولاية تابعة للخلافة الإسلامية:

تولى حكم مصر فى أعقاب الفتح العربى لها ولاة كانوا يعينون من قبل الخلافة الإسلامية فى المدينة المنورة أو دمشق أو بغداد. وقد اعتاد المؤرخون أن يسموا العصر الذى يبدأ بفاتح مصر عمرو بن العاص حتى قيام الدولة الطولونية سنة ٢٥٤هـ بعصر الولاة.

وقد روعى فى اختيار هؤلاء الولاةأن يكونوا من أصحاب السمعة الطيبة والنزاهة والعدالة، فإذا أهمل احدهم شئون مصر أو استبد بأهلها، عزله الخليفة وأتى بغيره، طبقا لتعاليم الإسلام التى تقرر أن الحكم ينبغى يكون فى أصلح الناس له. ولهذا كان الولاة، أو

---

(١) أنظر: بتلر: فتح العرب لمصر، ص ٣٤٨ ـ ٣٧٠، سيدة كاشف مصر فى عصر الولاة، ص ١٨٤ ـ ١٨٩ ، إبراهيم نصحى: «مصر فى عهد البطالمة»، ص ٨٢ ـ ٨٣، حسن إبراهيم حسن: تاريخ عمرو بن العاص، ص ١٠٦ ـ ١١٨ ، الباز العرينى: مصر البيزنطية، ٤٣١ ـ ٤٣٢، إبراهيم العدوى: مصر والشرق العربى درع الإسلام (القاهرة ١٩٨٤)، ص ٣٣ ـ ٣٦، مصطفى طه بدر: مصر الإسلامية (القاهرة ١٩٥٩)، ص ٣٣ ـ ٤٠.

على وجه الدقة معظمهم، يحرصون على استثمار ثروات مصر ومواردها فيما يعود بالنفع على الشعب المصرى الذى ارتضى الإسلام دينا،وبدأ يتعرب من الجيل الأول بعد الفتح.

بيد أنه لا يفهم من هذا أنه كان هناك دولة رئيسية مركزية كالإمبراطورية الرومانية مثلا، تعتمد على جنس غالب تخضع له ولايات تعيش فيها شعوب مقهورة أو مغلوبة على أمرها، وإنما الحقيقة تكمن فى أن الدولة الإسلامية كانت دولة عامة يقوم بها المسلمون عامة، لايفرق بينهم فى الحقوق والواجبات جنس أو مكان، فكل مواطن مسلم فى هذه الدولة يعد من أصحابها، وله الحق فى ولاية وظائفها العامةوقيادة جيوشها والاشتراك فى وضع التشريع الخاص بها[1]، على عكس ما كانت عليه الإمبراطورية الرومانية التى اعتبرت كل من هو غير رومانى متبربراً أجنبياً عنها، ولايتمتع بحقوق المواطنة الرومانية التى تتيح لحاملها فقط تولى الوظائف العامة أو الاشتراك فى الجيش.

ومما يجدر ذكره أن كلمة وطن فى الدولة الإسلامية، لم تكن معروفة بالمعنى الذى نفهمه فى الوقت الحاضر، ونقصد أن الوطن روابط وجدانية بقدر ما هو أرض جغرافية وحدود سياسية، فقد عبر مفهوم المواطنة فى الدولة الإسلامية عن وحدة الشعوب المختلفة داخل الخلاقة الإسلامية، والوطن والخلافة الإسلامية كانا شيئاً واحداً، يجتمع الولاء لهما، وبذلك طار الوطن لايعنى أكثر من مكان يولد فيه المرء فحسب، بل هو لجميع المسلمين، ومما يدل على ذلك أن المصادر الإسلامية عندما كانت تتناول سيرة شخصية ما، كانت تقول ـ على سبيل المثال ـ فلان القاهرى المولد. الدمشقى الإقامة، البغدادى الوفاة، ولايقال فلان المصرى أو الشامى أو العراقى.

وعندما انتقل مركز الدولة الإسلامية من المدينة المنورة فى شبه الجزيرة العربية إلى الشام سنة ٤١هـ (٦٦٠) ثم إلى العراق سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩)، والفروض أنهما ولايتان، لم ينكر ذ لك الانتقال، بل نظر الناس إليه على اعتبار أنه شىء عادى لايتعارض مع مفهوم وطبيعة دولة الإسلام، أى أن تلك الدولة ليست دولة جنس ولاقطر بعينهما، ومن ثم فإن

(١) حسين مؤنس: «تاريخ مصر من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون»، موسوعة تاريخ الحضارة المصرى، المجلد الثانى، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٥.

دخول مصر أو غيرها فى طاعة الإسلام لم يكن معناه أنها أصبحت ولاية خاضعة يحكمها جنس غالب، كما كان الحال مع الإمبراطوريات المعروفة فى التاريخ، وإنما كان معناه أنها أصبحت جزءاً من هذه الدولة العامة، بل أصبحت قاعدة لامتدادات جديدة للدولة الإسلامية[1]. فمن مصر انطلقت الفتوحات الإسلامية إلى الغرب فى الشمال الإفريقى، لتأمين حدود مصر الغربية ضد البيزنطيين من جهة، ونشر الدعوة الإسلامية بين البربر من جهة أخرى. فنجح المسلمون فى بسط نفوذهم على جميع بلاد المغرب، ودانت تلك البلاد للإسلام، وصبغ أهلها بالصبغة العربية الإسلامية. ولم تقف آمال المسلمين عند هذا الحد، بل تجاوزتها إلى أسبانيا، فأتموا فتحها ونشروا بها الدين الإسلامى والحضارة الإسلامية، وكانت أسبانيا أهم جسر عبرته تلك الحضارة إلى غرب أوربا فى العصور الوسطى. ومن مصر أيضا، انطلقت الحملات الإسلامية لمحاربة أهل النوبة المسيحيين الذين هددوا مصر من الجنوب، وتوالت تلك الحملات حتى سقطت ممالك النوبة المسيحية فيما بعد بفضل السلطان المملوكى الظاهر بيبرس البندقدارى (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧)، وانتشر الإسلام فى أنحائها، ومنها انطلق داخل قارة إفريقية.

انتشار الإسلام واللغة العربية:

سار انتشار اللغة العربية مع انتشار الإسلام فى مصر جنبا إلى جنب، إلا أن انتشار اللغة كان أشمل وأتم من انتشار الديانة، فهى لغة المصريين كافة حتى الوقت الحاضر، وإلى أن يرث الأرض ومن عليها. والحقيقة أن انتشار اللغة العربية فى مصر ظاهرة تستدعى الانتباه، فإن الشعوب التى توالت على مصر قبل العرب مثل الفرس والآشوريين والإغريق والرومان، لم تستطيع ـ كما ذكرنا من قبل ـ القضاء على لغة المصريين وعاداتم وتقالدهم. فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربى واللغة التركية فيما بعد فى العصر العثمانى لغة البلاد الرسمية، ولكن هذا لم يجعلها لغة الشعب المصرى، فالإغريق كانوا ينزلون المدن ويصبغونها بحضارتهم، ولم يذهب نفوهم الثقافى إلا قليلا، مما جعلهم يعيشون فى مصر كأنها جزر يونانية فى وسط المحيط المصرى الواسع، وكذلك عاش العثمانيون فى بيئات

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٤٥.

خاصة فى مصر، وعجزوا عن جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية على الرغم من أنهم كانوا مسلمين ودام حكمهم عدة قرون[1].

ولاشك أن السياسة التى انتهجها العرب فى عصر الولاة تجاه المصريين قد اختلفت عن سياسة غيرهم، فبعد أن انطلق العرب من شبه الجزيرة العربية فاتحين حاملين راية الإسلام، وأدخلوا مصر فى حوزة الدولة الإسلامية، أبقوا على مختلف النظم التى عرفتها مصر منذ أقدم الأزمنة. وأطلقوا لأهلها حرية العقيدة، وأمنوهم على أنفسهم، وتركوا لهم سائر الوظائف والصناعة والزراعة والأعمال، واكتفى العرب بالإشراف على شئون الدولة والقضاء والشرطة وقيادة الجيوش والحكم، كل ذلك كان باعثا قويا لكثير من المصريين على الدخول فى الإسلام، وصار لزاما عليهم أن يتعلموا اللغة العربية حتى يستطيعون قراءة القرآن الكريم وفهم أحكام الدين الإسلامى.

وما أن انسلخ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) حتى دانت الغالبية العظمى من أهل مصر بالإسلام، وبقيت أقلية مسيحية، وأضحت اللغة العربية لغة كل المصريين فى التخاطب والعبادة والثقافة والفكر والإرادة. وبعبارة أخرى، لم يكد يبدأ القرن الرابع الهجرى، حتى كان فى مصر شعب جديد، وهو خليط من الشعبين العربى والقبطى، يدين معظمه بالإسلام، ويتكلم السواد الأعظم منه ـ مسلمين وأقباطاً ـ باللغة العربية[2].

ومن المعروف أن الجيش العربى الذى قام بفتح مصر كان عدده لايزيد بعد أن جاءته الإمدادات من الخليفة عمر بن الخطاب عن نحو إثنى عشر ألف مقاتل من القبائل العربية. ولكن حدث أن جماعات من المهاجرين العرب توالت على مصر فى أعقاب الفتح لتستقر فيها وتمارس شئون معاشها، هذه الجماعات يصعب أحصاؤها، وهى التى انبثت من السنوات الأولى للفتح بين الأهالى فى كل ناحية واختلطت بهم، وهى صاحبة الفضل فى تعريب ألسنة المصريين وتحويلهم إلى الإسلام، لأن الجند حرمهم عمر بن الخطاب من

---

(١) سيدة كاشف: مصر فى عصر الولاة، ص ١٤١.

(٢) جمال الدين الشيال: «تكون الشعب المصرى الجديد بعد الفتح العربى»، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد ٤١ لسنة ١٩٦٠، ص ٢٠.

الاشتغال بالزراعة أو الإنصراف إلى مطلب آخر من مطالب الحياة، مما جعل دورهم فى التعريب وإدخال الناس فى الإسلام قليل[1]، وقد استقرت الهجرات العربية الأولى فى جهات أسفل الأرض (الوجه البحرى)، فلما ضاقت هذه الجهات بسكانها نزلت القبائل العربية الوافدة الصعيد، وانتشرت فى جميع نواحيه حول أسوان وجنوبها، وفى منفلوط وأسيوط والأشمونين وإخميم، وفى الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر، وخاصة صحراء عيذاب[2].

وتشير المصادر التاريخية إلى أن العرب الذين نزحوا إلى مصر فى صورة موجات متتالية وانتشروا فى أنحاء مصر، واندمجوا فى حياتها، نسى أكثر ذراريهم وأعقابهم وأنسابهم، بعد أن ضاعوا نهائيا فى مجرى السكان الرئيسى، مما يدل على ثبات الشخصية المصرية، وأن لها طابعاً لم يتغير فى جوهره بتغير الأجناس الطارئة عليه. ومما يدل على ذلك أن العرب كانوا يحرصون على تدوين أسماء قبائلهم على شواهد القبور، حيث أوضح معظمها الذى اكتشف فى مقابر أسوان والفسطاط أن اسم الميت يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة، ولكنهم فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) صاروا يضعون اسم البلد أو المدينة التى ينتسبون إليها بدلا من القبيلة. ولاشك أن القرار الذى أصدره الخليفة العباسى المعتصم بالله (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ) ـ وكانت أمه تركية ـ بإسقاط العرب من ديوان العطاء وقطع أرزاقهم فى سنة ٢١٨هـ (٨٣٣م)، وهى الأرزاق التى كانوا يتوارثونها منذ عهد عمر بن الخطاب، أى منذ حوالى مائتى سنة، جعل العرب يفتقدون مكانتهم السامية وينتشرون فى ريف مصر، ويندمجون فى المصريين، مما أدى إلى أنتشار العروبة والإسلام على

---

(١) حسين مؤنس: «تاريخ مصر فى الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون»، ص ٣٦٥. وقد ناقش الدكتور جمال حمدان فى كتابه شخصية مصر، جـ٢ ص ٣٠٤ ٣٠٥ موضوع أعداد المهاجرين العرب الذين وفدوا على مصر من الفتح العربى واستقروا فيها، فذكر أنه من المستحيل أن نقدر العدد المطلق أو النسبى للعنصر العربى الوافد عبر عدة قرون، ولكنه بلاشك لم يكن هينا أو بسيطا، رغم محاولات التقليل من جانب البعض. فعلى سبيل يقر فليندرز بيترى حجم الموجة العربية فى مصر فى مجملها طوال تاريخها من ذكور وإناث بنحو ١٥٠ ألفا. وهذا التقدير الجزافى الذى يسرف فى التقليل من قوة الموجة مرفوض بالتأكيد، ولاعبرة به شكلا أو موضوعاً. ولعل الأقرب إلى الصواب تقدير مورى G. Murry بنصف المليون.

(٢) جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ص ٢١.

مدى واسع فى وادى النيل. وبعد أن تم الإندماج بين العرب والمصريين أصبح الكل مصريا عربيا، إذ أن المصريين تعربوا والعرب تمصروا، وفى خلال ذلك برزت كلمة قبط وأقباط، بمعنى المصريين الذين ظلوا على دينهم المسيحى أو المصريين المسيحيين[1]. وعلى أية حال، وجدت مصر فى الإسلام شخصيتها، فانسابت فى مجراه فى هدوء، ومارست شئون حياتها، سواء من أسلم من أهلها ومن لم يسلم، تحت جناح الحضارة العربية الإسلامية، ولم يترك بها الرومان والبيزنطيون إلا صفحات من تاريخ انطوى واندثر.

العرب والأقباط:

جاء فى القرآن الكريم مصدر التشريع الإسلامى آيات بينات تحض على حسن معاملة أهل الذمة وعدم إكراههم على ترك دينهم. ومن ذلك قوله تعالى: «لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى»[2]. كما يخاطب الله تعالى رسوله الكريم قائلاً: «ولو شاء ربك لآمن الناس جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين»[3]. وروى عن الرسول الكريم أنه قال: «من أظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته، فأنا حجيحه». ويذكر رواة الحديث أن النبى الكريم أوصى بقبط مصر خيراً، فقد قال لاصحابه: «إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لهم منكم صهراً وذمة»، إذ كانت هاجر زوجة إبراهيم الخليل عليه ﷺ وأم ولده إسماعيل، كما كانت مارية القبطية زوج الرسول وأم ولده، وقد أهداها إليه المقوقس. وقد رأينا فى حديثنا عن أحداث الفتح العربى لمصر أن العرب كانوا يحاربون البيزنطيين لا المصريين، بل إن المصريين رحبوا بالعرب وساعدوهم فى أثناء فتحهم لمصر. وقد سبقت الإشارة إلى أن بنيامين بطريرك الكنيسة القبطية، قد فر من وجه المقوقس (قيرس)، وعنمدا سمع عمرو بن العاص بقصة بنيامين كتب إليه أمانا، فعاد بعد غيبة طويلة إلى كرسيه بالإسكندرية، وبالغ عمرو فى الحفاوة به، ومنحه الحرية ليشرف على الكنائس، وأحوال الأقباط. وفى ولاية عمرو أعاد بنيامين بناء الكنائس التى خربها الفرس

(١) سيدة كاشف: مصر الإسلامية وأهل الذمة (القاهرة ١٩٩٣)، ص ٨٣.

(٢) منسى يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٥٦.

أثناء احتلالهم لمصر، وكذلك الكنائس التي هدمها البيزنطيون المخالفون لمذهب الكنيسة القبطية، وأصلح عمارة الأديرة في الوجهين البحرى والقبلي، وشيد كنائس عديدة[1].

وفي أعقاب الفتح العربي لمصر، سمح العرب للأقباط بممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة، شريطة أن يدفعوا الجزية، وأصبح البطريرك هو المسئول عن شئون كنيسته، وترك العرب للأقباط واجبات الشرطة وإصلاح الجسور والطرق وما شابه ذلك في القرى القبطية، كذلك ترك العرب كثيراً من المناصب المدنية والإدارية في يد أهل مصر من الأقباط[2]، واحتفظوا لأنفسهم بالسيادة العليا. ويقول المؤرخ توماس آرنولد[3] عن الأقباط في مصر: «فملئوا مناصب الوزراء والكتاب في دواوين الحكومة، وحددوا قيمة الضرائب التي تجبى على الأرض التي تعطى على سبيل الإلتزام، وجمعوا ثروة ضخمة في بعض الحالات. ولقد أمدنا تاريخ كنيستهم بكثير من الأمثلة عن رجال الكنيسة الذين تمتعوا بعطف الأمراء الذين حكموا بلادهم، ونعم القبط في عهدهم بأقصى درجات الطمأنينة».

على أنه بعد سنوات قليلة من الحكم الغربي في مصر، نلاحظ أن ولاة مصر لم يتبعوا سياسة واحدة في معامله الاقباط، بل اختلفت هذه السياسة بين اللين والشدة، والرافة والعنف، ويهمنا القول هنا ان الظلم الذى اوقعه بعض الولاة بالاقباط يرجع الى تعسف هؤلاء الولاة في جمع الضرائب، وفرض التزامات مالية ثقيلة عانى منها الأقباط، فاضطروا الى الثورة عليهم . وهنا نلاحظ ان ظلم الولاة لم يكن قاصرا على الأقباط، وعلى وجه الدقة لم يكن المقصود به الأقباط وحدهم، بل جميع أهل مصر، حتى المسلمين والعرب أصحاب الأراضي، بدليل اشتراك العرب مع الأقباط في الثورات التي أشعلوها ضد الولاة المتعسفين في جميع الضرائب.

وعندما تولى عبد العزيز بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ) عامل الأقباط معاملة طيبة، ولما بنى مدينة مدينة حلوان واتخذها عاصمة له بدلا من الفسطاط، نقل إليها بيت المال، وكان

---

(١) سورة يونس: آية ٩٩.

(1) Lacy Oleary; "the Coptic Church and Egyptian Monsticism" in the Legacy of Egypt., pp. 328-329.

(٣) الدعوة إلى الإسلام، ص ١٢٨

الأمين عليه رجل قبطى. وطلب عبد العزيز إلى الأقباط أن يبنوا لهم دوراً بمدينته الجديدة، ولكى يحبب إليهم سكناها أمر البطريرك ببناء كنيسته فيها. ولكن عبد العزيز لم يلبث أن تغير على الأقباط، إذ أمرهم بانتخاب بطريرك فى الفسطاط بدلا من الاسكندرية، وفرض جزية على الرهبان لأول مرة[1]. وخلف مروان بن عبد العزيز فى ولاية مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان (٨٦ ـ ٩٠هـ)، فاشتد على الأقباط، وألزم البطريرك الإسكندروس بدفع ثلاثة آلاف دينار، ،لم يطلق سراحه إلا بعد أن حصل على المال المطلوب[2]،كما زاد من الجزية المفروضة على الأقباط، مما دفع عدد منهم إلى اعتناق الإسلام، أما أولئك الذين لم يرضوا بتغيير دينهم بسبب الأعباء المالية فقد أخذ بعضهم يفرون إلى مناطق مختلفة غير تلك التى كانوا مقيدين فيها[3].

وجاء بعد عبد الله بن عبد الملك فى ولاية مصر قرة بن شريك (٩٠ ـ ٩٦هـ)، الذى قال عنه المقريزى[4] أنه «أنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا بمثلها». وفى خلافة سليمان ابن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ) كان متولى خراج مصر أسامة بن زيد التنوخى، فاشتدت قسوته على الأقباط، وأمر بوسم أيدى الرهبان بحلقة حديد كان يكتب فيها إسم كل راهب واسم ديره والتاريخ، وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم، فأنزل بهم عقابا قاسيا[5].

ولما أتى آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد بجيوشه إلى مصر فراراً من العباسيين، أخذ فى اضطهاد القبط، فدافعوا عن أنفسهم، وتمكنوا من الحاق الهزيمة بجيشه، ولكنه لم يلبث أن استجمع قواه وقاتلهم بشدة، وألقى القبض على البطريرك ميخائيل وزج به فى السجن، ثم أطلق سراحه وأرسله إلى رشيد لإخماد الثائرين، ونتيجة لذلك انحاز الأقباط إلى العباسيين عندما دخلوا مصر سنة ٧٥١م.

(١) الخطط، جـ٢ ص ٤٩٢.
(٢) الخطط، جـ٢ ص ٤٩١.
(٣) سيدة كاشف: مصر فى عصر الولاة، ص ١٢٦.
(٤) الخطط، جـ٢ ص ٤٩١.
(٥) الخطط، جـ٢ ص ٤٩١ ـ ٤٩٢.

والواقع أن الأقباط لم يقفوا مكتوفى الأدى إزاء الأعباء المالية الثقيلة التى فرضها عليهم بعض ولاة العرب وتعسفوا فى جمعها. فقاموا بأول ثورة فى مصر ضد واليها الحر ابن يوسف فى سنة ١٠٧هـ (٧٢٥م)، وكان عامل خراج مصر عبيد الله ين الحبحاب قد كتب إلى الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك يخبره بأن أرض مصر تحتمل الزيادة فى الخراج، فانتفض الأقباط فى الوجه البحرى، فى تنو وتمى وقُربيط وطُرابه وكافة الحوف الشرقى، فأرسل اليهم الوالي جيشا ألحق بهم الهزيمة، وقتل من الفريقين عدد كبير[١].
وفى سنة ١٥٠هـ خرج القبط على والى مصر يزيد بن حاتم بناحية سخا، وطردوا العمال، وساروا إلى شبرا شنباط، حيث انضم اليهم البشرود والأوسية والبجوم. فلما وصل الخبر إلى يزيد بن على بعث اليهم جيشا ضخما ألقى النار فى عسكرهم[٢]. وفى ولاية موسى بن على بن رباح، خرج القبط ببلهيب فى سنة ١٥٦هـ، فبعث إليهم بجيش أنزل الهزيمة بهم، وقتل منهم جماعة، وعفا عن جماعة، وبذلك مهد أمور البلاد[٣].

وكانت آخر ثورات الأقباط وأشدها فى عصر الولاة، تلك الثورة التى حدثت زمن الخليفة العباسى المأمون فى سنة ٢١٦هـ (٨٣١م). فثار أهل الوجه البحرى سواء فى ذلك العرب والأقباط لسوء سيرة العمال فيهم، وخرج إليهم والى مصر عيسى بن منصور الرافقى بجيوشه، «فضعف عن لقائهم وتقهقر بمن معه». ولما تفاقمت الثورة قدم الأفشين من برقة لمحاربتهم، وانضم اليه عيسى بقواته، وخاضوا ضد العرب والأقباط عدة معارك فى المناطق الساحلية فى الدلتا ألحقت بهم الهزيمة، ثم مضى الأفشين إلى الحوف وقاتلهم وأسر منهم عددا كبيرا[٤]. وقد كتب الأفشين إلى الخليفة المأمون يخبره بما حدث، فرأى الخليفة أن يأتى هو بنفسه إلى مصر، فأتى إليها فى المحرم سنة ٢١٧هـ، وصب جام غضبه على عيسى بن منصور، وقال له: «لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس على ما لايطيقون، وكتمتنى الخبر حتى تفاقم الأمر، واضطب البلد»[٥]. ثم بعث

---

(١) الكندى: الولاة، ص ٧٣ ـ ٧٤.
(٢) الكندى: الولاة، ص ١١٦ ـ ١١٧، الخطط جـ ١ ص ٧٨، النجوم الزاهرة، جـ ٢ ص ٣.
(٣) الخطط، جـ١ ص ٧٨، النجوم الزاهرة، جـ ٢ ص ٢٢٦.
(٤) الخطط، جـ ١، ص ٢١٥ ـ ٢١٦.
(٥) الخطط، جـ١، ص ٨٠.

المأمون بجيوشه إلى الصعيد والغربية والحوف للقضاء على الأقباط الذين ظلوا على ثورتهم، فأوقع الجند بهم، وأخمدوا ثورتهم، ومنذ ذلك الوقت لم يخرج الأقباط على ولاة مصر[1].

موقف مصر من أحداث الخلافة الإسلامية:

أصبحت مصر بعد تمام الفتح العربى لها ولاية من ولايات الخلافة الإسلامية أو الدولة العربية الإسلامية الجديدة. والحقيقة أن مصر لم تكن مجرد ولاية، بل كانت جزءاً من تلك الدولة، ساهمت في الأحداث السياسية والدينية التى ألمت بها فى عصر الولاة، وقامت بالدور الحاسم فى الكثير منها. على أن الذين اشتركوا فى تلك الأحداث لم يكونوا من المصريين، وإنما كانوا من العرب الذين استقروا بمصر أو من الأجناد الأخرى الذين أتوا إليها فى عهد الخلافة العباسية، أما المصريون أنفسهم سواء أكانوا من الأقباط أم من الذين أسلموا فلم يشتركون فى تلك الأحداث[2].

الفتنة ضد عثمان:

ظهر فى آخر عهد عثمان بن عفان ما يسميه المؤرخون المسلمون بالفتنة، ويقصدون بها انفصام وحدة المسلمين السياسية، وهى الوحدة التى أوجدها أبو بكر الصديق وزادها عمر بن الخطاب قوة، وقد ترتب على هذه الفتنة حروب بين المسلمين راح الخليفة ضحيتها.

والواقع أن عثمان على الرغم مما عرف عنه من الورع والتقوى، لم يكن بالرجل الذى يستطيع أن يحكم الدولة العربية الإسلامية، بعد الخليفة الحازم عمر بن الخطاب. فقد عزل عثمان معظم العمال الذين عينهم عمر بن الخطاب، وعين بدلا منهم أقرباءه من الأمويين، ونتيجة لذلك أن قويت المعارضة ضده. وقد أنكر على بن أبى طالب على عثمان ميله إلى قرابته وضعفه أمام العمال من قرباه، على عكس عمر بن الخطاب الذى كان الولاة يخشون حزمه وشدته، ويعملون له ألف حساب[3].

---

(١) الخطط، جـ ١، ٧٨ ـ ٨٠، النجوم الزاهرة، ج٢١ ص ١٦.

(٢) سيدة كاشف: مصر فى عصر الولاة، ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٣) الكامل فى التاريخ، ج٣١ ص٤٣ـ ص٤٤.

ومن الأسباب التى جعلت الفتنة تطل برأسها فى أواخر عهد عثمان بن عفان، تغير أحوال العرب فى الأمصار الإسلامية، فقد أثرى أهل الحجاز بما ورد لهم فى غنائم البلاد المفتوحة، وخاف عمر بن الخطاب أن يؤدى هذا الثراء إلى فساد رجال قريش، لذلك منع كبارهم من مغادرة المدينة المنورة، ولم يسمح لهم بالتوجه إلى اللبلاد المفتوحة لتكوين الثروات واقتناء الضياع. ولكن عثمان لم يتبع نهج سلفه، بل سمح لكبار الصحابة بالإقامة فى البلاد المفتوحة، وأصبح عدداً كبيراً منهم من كبار الأغنياء، مما أدى إلى تزمر العرب الذين كانوا يقيمون فى الأمصار، وازداد سخطهم على عثمان وولاته لحرمانهم من أموال الفيىء والغنائم، وطالبوا الخليفة بألا يعطى من الفيىء إلا الذين قاتلوا عليه.

وفى تلك الأثناء ظهرت بعض الشخصيات التى كان غرضها الكيد للإسلام وهدمه، فأخذت تثير السخط والتمرد فى نفوس أهل الأمصار. من ذلك ما قام به رجل يهودى من اليمن اسمه عبد الله بن سبأ، ويعرف بابن السوداء لسواد أمه، وقد تظاهر باعتناق الإسلام فى أيام عثمان، وتنقل فى الأمطار الإسلامية لإثارة الناس ضد عثمان، واستقر به المقام فى مصر حيث وجد أرضا خصبة لنشر دعوته. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أخذ ابن سبأ يدعو لعلى بن أبى طالب، ويتحدث إلى الناس بأن لكل نبى وصيا، وأن عليا وصى محمد، وأن عثمان اغتصب حق علىّ فى الخلافة، وأن بنى أمية مستبدون[1].

ومهما يكن من أمر، ففى شوال سنة ٣٥هـ (أبريل ٦٥٦م) جاء إلى المدينة المنورة عرب مصر وجموع أهل الكوفة والبصرة، وكان المصريون أشدهم نقمة على عثمان، ولذلك فهم فى الواقع يتحملون وزر الفتنة، وما لبث الثوار أن ضربوا حصاراً حول دارعثمان، بهدف إرغامه على خلع نفسه، لكنه أصر على البقاء فى الخلافة، وقال: «لا أخلع قميصا ألبسنيه الله عز وجل». وكان عثمان قد أرسل إلى عماله فى الأمصار لإرسال جندإليه ليكونوا عونا له فى المدينة. فلما سمع الثوار بذلك شددوا الحصار على عثمان، ومنعوه من الخروج والصلاة فى مسجد الرسول، وحالوا دون وصول الماء إليه، ثم اقتحموا داره وقتلوه، وبذلك هبت ريح الفتنة بين المسلمين[2].

(١) الكامل، جـ٣، ص ٤٦.

(٢) الكامل، جـ٣ ص ٥٨ ـ ٦٨.

النزاع بين على ومعاوية:

كان على بن أبى طالب يرى أنه أحق المسلمين بالخلافة بعد وفاة الرسول الكريم، فهو ابن عم النبى عليه الصلاة والسلام وزوج ابنته السيدة فاطمة الزهراء، وأول من آمن به من الصبيان. وكان أبو بكر يستشيره فى مهام الأمور، وكان عمر بن الخطاب لايعمل عملا إلا بمشورته. وبعد مقتل عمر اعتقد على أن الخلافة ستئول اليه، فلما آلت إلى عثمان بايعه علىّ ولازمه.

بويع علىّ بالخلافة بع مقتل عثمان بخمسة أيام، وبادر على بعزل ولاة عثمان بما فيهم معاوية بن أبى سفيان والى الشام، فرفض معاوية إطاعة أمر العزل، بل اتهم على بأنه أهمل الطلب بثأر عثمان من قاتليه[1]. وعندئذ رأى على بعد أن رفض معاوية الإذعان له أن يخرج إلى الشام لمواجهته، وبينما كان يجهز قواته لغزو الشام، علم أن بعض أهالى المدينة رفضوا بيعته قد تجمعوا فى مكة، ولحق بهم طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام اللذين ادعيا أنهم بايعا عليا كرها، وأنه ليس أهلا للخلافة بعد عثمان، ولا أولى بها منهما، وانضم إلى هؤلاء السيدة عائشة زوج الرسول التى كانت تقيم أنذاك بمكة[2]. وقد عرف عنها أنها كانت تبغض عليا منذ حادث الإفك. وكان أن خرج المعارضون لعلى إلى البصرة وبصحبتهم السيدة عائشة، على أمل الحصول على مساعدات من بعض الناقمين على علىّ فى تلك المدينة[3]. وفى جمادى الأخرة سنة ٣٦هـ (٦٥٦م)، اشتبك الفريقان فى قتال عنيف، انتهى بقتل طلحة والزبير وأسرت السيدة عائشة فى الموقعة التى عرفت باسم موقعة الجمل نسبة إلى الجمل التى كانت تركبه، وقد أعيدت مكرمة إلى مكة[4].

ولم يلبث على بن أبى طالب أن وجه اهتمامه إلى بلاد الشام، حيث معاوية بن أبى سفيان، الذى رفض الرضوخ لأوامره. وزحف علىّ من الكوفة حتى وصل إلى الرقة على نهر الفرات، ثم التقى بمعاوية فى صفين فى ذى الحجة سنة ٣٦هـ (٦٥٧م)، ودارت

---

(١) الكامل فى التاريخ، جـ ٣ ص ٩٣ ـ ٩٤.
(٢) الكامل، جـ٣ص ٩٩.
(٣) الكامل، جـ ٣ ص ٩٩ـ ١١٣.
(٤) الكامل جـ٣ ص ١٤٢ ـ ١٤٤.

مناوشات يسيرة بين انصار على وانصار معاوية، وكاد أن يتم النصر لجيوش على، لولا أن فكر عمرو بن العاص وهو من أنصار معاوية فى حيلة ينهى بها القتال، فنصح معاوية بأن يرفع جنده المصاحف على الرماح، بقصد التحكيم إلى كتاب الله. وبذلك انتهت موقعة صفين وحل محلها التحكيم. وقد اتفق على أن يختار كل فريق حكما، فوقع اختيار جند معاوية على عمرو بن العاص، واختار جند على أبا موسى الأشعرى. واتفق الحكمان على خلع كل من على ومعاوية، وجعل الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا من أرادوا. وقد بايع أهل الشام معاوية بالخلافة سنة ٣٧هـ[١].

أخذ معاوية بن أبى سفيان يثير الاضطرابات ضد على بن أبى طالب فى كل أرجاء الدولة العربية. وكانت مصر آنذاك مسرحاً للنزاع الدائر بين شيعة عثمان وشيعة على، وما صاحبه من فوضى. وشجعت الأحوال فى مصر معاوية على القدوم إلى مصر فى سنة ٣٦هـ لثروتها المادية ولموقعها الحغرافى الفريد، ونزل ببلدة سلمنت من كورة عين شمس، فخرج إليه محمد بن أبى حذيفة والى على بن أبى طالب، ولكن معاوية قبض على ابن أبى حذيفة وسيق إلى الشام حيث قتل بعد قليل.

وعندما وصل الخبر إلى على بن أبى طالب بمقتل ابن أبى حذيفة، أرسل إلى مصر قيس بن عبادة الأنصارى، فدخلها فى ربيع الأول سنة ٣٧هـ، وكان خير من يتولى حكم مصر فى هذه الظروف، إذ استمال إليه أنصار عثمان. وقد حاول معاوية وعمرو بن العاص التغلب على قيس دون جدوى، ولذا استخدما أسلوب الدهاء والمكيدة. فقد أشاع معاوية أن قيساً من العثمانية أى أنصار عثمان، وأنه يحسن معاملتهم. فلما سمع علىّ بذلك أمر قيساً بمحاربة العثمانية، ولكن قيسا رفض الإذعان لهذا الأمر بعد أن استمال العثمانية إليه وأمنهم على حياتهم. فعزله على وولى بدله الاشتر بن مالك النخعى، فسار الأشتر إلى مصر، ولم يكد يصل القلزم فى رجب سنة ٣٨٧هـ، حتى مات مسموماً هناك[٢].

وبعد الأشتر تولى حكم مصر محمد بن أبى بكر الصديق، فأساء إلى العثمانية، ونهب أموالهم، وهدم بيوتهم، وألقى بهم فى غياهب السجون. فانتهز معاوية الفرصة، وأرسل

---

(١) أنظر الكامل، جـ٣ ص١٧٢ ـ ١٩٧، ص ٢٠٥ ـ ٢١١.

(٢) الكامل، ج٣ ص ٢٢٦ ـ ص٢٢٧، النجوم الزاهرة، جـ ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٥.

جيشاً بقيادة عمرو بن العاص في بداية سنة ٣٨هـ إلى مصر، وتمكن من هزيمة جيش محمد بن أبى بكر ودخول الفسطاط، وألقى القبض على محمد بن أبى بكر، فقتله ووضع جثته في جيفة حمار وأشعل النار فيها[١]. وبذلك دخلت مصر فى حوزة معاوية. وكان أن قتل على بن أبى طالب فى سنة (٤٠هـ، ٦٦١م)، وأعلن معاوية نفسه خليفة فى دمشق، ومنذ ذلك الوقت انتهت خلافة الراشدين، وصارت مصر ولاية تابعة للدولة الأموية.

حركة عبد الله بن الزبير:

ظهر الصراع حول الخلافة عندما أخذ معاوية قبل وفاته البيعة بولاية العهد لابنه يزيد، وقد عارض تلك البيعة نفرمن أهل المدينة، منهم الحسين بن على وعبد الله الزبير. وقد حذر معاوية ابنه من هؤلاء النفر، فقال له: ... «وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإن أمكنته فرصةوثب فذاك ابن الزبير، فإن هو وثب عليك فظفرت به، فقطعه إربا إربا، واحقن دماء قومك ما استطعت».

والواقع أن معاوية كان بعيد النظر ونافذ البصيرة، إذ كان عبد الله بن الزبير طامعا فى الخلافة، بيد أنه كان لايستطيع المطالبة بها فى وجود الحسين بن على إلى جانبه فى الحجاز. فلما ولى يزيد بن معاوية الخلافة (٦٠ ـ ٦٤هـ/ ٦٨٠ـ٦٨٣م) امتنع الحسين وابن الزبير عن مبايعته، فأما الحسين فقد خرج على يزيد وقتل فى اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١هـ بكربلاء، وبمقتله خلا الجو لابن الزبير الذى كشف عن نيته وأخذ البيعة من أهل مكة. وبعث يزيد جيشا لقتال ابن الزبير بالحجاز، ولكن يزيد مات قبل إخضاعه، وخلفه ابنه معاوية الثانى وكان ضعيفا، فتنازل عن الخلافة دون أن يعهد بها لأحد،و انقسم الأمويون على أنفسهم حول منصب الخلافة.

وسرعان ما اتسع نطاق دعوة عبد الله بن الزبير، وانتشرت فى سائر الأمصار، ومنها مصر، فتوجه كثير من المصريين إلى مكة وبايعوه، فأرسل إليهم عبد الرحمن بن جحدم الفهرى واليا من قبله، وفى ذلك يقول أبو المحاسن[٢]: «ودخل معه مصر جماعة كثيرة من الخوارج، وأظهروا دعوة عبد الله بن الزبير بمصر، ودعوا الناس لبيعته، فتابعهم الناس والجند

---

(١) الكامل، جـ٣، ص ص ٢٢٦ ـ ٢٣٠.

(٢) النجوم الزاهرة، جـ١ ص ١٦٥.

على ما فى قلوبهم من الحب فى الباطن لبنى أمية» . وبذلك صارت مصر ولاية تابعة لخلافة عبد الله بن الزبير.

وفى تلك الأثناء استطاع الأمويون أن ينبذوا خلافاتهم ويوحدوا كلمتهم، وبايعوا مروان بن الحكم خليفة فى ذى القعدة سنة ٦٤ هـ. وقد اهتم مروان بأمرمصر اهتماما عظيما، وأسرع اليها بجيوشه ومعه ابنه عبد العزيز بن مروان ليستعيدها من ابن جحدم والى عبد الله بن الزبير. ولما علم ابن جحدم بقدوم جيش مروان لم يقف ساكنا، بل أخذ يستعد للقتال وحفر خندقا حول الفسطاط، ونزل مروان فى عين شمس، فاضطر بن جحدم إلى الخروج إليه، ودار قتال عنيف بين الفريقين، واخيرا تم الصلح بينهما، ودخل مروان الفسطاط فى جمادى الأولى سنة ٦٥هـ (٦٨٤م) ، وبذلك انتهى حكم عبد الله بن الزبير فى مصر بعد أن دام تسعة شهور.

على أن بعض المصريين امتنعوا عن بيعة مروانبن الحكم لتمسكهم ببيعة ابن الزبير، فضرب أعناقهم، وكانوا ثمانين رجلا. وأقام مروان شهرين فى مصر، ثم غادرها إلى بلاد الشام بعد أن ولى عليها ابنه عبد العزيز.

مصر فى أواخر عصر الدولة الأموية:

على الرغم من النجاح الذى أحرزته الدولة الأموية فى فتوحاتها وسياسة التعريب التى قامت بها، فإن اشتداد المعارضة ضدها كان يحيط بها من كل جانب، كما انقسم البيت الأموى على نفسه بسبب نظام ولاية العهد، وتولية العهد لأكثر من واحد. وأدت سياسة الأمويين إلى انقسام العرب فى الدولة العربية الإسلامية إلى قيسية ويمنية، وشهدت الولايات والأمصار الإسلامية حروبا أهلية مريرة بين القيسية (عرب الشمال) واليمنية (عرب الجنوب) ، أضعفت الدولة الأموية وأنهكت قواها.

وقد تجمعت عوامل أدت إلى سقوط الدولة الأموية، فهناك الشيعة، والمقصود بهم شيعة على بن أبى طالب الذين كانوا يرون أن الخلافة يجب أن تنحصر فى آل بيت رسول الله، وأن على وبنيه أصحاب الحق الشرعى فيها، وقد حمل الشيعة لواء المعارضة ضد الدولة الأموية، وثاروا عليها ثورات عديدة. وهناك الخوارج الذين ظهروا أثناء معركة صفين بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان، وعارضوا التحكيم على أساس أن الرجال

لايصح أن يحتكم اليهم فى حكم الله، ولا يرون حصر الخلافة فى جنس معين أو بيت معين، بل يرون أن الخلافة للأمة، يكون الاختيار فيها هو الأساس ولو اقتضى الأمر اختيار عبد حبشى مادام مستوفيا لشروط الخلافة، ولهذا كان الخوارج حزبا معارضا للأمويين لأنهم جعلوا الخلافة ملكا وراثيا. وهناك المرالى، وهم أهالى البلاد المفتوحة الذين اعتنقوا الإسلام، وكانوا يعاملون معاملة غير العرب، فقد حرموا من المساواة السياسية والاجتماعية بالعرب، وحرموا من الوظائف الكبرى فى الدولة، بل وفرضت عليهم الجزية رغم إسلامهم.

وكان أن استغل بنو العباس ـ عم الرسول ﷺ ـ عوامل الضعف التى تسللت إلى جسد الأمويين، وأخذوا يدعون إلى «الرضا من آل محمد»، حتى يضمنوا تأييد المسلمين لهم، وعدم نفور العلويين من دعوتهم. وبعد أن قطعت الدعوة العباسية شوطا طويلا، دخلت فى طور جديد هو طور العمل والتنفيذ. فقد تولى شاب اسمه عبد الرحمن وكنيته أبومسلم الخراسانى أصول الدعوة العباسية بالكوفة، فاسترعى انتباه العباسيين، وولوه رئيسا للدعاة فى خراسان فى سنة ١٢٨هـ. ولما قويت شوكة أبى مسلم، جاهر بالدعوة، ورفع راية العباسيين فى خراسان، وسار بجنده من خراسان إلى الكوفة، حيث بايع أبا العباس السفاح بالخلافة فى سنة ١٣٢هـ. وتقابل جيش العباسيين مع الجيش الأموى بقيادة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، (١٢٧ ـ ١٣٢هـ / ٧٤٤ ـ ٧٥٠م)على ضفاف نهر الزاب الأعلى بالقرب من الموصل، ودارت معركة فاصلة فى جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ انتهت بانتصار الجيش العباسى، وفرار مروان إلى مصر.

والواقع أن المصادر لاتعطينا قدرا كافيا من المعلومات عن دور مصر فى الدعوة العباسية، لأن الأحداث الرئيسية لتلك الدعوة قامت فى خراسان والمشرق الإسلامى. وفضلا عن ذلك كان الدعاة العباسيون ينشرون دعوتهم فى الأمصار الإسلامية فى جو من السرية، وفى ذلك يروى أبو المحاسن[1] أن الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ) عزل واليه على مصر عبد الرحمن بن خالد، لأن دعاة بنى العباس أرسلوا إليه سراً فأكرمهم ووعدهم، فبلغ ذلك هشاماً فعزله».

(١) النجوم الزاهرة، جـ ١ ص ٢٧٨.

وعلى أية حال، وصل مروان بن محمد مصر بعد هزيمته فى الزاب، ووجد أهل الحوف الشرقى والإسكندرية وأهل الصعيد وأسوان، قد صاروا من أنصار العباسيين. غير أن مروان ما كاد يدخل مصر، حتى لحقت به جيوش العباسيين بقيادة صالح بن على بن العباس، وأبى عون عبد الملك بن يزيد، فلم يستطع مروان مقاومتها، وعبر إل الجيزة بعد أن أحرق الفسطاط، ثم فر إلى قرية بوصير بالأشمونين (محافظة بنى سويف)، فلحق به صالح بن على، وقتله فى ذى الحجة سنة ١٣٢هـ (٧٤٩هـ)، وبعث برأسه إلى العراق[١]. وبذلك شهدت مصر نهاية آخر خليفة أموى، وأصبحت ولاية تابعة للخلافة العباسية بالعراق.

مناهضة العلويين فى مصر للخلافة العباسية:

من المعروف أن العلويين ناصبوا الأمويين العداء، وأشعلوا ضدهم عدة ثورات، ولم يكفوا عن المطالبة بحقهم فى الخلافة، ولما آلت الخلافة إلى العباسيين، وعارضهم العلويون، واعتبروهم مغتصبين للخلافة شأنهم شأن الأمويين، على الرغم من أن البيت العلوى والبيت العباسى ينتيمان لبيت واحد، وهو البيت الهاشمى.

وكانت أولى الثورات العلوية التى قامت فى وجه العباسيين، ثورة محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية، وأخوه إبراهيم، وكان الأخوان يقيمان فى المدينة المنورة. وقد دعا ذو النفس الزكية لنفسه سراً فى المدينة المنورة التى اتخذها مركزاً لدعوته، واعترف الناس بإمامته فى الحجاز، وأرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته. وفى عهد أبى جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ) ظهرمحمد ذى النفس الزكية وأعلن دعوته فى رجب سنة ١٤٥هـ، ولكنه مالبث أن لقى حتفه على يد القائد عيسى بن موسى العباسى فى المدينة المنورة، كما قتل إبراهيم عند باخمرى على مقربة من الكوفة فى ذى القعدة من نفس السنة.

وكان محمد ذو النفس الزكية قبل مقتله قد أرسل ابنه على إلى مصر لنشر دعوته، ووجد له أنصاراً من عرب مصر، وكان ذلك فى عهد والى مصر حميد بن قحطبة (١٤٣ ـ ١٤٤هـ)، فلما علم بذلك المنصور عزل واليه لتهاونه فى مطاردة العلويين، وولى بدلا

---

(١) الكامل، جـ٥، ص ٧٣ ـ ٧٥؛ الخطط، جـ ١ ص ٣٠٢.

منه يزيد بن حاتم (١٤٤ ـ ١٥٢هـ)، ولكن ما إن وصلت الأخبار إلى مصر بقتل ذى النفس الزكية وأخيه إبراهيم، ضعف شأن العلويين وخمدت دعوتهم أما على بن محمد ذى النفس الزكية، فقد تضاربت الرزايات حول مصيره.

غير أن العلويين لم تنل لهم قناة. وظلوا ينتهزون الفرصة المناسبة للقضاء على الخلافة العباسية، ففى عهد الخليفة الهادى (١٦٩ ـ ١٧٠هـ) خرج العلويون بمكة والمدينة بزعامة الحسين بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب فى ذى القعدة سنة ١٦٩هـ، وبويع الحسين بالخلافة في المدينة، ثم سار إلى مكة، فالتقى مع الجيش العباسى بفخ، وهو واد فى طريق مكة، يبعد عنها بنحو ستة أميال، وانهزم العلويون. وكان قد اشترك فى القتال مع الحسين عماه إدريس بن عبد الله بن الحسن ويحيى. ونجح إدريس فى الإفلات مع المنهزمين، فاختفى بعض الوقت، وجدّ العباسيون فى طلبه، «فخرج به (مولاه) راشد، وكان عاقلاً شجاعاً أيداً، ذا حزم ولطف، فى جملة الحاج، متحاشا عن الناس، بعد أن غير زيه، وألبسه مدرعة وعمامة غليظة، وصيره كالغلام يخدمه، وإن أمره ونهاه أسرع فى ذلك، فسلما حتى دخل مصر ليلا». وكان على بريد مصر وقتئذ واضح مولى صالح بن المنصور، وهو من المتشيعين لعلى بن أبى طالب، وبلغه وصول إدريس إلى مصر، فأتاه إلى الموضع الذى كان مختبأ به، وساعده على الفرار إلى المغرب الأقصى، حيث أسس دولة الأدرسة.

ومما يستلفت النظر أن كثيراً من العلويين قد لجأوا إلى مصر فراراً من اضطهادات ومضايقات الخلفاء العباسيين. ومن أتى إلى مصر فى ذلك العهد السيدة نفيسة بنت الحسن ابن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب، وقد أتت مع زوجها إسحق بن جعفر الصادق، وقيل أنها كانت فيمن صلى على الإمام الشافعى عند وفاته سنة ٢٠٤هـ (٨١٩م). وتوفيت فى شهر رمضان سنة ٢٠٨هـ (٨٢٣)، وقبرها اليوم من المقابر المشهورة فى القاهرة[١].

ومازال العلويون بمصر ينعمون بالأمن بعيداً عن الخلافة العباسية فى بغداد، إلى أن جاءت خلافة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٧٤٦ ـ ٨٦١م)، فأرسل كتاباً إلى والى مصر إسحاق بن يحيى الختلى، يأمره فيه بإخراج آل أبى طالب من مصر إلى

---

(١) سيدة الكاشف: مصر فى عصر الولاة، ص ٨٩ ـ ٩٠

العراق، فأخرجهم إسحاق، «وفرق فيهم الأموال ليتجملوا بها، وأعطى كل رجل ثلاثين ديناراً، والمرأة خمسة عشر ديناراً». أما من بقى فى مصر من العلويين، فقد اضطروا إلى االاختفاء بعيداً عن أنظار العباسيين، خوفا من الاضطهاد[1]. ولما توفى المتوكل وأتى بعده إلى الخلافة ابنه المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ)، واصل سياسة التنكيل التى أتبعها أبوه مع العلويين، وأمر بعدم مساواتهم بالناس فى المعاملات، من ذلك أنه أرسل إليه واليه على مصر يزيد بن عبد الله، بألا يسمح لعلوى بامتلاك ضيعة، ولايركب فرسا، ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها، ولايمتلك إلا عبداً واحداً، وإذا حدثت خصومة بين أحد من الناس وأحد من الطالبيين، يرفض الطالبى، ويقبل قول خصمه[2].

وفى تلك الأثناء اضطربت أحوال الخلافة العباسية، واستبد الأتراك بالخلافة وتصرفوا فى أمورها، مما أدى إلى انتشار الفتن والفوضى فى الأمصار والولايات. ويعنينا هنا أنه فى خلافة المعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ / ٨٦٦ ـ ٨٦٩م) أن ثار فى الإسكندرية رجل يدعى جابر بن الوليد المدلجى فى سنة ٢٥٢هـ، واستطاع أن يبسط سيطرته على الوجه البحرى. وانضم إلى جابر أحد العلويين، وهو عبد الله بن أحمد الذى ينتسب إلى الحسين بن على بن أبى طالب، ويقال له ابن الأرقط. وعندما علم الخليفة بذلك، أرسل جيشاً ضخما بقيادة مزاحم ابن خاقان، استطاع إلحاق الهزيمة بجابر المدلجى، والقبض على ابن الأرقط، وحمل إلى العراق فى رجب سنة ٢٥٤هـ[3].

وعلى أية حال، لم يتوقف العلويون فى مصر فى عصر الولاة عن القيام بحركات مناوئة للخلافة العباسية فى سبيل الوصول إلى الحكم، ومما يثير الإعجاب أن العلويين لم يضعفوا ولم يستكينوا، على الرغم من التضحيات الكثيرة التى بذلوها. وظل العلويون يناضلون حتى نجحوا فى إقامة خلافة شيعية هى الخلافة الفاطمية.

موقف مصر من النزاع بين الأمين والمأمون:

عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد فى سنة ١٧٥هـ (٧٩١م) لابنه محمد الأمين

---

(١) الخطط، جـ٢، ص ٣٣٨.

(٢) الخطط، جـ٢، ص ٣٣٨.

(٣) الخطط، جـ٢ ص ٣٣٨.

بولاية العهد من بعده، وكان ذلك تحت تأثير زوجته زبيدة، وهي من أصل عربي، وجدّها أبوجعفر المنصور سليل البيت الهاشمي، ويمكن القول إن الأمين كان يمثل الحزب العربي في الخلافة وقتئذ، ثم عهد الرشيد لأبنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد أخيه الأمين، ويمكن القول إن المأمون كان يمثل الحزب الفارسي، لأن أمه كانت فارسية. وجعل الرشيد للمأمون حكم المشرق الإسلامي بما في ذلك خراسان، بينما جعل للأمين العراق والشام ومصر إلى آخر المغرب.

على أن الأمين بعد توليته الخلافة أظهر عدم رغبته في تنفيذ عهد أبيه، فعزل أخاه المأمون من ولاية العهد، وبايع لابنه موسى، الأمر الذى أدى إلى قيام صراع عنيف وحروب مريرة بين الأخوين لم تسلم مصر من آثارها. ذلك أن أهل مصر من العرب انقسموا إلى فريقين، أحدهما يناصر الأمين، والأخر يوالي المأمون. وبعبارة أخرى لم يكد أهل مصر يسمعون أن الأمين قد خلع أخاه المأمون من ولاية العهد، حتى غضب فريق من الجند بزعامة السرى بن الحكم بن يوسف، وطالب بعزل الأمين.

وفي غضون النزاع بين الأمين والمأمون، كان المأمون حريصاً على أن يكتسب مصر إلى جانبه، فكتب إلى زعماء وأعيان مصر يدعوهم إلى القيام بدعوته ومناصرته، فأجابه كثيرون، ومن ثم جرى خلع الأمين في مصر عام ١٩٦هـ (٨١١م)، وطرد واليه جابر بن الأشعث وحل مكانه عباد محمد بن محمد بن قبل المأمون[1]. ولكن الخليفة الأمين لم يرض بضياع مصر من نفوذه، فأرسل إلى ربيعة بن قيس زعم قبيلة قيس بالحوف كتاباً بتعيينه واليا على مصر، كما كتب إلى رجالات مصر يطلب منهم الوقوف إلى جانبه، فأجابوه. ونهض ربيعة بن قيس لمحاربة عباد بن محمد، دون أن يستطيع أى منهما أن ينتصر على الآخر، وتبدل الموقف عندما وصلت الأخبار إلى مصر بمقتل الأمين في المحرم سنة ١٩٨م وقيام المأمون في الخلافة، فتفرق الجميع. وعزل المأمون واليه على مصر عباد بن محمد وعين بدلا منه المطلب بن عبد الله الخزاعي[2].

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٢، ص ١٥٣.

(٢) النجوم الزاهرة، جـ٢، ص ١٥٧.

وفى تلك الأثناء أخذ الموقف فى مصر يتطور من نزاع بين الأمين والمأمون إلى نزاع بين رجالات مصر للاستئثار بالسلطة والنفوذ من دون الخلافة. ذلك أن عبد العزيز بن الوزير الجروى، وهو من قواد عباد بن محمد والى المأمون، دعا لنفسه واليا على مصر، وبعث عماله لجباية الخراج من الوجه البحرى، واتخذ من بلبيس مقراً له. ولكن السرى بن الحكم الذى سبق له القيام بالدعوة للمأمون، تطلع إلى السيطرة على مقاليد الأمور فى مصر، ومنافسة الجروى. وقد طال النزاع بين الجانبين حتى سنة ٢٠٠هـ (٨١٥م) حين أجمع جند الفسطاط على اختيار السرى واليا، وطرد المطلب بن عبد الله والى المأمون من مصر. وانتهى الأمر بتقسيم مصر بين الثائرين، حيث امتد نفوذ الجروى على شمال الدلتا، على حين استولى السرى على الوجه القبلى من الفسطاط حتى أسوان، واستقل بالإسكندرية بعض زعماء العرب[١]. وهكذا صارت مصر نهبا للفوضى والاضطراب.

وفى وسط الفوضى التى عمت أنحاء مصر، وصل الإسكندرية حوالى خمسة عشر ألف أندلسى ومعهم نساؤهم وأطفالهم. وكان هؤلاء الأندلسيون من ضمن من ثاروا على أمير الأندلس الحكم بن هشام الأموى فى «الربض» على الضفة الجنوبية لنهر الوادى الكبير فى رمضان سنة ١٩٨هـ (٨١٣م)، وكادوا يفتكون به، فلما أخمد ثورتهم واستقر له الأمر، أخرجهم من الأندلس عقاباً لهم[٢]، فذهب فريق منهم إلى فاس، على حين سار الفريق الآخر بحراً إلى مدينة الإسكندرية واقتحموها فى ذى الحجة سنة ٢٠٠هـ. وأقاموا لهم فيها حكومة مستقلة، وهكذا انفصلت الإسكندرية عن بقية البلاد وحكمها أولئك الأندلسيون.

وقد استمر النزاع بين الشخصيات الطموحة فى مصر، إلى أن أتى عبد الله بن طاهر قائد الخليفة المأمون من الشام إلى مصر فى سنة ٢١١هـ (٨٢٥م) ليقضى على تلك الشخصيات، ويعيد الاستقرار والهدوء إلى مصر. وعندما وصل عبد الله بن طاهر إلى مصر استطاع أن يقضى على الفتن الداخلية، ويرد الخارجين إلى طاعته، ثم توجه إلى الإسكندرية وحاصر الأندلسيون بها، فاضطروا إلى الجلاء عنها على مراكب أعدها لهم

---

(١) سيدة كاشف: مصر فى عصر الولاة، ص ٩٤.

(٢) الكامل، جـ ٥ ص ٤١٣ ـ ٤١٤؛ النجوم الزاهرة، جـ ٢ ص ١٥٨.

عبد الله، وقصدوا إلى جزيرة كريت[1]. وكانت فى أيدى البيزنطيين، فاقتحموها ونزلوا بها سنة ٢١٢هـ (٨٢٧م)، وأسسوا بها دولة زاهرة استمرت زهاء قرن وثلث، إلى أن استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين فيما بعد.

وعلى أية حال، رجعت مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية، بفضل الجهود التى بذلها عبد الله بن طاهر، بعد أن أنتشرت فيها الفوضى أكثر من عشر سنوات، وكادت تخرج من قبضة الخلافةالعباسية.

أحوال مصر الحضارية فى عصر الولاة:

عندما خرج العرب من شبه الجزيرة العربية لنشر الدين الإسلامى، كانوا يعلمون أنهم سيفتحون بلاداً عرفت الحضارة منذ آلاف السنين. وما كاد يتم الفتح العربى لمصر، حتى أدرك العرب أنهم أمام شعب أصيل مستقر، فعاملوه باحترام، ولم يتعرضوا لعقيدته وتقاليده، واستوعبوا حضارته وحضارة شعوب الأقطار المفتوحة الأخرى، واستفادوا منها فى تأسيس حضارة جديدة، هى الحضارة الإسلامية أعظم ما عرفته البشرية فى العصور الوسطى.

ومنذ الفتح العربى لمصر ازدهرت أحوالها وعمها الرخاء، وأمن أهلها، ولم يعد يشكون من ثقل الضرائب وأنواع الابتزاز ومساوىء الحكم التى عانوها من قبل. ومن هذا المنطلق اعتبرت مصر عمراً بن العاص منقذراً فاتحاً، خاصة أن عهده تميز بالعدل والتسامح والحرص على إنفاق معظم إيرادات مصر فى الإصلاحات التى تفيدها، وتعود على أهلها بالنفع والخير.

وشرع عمرو بن العاص فى غرس بذورة الحضارة الإسلامية فى مصر وبسط جناح الإسلام فى أرجائها. وكان أول عمل قام به تأسيس مدينة الفسطاط ليجعلها حاضرة البلاد ومقر الحكم. وقد قيل عمرا بن العاص أراد بعد فتحه مدينة الإسكندرية أن يتخذها عاصمة له كما كانت من قبل منذ الإسكندر الأكبر حتى نهاية العصر البيزنطى فى مصر، وكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك، ولكن الخليفة رفض وكتب إلى عمرو قائلا: «إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء وصيف».

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٢ ص ١٩١ ـ ١٩٢.

وكان من الطبيعى أن يختار عمرو عاصمة مصر فى نقطة برية سهلة الاتصال مع بلاد العرب، وفى موضع متوسط يمكن من خلاله أن يلاحظ قسمى البلاد المصرية شمالا وجنوبا، ليسهل عليه حكمها منه[1]. وكان موضع الفسطاط فضاء ومزارع بين النيل والمقطم، ولم يكن فى هذا المكان من البناء سوى حصن بابليون الذى كانت تنزل به الحامية البيزنطية، وكان إلى الشمال والشرق من هذا الحصن أشجار ونخيل وكروم، وبنى الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة. وكانت الفسطاط تقع فى المنطقة التى حول جامع عمرو، وتمتد شرقاً حتى قرب سفح جبل المقطم، وشمالا حتى جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر، وغرباً حتى النيل، وجنوباً حتى ساحل أثر النبى[2].

وشيد عمرو بن العاص أول جامع بمصر سنة ٢١هـ فى الفسطاط، كان يمثل ظهور الإسلام فى مصر وانضوائها تحت الحكم العربى، وقد عرف هذا الجامع فى عهد ازدهاره بتاج الجوامع، ثم عرف بعد أن تقادم به الزمن بالجامع العتيق، ويقع شمالى حصن بابليون، وقد أصبح هذا الجامع مناراً ساطعاً للعلم والثقافة، يحكى تاريخ مصر الإسلامية عبر العصور إلى اليوم.

الحياة الاقتصادية:

وفى عصر الولاة إهتم حكام مصر بشئونها الاقتصادية، فأولوا عنايتهم بالزراعة عقب الفتح مباشرة، وعملوا على زيادة الغلات والمحاصيل، واهتموا بشئون الرى، ولهذا أقاموا مقاييس للنيل لمعرفة الزيادة والنقصان فى مياهه. فبنى مسلمة بن مخلد مقياساً فى جزيرة الروضة، وبنى عبد العزيز بن مروان مقياساً بحلوان، وأقام أسامة بن زيد التنوخى عامل الخراج بمصر فى خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ) مقياساً كبيراً بالروضة سنة ٩٧هـ[3].

ويلاحظ أن الصناعة فى مصر فى عصر الولاة، كان يقوم بها القبط، ثم أصبح معظم الذين يقومون بها من المصريين الذين ظلوا على دينهم والذين أسلموا، لأن العرب فى أول ذلك العصر كان بيدهم السياسة والحكم والحرب، وحتى بعد أن بدأ العرب يختلطون

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ عمرو بن العاص، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٣.

(٣) الخطط، جـ١ ص ١٥٦؛ النجوم الزاهرة، جـ ٢ ص ٣١٠.

بالأهالى ويشتغلون بالزراعة منذ أوائل القرن الثانى الهجرى لم يصبحوا الأغلبية بين الصناع فى مصر[١].

ومن الصناعات الهامة التى اشتهرت بها مصر منذ القدم، وازدهرت فيما بعد فى العصر المسيحى، صناعة المنسوجات. ولما فتح العرب مصر اعتمدوا فى أول الأمر على الصناع والفنانين الأقباط، وبدأت صناعة النسيج تستغنى شيئاً فشيئاًعن الرسوم الآدمية، وأخذت الكتابة والزخرفة النباتية والهندسية ورسوم الطيور والحيوانات تسود فى زخرفة الأقمشة الإسلامية فى مصر[٢]. ويلاحظ أن معظم المراكز الرئيسية هى التى يكثر فيها الأقباط. وكان القطن والكتان ينسجان فى الوجه البحرى بتنيس والإسكندرية وشطا ودمياط ودبيق والفرما، فضلا عن البهنسا فى مصر الوسطى، أما الأقشمة الحريرية فكانت مراكز صناعتها فى الإسكندرية ودبيق. ومن مدن الصعيد المشهورة بالمنسوجات أسيوط وأخميم[٣]. وقد ظلت الزخارف القبطية غالبة على المنسوجات المصرية فى القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة، أى من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادى[٤].

وقد لقيت التجارة فى مصر بعد الفتح العربى لها العناية اللازمة، نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة على وجه الخصوص. وأهم ما قاموا به فى هذا الصدد إعادة حفر القناة التى كانت توصل بين النيل والبحر الأحمر، بغرض تسهيل حمل الغلال إلى الحجاز، وقد تم حفرها فى ستة أشهر، وقيل فيما لايتجاوز السنة، وذلك فى سنة ٢٣هـ (٦٤٢م) فى ولاية عمرو بن العاص، وسميت هذه القناة باسم خليج أمير المؤمنين، نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب[٥]، كما عرفت فيمابعد باسم الخليج الحاكمى نسبة إلى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله المتوفى سنة ٤١١هـ (١٠٢١م)، واستمرت قائمة حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى[٦].

---

(١) سيدة كاشف: مصر فى عصر الولاة، ص ١٥١ ؛مصطفى طه بدر: مصر الإسلامية، ص ٥٧.

(٢) زكى محمد حسن: الفنون الإسلامية (القاهرة بدون تاريخ)، ص ٣٤٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٤٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

(٥) السيوطى: حسن المحاضرة (القاهرة١٩٦٧، جـ١، ص ١٥٦ ـ ١٥٨ ؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٦٢ ـ ١٦٥ ؛ هايد: تارى التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، جـ١ ص ٥٧ ـ ٥٨.

(6) Hitti, Hist . of Arabs., p. 165.

وكانت المعاملات التجارية تتم فى مصر قبل الفتح العربى وبعده بالدينار البيزنطى ـ وهو من الذهب ـ والدراهم الفضية، وظل الأمر على هذا النحو حتى ضربت السكة العربية ذات الوزن الثابت فى خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥م)، وحرّم استعمال النقود الأجنبية.

البحرية:

عندما ظهر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية لم تكن للعرب دراية بركوب البحر، ولما فتحت بلاد الشام، شاهد العرب سفن البيزنطيين، فتطلعت نفوسهم إلى مجاراة أعدائهم وركوب البحر مثلهم، وألح معاوية بن أبى سفيان على الخليفة عمر بن الخطاب أن يأذن له بغزو بلاد البيزنطيين بحراً لقربها منه، فرفض عمر[١]. وقد سبق الإشارة إلى أن عمراً بن العاص بعد أن فتح مصر أراد أن يتخذ الإسكندرية عاصمة له، ولكن عمر بن الخطاب رفض أن تحول الماء بينه وبين المسلمين، وأشار عليه باتخاذ مدينة أخرى غير الإسكندرية، مما يدل على مبلغ كره العرب ركوب البحر، فى الوقت الذى لم يكونوا أمة بحرية.

وفى عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ـ ٣٥هـ)، بدأ العرب فى تجهيز أسطول ليقضى على أى هجوم معاد من ناحية البحر، ويقوم بالجهاد ضد أملاك البيزنطيين، وقد أسند بناء هذا الأسطول إلى العناصر الخبيرة فى البلاد المفتوحة فى كل من مصر والشام، وبخاصة إلى القبط الذين أسهموا بنصيب وافر فى بناء الأسطول الإسلامى، بحيث لم تأت سنة ٣٣هـ (٦٥٤م) حتى كان للعرب أسطول ضخم، استطاعوا به أن يحطموا السيادة البيزنطية فى البحر المتوسط ويستولوا على بعض جزره.

وفى سنة ٣٤هـ (٦٥٥م)، قدم أسطول لغزو الإسكندرية بقيادة الإمبراطور قنسطانز الثانى Constans II لاسترداد مصر من العرب، وكان والى مصر أنذاك هوعبد الله بن سعد ابن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان، فخرج عبد الله بن سعد على رأس الأسطول المصرى لصد خطر البيزنطيين، وفى نفس الوقت بعث معاوية بن أبى سفيان أسطوله بقيادة بسر بن أبى أرطاه للتعاون مع الأسطول المصرى. وتقابل الأسطولان مع الأسطول البيزنطى بقيادة قنسطانز الثانى فى فونكس Phoenix على ساحل ليكيا جنوبى

---

(١) الخطط، جـ٢، ص ١٨٩.

آسيا الصغرى فى معركة عرفت باسم ذات الصوارى لكثرة صوارى السفن، وقد كان القتال عنيفا بين الطرفين، وفى هذه المعركة حوّل العرب القتال البحرى إلى اشتباك وجها لوجه، إذ ربطوا السفن العربية بالسفن البيزنطية، ثم اتخذوا من ظهر السفن المتلاحمة ميادين قتال أشبه بميادين البر. وبذلك حقق العرب أول انتصار بحرى عظيم فى الإسلام، وصفه المؤرخون بأنه يرموك الثانية. وعلى أية حال، لم يستغل العرب هذا النصر ويندفعوا إلى القسطنطينية، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى مقتل الخليفة عثمان الذين حدث فى ذلك الوقت[١].

الحياة العلمية:

أصبحت مصرمنذ الفتح العربى لها مركزاً علمياً فى الدولة العربية الإسلامية. بيد أن الحركة العلمية فى بداية عصر الولاة لم تكن حركة فلسفية ولادنيوية، إنما كان شأنها شأن جميع المراكز العقلية فى صدر الإسلام، اعتمدت أساساً على الدين؛ ونهض بهذه الحركة فى بادىء الأمر الصحابة الذين وفدوا إلى مصر أثناء الفتح العربى وبعده فأخذوا يعلمون المصريين فيها[٢]. ويرجع الفضل إلى الخلفاء فى أنهم منذ وقت مبكر قد اهتموا بمصر فى مجال العلوم الدينية، فاختاروا لها خيرة العلماء وأوسعهم ثقافة وفهما لشئون الدين. فعلى سبيل المثال بعث الخليفة عمر بن الخطاب إلى أهل مصر حبان بن أبى جبلة ليفقههم، وليكون مرجعاً فى شئون دينهم. وسار على هذا النهج من جاء بعده من الخلفاء، حتى أن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز أوفد إلى مصر نافعاً، وهو فقيه أهل المدينة، ليفقه أبناء مصر بشئون دينهم، وليعلمهم السنن، وأقام نافع بمصر مدة طويلة، وترك فيها كثيراً من التلاميذ الذين حملوا من بعده لواء الدراسات الدينية فى البلاد[٣]. وهكذا بمرور الزمن وجدت فى مصر طبقة من العلماء أخذوا عن الصحابة والتابعين وعن تابعيهم، وكان معظم هؤلاء العلماء من غير العرب كما كان الحال فى غير مصر؛ وقد

---

(١) الكامل، جـ٣، ص ١٣ ـ ١٤؛ الخطط، جـ ٢ ص ١٨٩ ـ ١٩٠؛ سيدة الكاشف: مصر فى عصر الولاة، ص ٥٤ ـ ٥٦؛ إبراهيم العدوى: قوات البحرية فى مياه البحر المتوسط (القاهرة ١٩٦٣)، ص ٤٤ ـ ٥٢؛ Hitti, Hist. of the Arabs., pp. 200-201

(٢) أحمد أمين: فجر الإسلام (القاهرة ١٩٨٧)، ص ١٩٠.

(٣) إبراهيم العدوى: ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب (القاهرة ١٩٦٣)، ص ١١.

اشتهر من هؤلاء العلماء عدد كبير فى شتى العلوم المختلفة، فكان منهم الفقهاء والمحدثون والرواة ورجال اللغة والأدب والتاريخ[1].

ومن أشهر الصحابة الذين نزلوا مصر بعد الفتح وعلمّوا بهاعبد الله بن عمرو بن العاص، الذى كان أكثر الناس حديثاً عن الرسول ﷺ، ويعد بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية، وأخذ عنه كثير من أهل مصر، وكانوا يكتبون عنه ما يحدث، إلى أن توفى سنة ٦٥هـ (٦٨٤م). وقد اشتهر من مدرسة مصر الدينية بعد الصحابة يزيد بن أبى حبيب المتوفى سنة ١٢٨هـ (٧٤٦م)، وهو نوبى الأصل من دنقلة، أخذ العلم عن بعض الصحابة فى مصر، وقال عنه الكندى: «إنه أول من نشر العلم بمصر فى الحلال والحرام ومسائل الفقه»؛ وكان يزيد عالما بالفتن والحروب، وخاصة ما يتعلق بفتح مصر وشئونها وولاتها، وهو أحد المصادر الهامة التى نقل عنها الكندى كتابه «ولاة مصر وقضاتها»[2].

ومن أشهر علماء مصر ومحدثيها فى عصر الولاة، أبو رجاء المصرى المتوفى سنة ١٢٨هـ وكان فقيه مصر وشيخها ومفتيها، وقال عنه الليث بن سعد: «هو سيدنا وعالمنا»(٣). وكذلك عثمان بن الحكم الجذامى المتوفى سنة ١٦٣هـ(٧٧٩م)، وهو أول من أدخل مذهب الإمام مالك فى مصر[4]. ومن هؤلاء العلماء عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد، وكانا من أشهر تلاميذ يزيد بن حبيب. أما عبد الله فهو مغربى، أصله من حضر موت، وقد قابل كثيراً من التابعين وأخذ عنهم، وكان يدون ما يسمع، وهو أول من تولى القضاء فى مصر من قبل الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، وأول قاض خرج مع الناس فى طلب الهلال، وفى ذلك يقول الكندى: «طلب الناس هلال رمضان وابن لهيعة على القضاء، فلم يروا شيئاً، فأتى رجلان فزعما أنهما رأياه، وكان الأمير حينئذ موسى بن على، فبعث بهما إلى ابن لهيعة، فسأل عن عدالتهما، فلم يعرفا. فاختلف الناس وشكوا. فلما كان العالم المقبل، خرج ابن لهيعة مع الناس فى طلب الهلال، فكان أول قاض فعل

---

(١) مصطفى بدر: مصر الإسلامية، ص ٧٠.

(٢) أحمد أمين فجر الإسلام، ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٢٩٩.

(٤) حسن المحاضرة، جـ ١، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

ذلك»[1]، وقد توفى سنة ١٧٤هـ (٧٩١م). أما الليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥هـ (٧٩٢م)، فقد عاصر ابن لهيعة، ومن المرجح أنه ولد فى مصر فى قلقشندة (من قرى القليوبية)، وكان يحسن القرآن الكريم والنحو، ويحفظ الحديث والشعر، وقد طوف فى كثير من البلدان لأخذ العلم، فرحل إلى مكة وبيت المقدس وبغداد، ولقى تسعة وخمسين تابعاً حدث عنهم، وكان له اتصال بالإمام مالك فى المدينة[2]، واشتهر بعلمه الواسع فى تاريخ مصر، وخاصة فيما يتعلق بأحداث الفتح العربى لها. ومن أوائل جامعى الحديث فى الإسلام عبد الله بن وهب المصرى المتوفى سنة ١٩٧هـ (٨١٢م)، والذى جمع بين الفقه والرواية والعبادة، وأخذ الفقه عن الإمام مالك والليث بن سعد، وقد عرض عليه منصب القضاء فرفضه[3].

وقد ظهر فى القرن الثانى للهجرة مذهباً أبى حنيفة المتوفى سنة ١٥٠هـ (٧٦٧م) ومالك المتوفى سنة ١٧٩هـ (٧٩٥م)، فانحاز إلى كل مذهب فريق من المسلمين، وكذلك كان الحال فى مصر، فقد انقسم المصريون قسمين، قسم تبع مذهب أبى حنيفة، وآخرتبع مذهب مالك، وحدث بين أتباع المذهبين نزاع ونقاش، حتى وفد على مصر الإمام محمد بن إدريس الشافعى[4]. وقد ولد الشافعى بغزة سنة ١٥٠هـ (٧٦٧م)، ونشأ بمكة، وحفظ القرآن وهو ابن سبع، والموطأ وهو ابن عشر، ثم أتى إلى مصر، وصنف بها كتبه، وكون بها مذهبه الجديد، وتوفى بها سنة ٢٠٤هـ (٨١٩م)[5]، ودفن بالقرافة الصغرى.

ومن تلامذة الشافعى أبو يعقوب يوسف بن يحيى القرشى المعروف بالبوطى. كان خليفة الشافعى فى حلقته بمسجد عمرو بن العاص بعده، وقال الشافعى فيه: «ما أحد أحق بمجلسى من أبى يعقوب، وليس أحد من صحابى أعلم منه»، وتوفى سنة ٢٣١هـ

---

(١) ابن حجر العسقلانى: رفع الإصر عن قضاة مصر، القسم الثانى (القاهرة ١٩٦١، تحقيق حامد عبد المجيد، مراجعة إبراهيم الإبيارى، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٢.

(٢) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٣٠١.

(٣) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٠٣.

(٤) جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، جـ ١ (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٥) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

(٨٤٥م)[١]. وكذلك الربيع المرادى المتوفى سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م)، كان رجلا صالحاً، كثير الورع والزهد، كثير الحديث[٢].

وهنا نلاحظ أن المذهبين المالكى والشافعى قد أصبحا متعادلين فى مصر، أما المذهب الحنفى فكان أقل شأناً منهما ولو أن الخلافة العباسية كانت تؤيده، فى حين لم يكن للمذهب الحنبلى أو المذاهب السنية الأخرى أهمية كبيرة فى مصر الإسلامية[٣].

ولم يكن النشاط الدينى فى عصر الولاة قاصراًعلى المسلمين من غير العرب الذين وفدوا على مصر، بل شارك فيه المصريون الذين أسلموا. ومنهم عثمان بن سعيد المصرى مولى آل الزبير بن العوام المعروف بورش لشدة بياضه، والورش شيىء يصنع من اللبن، وقد انتهت إليه رياسة القراء بالديار المصرية، وكان متضلعاً فى اللغة العربية[٤]، واشتهر بإحدى القراءات المنسوبة إليه، وتوفى سنة ١٩٧هـ (٨١٢م).

وكانت مصر رائدة التصوف فى العالم الإسلامى، فقد ظهر فى عصر الولاة أبو الفيض، ثوبان بن إبراهيم المصرى المعروف بذى النون. وقد ولد ذو النون بأخميم (بمحافظة سوهاج)، ويجعله كثيرون نوبى الأصل، وروى عن الإمام مالك والليث بن سعد وابن لهيعة وغيرهم، وكان أوحد وقته علماً وورعاً وحلماً وأدباً، وهو أحد أقطاب الصوفية ومؤسسها فى مصر، وأول من تكلم ببلده فى ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية». وقد أنكر عليه بعض أهل مصر ما جاء به من التعاليم الصوفية وقالوا: «أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة»، وسعوا به لدى الخليفة العباسى المتوكل، ورموه بالزندقة عنده، فأحضروه من مصر، فلما دخل عليه فى سامرا، وعظه، فبكى المتوكل ورده مكرماً، وتوفى بالجيزة فى سنة ٢٤٥هـ (٨٦٠م)[٥]. ويقول ذو النون فى التصوف الإلهى:

---

(١) محمد عبد المنعم خفاجى: التراث الروحى للتصوف الإسلامى فى مصر (القاهرة بدون تاريخ)، ص ٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٥١.

(٣) سيدة الكاشف: مصر فى عصر الولاة، ص ١٨١.

(٤) النجوم الزاهرة، جـ٢ ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١ ص ٣١٥ ـ ٣١٨؛ النجوم الزاهرة، جـ٢ ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

أمـوت ومـا مـاتت إليك صـبـابتى ... ولاقـضـيت من صـدق حـبك أوطارى
مناى المنى كـل المنى أنـت لى منـى ... وأنت الغنى كل الغنى عند إقـصـارى
وأنت مـدى سـؤلى وغـاية رغـبـتى ... ومـوضع شكواى ومكنون إضـمـارى
تحـمـل قلبى فـيك مـالا أبثـه ... وإن طال سقـمى فيك أو طال إضرارى
وبين ضلوعى منك نورك قـد بدا ... ولم يبـد باديه لأهلى ولاجـارى[1]

والواقع أن مصر فى عصر الولاة قد شهدت نشاطاً علمياً بارزاً، نهض به علماء مصريون وغير مصريين، وصارت مصر مركزاً إجتذب إليه العلماء والطلاب من الأقطار المجاورة، من بلاد المغرب والأندلس، فأثرت مصر على سكانها فى المذاهب والعلوم الدينية.

---

(١) عبد المنعم خفاجى: التراث الروحى للتصوف الإسلامى فى مصر، ص ٤١.

الفصل الثالث

الدولة الطولونية فى مصر

(٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥م)

ـ أحمد بن طولون والاستقلال بمصر.

ـ ثورات العلويين.

ـ علاقة أحمد بن طولون بالخلافة العباسية.

ـ خمارويه بن أحمد بن طولون.

ـ نهاية الدولة الطولونية.

ـ بعض مظاهر الحضارة فى مصر فى عصر الطولونيين.

العمارة والفنون.

الجيش والبحرية.

الأحوال الاقتصادية.

العلوم الدينية.

الحياة الأدبية واللغوية.

المؤرخون.

سبق الإشارة إلى أن الدولة الأموية سقطت فى سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م)، وقامت على أنقاضها الدولة العباسية التى امتد حكمها خمسة قرون إلى أن سقطت أخيراً على أيدى المغول بزعامة هولاكو حفيد جنكيزخان سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م). وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ الدولة العباسية إلى عصرين متميزين، العصر العباسى الأول، وقد استمر مائة عام (١٣٢ ـ ٢٣٢هـ / ٧٤٩ ـ ٨٤٧م)، وتميزت فيه الدولة العباسية بالقوة، وكانت حكومة بغداد حكومة مركزية، والخليفة يحكم دولته حكماً مطلقاً. أما العصر العباسى الثانى (٢٣٢ ـ ٦٥٦هـ/ ٨٤٧ ـ ١٢٥٨م)، فمن أهم مميزاته أن المركزية لم يعد لها وجود، بمعنى أن الخليفة العباسى لم يعد صاحب السلطة المطلقة فى دولته، بل انقسمت الدولة إلى دول مستقلة تخضع للخليفة العباسى خضوعاً اسميا.

وفى العصر العباسى الثانى استفحل نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية، واستبدوا بالسلطة دون الخلفاء العباسيين، وصاروا لايولون إلا الخلفاء الضعفاء حتى يكونوا ألعوبة فى أيديهم، لاحول لهم ولاقوة. ولعل أصدق وصف يتناول ضعف الخلفاء العباسيين خلال عصر نفوذ الأتراك، وهو قول الشاعر دعبل الخزاعى المتوفى عام ٢٤٦هـ (٨٦٠م).

خليفة مات، لم يحزن له أحد. وآخر قـام، لم يفـرح به أحد

فمـر ذاك ومر الشؤم يتبعـه وقـام ذا فقام النحـس والنكـد

وفى تلك الفترة المتداعية من الخلافة العباسية، كان الخلفاء يولون حكم مصر لبعض الأتراك فى صورة إقطاع مقابل دفع جزية معلومة، لكن هولاء المقطعين كانوا لايفضلون الابتعاد عن بغداد والخلافة، خشية إبعادهم عن مسرح الأحداث السياسية، ويكتفون بإرسال من ينوب عنهم فى حكم مصر. ومن هؤلاء النواب الذين قدموا إلى مصر سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م) أحمد بن طولون، وهو من المماليك الأتراك الذين نشأوا فى البلاط العباسى.

أحمد بن طولون والاستقلال بمصر:

ينتسب مؤسس الدولة الطولونية وهو أحمد بن طولون إلى العنصر التركى الذى سيطر ـ كما ذكرنا ـ على مقاليد الدولة الإسلامية منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، حتى استبد بالأمور تماما حين تولى الخلافة العباسية المتوكل على الله سنة ٢٣٢هـ (٨٤٧م). وكان طولون والد أحمد بن طولون أحد المماليك الأترك الذين أهداهم نوح بن

أسد السامانى حاكم بخارى إلى الخليفة العباسى المأمون[1]. ونشأ طولون فى البلاط العباسى، وتدرج فى المناصب حتى شغل منصب قائد الحرس الخاص للمأمون[2]، وامتد العمر حتى خدم الخليفة العباسى المعتصم، ولعب دوراً هاماً فى الحياة السياسية ببغداد، وأنجب عدة أبناء كان من بينهم أحمد بن طولون.

ولما تقلد القائد باكباك التركى مصر من قبل الخلافة العباسية، استخلف عليها أحمد بن طولون لأمانته وتدينه، وجعله على حاضرتها وضم إليه جيشاً، فدخلها فى شهر رمضان سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م)، وبعد فترة قصيرة لقى باكباك مصرعه، وحل محله في ولاية مصر أمير تركى آخر إسمه يارجوخ. ورأى أحمد بن طولون لتأمين مركزه فى مصر أن يتزوج إبنة هذا الوالى الجديد، ونتيجة لذلك أقره صهره على مصر وكتب إليه: «تسلم من نفسك إلى نفسك»[3]. وقد أثنى المؤرخون على أحمد بن طولون وأشادوا بنشأته وفضائله، من ذلك ما ذكره ابن خلدون[4] قائلاً: «سار (أحمد بن طولون) إلى طرسوس، وأعجبه ما عليه أهل الحق من تغيير المنكر وإقامة الحق فأنس، وعكف على طلب الحديث، ثم رجع إلى بغداد وقد امتلأ علما ودينا وسياسة». وقال عنه المقريزى[5]: «وكان قد نشأ نشوءاً جميلا، وطلب الحديث، وأحب الغزو وخرج إلى طرسوس مرات، ولقى شيوخ المحدثين وسمع عنهم، وكتب العلم وحصل من ذلك قطعة كبيرة. وصحب هناك جماعة من الزهاد وأهل الدين والورع فتأدب بآدابهم وحسنت طريقته وظهر فضله، حتى تمكن له فى قلوب الأولياء ما ارتفع به على طبقته وبان فضله على وجوه الأتراك، وصار عندهم ممن يوثق به».

وعندما تولى أحمد بن طولون حكم مصر، لم تكن مهمة سهلة، إذ كان عليه التخلص من منافس قوى هو عامل الخراج أحمد بن المدير الذى كان يضخع نفوذه

(١) الخطط، جـ ١ ص ٣١٢.

(٢) النجوم الزاهرة، جـ٣، ص ١.

(٣) البلوى: سيرة أحمد بن طولون (القاهرة بدون تاريخ)، تحقيق محمد كرد على، ص ٤٢ ـ ٤٦؛ المقريزى: المقفى، (بيروت ١٩٩١)، جـ ١ ص ٤١٩ ـ ٤٢٠.

(٤) العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت ١٩٨٨)، جـ٤، ص ٣٨٦.

(٥) الخطط، جـ١، ص ٣١٢ ـ ٣١٣؛ المقفى، جـ١، ص ٤١٨.

للخليفة العباسى، وحرم أحمد بن طولون من مباشرة شئون مصر المالية. كما كان عليه التخلص من شقير صاحب البريد الذى كان لايخضع لابن طولون، وينقل أخباره للخليفة أولا بأول. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل اتفق شقير وابن المدبر على مكاتبة الخليفة بعزل ابن طولون. ولكن ابن طولون هوالذى استطاع أن يعزل كلا من ابن المدبر وشقير بوسائله الخاصة وذلك باسترضاء الخليفة ورجال البلاط فى الخلافة بالهدايا والأموال والتحف[1]، ومن ثم أصبح ابن طولون صاحب السلطة المطلقة فى مصر دون منازع.

ويرى الدكتور على إبراهيم حسن[2] أن قيام الدولة الطولونية، كان الحد الفاصل بين نظام الولاية القائم على الفوضى والاضطراب، والذى استمر فى مصر قرابة قرنين ونصف، وبين نظام الولاية القائم على الوراثة فى الأسرة الطولونية، التى يعتبر عهدها أول عهد الاستقلال الحقيقى فى تاريخ مصر السياسى فى العصور الوسطى. والواقع أن نظام الولاية فى مصر قبل أن يتولى ابن طولون حكمها لم يكن كله قائماً على الفوضى والاضطراب، فقد شهدت مصر منذ الفتح العربى لها إلى قيام الدولة الطولونية ولاة معظمهم من الأكفاء، عملوا على إقامة مجتمع أساسه العدالة وفقاً لمبادى الإسلام، ولم يستهدف هذا المجتمع خدمة الحاكم أو طبقة معينة على نحو ما ساد فى العصرين الرومانى والبيزنطى، إنما انصرف المصريون لمزاولة شئون حياهم اليومية، لايشكون فى غالب الأحوال من ثقل ضرائب أو تعسف حكم أحنبى بغيض.

وهنا نسأل، هل كان أحمد بن طولون أول من استقل بحكم مصر عن الدولة الإسلامية استقلالا حقيقياً؟ الواقع أن الاستقلال فى المصطلح الإسلامى يختلف عما نفهمه فى الوقت الحاضر من تحقيق السيادة الخارجية،بمعنى ألا يكون على الدولة نفوذ غير نفوذ أبنائها، وأن هذا الاستقلال لايشوبه أى تدخل فى شئون الدولة الداخلية أو أى قيد على مكانتها فى المجتمع الدولى. أمافى العصور الوسطى، فإن العالم الإسلامى كان يؤلف وحدة روحية ووحدة سياسية برئاسة الخليفة إمام المسلمين، وكان الناس لايعترفون بحكم

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٦ ص ١٩٥ ؛ البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٣ - ٤٤ ؛النجوم الزاهرة، جـ٣ ص ٧.

(٢) مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى (القاهرة ١٩٤٩)، ص ٣٠٨.

لايعترف به خليفة، ولاينظرون إلى من يغفل أمر الخلافة إلا نظرتهم إلى الخوارج الذين يشذون عن رأى الجماعة، وللوالى أن يعطى نفسه من السلطات الداخلية ما طاب له، وله أن يورث الحكم لأولاده على الصورة التى يراها، وليس عليه إلا أن يعترف بالخليفة إماماً للمسلمين ويعترف به الخليفة حاكما شرعيا على البلاد التى يحوزها[1]. وهنا ينبغى أن نضع فى الاعتبار أنه لم يكن من الممكن أن يستقل أحمد بن طولون بمصر نهائيا عن الخلافة العباسية، شأنه فى ذلك شأن أى والٍ آخر من ولاتها، وإلا اعتبر خارجاً على السلطة الشرعية، وإنما كان يستطيع أن يجعل من إمارته فى مصر إمارة استيلاء، وبمقتضاها يصبح أميراً مسئولا خرج عن طاعة الخليفة واستأثر بالإقليم لنفسه، فيكون تقليده صوريا على كره من الخليفة، الذى يقلده إياه حفاظاً لهيبته، وحتى لاتتعطل الأحكام الشرعية[2]. وبمعنى أخر، كان ظهور الدولة الطولونية فى مصر يمثل انتقالا من عصر التبعية المطلقة إلى عصر الاستقلال بالصورة التى عرفناها، انتقالا من العهد الذى كانت ترسم فيه السياسات فى حاضرة الخلافة ثم تحمل إلى مصر لكى ينفذها الولاة، إلى عهد آخرتنبع فيه سياسة البلاد من حاضرتها ووفق ظروفها سواء رضيت الخلافة عنها أم لم ترض، إنتقال من عهد الوالى المحدود السلطان إلى عهد الأمير القوى الواسع السلطان الذى تسنده جيوشه وأساطيله، تأتمر بأمره وتحقق أهدافه وطموحاته[3]. ومن ثم لم يعد للخليفة العباسى أى نفوذ سياسى على مصر، فيما عدا أنها اكتفت بذكر إسمه فى الخطبة ونقشه على السكة، كما دأبت مصر على إرسال جزء من الخراج إلى بغداد عن طواعية، تعبيراً عن انتمائها الدينى للإسلام الذى يجسده الخليفة من ناحية، وكدليل ارتباط تقوم عليه وحدة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها كانت جميع الدول المستقلة فى العالم الرسلامى تحرص عليه من ناحية أخرى.

ثورات العلويين:

رأينا فى عصر الولاةأن العلويين قاموا بثورات فى مصر، بسبب ما لاقوه من تعذيب

---

(١) حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولونى (القاهرة ١٩٦٠) ص ٥٨ - ٥٩.

(٢) عبد المنعم ماجد: خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر (القاهرة ١٩٥٨)، س ٥٧.

(٣) حسن محمود: المرجع السابق، ص ١٨٨.

واضطهاد على يد ولاة مصر. ولما آل إلى أحمد بن طولون أمر مصر، حدثت في عهده عدة ثورات أشعلها العلويون، كلفته الكثير من الجهد والأموال. وأول هذه الثورات كان على رأسها بغا الأصغر وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا، الذى ترك العراق ونزل مع أتباعه في موضع بين الإسكندرية وبرقة يقال له الكنائس، وذلك في جمادى الأول سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٩م)، ثم اتجه بجموعه إلى الصعيد، فأرسل إليه أحمد بن طولون جيشاً بقيادة بهم بن الحسين، هزمهم وأتى برأسه إلى الفسطاط[١].

ولعل من أهم الثورات العلوية، ثورة ابن الصوفي العلوى، واسمه إبراهيم بن محمد بن يحيى من سلالة على بن أبي طالب، وقد ثار في سنة ٢٥٣هـ (٨٦٧م) في مصر العليا، واستطاع الاستيلاد على إسنا (بمحافظة قنا) في ذى الحجة سنة ٢٥٥هـ (أكتوبر ٨٦٨م)، فنهبها وقتل جمعاً من أهلها. ولما استفحل خطره، جرد إليه ابن طولون جيشا بقيادة أزداد تغلب عليه ابن الصوفى، ومثل بقائده أشنع تمثيل[٢]. فبادر ابن طولون بإرسال جيش آخر بقيادة بهم بن الحسين، التقى بابن الصوفى في أخميم في ربيع الأول عام ٢٥٦هـ (٨٧٠م)، واستطاع بهم التغلب على ابن الصوفى، فاضطر إلى الفرار، ومضى إلى الصحراء الغربية حيث بقى بها ما يقرب من أربع سنوات. وفى سنة ٢٥٨هـ (٨٧١م) خرج ابن الصوفى من عزلته. وتوجه إلى الأشمونين (مركز ملوى بمحافظة المنيا). وعندئذ بعث إليه أحمد بن طولون جيشاً، إلا أن هذا الجيش وجد ابن الصوفى قد اتجه صوب أسوان للقاء أبى عبد الرحمن العمرى، الذى ازداد نفوذه في أسوان وشمال النوبة، ورأى فيه منافساً خطيراً له. وفى جنوب مصر التقى ابن الصوفى بالعمرى في معركة عنيفة، انتهت بهزيمة ابن الصوفى هزيمة ساحقة ارتد على إثرها إلى أسوان، وهناك عاث فساداً، وقطع ثلاثمائة ألف نخلة. وما أن سمع ابن طولون بذلك، حتى أرسل مدداً لبهم بن الحسين، غير أن ابن الصوفى غادر أسوان أثر خلاف بينه وبين أنصاره، ودخل بلاد البجة إلى أن وصل ميناء عيذاب على البحر الأحمر، ومنها إلى مكة[٣].

---

(١) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٢١٢؛ البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص ٦٢؛ الخطط، جـ ص٣١٨.

(٢) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٢١٣؛البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص ٦٢ ـ ٦٣؛ الكامل، جـ٦ ص ٢٢٦ ص٢٢٧.

(٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٢١٣؛ البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص ٦٣ ـ ص٦٤؛ محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى، ص ٦٦ ـ ٦٧.

أما ثورة العمرى التى اقترنت بثورة ابن الصوفى، فإنها كانت أشد عنفا منها، إذ أنها عرضت دولة أحمد بن طولون لخطر شديد. والعمرى هذا من سلالة عمر بن الخطاب، واسمه عد الله بن عبد الحميد بن عبد العزيز، وكنيته أبو عبد الرحمن العمرى، ولد بالمدينة المنورة ونشأ بها، وأتى إلى مصر وسمع من شيوخها، ثم غادرها إلى القيروان حيث أمضى شطراً من حياته، ثم عاد إليها عام ٢٤١هـ (٨٥٥م) بعد أن غدا عالما فقيها، وإبان وجوده بمصر تناهى إلى سمعه خبر المعدن ببلاد البجة، فاستهواه وسار إلى زسوان سعيا وراءه، وهناك استطاع أن يجمع حوله لفيفا من الأنصار، حتى أصبح لديه جيش لايستهان به. وفى أسوان وقف العمرى موقف المدافع عن الإسلام ضد النوبيين.

وقلق ابن طولون من جراء استفحال نشاط العمرى فى أسوان وبلاد النوبة والبجة، وخشى أن يطمع العمرى فى مصر، فجرد إليه جيشا، ولما وصل الجيش إلى أسوان أراد قائده أن يستغل فرصة انشغال العمرى مع النوبيين فينقض عليه، ولكن العمرى احتج إليه بأنه غير ثائر، وأضاف أنه لم يؤذ مسلماً قط، وإنما خرج لمحاربة النوبيين، ولكن قائد الجيش الطولونى لم يلتفت إلى كلام العمرى، ودار بينهما قتال مرير، وعند ذلك اضطر العمرى إلى القتال فى جبهتين: فى الشمال ضد الطولونيين، وفى الجنوب ضد النوبيين، ومع أن الجيش الطولونى كان أكثر عدداً، إلا أن العمرى أوقع به هزيمة فادحة[١].

وفكر أحمد بن طولون فى الانتقام من العمرى، لكنه آثر السلامة بعد أن كتب له العمرى «أنه فى مائة ألف أو يزيدون»، ومن حسن حظ ابن طولون أن العمرى لم يبق طويلا، إذ قتله غلامان من قبيلة مضر غيلة، وحملت رأسه إلى ابن طولون. وهكذا انتهت حياة ذلك الثائر المغامر، الذى هدد دولة أحمد بن طولون[٢]، وكاد أن يزعزع أركانها.

علاقة أحمد بن طولون بالخلافة العباسية:

ظهرت شخصية مصر المستقلة فى عهد أحمد بن طولون فى أنها كانت تسعى لمساندة

---

(١) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص ٦٦ ـ ٦٧؛ سيدة كاشف: مصر فى عصر لولاة، ص ٧٤ ـ ٧٥؛ محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى، ص ٦٩.

(٢) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص ٦٧.

الخلافة العباسيةوالوقوف إلى جانبها، انطلاقا من تقديرها لتلك الخلافة، وحرصا منها على بقاء ارتباطها بالنفوذ الديني للخلافة قويا متماسكا، ويبدو ذلك واضحا عندما ظهر الخلاف بين الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ) وأخيه الموفق الذى استبد بحكم الخلافة وسيطر على أخيه، وأصبحت له الكلمة العليا فى الدولة العباسية. وبلغ من تضييق الموفق على أخيه المعتمد وإبعاده عن مباشرة أمور الدولة أن احتاج الخليفة يوماً إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها، فقال[١] :

أليس من العجائب أن مثلى	يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا	وما من ذاك شىء فى يديه
إليه تحمل الأموال طراً	ويمنع بعض ما يجبى إليه

وكان الموفق قد استقل الأموال التى أرسلها إليه أحمد بن طولون لمساعدته فى مواجهة ثورة الزنج[٢] التى هددت الدولة العباسية خمسة عشر عاماً (٢٥٥ ـ ٢٧٠هـ)، مما جعل العداء يشتد بينهما[٣]، وكتب إلى ابن طولون يلومه ويعنفه أشد العنف. ونتيجة لذلك أرسل

---

(١) السيوطى: تاريخ الخلفاء (بيروت بدون تاريخ)، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩؛ الكامل، جـ٦، ص ٣٧٠.

(٢) كان عنصر الزنج يجلب إلى الدولة الإسلامية من سواحل شرق أفريقية، ولا أدل على كثرتهم وخطرهم من الثورة التى قاموا بها فى منطقة البصرة، تزعمها على بن محمد وهو فارسى أدعى أنه من ولد على زين العابدين بن الحسين بن على ابن أبى طالب، ووعد الزنج بتخليصهم مما هم فيه، فلبوا دعوته. وكان الزنج يعملون فى مزارع كبارملاك الأراضى، وفى كسح الطبقة المالحة عن الأرض فى البصرة. وكانت أجورهم ضيلة، ويرزحون تحت أوضاع اقتصادية واجتماعية سيئة، وصارت أحوالهم المعيشية بالغة السوء، كما كانوا عرضة للأمراض الفتاكة، إذ عاشوا فى منطقة مليئة بالمستنقعات والبرك. وظل خطر الزنج يتفاقم حتى تغلب عليهم الموفق طلحة (أخو الخليفة العباسى المعتمد على الله)، وابنه أبو العباس الذى آلت إليه الخلافة فيما بعد ولقب بالمعتضد، بعد أن كلفوا الدولة العباسية كثيراً من الجهود والأموال والأرواح، وحملت رأس زعيم الزنج إلى بغداد. انظر، جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجرى(القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٧٢ ـ ١٧٤؛ أحمد علبى: ثورة الزنج وقائدها على بن محمد (بيروت ١٩٦١)، ص ٧٨ ـ ٨٢؛ محمود الحويرى: ساحل شرق أفريقية من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالى (القاهرة ١٩٨٦)، ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٣) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص ٧٩ ـ ٨٥؛ المقريزى: المقفى، جـ١ ص ٤٣٣.

ابن طولون إلى الموفق رسالة شديدة اللهجة يهدده فيها باستقلاله بمصر تماماً عن الخلافة، ولولا حرصه على الخليفة لنفذ تهديده، وقد جاء فى تلك الرسالة: «قد عجزت عن رضا الأمير (الموفق) أيده الله، وكلما تقربت إليه بعدت نيته. ولا أعرف لذلك سبباً إلا نصيحتى وخالص طويتى وكفايتى ونصرتى لأمير المؤمنين، وبحضرتى من ولد رسول الله ﷺ منيرى نفسه لهذا الأمر أهلاً به وأحق. وقد جمع مع هذا الستر والسماحة والولادة من رسول الله والعلم والشجاعة والطهارة. وقد حدثته نفسه بالنهوض لولا ما يتقيه من جهتى، وكفّى له. الأمير يعلم أن دعياً (صاحب ثورة الزنج) قام بالبصرة فى أوباش، وليس وراءه من يعينه مع قرب داره، قد أتعبه هذه السنين، وأنفق عليه بيوت الأموال، وأفنى الرجال، وهو على حاله وأفعاله إلى يومنا هذا. فكيف يعمل إن قام فى ناحيتى من يُدلَ بصحة نسبه، وحسن سيرته، وكثرة علمه، ووراءه وجوه الناس، مع بعد داره،وأنا من ورائه أعينه بالرجال وأسدده بالرأى وقوة الحال؟ فإن كف الأمير عنى أذاه، وإلا جعلت بلدى بلد خلافة! وإنما يوقفنى من ذلك رعاية حق أمير المؤمنين وحسنُ عهده»[1]. حدث هذا فى الوقت الذى ضاق احمد بن طولون ذرعاً بالموفق ، ومنع حمل المال إليه، واخذ يوسع دائرة ملكه فاستولى على الرملة ودمشق وحمص وحماة ، وحلب وانطاكية وطرسوس[2] ، حتى صار ملكه يمتد من نهر الفرات شرقاً إلى برقة غرباً، ومن جبال طوروس شمالا إلى شلال أسوان جنوباً.

وعندما فكر الخليفة المعتمد فى الهرب إلى مصر للتخلص من قبضة أخيه الموفق، رحب أحمد بن طولون بمشروع نقل الخلافة إلى مصر لما سيعود عليه بالنفع من الناحية السياسية والأدبية والاقتصادية، إذ سوف يوفر عليه ذلك إرسال الجزية السنوية المعتادة إلى الخلافة، كما أن وجود الخليفة فى مصر سوف يقوى نفوذ ابن طولون ويكسب حكمه صفة شرعية ضد محاولات غريمه الموفق. ولهذا كتب ابن طولون كتاباً هاماً إلى الخليفة

---

(١) المقريزى: المقفى، جـ١، ص ٤٣٦.

(٢) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص ٩٢ ـ ٩٥؛ على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٩.

(٣) أحمد مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى (الإسكندرية ١٩٨٧)، ص ٣٣.

المعتمد في سنة ٢٦٨هـ (٨٨١م)، جاء فيه: «قد منعني الطعام والشراب والنوم خوفي على أمير المؤمنين من مكروه يلحقه مع ماله في عنقي من الأيمان المؤكدة، وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان أنجاد، وأنا أرى لسيدي أمير المؤمنين الإنجذاب إلى مصر، فإن أمره يرجع بعد عهد الامتهان إلى نهاية العز، ولايتهيأ لأخيه فيه شيء مما يخاف عليه منه في كل لحظة»[1]. وقد انتهز الخليفة فرصة اشتغال أخيه الموفق بإخماد ثورة الزنج، وخرج من مدينة سامرا سنة ٢٦٩هـ (٨٨٢م) متوجها إلى مصر، ولكن الموفق ما لبث أن علم بمسيرة الخليفة، فمنعه من الهروب وأبقاه تحت سيطرته[2]، وبذلك فشلت محاولة الخليفة الرامية إلى الاستقرار في مصر ونقل الخلافة العباسية إليها، وما يترتب على ذلك من مزايا كثيرة أهمها رفع شأن مصر في العالم الإسلامي، وحبس الجزية السنوية المعتادة عن بغداد، والاستفادة بها في تعمير مصر وإنمائها[3].

ومهما يكن من أمر، فقد استغل أحمد بن طولون إمكانات مصر البشرية أحسن استغلال ويعد عهده البداية الحقيقية لمصر الإسلامية، لما بلغته من نجاح في أوجه الحياة السياسية والاجتماعية والأساليب الفنية، وفي عهده أيضا تفوقت مصر ماليا وعسكريا على حكومة الخلافة العباسية التي اضطرت للاعتماد على مصر[4]. وشعر الناس في عهد ابن طولون بالرفاهية والاستقرار والرخاء، بصورة لم نجدها في إقليم آخر في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). ويكفي أنه صار - كما سبق أن ذكرنا - حاكما على دولة واسعة شملت مصر إلى النوبة جنوبا، وامتدت غربا إلى برقة، وشملت الشام أيضا[5]، «وهو أول من جمع له بين مصر والشام في الإسلام»[6]. وخير تعبير عن وضع مصر في أيام أحمد بن طولون ما قاله القلقشندي[7]: «وفي أيام أحمد بن طولون عظم شأن مصر وعلا قدرها، وانتقلت من الإمارة إلى الملك».

---

(١) البلوي: سيرة أحمد طولون، ص ٢٨١.

(٢) الكامل، جـ٦، ص ٣٢٨.

(3) Lane - Poole. A Hist of Egypt in the Middle Ages. (London, 1901), p.69'

علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ص ٢١٠ - ٢١١.

(4) Wiet - Precis de L' Histoire d Égypte., Deuxiemen partie., p. 155.

(5) Lane - Poole, op. cit., pp.66 - 67.

(٦) القلقشندي: مآثر الأنافة في معالم الخلافة (الكويت ١٩٠٦٤)، جـ ١ ص ٢٥١.

(٧) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٤٧.

وفضلا عن ذلك أجمعت المصادر على الإشادة بأخلاق وصفات أحمد بن طولون، ويقول ابن الأثير[1]: «وكان عاقلا حازما، كثير المعروف والصدقة، متدينا، يحب العلماء وأهل الدين. وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح المسلمين». ولذلك أحب المصريون أحمد بن طولون، وعندما انتابه مرض الموت»، خرج المسلمون بالمصاحف، واليهود بالتوراة، والنصارى بالإنجيل، والمعلون بالصبيان، إلى الصحراء ودعوا له». وتوفى أحمد بن طولون سنة ٢٧٠هـ (٨٨٤م)، بعد أن حكم مصر ستة عشر عاماً.

خمارويه بن أحمد بن طولون:

بعد وفاة أحمد بن طولون، خلفه ابنه خمارويه، وكان ابن طولون قد أوصى له بالإمارة، وبايعه الجند عقب وفاة أبيه فى ذى الحجة سنة ٢٧٠هـ[2]. ولم يكد الموفق أخو الخليفة المعتمد يعلم بوفاة أحمد بن طولون، حتى قرر استرجاع مصر والشام من قبضة الطولونيين، واستعان الموفق بابن كنداج عامل الشام، ومحمد بن أبى الساج عامل شمالى العراق، وزحف الجميع على الشام. واستولت قوات الموفق على الرقة وقنسرين والعواصم، وتوغلت فى بلاد الشام حتى استولت على دمشق وقاربت الحدود المصرية فخرج خمارويه لملاقاة أعدائه، وتقابل الفريقان عند الرملة جنوبى فلسطين فى شوال سنة ٢٧١هـ (أبريل ٨٨٥م)، فهزم خمارويه وانسحب عائداً إلى مصر ومعه معظم جيشه. وفى تلك الأثناء، ثبت سعد الأيسر قائد خمارويه مع بقية الجيش المصرى، واستطاع أن يلحق الهزيمة بالأعداء ويستولى على دمشق[3].

على أن سعد الأيسر استهان بخمارويه وأخذ يعمل لحسابه، وعندما علم خمارويه بذلك خرج إلى الشام سنة ٢٧٢هـ (٨٨٥م)، فحارب سعد الأيسر وتغلب عليه وقتله. وبعد أن قضى بضعة أيام فى دمشق خرج لمحاربة ابن كنداج، فأنزل به الهزيمة، وأخذت قوات خمارويه تطارده حتى أبواب سامراء، «فعظم أمر خماريه فى هذه الموقعة وهابته

---

(١) الكامل، جـ٦، ص ٣٣٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٢٤٩، الخطط، جـ١ س ٢٢٠.

(٣) الخطط، جـ١، ص ٢٢٠.

الناس»[1]. ثم عقد الصلح بين الجانبين، وبمقتضاه ولى الخليفة خمارويه مصر والشام ومنطقة الثغور على الحدود البيزنطية لمدة ثلاثين سنة[2].

وساعدت الظروف خمارويه بموت الموفق سنة ٢٨٧هـ، وبموت أخيه الخليفة المعتمد بعده بسنة (٢٧٩هـ)، فتوطد نفوذه في مصر والشام. واهتم خمارويه باكتساب ود الخليفة العباسي الجديد المعتضد بن الموفق، ويتضح ذلك فى أن خمارويه عرض زواج ابنته أسماء التى تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة، ولكن الخليفة اختارها لنفسه، فوافق أبوها على ذلك[3]، وجهزها بجهاز يفوق الوصف، مما أدى إلى إفلاس مصر. وقد أفاضت المصادرفى وصف جهاز العروس، وتكفى الإشارة إلى ما يقوله المقريزى[4]: «فكان من جملته دكة أربع قطع من ذهب، عليها قبة من ذهب مشبك، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لايعرف لها قيمة، ومائة هون من ذهب».

ولما فرغ خمارويه من جهاز ابنته، أمر بأن يبنى لها على رأس كل مرحلة من مراحل المسافة بين مصر وبغداد قصر تنزل فيه مجهز بكل وسائل الراحة والرفاهية، كأنها فى قصر أبيها في مدينة القطائع[5]، إلى أن وصلت بغداد ودخل بها الخليفة المعتضد فى ربيع الآخر سنة ٢٨٢هـ (مايو ٨٩٥م).

ولم يحسن خمارويه الاستفادة من الأموال الجمة التى تركها له أبوه، فأخذ يسرف فى البناء وأنواع الترف، وأهم ما قام به توسيع قصر أبيه بالقطائع، وتحويل الميدان إلى حديقة غناء لم يسمع بمثلها. ولما كثر أرقه وامتنع عليه النوم، أنشأ بركة من الزئبق يقال إنها خمسون دراعا طولا فى خمسين ذراعاً عرضاً، يهتز عليها فراش لينام وهو يتهدهد، وقد شد الفراش بخيوط من حرير إلى أعمدة من الفضة[6]. و استكثر خمارويه من الجوارى

(١) النجوم الزاهرة، جـ٣، ص ٥١.
(٢) الخطط، جـ١، ص ٢٢٠.
(٣) ابن حلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٢٤٩.
(٤) الخطط، جـ١، ص ٣١٨.
(٥) الخطط، جـ١، ص ٣١٨.
(٦) الخطط، جـ١، ص ٣١٦

والغلمان حتى ضاعت هيبته، وتوفى قتيلا على يد بعض جواريه فى دمشق فى ذى الحجة سنة ٢٨٢هـ (يناير ٨٩٦م).

نهاية الدولة الطولونية:

بعد وفاة خمارويه، لم تستطع مصر الاحتفاظ باستقلالها الذى تعب أحمد بن طولون فى تحقيق وجوده. إذ أصبحت مصر ميداناً للضعف والفوضى من ناحية، ومسرحاً لأحداث دامية اطاحت بوحدة الطولونيين، وعجلت بزوال نفوذهم. وقد حكم مصر بعد وفاة خمارويه ثلاثة من البيت الطولونى لم يزد حكمهم جميعا عل عشر سنوات. وخلف خمارويه ابنه أبو العساكر جيش (٢٨٢ ـ ٢٨٤هـ) وكان صبيا طائشا منغمساً فى اللهو، وأقبل عل الشرب، واتخذ من سفلة الناس حاشبة له، وخرجت بلاد الشام وما يليها عن طاعته. وعندئذ غضب عليه قواد جيشه، وتبرأ العلماء من بيعته، وانتهى الأمر بخلعه وسجنه فى سنة ٢٨٣هـ (٨٩٦م) وتولية أخيه الأصغر أبى موسى هارون (٢٨٤ ـ ٢٩٢هـ)، وكان صغيراً لم تزد سنه على الرابعة عشرة، الأمر الذى جعله لايصلح للحكم[١]. وفى عهده ظهر القرامطة فى بلاد الشام سنة ٢٨٩هـ، وهم طائفة سياسية اتخذت الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها، ونادوا بمبدأ شيوع الثروة، وقد أسس أحد قوادهم وهو أبو سعيد الجنابى دولة القرامطة ببلاد البحرين سنة ٢٨٦هـ، حيث استطاعت هذه الدولة أن تبسط سيادتها على كثير من أرجاء الجزيرة العربية. وقد أنفذ هارون جيشاً لمحاربتهم ببلاد الشام، ولكن هذا الجيش عجز عن إخراجهم من بلاد الشام وقمع خطرهم[٢].

أدى ضعف الدولة الطولونية إلى رغبة الخلافة العباسية فى إعادة مصر إلى نفوذها المطلق، فأرسل الخليفة المكتفى قائده محمد بن سليمان الكاتب للقضاء على الطولونيين، فنزل بحمص وبعث بأسطول إلى سواحل مصر، وفى تنيس التقى الأسطولان العباسى والمصرى، فحلت الهزيمة بأسطول مصر، ووقعت تنيس ودمياط فى يد محمد بن

---

(١) الخطط، جـ١، ص ٣٢١.

(٢) الخطط، جـ١، ص ٣٢١.

سليمان[1]. وفر هارون إلى العباسية (بمحافظة الشرقية)، حيث قتله عماه شيبان وعدى ابنا أحمد بن طولون فى صفر سنة ٢٩٢هـ (٩٠٥م)، فلم يرض قواد الجند عن عملهما، ولما عين شيبان على ولاية مصر رفضوا الموافقة على تعيينه، وكاتبوا محمد بن سليمان، فنزل الفسطاط، وألقى النار فى مدينة القطائع عاصمة الطولونيين، «ونهب أصحابه الفسطاط، وكسروا السجون وأخرجوا من فيها، وهجموا الدور واستباحوا الحريم، وهتكوا الرعية، وافتضوا الأبكار. وساقوا النساء، وفعلوا كل قبيح، من إخراج الناس من دورهم وغير ذلك»[2]. وهكذا قضى على الدولة الطولونية، وخربت القطائع ولم يبق منها غير المسجد الجامع شاهداً على عظمة تلك الدولة.

وأخيراً، لعله من الإنصاف القول إنه على الرغم من أن الطولونيين كانوا حكاماً ينتمون إلى أصول غريبة عن مصر، وفدوا عليها قادمين من بغداد عاصمة الخلافة العباسية، فإن تاريخهم يمثل صفحة رائعة من تاريخ مصر، ذلك لأنهم كرسوا معظم جهودهم للنهوض بأمرها، وارتبطوا بها، وتقربوا إلى المصريين، وأحاطوهم برعايتهم، وأبلغ دليل على ذلك ما قاله المؤرخ البلوى[3] فى أحمد بن طولون: «وأما إشفاقه على أهل مصر فكان يزيد على كل إشفاق، حتى إنه كان يجوز إشفاق الوالد على ولده يحطوهم، ويرعى أحوالهم ومصالحهم، ويدفع كل مكروه عنهم». ولذلك عندما قضت الخلافة العباسية على الدولة الطولونية شعر المصريون بالحزن والحسرة، وبقيت ذكراها ماثلة فى أذهانهم، ويشير المؤرخ أبو المحاسن[4] إلى أن تلك الدولة كانت من «غرر الدول وأيامهم من محاسن الأيام».

بعض مظاهر الحضارة فى مصر فى عصر الطولونيين:

حكمت الدولة الطولونية مصر ثمانية وثلاثين عاماً، انتعشت فيها البلاد، وانتشر فى ربوعها الأمن والأستقرار والرخاء، وازدهرت أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والأدبية والفنية، وخاصة فى أيام أحمد بن طولون وابنه خمارويه.

---

(١) الخطط، جـ١ ص ٣٢١، النجوم الزاهرة، جـ٣، ص ١١٢.

(٢) الخطط، جـ١، ص ٣٢١.

(٣) سيرة أحمد بن طولون، ص ١٩٩.

(٤) النجوم الزاهرة، جـ٣، ص ١٣٩.

العمارة والفنون:

أسس أحمد بن طولون مدينة جديدة فى سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) على جبل يشكر الذى يعرف بقلعة الكبش بين الفسطاط وتلال المقطم. وقد سميت المدينة الجديدة باسم القطائع، لأن كل طائفة من رجاله اتخذت لها قطيعة لسكناها، فيقال قطيعة السودان، وقطيعة الروم، وقطيعة الفراشين، ونحو ذلك[١]. وبنى القواد فى مواضع متفرقة، فعمرت القطائع، وبنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات، فصارت القطائع مدينة كبيرة[٢].

وبنى ابن طولون فى مدينة القطائع قصراً ضخماً، جعل أمامه ميداناً فسيحا ليستعرض فيه جيشه، ثم أقام حول القصر ثكنات لجنوده وحاشيته[٣]. ولما مات ابن طولون وخلفه ابنه خمارويه، زاد فى قصر أبيه، وجعل الميدان كله بستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر[٤]. كما بنى ابن طولون على سفح جبل يشكر مسجده المعروف بإسمه، ولازال باقيا حتى الوقت الحاضر، ويعتبر أحد الاثار الدينية الرئيسية، وقد انتهى من بنائه فى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٩م)، وهذا الجامع يمثل عمارة المساجد العراقية، وبه يبدأ الفن المعمارى فى مصر عهداً جديداً، إذ أنه تخلص من التأثيرات البيزنطية التى كانت موجودة من قبل، وأخذ أصوله من الفن العراقى (مدرسة سامراء) ومن الأساليب الفنية العباسية[٥]. وقد بنيت خلف هذا الجامع ميضأة، وألحقت به خزانة للأدوية تحت إشراف طبيب خاص كانت مهمته السهر على راحة المصلين، وعلاج ما ينتابهم أثناء وجودهم فى الجامع، أى كان هذ الطبيب يقوم بمهمة الإسعاف فى الوقت الحاضر[٦].

وقد بنى أحمد بن طولون المارستان (المستشفى) فى سنة ٢٥٩هـ (٨٧٢م) لعلاج

---

(١) الخطط، جـ١، ص ٣١٢.

(٢) الخطط، جـ١، ص ٣١٤.

(٣) النجوم الزاهرة، جـ٣، ص ١٥ ـ ١٦.

(٤) الخطط، جـ١، ص ٣١٥.

(5) Hitti, Hist of the Arabs., p. 454.

أحمد مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ١٣١.

(٦) مصطفى بدر: مصر الإسلامية، ص ١٤٨.

المرضى دون تمييز بين الطبقات والأديان، وجعل العلاج فيه دون مقابل، وألحق به صيدلية لصرف الأدوية. فإذا دخل المريض المستشفى تنزع ثيابه وتقدم له ثياب أخرى، ويودع ما معه من المال عند أمين المارستان، ويظل المريض تحت العلاج حتى يتم شفاؤه، وكانت دلالة شفاء المريض قدرته على أكل رغيف ودجاجة، وعندئذ يسمح له بمغادرة المستشفى، وكان ابن طولون يتفقد المستشفى ويتابع علاج الأطباء، ويشرف على المرضى[1].

الجيش والبحرية:

استطاع أحمد بن طولون أن يكون جيشاً كثيف العدد، وكان ذلك الجيش أول جيش مستقل في مصر في العصور الوسطى، فقد كان قائده الأعلى هو ابن طولون، وليس لأحد غيره سلطان على الجيش ورجاله[2]. وكان الجيش يتكون من السودان والإغريق والترك والعرب، ويشمل أكثر من أربعة وعشرين ألفا من الأتراك، وأربعين ألف سوداني، وسبعة آلاف حر مرتزق[3]، ويبلغ رزق الجيش في أيام خمارويه تسعمائة ألف دينار[4].

وكوّن خمارويه فرقة من أولاد الحوف، أي الذين كانوا يسكنون إقليم الحوف، وكانوا يشتغلون بقطع الطرق وإلحاق الأذى بالناس، ويتميزون بضخامة الأجسام والشجاعة والبأس، فرأى خمارويه أن يستفيد من شجاعتهم وقوتهم البدنية، فأدخلهم في خدمته، وسماهم «المختارة»، وكانوا يلبسون الأقبية من الحرير والديباج، ويتقلدون بالسيوف المحلاة، وتسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة، ويتلوهم السودان، «وعدتهم ألف أسود، لهم درق من حديد محكم الصنعة، وعليهم أقبية سود وعمائم سود، فيخالهم الناظر إليهم بحراً أسود يسير لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم، ويصير لبريق درقهم وحلى سيوفهم والبيض التي تلمع على رؤوسهم من تحت العمائم زى بهيج»[5].

---

(١) الخطط، جـ ص ٤٠٥؛ مختار العبادى: المرجع السابق، ص١٣٢؛ سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣؛ إبراهيم العدوى: مصر والشرق العربى، ص ١٢٩.

(٢) على إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، ص ٣٢٣.

(٣) مصطفى بدر: مصر الإسلامية، ص ١٥٠.

(٤) الخطط، جـ١، ص ٣١٧.

(٥) الخطط، جـ١، ص ٣١٧؛ سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ١٢١.

أما الأسطول، فقد اهتم به الطولونيون، فأنشأ أحمد بن طولون المراكب الحربية، وأطافها بجزيرة الروضة[1]. ومما يدل على عناية ابن طولون بأسطوله أنه دعا يوما المسئول عن دار الصناعة ـ وهى الدار التى تصنع فيها المراكب والسفن ـ وهو أبو كامل شجاع بن أسلم الحاجب، وقال له: «كل ما تعمل لى من العدة يُكتفى فيه بالقليل، مع تقدم هيبتى فى صدور الناس إلا المراكب فإن البحر لايهابنى، ولايخاف سورتى، وليس يعمل فى البحر إلا الوثاقة، والجودة فى الصنعة، وتقديم الإحسان. فقدم الحزم فى الاحتياط، والإستزادة فى الإنفاق على المراكب لتسلم بعون الله عز وجل وتوفيقه من معرة البحر»[2].

الأحوال الاقتصادية:

أجمعت المصادر على اهتمام الطولونيين بتقدم أحوال مصر الاقتصادية وازدهارها، ويدل على ذلك وفرة الثروات التى خلفها الطولونيين، ورخص الأسعار وتوفر السلع فى سائر أنحاء مصر[3]، بصورة لم تشهدها من قبل.

وقد بذل أحمد بن طولون قصارى جهده لتشجيع الزراعة وزيادة الإنتاج الزراعى، فأصلح الترع والقنوات التى تروى الحقول، وحفر الجديد منها ، وأصلح السدود المحطمة، وحمى الفلاحين من ظلم جباة الضرائب وتعسفهم، مما أدى إلى ازدياد مساحات الأرض المزروعة من جهة، ووصل أسعار الحبوب إلى أدنى مستوى من جهة أخرى[4]. وكانت عناية خمارويه بالزراعة لاتقل عن عناية أبيه.

وازدهرت الصناعة أيضا فى مصرفى العصر الطولونى، ويأتى على رأس الصناعات التى اشتهرت بها مصر آنذاك صناعة النسيج. من ذلك صناعة الكتان التى اكتسبت أسواقا جديدة، وكانت تصنع أنواع مختلفة من الكتان فى مصر السفلى فى مدن تنيس ودمياط ودبيق وشطا ودميرة وغيرها، وفى مصر العليا فى مدن الفيوم والبهنسا وإخيمم. واشتهرت

---

(١) الخطط، جـ١، ص ٣١٨.

(٢) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٠٨.

(٣) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٤.

(4) Ashtor (E.) A Social and Economic Hist, of the Near East in The Middle Ages (London, 1976), pp. 126-127.

مصر كذلك بصناعة المنسوجات الصوفية بجودتها، والتى كان يتم تصدير كميات كبيرة منها إلى كثير من الأقطار. كما أن المنسوجات المطرزة بالذهب والموشاة التى أنتجتها مدينة الإسكندرية عرفت بجودتها العالية.

والمعروف أن الجزية التى كانت مصر ترسها إلى الخليفة العباسى، ثم الهدايا التى أرسلها ابن طولون إلى الخليفة المعتمد، والتى أرسلها خمارويه من بعده إلى المعتضد، كان فيها شيىء كثير من المنسوجات النفيسة، ومن هذه القطع واحدة باسم الخليفة المعتمد يرجع تاريخها إلى سنة ٢٧٨هـ (٨٩١هـ)، وهناك قطعة أخرى باسم الخليفة المكتفى بالله، يرجع تاريخها إلى سنة ٢٩١هـ (٩٠٤م) أى قبل سقوط الدولة الطولونية بعام واحد[١].

واشتهرت الفسطاط والإسكندرية وبعض مدن الصعيد مثل الفيوم والأشمونين بصناعة أجود أنواع الزجاج، وقد ساعد على ذلك وجود القلويات فى البحر المالح أو وادى النطرون[٢]. وتعتبر صناعة الحفر على الخشب من الصناعات الهامة التى امتاز بها العصر الطولونى، وقد تأثر التطور الفنى فى الحفر على الخشب بقدوم ابن طولون إلى مصر، فانتشرت فى الدولة الطولونية الأساليب الفنية العباسية التى ازدهرت فى سامرا[٣].

ومن الصناعات التى ازدهرت فى مصر الطولونية صناعة الورق من البردى الذى كان ينمو بكثرة فيها، وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم[٤]. ومن أهم الصناعات كذلك صناعة الأسلحة والصابون والسكر[٥].

وبالإضافة إلى ذلك، شهدت مصر نهضة تجارية عظيمة، بحكم موقعها الجغرافى الفريد بين قارات أفريقية وآسيا وأوربا، فكانت البضائع التى تصل من بلاد الهند والصين تسلك طريق البحر الأحمر، ومنها إلى موانى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا. وكان نهر النيل أداة طيبة للملاحة النهرية تنقل بواسطتها البضائع بين بلدان مصر[٦]. ومما ساعد على ازدهار

(١) زكى محمد حسن الفنون الإسلامية (القاهرة بدون تاريخ)، ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

(2) Ashtor, op. cit., p. 98.

(٣) زكى محمد حسن: الفنون الإسلامية، ص ٤٤٨.

(٤) سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص ٢٠٢.

(٥) على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى، ص ٤٣٤ - ٤٣٥.

(٦) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص ٢٠٤ - ٢٠٩.

النشاط التجارى فى مصر فى عهد الطولونيين استقرار العملة،وقد أسس أحمدن بن طولون داراً لضرب العملة، حيث سكت الدنانير ذات المستوى الرفيع من النقاء[1].

العلوم الدينية:

نبغ فى عهد الدولة الطولونية عدد كبير من الفقهاء، والمحدثين، نذكر منهم من المالكية محمد بن عبد الله بن الحكم المصرى المتوفى سنة ٢٦٨هـ (٨٨١م)، تولى الإفتاء بمصر، وكان فقيه مصر على مذهب مالك، وإليه كانت تشد الرحال من المغرب والأندلس، وله مصنفات كثيرة[2]. ومن المالكية أيضا محمد بن أصبغ بن الفرج المتوفى سنة ٢٧٥هـ (٨٨٨م)، وروح بن الفرج أبو الزنباع الزبيرى المتوفى سنة ٢٨٢هـ (٨٩٥م)، وأحمد بن محمد بن خالد الإسكندرانى المتوفى سنة ٣٠٩هـ (٩٢١م)[3].

أما الشافعية فقد نبغ منهم الربيع بن سليمان المرادى، صاحب الشافعى،وهو الذى روى أكثر كتبه، وقال الشافعى عنه: «الربيع راويتى»[4]، وقال أيضاً: «ما خدمنى أحد ماخدمنى الربيع»، وتوفى سنة ٢٧٠هـ (٨٨٣م). ومن فقهاء الشافعية قحزم بن عبد الله الأسوانى المتوفى سنة ٢٧١هـ(٨٨٤م) ، وهو من اصل قبطى ، وكان من جملة اصحاب الشافعى الآخذين عنه، وكان مقيما بأسوان[5] . ومن الشافعية أبو القاسم بشر بن منصور البغدادى المتوفى سنة ٣٠٢هـ(٩١٤م)، جاء إلى مصر وتفقه على المذهب الشافعى، «وكان متضلعاً من الفقه ديّنا»[6].

أما الفقهاء الحنفية ، فمن أشهرهم القاضى بكار بن قتيبة الثقفى المتوفى سنة ٢٧٠هـ (٨٨٣م) ، «وله أخبار فى العدل والعفة والنزاهة والورع، وتصانيف فى الشرط

(1) Ashtor, op. cit., p. 128.

(٢) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١ ، ص ٥٥.
(٣) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١ ، ص ٦٤٨.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢ ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢؛ السيوطى: حسن المحاضرة، جـ ١ ص٣٤٨.
(٥) السيوطى:حسن المحاضرة.، جـ ١ ص ٣٩٨.
(٦) حسن المحاضرة،جـ١ ،ص ٤٠٠.

والوثائق والرد على الشافعي فيما ينقضه على أبي حنيفة؛ منهم أيضا أحمد ابن أبي عمران المتوفى سنة ٢٨٥هـ (٨٩٨م)، وكان من أكابر الحنفية وهو شيخ الطحاوى[١].

واشتهرت مصر فى العصر الطولونى بالطب، فظهر منهم سعيد بن ترفيل، وهو مسيحى كان في خدمة أحمد بن طولون، وسعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨هـ (٩٣٩م)، وهو مسيحى كانت له عدة مؤلفات[٢]، منها تاريخه المسمى «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق».

الحياة الأدبية واللغوية:

وتجلت شخصية مصر فى الحياة الأدبية على عهد الدولة الطولونية، وكان أحمد بن طولون وابنه خمارويه يقربان الشعراء ويبالغان فى الإغداق عليهم، وظهرت من أولئك الشعراء طبقة من الشعراء المتكسبين وضحت فى قصائدهم طابع البيئة المصرية ومزاج أهلها[٣]. ومما يدل على كثرة الشعراء فى مصر الطولونية ماوراه المقريزى[٤] عن القاضى أبى عمرو عثمان النابلسى فى كتابه «حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة» إذ قال: «رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة، مضمونة فهرسة شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون، فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشر كراسة، كم يكون شعرهم مع أنه لم يوجد من ذلك الآن ديوان واحد؟!».

ومما يجدر ذكره أنه لم يكن بمصر ديوان إنشاء منذ الفتح العربى حتى قيام الدولة الطولونية، فكان أول من تولى ديوان الإنشاء فى عهد ابن طولون الكاتب أبو جعفر محمد بن مودود المعروف بابن عبد كان المتوفى سنة ٢٧٠هـ (٨٨٣م)[٥]. ومن الكتاب الذين ظهروا فى عهد الطولونيين جعفر بن عبد الغفار المصرى، الذى اتخذه أحمد بن طولون

---

(١) حسن المحاضرة، جـ١، ص ٤٦٣.
(٢) حسن المحاضرة،جـ١،ص ٥٣٩.
(٣) إبراهيم العدوى: مصر والشرق العربى، ص ١٢٩.
(٤) الخطط، جـ١، ص ٣٢٥.
(٥) حسن المحاضرة،جـ١ ص ٢٣٢.

كاتباً له، ولم يكن لدى هذا الكاتب الكفاية والمقدرة بحيث يستطيع القيام بأعباء هذا المنصب، فأشار أحمد ابن خاقان صديق أحمد بن طولون عليه بعزله، ولكنه رفض قائلا: «أنا أحتمله لأنه مصرى، قال له ابن خاقان: أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصرى على الكاتب البغدادى، فقال له ابن طولون: لا والله، ولكن أصلح الأشياء لمن يملك بلداً أن يكون كاتبه منه»[1].

ووضح ازدهار الدراسات اللغوية فى العصر الطولونى على يد الوليد بن محمد التميمى المعروف بولاد. كذلك أنجبت المدرسة اللغوية أحمد بن جعفر الدينورى صاحب كتاب «المهذب فى النحو»، وأبى جعفر النحاس صاحب كتاب «معانى القرآن ومنسوخه» ومحمد بن حسان النحوى»[2].

المؤرخون:

وإلى جانب ذلك، ظهر فى مصر العصر الطولونى بعض الكتاب الذين اهتموا بتدوين التاريخ والخطط، ومن أشهرهم عبد الرحمن بن عبد الحكم القرشى المتوفى سنة ٢٥٧هـ (٨٧١م) الذى يمت إلى عصر الولاة أكثر مما يمت للطولونيين. وكان من أهل الرواية والحديث، ثم شغف بالقصص والأخبار، وكلف بالتاريخ، ومن مؤلفاته كتاب «فتوح مصر»، ويعد ابن الحكم أول مؤرخ لخطط مصر الإسلامية، فقد تناولها فى فصل خاص، وهو إن لم يطل فى حديثه عنها، إلا أن له فضل السبق، فقد سار على نهجه كثير من المؤرخين المعنيين بدراسة الخطط، يأتى على رأسهم المقريزى[3]. هذا ولم يكن تدوينه لفتح إفريقية والمغرب والأندلس، إلا كذيل يقتضيه سياق الرواية، لأن مصر كانت قاعدة لهذه الفتوحات[4].

من أشهر مؤرخى مصر فى العصر الطولونى أبو جعفر أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية، ألف كتاباً فى «سيرة أحمد بن طولون» وكتاباً آخر فى سيرة ابنه خمارويه، ويقول

---

(١) جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر (القاهرة ١٩٦٦)، ص ٣٩؛ سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص ١٩٠ ـ ١٩٢.

(٢) سيدة كاشف: أحمد بن طولون: ص ٢٣٤.

(٣) جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٤) محمد عبد الله عنان: مؤرخو مصر الرسلامية ومصادر التاريخ المصرى (القاهرة ١٩٦٩)، ص ١٦.

ابن زولاق: «وكان أبو جعفر أحمد بن يوسف الكاتب قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر، وسيرة ابنه أبى الجيش، وأنشدا فى الناس، وقرأتهما عليه، وحدثت بهما عنه، مع غيرهما من مصنفاته، ثم عملت أنا ما فاته من سيرتهما». ويتضح من كلام ابن زولاق أن ابن الداية كانت له كتب أخرى فى التاريخ، وقد أشارت المراجع الأخرى التى ترجمت له إلى هذه الكتب وهى كتاب «أخبار غلمان بن طولون»، وكتاب «حسن العقبى»، وكتاب «أخبار الأطباء»، وكتاب «المكافأة»، وهذه الكتب قد فقدت للأسف، ولم يصلنا منها غير كتب ثلاثة هى: «سيرة أحمد بن طولون» و«المكافأة» و«حسن العقبى»[1].

وكذلك من أشهر مؤرخى الدولة الطولونية أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى المعروف بالبلوى، ولانعرف تاريخ مولده أو وفاته، ولكنا نعرف أنه ينتمى إلى قبيلة بلى العربية، وأنه عاش ف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى). وكان ابن النديم أول من ترجم له فى كتابه «الفهرست»، فذكر أنه كان عالما وفقيها وواعظا، وأنه ألف كتبا كثيرة منها: كتاب الأبواب، وكتاب المعرفة، وكتاب الدين وفرائضه، وقد فقدت هذه الكتب جميعاً، ولم يبق من مؤلفاته إلا كتابه «سيرة أحمد بن طولون». ويعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر لدراسة تاريخ أحمد بن طولون، بل ولدراسة تاريخ مصر والشرق الأدنى الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)[2].

وعلى أية حال، شاركت فى مصر العصر الطولونى فى النهضة الحضارية التى شهدها العالم الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى.

---

(١) جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية جـ ١ (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.
(٢) جمال الدين الشيال: المرجع السابق، جـ١، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

الفصل الرابع

الدولة الإخشيدية فى مصر

(٣٢٣ - ٣٥٨هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩م)

- عودة مصرإلى الخلافة العباسية.
- محمد بن طغج الإخشيد.
- المصاعب الداخلية والخارجية التى واجهت الإخشيد.
- علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية.
- كافور وأولاد الإخشيد.
- بعض المظاهر الحضارية فى مصر فى عصر الإخشيديين.
  - النشاط الدينى.
  - النشاط الاقتصادى.
  - النشاط الأدبى واللغوى.
  - التاريخ.

عودة مصر إلى الخلافة العباسية:

سبق الإشارة إلى أن قائد جيش الخلافة العباسية محمد بن سليمان الكاتب نجح فى القضاء على الدولة الطولونية سنة ٢٩٢هـ (٩٠٥م)، وأحرق مدينة القطائع، ونهب جنده مدينة الفسطاط واستباحوها، وارتكبوا أشنع الفظائع، وبذلك انتقل الحكم فى مصر من الطولونيين إلى العباسيين.

وفى أثناء وجود محمد بن سليمان فى مصر، عين الخليفة المكتفى على مصر عيسى بن محمد النوشرى واليا عليها، فوصل إليها فى جمادى الآخر سنة ٢٩٢هـ (أبريل ٩٠٥م)، فخرج محمد بن سليمان إلى الشام مع جنده زبعض رجال الجيش الطولونى، وفى الطريق إلى بغداد تمكن من الفرار من ركبه قائد طولونى اسمه محمد بن على الخلنجى. وعندما وصل إلى الرملة فى شعبان سة ٢٩٢هـ (يونيو ٩٠٥م)، دعا على منابرها للخليفة العباسى ومن بعده لإبراهيم بن خمارويه، ومن بعدهما لنفسه بوصفه نائبا عن إبراهيم، الذى كان حينئذ أسيراً ببغداد[١]. وقد دخل الخلنجى مصر بعد ذلك، وزاد أتباعه، وأرسل عيسى النوشرى والى مصر جيشاً لملاقاته على حدود مصر الشرقية، ولكنه لقى هزيمة، فلم يكن أمام النوشرى بدأ من الخروج إليه بنفسه، والتقى معه عند مدينة العباسة بمحافظة الشرقية، ولكنه هزم وتقهقر بجنده حتى وصل الفسطاط، ثم عبر النيل إلى الجيزة، ومن ثم دخل الخلنجى الفسطاط فى ٢٦ ذى القعدة سنة ٩٢٩هـ (أغسطس ٩٠٦م) بدون مقاومة، واستقبله المصريون بالحماس والسرور[٢].

ولما وصلت الأخبار إلى الخليفة المكتفى بما فعله الخلنجى، أرسل إليه جيشاً تلو الآخر، حتى لقى الهزيمة بالنويرة بمحافظة بنى سويف، ففر إلى الفسطاط حيث ألقى القبض عليه، وأرسل إلى بغداد، ثم قتل شر قتلة[٣]. وبذلك فشلت ثورة الخلنجى، وعادت مصر مرة أخرى إلى الخلافة العباسية.

---

(١) الخطط، جـ١، ص ٢٥ ـ ٢٢٦؛ النجوم الزاهرة، جـ٣، ص ١٤٧.
(٢) الخطط .جـ١ ص ٢٢٦؛ النجوم الزاهرة، جـ٣ ص ١٥١.
(٣) الخطط، جـ١ ص ٢٢٦؛ النجوم الزاهرة، جـ٣ ص ١٥٤.

ولاشك أن نجاح الخلنجى وتحديه للخلافة العباسية يرجع إلى تحمس الشعب المصرى ضد الخلافة التى قضت على دولة لها فى مصر طابع قومى، وكانت الأموال المصرية فى عصرها تنفق فى مصر، ولاتتسرب إلى الخلافة وكبار رجال البلاط، فضلا عن أن تخريب القطائع بعث فى نفس المصريين الألم والحسرة[1].

وفى تلك الأثناء، كان الداعى الإسماعيلى أبو عبد الله الشيعى، قد نجح فى نشر دعوته لعبيد الله المهدى ـ سليل فاطمة الزهراء ـ فى بلاد المغرب، وأخذ له البيعة العامة فى ربيع الأول سنة ٢٩٧هـ (ديسمبر ٩٠٩م)، ثم كتب له بما تحقق على يده. فخرج المهدى من الشام ومعه خاصته ومواليه متوجهاً إلى بلاد المغرب،ولما وصل مصر تخفى فى زى تاجر. وكان الخليفة العباسى المكتفى قد أرسل إلى واليه على مصر عيسى النوشرى كتابا بأوصاف المهدى، وأمره بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه. فلما وصل الكتاب إلى النوشرى، «فرق الرسل فى طلب المهدى، وخرج بنفسه فلحقه، فلما رآه لم يشك فيه، فقبض عليه». غير أنه لم يلبث أن أطلق سراحه. وقيل إن المهدى أعطاه مالا من الأموال الكثيرة التى كان يحملها من أجل إخلاء سبيله. وعلى كل حال ارتحل المهدى إلى القيروان، ومنها إلى سجلماسة فى المغرب الأقصى[2]، وفى رقادة تلقب بالمهدى أمير المؤمنين، وبذلك قامت الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب.

تطلع الفاطميون منذ اليوم الأول لقيام دولتهم فى المغرب للاستيلاء على مصر، وذلك لثرائها وموقعها الجغرافى، الأمر الذى يجعلها مركزاً لدولة مستقلة تنافس الخلافة العباسية. وقد حاول عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين فتح مصر، فأرسل حملة فى سنة ٣٠١هـ (٩١٣م) بقيادة حباسة بن يوسف، تمكنت من الاستيلاء على برقة والإسكندرية وتوغلت فى الوجه البحرى، وعندئذ بعث الخليفة العباسى المقتدر بالله (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ) جيشاً بقيادة مؤنس الخادم لصد الخطر الفاطمى. واستطاع هذا الجيش أن يلحق الهزيمة بحباسة، ويضطره إلى الإنسحاب إلى المغرب[3]. على أن فشل تلك الحملة لم تمنع عبيد

---

(١) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين (القاهرة ١٩٧٠)، ص ٢٣.

(٢) الكامل، جـ٦، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٤.

(٣) الكامل، جـ٦ ص ٤٨٦؛ الخطط، جـ١ ص ٢٣٦.

الله المهدى من معاودة الكرة، فأرسل جيشاً فى سنة ٣٠٧هـ (٩١٩م) بقيادة ابنه أبى القاسم، فاستولى على الإسكندرية، وسار إلى الجيزة، وامتد نفوذه إلى الأشمونين وجزء كبير من بلاد الصعيد، فأسرع الخليفة العباسى بإرسال جيش بقيادة مؤنس الخادم، أوقع بالفاطميين عدة هزائم أجبرتهم على الفرار إلى برقة(١).

ولاشك أن وقوع الصدام أكثر من مرة على أرض مصر بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية، قد أنزل كثيراً من الأضرار بالمصريين وعرضهم لمتاعب قاسية من جانب الجنود، فساءت أحوال البلاد، وتعرضت مرافقها للإهمال(٢).

محمد بن طغج الإخشيد:

ينسب الإخشيديون إلى محمد بن طغج الإخشيد، ويقال أنه من أولاد ملوك فرغانة فى بلد ما وراء النهر، حيث جرت العادة أن يلقب ملوك هذه البلاد كلا منهم باسم الإخشيد، فأطلق هذا اللقب أيضا على محمد بن طغج وتسمت به دولته، فغدت تعرف باسم الدولة الإخشيدية، وهى ثانى دولة مستقلة عرفتها مصر الإسلامية بعد الدولة الطولونية(٣).

وكان جف جد محمد بن طغج أحد جماعة من الأتراك الذين جلبهم الخليفة العباسى المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤١م) من فرغانة، وبالغ فى إكرامهم وأقطعهم القطائع بسامراء، وقد اتصل جف بخدمة المعتصم، ونال حظوة عنده بسبب شجاعته وإقدامه فى الحروب، ولما مات المعتصم انتقل جف إلى خدمة ابنه الواثق ثم المتوكل، إلى أن توفى فى نفس الليلة التى قتل فيها المتوكل سنة ٢٤٧هـ (٨٦١م)(٤) فى بغداد.

وكان أن خرج أولاد جف من بغداد «إلى البلاد يتصرفون ويطلبون لهم معايش»، فاتصل طغج بخدمة أحمد بن طولون. غير أن طغج انحاز إلى إسحاق بن كنداج والى

---

(١) الكامل، جـ٦، ص ٥٠١.

(٢) سعيد عاشور: مصر فى العصور الوسطى، ص ١٣٦.

(٣) المقريزى: المقفى، جـ ٥، ص ٧٤٦ ـ ٧٤٧؛ النجوم الزاهرة،جـ٣ص ٢٣٧.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٥ ص ٥٦.

الموصل وعدو أحمد بن طولون، وظل على ذلك حتى توفى ابن طولون وجرى الصلح بين ابنه خمارويه وإسحاق بن كنداج، وعندئذ عاد طغج إلى خدمة الطولونيين، وعينه خمارويه واليا على دمشق وطبرية[1].

وظل طغج واليا على دمشق وطبرية فى عهد خمارويه وابنه أبى العساكر جيش، ولما ثار قواد الجيش الطولونى على الأخير وقتلوه وولوا أخاه هارون خمارويه سنة ٢٨٣هـ (٨٩٦م)، كان طغج يحكم الشام مستقلا عن مصر إلى حد كبير، وفى أثناء حكمه تعرضت بلاد الشام لغزو جموع القرامطة سنة ٢٨٩هـ (٩٠٢م) ـ كما سبق أن ذكرنا ـ وقتلت عدداً كبيراً من سكانها، وعجز الطولونيون عن صدهم. وهنا نلاحظ أن الخليفة العباسى المكتفى بالله قد انتهز فرصة الصدام بين القرامطة والطولونيين، فبعث جيشاً إلى الشام بقيادة محمد بن سليمان ليتخلص من الفريقين، ويسترد نفوذ الخلافة فى بلاد الشام[2]. حدث ذلك فى الوقت الذى قتل فيه هارون بن خمارويه وتولى مكانه شيبان بن أحمد بن طولون، فلم يرض طغج عن ذلك، وانضم إلى محمد بن سليمان قائد الجيش العباسى، وشارك بهذا فى القضاء على دولة الطولونيين[3].

ثم عاد محمد بن سليمان الكاتب إلى بغداد وفى صحبته طغج بن جف، الذى انتقل إلى خدمة البلاط العباسى. ولكن وزير الخليفة المكتفى بالله العباسى لم يكن راضيا عن طغج، فأخذ يوغر صدر الخليفة على طغج ويحذره من إخلاصه للطولونيين، حتى أمر الخليفة بحبسه ومعه ولداه محمد وعبيد الله، فظلوا فى السجن إلى أن توفى طغج سنة ٢٩٤هـ(٩٠٦م)، وأطلق سراح ولداه[4].

وبعد هذا اتصل محمد بن طغج بخدمة أبى منصور تكين والى مصر، وشاركه فى قتال الفاطميين أثناء المحاولات التى قاموا بها لفتح مصر، وأبدى شجاعة فى الحروب التى خاضها ضدهم، واستطاع بذلك أن يحوز ثقة الخلافة العباسية وتقديرها، فكافأة الخليفة

(١) المصدر السابق، جـ٥، ص ٥٧.
(٢) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٦٣ ـ ٦٤.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٥، ص ٥٧؛ سيدة كاشف: المرجع السابق، ص ٦٤.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٥، ص ٧٥.

الراضى بأن ولاه حكم مصر سنة ٣٢٣هـ (٩٣٥م)(١)، وبذلك قامت الدولة الإخشيدية التى قدر لها أن تحكم مصر نحو أربعة وثلاثين عاما.

وفى بداية سنة ٣٣٣هـ (حصل الإخشيد على تقليد جديد من الخليفة العباسى المتقى بولاية مصر وحق توريث حكمها لأبنائه من بعده، وإن كان هذا الحق قد حدد بفترة ثلاثين سنة(٢). والواقع أن هذا التقليد لم يكن له شأن كبير، وإنما كان إقراراً للواقع وامتيازاً لم يكن باستطاعة الخليفة أن يمنعه. إذ كان الإخشيد قد تمكن من وضع نظام وراثة الملك من بعده، بأن أخذ البيعة من قواده وجنده ومن المصريين بصفة عامة لابنه أبى القاسم أنوجور، وحملهم جميعا على الاعتراف له بولاية العهد، وهذا النظام معناه استقلال مصر وبلاد الشام والحجاز التابعة لها، كما أنه يدلنا على توطيد سلطة الإخشيد فى هذه الأماكن(٣). ويمكن القول إن حكومة الإخشيديين كانت من الناحية الشرعية لاتزيد عن كونها حكومة إقليمية تابعة للخلافة العباسية، أما من ناحية الواقع فإن هذه الحكومة كانت مستقلة استقلالا يكاد يكون تاما، وكانت لها جميع مظاهر الحكومات المستقلة تقريبا(٤). ومع أن استقلال مصر فى العصر الإخشيدى كان استقلالا ملموساً لاشك فيه، وإن ظلت الروابط الروحية ومقتضيات الأحوال السياسية تربطها بالحكومة المركزية فى بغداد من غير أن تصل بها إلى التبعية المطلقة شأنها فى ذلك شأن الدولة الطولونية، إلا أن استقلال الطولونيين كان يبدو لبعض الباحثين أوضح وأظهر أثراً؛ ولعل بعض السبب فى هذا أن الإخشيديين لم يحاربوا الحكومة المركزية فى بغداد صراحة كما فعل أحمد بن طولون وابنه خمارويه، كما أن الإخشيديين خلفتهم الدولة الفاطمية التى استقلت مصر على يدها استقلالاً تاماً، جعل الناس ينسون ما كان للإخشيديين من مجد واستقلال(٥).

وهنا نلاحظ أن استقلال مصر فى عصر الإخشيديين فى ظل تبعية إسمية للخلافة العباسية لهو خير دليل على احتفاظ مصر بشخصيتها على نسق فريد، يختلف تماما عن

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٣، ص ٢٣٦.

(٢) المقريزى: المقفى، جـ٥، ص ٧٤٥.

(٣) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص ٩٤ ـ ٩٥.

(4) Lane - Poole, A Hist of Egypt in the Middle Ages., p. 86.

(٥) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٣٩٣.

الدويلات التى قامت فى العالم الإسلامى، والتى نزعت إلى الاستقلال القومى فى فارس فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (التاسع والعاشر للميلاد). فالدولة الصفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٠هـ/ ٨٦٧ ـ ٩٠٣م) عمل مؤسسها يعقوب بن الليث الصفار على إحياء دولة الفرس القديمة فى ظل الخلافة العباسية، وكذلك الدولة السامانية (٢٦١ ـ ٣٨٩هـ/ ٨٧٤ ـ ٩٩٩م) التى استجاب مؤسسها نصر بن أحمد السامانى ـ مثل الصفاريين ـ لنفس التيار القومى الفارسى، مع حرصه على التمسك بطاعة الخلافة العباسية.

وقد أشاد المؤرخون بمحمد بن طغج الإخشيد ومدحوه، فوصفه المقريزى[١] قائلاً: «وكان حازماً شديد التيقظ فى حروبه، حسن التدين، مكرماً للأجناد، شديد القوى لايكاد يجر قوسه غيره، حسن السيرة فى الرعية، نجيباً، شهماً». وكان ابن طغج يحاول التشبه بأحمد بن طولون، ولكن الفارق بين الشخصيتين كان بعيداً فى كل ناحية، ومع ذلك فإن الدولة التى أقامها الإخشيد فى مصر، أتاحت للشعب المصرى أن يعيش فترة من الزمن فى هدوء واستقرار، بعيداً عن الفوضى والفتن التى انتابت الخلافة العباسية. ومن أجل المحافظة على نفوذه فى مصر والشام، أسس الإخشيد جيشاً قوياً ليعزز سياسته الداخلية والخارجية على غرار ما فعله أحمد بن طولون من قبله، كما سار على نفس السياسة التى سار عليها، وهى تقربه من المصريين واكتساب ودهم، والفوز بولاء الأقباط الذين كانوا لايزالون فى ذلك الوقت قوة يحسب لها حساب[٢].

المصاعب الداخلية والخارجية التى واجهت الإخشيد:

كانت مقاليد الأمور بمصر فى الفترة الواقعة بين الدولتين الطولونية والإخشيدية فى أيدى ثلاث قوى: الولاة وقواد الجيش العباسى فى مصر والماذرائيين، أما هؤلاء الماذرائيون فهم أسرة فارسية الأصل، نزحت من العراق إلى مصر، وأتيح لبعض أعضاء هذه الأسرة ولاية بعض الوظائف الرئيسية فى مصر أيام الطولونيين وبعد أيام الطولونيين[٣]. وكان

---

(١) المقفى، جـ٥ ص ٧٥٢.
(٢) حسن أحمد محمود، أحمد ابراهيم الشريف: العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص ٤٣٨.
(٣) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٣٩.

العمل الرئيسى للماذرائيين أنهم كانوا يضمنون الخراج للخلافة أو لصاحب الأمر فى مصر، فيدفعون مبلغاً معينا ثم يحصلون من الناس على ما يشاءون، وقد اشتهر أمرهم بذلك، حتى أن أصحاب الأمر كانوا يكرهونهم ويحسدونهم ولكنهم لايستغنون عنهم،نظراً لمعرفتهم بوجوه الإيراد والإنفاق[1]. وكان للماذرائيين فى مصر الضياع الواسعة، واتخذ كبارهم الحجاب تشبهاً بالأمراء، وعاشوا فى ترف ظاهر، ولكنهم كانوا إلى جانب هذا يغدقون الخير والإحسان على الفقراء والمحتاجين[2]. وحين جاء محمد بن طغج إلى مصر سنة ٣٢٣هـ (٩٣٥م) لقى مقاومة شديدة من عامل الخراج محمد بن على الماذرائى، ولكنه استطاع التغلب على هذه المقاومة بالاستعانة بالوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات الذى كان يبادل الماذرائيين العداء المستحكم، وحدث أن الخليفة العباسى الراضى بالله قد بعث الفضل بن جعفر لتفقد أحوال مصر والشام وجباية خراجها، فلما جاء مصر قبض على محمد بن على الماذرائى، وصادر أمواله وضياعه، ثم خرج إلى الشام فى جمادى الأول سنة ٣٢٤هـ (ديسمبر ٩٤٥م)، ومعه الماذرائى مقبوضا عليه. وبذلك تخلص الإخشيد فى بداية عهده من منافس خطير كان يتحكم فى إدارة البلاد وأموالها.

وبفضل الجيش القوى الذى كونه محمد بن طغج الإخشيد، استطاع أن يقف فى وجه ابن رائق، وهو أحد الأمراء المتنازعين على السلطة فى بغداد فى عهد الخليفة الراضى بالله)٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٠)، وقد ارتفع شأنه حتى أجبر الخليفة على تقليده جميع أمور الدولة، فتولى قيادة الجيش وخراج جميع البلاد التى كانت فى حوزة الخلافة العباسية، وخطب له على المنابر[3]. وتطلع ابن رائق إلى امتلاك الشام، فخرج إليه الإخشيد فى المحرم سنة ٣٢٨هـ، والتقى الإثنان عند اللجون على مقربة من طبرية فى فلسطين، ودارت بينهما معركة حامية انتصر فيها الإخشيد، ولكنه أحس أنه لن يستطيع الصمود لابن رائق، فصالحه على أن يدفع له جزية سنوية مقدارها مائة وأربعون ألف دينار، وعلى أن

---

(١) حسين مؤنس: تاريخ مصر من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون، ص ٤١٢.
(٢) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.
(٣)ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١، ص ١٨٤.

تكون له الرملة، ويترك باقى الشام لابن رائق، وكان ذلك فى المحرم سنة ٣٢٩هـ (أكتوبر ٩٤٠م). ثم حدث أن قتل ابن رائق فى العام التالى على يد ناصر الدولة الحمدانى، فحانت الفرصة للإخشيد لاسترداد أملاكه فى الشام[١].

ومن المصاعب الخارجية التى واجهت الإخشيد غارات الحمدانيين أصحاب الموصل وحلب على ممتلكات الإخشيديين فى الشام. فقد سار سيف الدولة الحمدانى نحو الشام، وهزم جيشاً بقيادة كافور على نهر العاصى، ثم اتجه سيف الدولة جنوباً قاصداً دمشق، فدخلها فى رمضان سنة ٣٣٣هـ (٩٤٤م)، فاضطر الإخشيد إلى أن يخرج بنفسه على رأس جيش كثيف فى نفس العام، واستطاع أن يسترد دمشق، وأوقع الهزيمة بجيش سيف الدولة فى حمص وقنسرين، ثم استولى على حلب حاضر الحمدانيين[٢]، وعلى الرغم من الانتصار الذى أحرزه الإخشيد، إلا إنه عقد معاهدة صلح مع سيف الدولة تضمنت أن يترك الإخشيد حلب لسيف الدولة، وأن يتعهد بدفع جزية سنوية له، فى مقابل احتفاظه بدمشق وما يليها جنوباً، ويقال أن سبب تساهل الإخشيد مع الحمدانيين، هو أنه أراد الإبقاء على الحمدانيين كحصن منيع فى مواجهة الدولة البيزنطية التى دأبت على شن غاراتها على شمال الشام. ومما يؤكد ذلك أن الدولة الحمدانية كانت القوة الوحيدة فى العالم الإسلامى التى تعمل لها الدولة البيزنطية حساباً وترهب جانبها، ففى الوقت الذى كانت الخلافة العباسية تزداد ضعفاً، وازدادت قوة الحمدانيين، ومن ثم لكى تحمى الدولة البيزنطية نفسها فى عهد الإمبراطور رومانوس ليكابنوس Romanus Lecapenus (٩١٩ـ ٩٤٤م) من خطر الحمدانيين، اضطرت الى الدخول فى علاقات ودية مع الخلافة العباسية من جهة، ومع الإخشيديين فى مصر بوصفهم يسيطرون على الشام من جهة أخرى[٣]. وتنفيذاً لسياسة الود التى انتهجها الإمبراطور رومانوس مع محمد بن طغج الإخشيد، تم تبادل الرسل

---

(١) النجوم الاهرة، جـ٣ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤.

(٢) النجوم الزاهرة،جـ٣ ص ٢٥٥.

(3) Ostrogorsky, Hist of the Byzantine Empire., p. 276.

والرسائل بينهما. وقد أورد القلقشندى[1] نص الرسالة المطولة التى وجهها الإخشيد للإمبراطور رومانوس رداً على رسالته، ومن مضمونها يتبين لنا حرص رومانوس على إقامة علاقات ودية وتبادل الأسرى وتعزيز التبادل التجارى، وفى ذلك يقول: «وأما ما أنفذته للتجارة فقد أمكنا أصحابك منه، وأذنا لهم فى البيع وفى ابتياع ما أرادوه وما اختاروه، لأنا وجدنا جميعه مما لايحظره علينا دين ولا سياسة».

علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية:

ومما يذكر أن محمداً بن طغج الإخشيد حاول نفس المحاولة التى قام بها أحمد بن طولون من قبل، وهى نقل الخلافة العباسية إلى مصر لتكون تحت حمايته. وكانت محاولة الإخشيد سنة ٣٣٣هـ (٩٤٤م)، حينما استبد الأمراء الأتراك بالخليفة العباسى المتقى بالله (٣٢٩ - ٣٣٣هـ)، وتقاعس الحمدانيون فى حلب عن نجدته، فالتقى به الإخشيد فى الشام، وأبدى له بالغ الاحترام والتقدير، ودعاه إلى ترك بغداد والمجىء إلى مصر والإقامة فيها، وقال للخليفة: «يا أمير المومنين أنا عبدك وابن عبدك، وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم، فالله فى نفسك! سر معى إلى الشام ومصر فهى لك، وتأمن على نفسك»، ولكن الخليفة فضل ألا يترك عاصمة ملكه، ورفض عرض الإخشيد[2]. ولاشك أنه لو أتيح للإخشيد أن ينجح فى جذب الخليفة إلى مصر لتغير - إلى حد ما - مستقبل الخلافة ومستقبل مصر[3]. وإذا كان الإخشيد قد أخفق فى جعل مصر مركزاً للخلافة العباسية، فإن ذلك الأمر قد تم فيما بعد على يد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس فى سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م).

كافور وأولاد الإخشيد:

توفى محمد طغج بن الإخشيد فى سنة ٣٣٤هـ (٩٤٥م)، وكان قد عقد قبل وفاته

---

(١) صبح الأعشى، جـ٧ ص ١٠ - ١٨.

(٢) المقفى، جـ٥ ص ٧٤٩ - ٧٥٠؛ النجوم الزاهرة؛ جـ٣ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٣) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٩٥؛ مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ٢٩٤.

لولده أبى القاسم آنوجور الذى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره عندما ولى الحكم، فتولى الوصاية عليه غلام أبيه كافور الإخشيدى، الذى أصبح صاحب النفوذ المطلق فى الدولة الإخشيدية. وكان كافور عبداً أسود خصيا قبيح الشكل بطينا ثقيل البدن، قبيح القدمين، مثقوب الشفة السفلى، اشتراه محمد بن طغج الإخشيد بثمانية عشر ديناراً، وجعله مربياً لأولاده[1]، وارتفعت مكانته شيئاً فشيئًا عند الإخشيد حتى صار موضع ثقته، وأقرب المقربين لدية.

وعلى آية حال، انفرد كافور بالسلطة، وأصبح صاحب الأمر والنهى، وكان يخرج لأونوجور كل سنة آربعمائة آلف دينار لتغطية نفقاته. وعندما بلغ أونوجور سن الرشد حرضه بعض المتصلين به على الثورة ضد كافور وتدبير شئون الدولة بنفسه، فابتعد آونوجور عن كافور وقرر التوجة إلى الرملة لمناوأته، ولكن أمه خافت عليه وأخبرت كافور بخبره، وانتهى الأمر بالصلح بينهما[2].

استطاع كافور أن يحافظ على الدولة أثناء وصايته لأونوجور، ويظهر ذلك واضحاً عندما أغار سيف الدولة الحمدانى على أملاك الإخشيدين بالشام، واستولى على دمشق، وعزم على السير إلى الرملة، فخرج إليه كافور على رأس جيش كثيف، والتقى معه قرب الرملة وانتصر علية انتصاراً حاسماً[3]. ثم عقد الصلح بين الفريقين، بنفس الشروط التى كانت بين محمد بن طغج وسيف الدولة، وبذلك احتفظت الدولة الإخشيدية بسيادتها على دمشق.

كذلك حارب كافور حكام النوبة الذين تكررت غاراتهم على أسوان وغيرها من مدن الوجه القبلى وأجبرهم على الطاعة. من ذلك ما حدث سنة ٣٤٤هـ(٩٥٦م) حينما أغار ملك النوبة على أسوان ونهب قراها وقتل جمعاً من سكانها، فخرج إليه محمد بن عبد الله الخازن ـ من قبل أونوجور بن الإخشيد، على رأس جيش ضخم، واستطاع هذا الجيش أن

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤ ص ٩٩ ـ ١٠٠؛ النجوم الزاهرة، جـ٤ ص ١ ـ ٢.
(٢) النجوم الزاهرة، جـ٣، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.
(٣) الخطط، جـ٢ ص ٢٦؛ النجوم الزاهرة، جـ ٣ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

يصد النوبيين ويطارد فلولهم حتى وصل مدينة أبريم، وعاد إلى مصر فى منتصف جمادى الأولى سنة ٣٤٥هـ (٩٥٧م) ومعه الأسرى وعدد من رءوس القتلى[١].

وبعد وفاة أونوجور فى ذى القعدة سنة ٣٤٩هـ (ديسمبر ١٩٦٠م) خلفه أخوه أبو الحسن على بن الإخشيد، وكان فى الحادية والعشرين من عمره، وظل كافور الإخشيدى على حاله صاحب السلطة الفعلية فى البلاد، وخصص لأبى الحسن نفس المبلغ الذى خصصه لأخيه من قبل وهو أربعمائة ألف دينار سنويا[٢]. ويبدو أن أبا الحسن حاول أن يتخلص من سطوة كافور، ولكنه فشل، وفى ذلك يقول أبو المحاسن[٣]: «ثم فسد ما بين على بن الإخشيد صاحب مصر وبين مدبر مملكته كافور الإخشيدى، ومنع كافور الناس من الاجتماع به حتى اعتل على المذكور بعلة أخيه أونوجور، ومات لإحدى عشرة خلت من المحرم سنة خمس وخمسين وثلثمائة».

وبعد وفاة أبى الحسن على بن الإخشيد، انفرد كافور بحكم مصر وتدبير أمورها، فقد منحه الخليفة العباسى المطيع (٣٣٤ ـ ٣٦٣هـ) حكم مصر والشام والحجاز، ولقب بالأستاذ، فكان يقال «الأستاذ أبو المسك كافور»[٤]. وفى أثناء انفراده بالحكم، ازداد طمع الفاطميين فى مصر، وتطلعوا إلى الاستيلاء عليها، فعملوا على نشر الدعوة لأنفسهم فى مصر، بل دعوا كافوراً إلى الدخول فى دعوتهم، ولكنه أظهر معهم أسلوب الحيلة والدهاء، وتظاهر بالقبول. ومما يدل على ذلك ما رواه المؤرخ أبو المحاسن من أن كافوراً كان «خبيراً بالسياسة فطنا ذكيا، جيد العقل داهية، كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر»[٥].

وبعد وفاة كافور الإخشيدى فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ (أبريل ٩٦٨م)، عمت الفوضى والاضطرابات معظم أنحاء مصر، وتدهورت أحوالها الاقتصادية. فأصابها القحط

---

(١) الخطط، جـ١ ص ١٩٧؛ محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى، ص ٥١ ـ ٥٢.
(٢) النجوم الزاهرة، جـ٣ ص ٣٢٦.
(٣) النجوم الزاهرة، جـ٣ ص ٣٢٦.
(٤) الخطط، جـ١ ص ٣٢٩.
(٥) النجوم الزاهرة، جـ٤ ص ٦.

والوباء والغلاء الشديد الناجم عن نقص فيضان النيل، وهاجم القرامطة بلاد الشام وامتد نفوذهم إليها، فى الوقت الذى عجزت الخلافة العباسية عن إعادة الأمور إلى نصابها فى مصر. ولذلك اتصل المصريون بالفاطميين فى بلاد المغرب، ودعوهم للحضور إلى مصر رغبة فى التخلص من الأحوال السيئة التى ترديوا فيها، وساعدوهم على فتحها وإسقاط الدولة الإخشيدية.

ولعل قبل أن ننتقل إلى الحديث عن مصر فى عصر الفاطميين، لسنا فى حاجة إلى القول إن الإخشيديين ومن قبلهم الطولونيين - وهم من أصل تركى - الذين اتخذوا مصر مقراً لحكمهم ووطنا لهم، وأولوا عنايتهم لخدمتها ورفعة شأنها، لم يمارسوا حكمهم بوصفهم أقلية مميزة أو أجانب عن مصر. فمهما قيل عن اختلاف منابتهم، فالحقيقة أنهم دانوا لمصر بالولاء، ومن خلال مصر، وبفضل مقومات شعبها العظيم حرصوا على استقلالها وازدهارها.

بعض المظاهر الحضارية فى مصر فى عصر الإخشيديين:

شهدت مصر فى عصر الدولة الإخشيدية رغم قصره نشاطاً حضارياً مزدهراً فى ميادين الفنون والآداب والعلوم. ويتضح ذلك فى تشييد العمائر وإنتاج التحف والآثار الفنية التى تمثل شتى ميادين الفن الإسلامى، ولكن الذى وصل إلينا من آثاره قليل، بسبب تقادم الزمن بها من ناحية، وبسبب مجيء العصر الفاطمى بعدها من ناحية أخرى؛ والعصر الفاطمى - كما نعرف - بلغت فيه الفنون الإسلامية فى مصر أوج عظمتها، وطغت آثاره على ما كان فى مصر قبلها من الآثار الإسلامية[1].

وهنا نلاحظ أنه على الرغم من أن الإخشيديين اهتموا بالبناء وشيدوا القصور، فإنهم لم يهتموا ببناء مدينة جديدة فى مصر ترتبط بهم، على غرار مدينة الفسطاط فى عصر الولاة، ومدينة العسكر التى أنشئت فى سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) على أثر سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، وكان مكان تلك المدينة فى الشمال الشرقى لمدينة الفسطاط.

---

(١) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٢٩٩.

ولما جاء أحمد بن طولون إلى مصر، أسس ـ كما ذكرنا ـ حاضرة جديدة عرفت باسم القطائع. وإلى جانب ذلك لم يشيد الإخشيديون مسجداً جامعاً كبيراً مثل جامع عمرو بن العاص أقدم الجوامع فى مصر، وجامع العسكر الذى أسسه أحد ولاة العباسيين فى مصر سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥م)، وجامع أحمد بن طولون أشهر الآثار التى خلفها لنا والتى ارتبطت باسمه إلى اليوم. ولم تذكر المصادر إلا اهتمام محمد بن طغج الإخشيد بتجديد بناء كثير من المساجد. كما أن كافورا الإخشيدى شيد مسجداً فى سفح جبل المقطم أطلق عليه إسم مسجد الفقاعى، وكان فى وسطه محراب من الطوب، هو أول محراب بنى فى مصر[1].

النشاط الدينى:

تميز عهد الإخشيديين بظهور عدد من أعلام الفقه من أبناء مصر كان لهم نشاط مرموق. وكان على رأس الفقهاء المالكية فى هذا العهد هارون بن محمد بن هارون الأسوانى المتوفى سنة ٣٢٧هـ (٩٣٩م)[2]، وعلى بن عبد الله بن أبى مصر الإسكندرانى المتوفى سنة ٣٣٠هـ (٩٤٢م)، وأبى بكر أحمد بن عمرو الطحان المتوفى سنة ٣٣٣هـ (٩٤٤م)، ومحمد بن أحمد بن أبى يوسف الخلال، الذى أخذ عنه الناس وألف، وتوفى سنة ٣٣٩هـ (٩٥٠م)[3]. ومن فقهاء المالكية أيضا محمد بن يحيى بن مهدى بن هارون الأسوانى المتوفى سنة ٣٤٠هـ (٩٥١م) والذى ولى قضاء مصر[4]، وأحمد بن محمد بن جعفر الأسوانى المتوفى سنة ٣٦٤هـ (٩٧٥م) أو ٣٧٤هـ (٩٧٦م)، ويوسف بن بلال الأسوانى المتوفى سنة ٣٧٦هـ (٨٩٧م)[5].

أما فقهاء الشافعية، فيأتى فى مقدمتهم أبوبكر محمد بن جعفر الكنانى المصرى المعروف بابن الحداد المتوفى سنة ٣٤٤ أو ٣٤٥هـ (٩٥٥أو ٩٥٦م)، تولى القضاء والتدريس بمصر، وقال فيه ابن خلكان[6]: «وكان متصرفا فى علوم كثيرة من علوم القرآن

---

(١) الخطط، جـ٢ ص ٤٥٥.
(٢) الأدفوى: الطالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد (القاهرة ١٩٦٦)، ص ٦٨٦.
(٣) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٤٤٩.
(٤) الطالع السعيد، ص ٦٣٨ـ ٦٣٩؛ حسن المحاضرة، ص ٤٤٩.
(٥) الطالع السعيد، ص ٦٤٣؛ حسن المحاضرة، جـ١ ص ٤٢.
(٦) وفيات الأعيان،جـ٤ ص ١٩٧ ـ ١٩٨؛ حسن المحاضرة، جـ١ ص ٣١٣.

الكريم والفقه والحديث والشعر وأيام العرب والنحو واللغة وغير ذلك. ولم يكن فى زمانه مثله، وكان محببا إلى الخاص والعام..» وظهر من فقهاء الشافعية فى العصر الإخشيدى، أبو على الروذبارى محمد بن القاسم البغدادى المتوفى سنة ٣٢٢هـ (٩٣٤م)، نزيل مصر وشيخها، وكان إماما مفتيا[١]، وأبو رجاء محمد بن أحمد بن الربيع الأسوانى المتوفى سنة ٣٣٥هـ (٩٤٦م)، الفقيه الأديب الشاعر[٢]. ومنهم عبد الله بن محمد الخصيبى الذى ولى قضاء مصر وتوفى سنة ٣٤٨هـ (٩٥٩م)، وعبد الله بن محمد بن عبد الله بن الناصح المتوفى سنة ٣٦٥هـ (٩٧٦م).

النشاط الاقتصادى:

اهتم الإخشيديون بانتعاش الأحوال الاقتصادية فى مصر، وأولوا عنايتهم بالزراعة والصناعة والتجارة. أما الزراعة فكانت الحرفة الأساسية لمعظم السكان، وتمثل المورد الرئيسى لدخول الدولة.ولم يكن إيجار الأرض الزراعية مرتفعاً فى العصر الإخشيدى، إذكان يتراوح بين دينار واحد وبنى دينارين ونصف دينار للفدان فى السنة، حسب جودة الأرض. وقد ذكرت لنا وثيقة محفوظة بدار الكتب المصرية ترجع إلى سنة ٣٨هـ (٩٥٩م) تتضمن عقد إيجار أرض مساحتها ثلاثة أفدنة وإيجارها ثلاثة دنانير فى السنة، وعثر على وثيقة أخرى تتضمن عقد إيجار أرض من بداية العهد الإخشيدى مساحتها ستةفدادين وإيجارها خمسة عشر ديناراً فى السنة[٣].

وكانت جميع أراضى مصر تروى بطريقة الحياض مرة واحدة فى السنة. وقد كتب ابن حوقل فى هذا الصدد: «وزروعهم بماء النيل تمتد فتعم المزارع من حد أسوان إلى حد الإسكندرية، ويقيم الماء فى أرضهم بالريف والحوف منذ امتداد الحر إلى الخريف ثم ينضب فيزرع ثم لا يسقى بعد ذلك ولايحتاج إلى سقى ألبتة»[٤].

---

(١) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٤٠٠.
(٢) الطالع السعيد، ص ٤٨٥؛ حسن المحاضرة، جـ١ ص ٤٠١.
(٣) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.
(٤) المرجع السابق، ص ٢٩٢.

وقد بذل كافور الإخشيدى جهده لتنمية الزراعة، حتى زاد خراج مصر على أربعة ملايين كل سنة، وبلغ خراج التميوم وحده سنة ٣٥٦هـ (٩٧٦م) فى عهد كافور أكثر من ٦٢٠ ألف دينار. غير أنه فى أواخر عهده انخفض ماء النيل انخفاضا دام تسع سنين (٣٥١ - ٣٦٠هـ/ ٩٦٢ - ٩٧١م)، وظل حتى أيام الفاطميين، وقد قاست البلاد مما أصابها من القحط والوباء، واشتد الغلاء، وندر وجود القمح وفشا الموت، وعم النهب والسلب[١].

وإلى جانب هذا كانت مصر بلداً صناعياً هاماً فى العصر الإخشيدى، فاشتهرت بصناعة النسيج الرقيق من تنيس ودمياط وشطا ودبيق، وامتازت بصفة خصاصة بالأقمشة ذات الخيوط الذهبية التى كانت تصدرها إلى العراق[٢]. وقد ظل الخلفاء العباسيون فى عهد الإخشيديين يستمدون من مصر أكثر مايلزمهم من المنسوجيات النفيسة المحلاة بكتابات كوفية فيها العبارات والأدعية المعروفة[٣]. وظهرت فى العصر الإخشيدى صناعة الورق التى حلت محل البردى، وترجع أول وثيقة حكومية من الورق إلى عام ٩١٢م، كما ترجع آخر وثيقة حكومية من ورق البردى إلى عام ٩٣٥م. يضاف إلى هذا اشتهار مصر حينئذ بصناعة الأسلحة والتحف الدقيقة المطعمة بالذهب والفضة والجواهر الثمينة[٤].

على أن التجارة قد ارتفع شأنها فى العصر الإخشيدى . ذلك أن تجارة الشرق التى كانت تتجه إلى المحيط الهندى والشرق الأقصى، أخذت تتحول عن طريق الخليج العربى والعراق - أى عن طريق هرمز والبصرة - إلى طريق مصر والبحر الأحمر. ويذكر المقدسى أن ثغر عدن صار فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أهم مركز تجارى، فى حين أخذت بغداد تتدهور وتفقد مكانتها، الأمر الذى يوضح لنا تمسك محمد بن طغج الإخشيد بفرض نفوذه على بلاد الشام والحجاز بما فى ذلك مكة والمدينة[٥].

واحتفظ نهر النيل بمكانته الهامة فى نقل التجارة الداخلية بين شمال مصر وجنوبها فى العصر الإخشيدى. ولم تكن التجارة مع بلاد النوبة فى أيدى المصريين، وإنما كان تجار

---

(١) على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى، ص ٤٣٧.
(٢) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارة فى حوض البحر المتوسط، ص ٢٥٧.
(٣) زكى محمد حسن: الفنون الإسلامية، ص ٣٤٩.
(٤) أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص ٢٥٨.
(٥) أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص ٢٥٧.

النوبة هم الذين يأتون فى النيل حتى منطقة الجنادل، ثم ينقلون حاصلاتهم وبضائعهم على ظهور الجمال إلى أسوان[1].

النشاط الأدبى واللغوى:

ازدهر الأدب فى مصر فى العصر الإخشيدى، لكن يلاحظ أن حظ النثر كان أوفر من حظ الشعر، وأن النثر فى هذا العصر كانت فيه المسحة العراقية والميل إلى السجع والمزاوجة مع إطناب فى اللفظ وتكرار للمعنى وإقبال على الجمل القصيرة[2]. وكان فارس حلبة النثر الفنى فى العصر الإحشيدى إبراهيم بن عبد الله بن محمد النجيرمى، ومما يدل على ذلك رسالة طويلة من إنشائه أرسلها الإخشيد رداً على ما كتبه إليه رومانوس ليكابينوس الوصى على العرش البيزنطى[3]. وممن برز من أبناء مصر فى الأدب فى العصر الإخشيدى سيبويه المصرى، وهو أبو بكرمحمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى الصيرفى المعروف بسيبويه. وقد ولد بمصر سنة ٢٨٤هـ (٨٩٧م)، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم أكثر معانيه وقراءاته وغريبه وإعرابه وإحكامه، وتوفى فى صفر سنة ٣٥٨هـ (٩٦٨م) قبل دخول القائد الفاطمى جوهرمصر بستة أشهر، فتأسف عليه عندما سمع به وقال: «لو أدركته لأهديته إلى الإمام المعز لدين الله»[4].

أما الشعر فى العصر الإخشيدى فكان هزيلا نحيلا، ولانكاد نجد من الشعراء المصريين من يصل إلى مكانة شعراء العراق أمثال أبى تمام والبحترى وابن الرومى[5]. ومن شعراء مصر فى هذا العصر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن القاسم بن إبراهيم طباطبا نقيب الطالبيين المتوفى سنة ٣٤٥هـ (٩٥٦م)، والقاسم بن أحمد الرسى وهو ابن الشاعر السابق، وأدرك القاسم الدولة الفاطمية، وسعيد قاضى البقر، وكان مقربا إلى الإخشيد لما امتاز به

---

(١) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٢٩٤.
(٢) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٣٢٥.
(٣) المرجع السابق والصفحة.
(٤) المقريزى: المقفى، جـ٧ ص ٣١٣.
(٥) مصطفى بدر: مصر الإسلامية، ص ٢٧٩.

من حلو الفكاهة وحسن الحديث، ومحمد بن الحسن بن زكريا، ومهلهل بن يموت وغيرهم[١].

وقد زار مصر فى العصر الإخشيدى الشاعر أبو الطيب المتنبى، وأقام بها عند كافور الإخشيدى يمدحه بغرض الحصول على منصب هام،ولكنه لم يحقق مطلبه، فانقلب على كافور يهجوه هجاء قاسياً بعد أن كان يمدحه بأبلغ المدائح.

ومما قاله فى مدح كافور القصيدة المشهورة التى مطلعها:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وجاء فيها:

قواصد كافور توارك غيره   ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه   وخلت بياضا خلفها ومآقيا
أبا كل طيب لا أبا المسك وحده   وكل سحاب لا أخص الغواديا
إذا كسب الناس المعالى بالندى   فإنك تعطى فى نداك المعاليا
وغير كثير أن يزورك راجل   فيرجع ملكا للعراقيين واليا

ولما لم يحقق المتنبى ما كان يطمع فيه من مناصب، نظم قصيدته الدالية المشهورة التى هجا فيها كافور، ومطلعها:

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لأمر فيك تجديد

ومن أبياتها:

صار الخصى إمام الآبقين بها   فالحر مستعبد والعبد معبود
لاتشتر العبد إلا والعصا معه   إن العبيد لأنجاس مناكيد
من علم الأسود المخصى مكرمة   أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه فى يد النخاس دامية   أم قدره وهو بالفلسين مردود

---

(١) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩.

أما النحو فقد نبغ فيه جماعة من العلماء، من أشهرهم أحمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢هـ (٩٤٣م)، وهو من أسرة مصرية اشتهرت بالدراسات النحوية. وقال عنه المبرد أنه شيخ الديار المصرية فى العربية، وقد رحل إلى بغداد وأخذ النحو عن الزجاج، وعاد إلى مصر، فألف كتاب «الانتصار لسيبويه»، وكتاب «المقصود والممدود»[١]. ونبغ من النحويين أيضا بمصر فى بداية العصر الإخشيدى أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ (٩٤٩م)،وقد درس النحو فى العراق على أيدى الأخفش الصغير والمبرد والزجاج، وخدمة علوم القرآن الكريم، وكانت له مؤلفات كثيرة فى علوم اللغة وفى الأدب، وفى تفسير القرآن وإعرابه ومعانيه، وفى الناسخ والمنسوخ، وشرح المعلقات وأبيات سيبويه وغير ذلك[٢].

التاريخ:

وضحت شخصية مصر فى العصر الإخشيدى فى ظهور عدد من مشاهير المؤرخين، منهم ابن يونس الصدفى المتوفى سنة ٣٤٧هـ (٩٥٨م)، ولد بالفسطاط، وكان خبيراً بأيام الناس وتواريخهم، جمع لمصر تاريخين أحدهما وهو الأكبر يختص بالمصريين، والآخر وهو صغير يشتمل على ذكر الغرباء الواردين على مصر[٣]. وله كتاب ثالث فى تاريخ الصعيد اسمه «العقيد فى تاريخ الصعيد»، انفرد بذكره حاجى خليفة فى كتابه «كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون»[٤]. وقد ضاع كتاب تاريخ مصر الذى كتبه ابن يونس، ولم يتبق منه إلا بعض مقتطفات، التى يبدو منها أن كلامه انصب على الحديث والمحدثين[٥]. ومن مؤرخى مصر أيضاً محمد بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م)، وقد اهتم بدراسة العلوم الدينية وخاصة الحديث، ثم انصرف إلى التاريخ فألف فيه عدة كتب من أهمها كتاب «ولاة مصر»، وكتاب «قضاة مصر»، كما ألف فى خطط مصر، وكانت هذه الكتب مما اعتمد عليها المقريزى فى كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط

---

(١) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٥٣١؛ سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٣٤١.
(٢) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٥٣١.
(٣) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٥٥٣.
(٤) جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، جـ١ ص ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٥) مصطفى بدر: مصر الإسلامية، ص ٢٧٧.

والآثار»[1]، وقد عالج الكندى فى «ولاة مصر» الولاة الذين حكموا مصر منذ الفتح العربى إلى سنة ٣٣٥هـ (٩٤٦م) أى قبيل وفاته بخمس عشرة سنة. واتبع فى عمله الترتيب الزمنى، فذكر اسم الوالى، وأهم الأحداث التى وقعت فى ولايته،وقد اتبع الكندى فى كتابه «قضاة مصر» نفس المنهج الذى سار عليه فى كتابه الولاة[2]. ويمثل الكندى مرحلة النضوج فى المدرسة التاريخية المصرية فى العصر الإسلامى الأول، إذ يتضح لنا من مؤلفاته أن التاريخ قد استقل بنفسه كعلم، فبعد عن علم الحديث، وتخفف من الإسناد إلى حد بعيد، وتأسست له قواعده، واتخذت له مناهجه، واتجه المؤرخون المصريون فى تأليفهم إلى فنون خاصة بهم انفردوا بها عن بقية المدارس التاريخية فى بقية أجزاء العالم الإسلامى[3].

كذلك كان المؤرخ الحسن بن إبراهيم المعروف باسم ابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م)، ممن اهتموا بتدوين تاريخ مصر وخططها. ومن مؤلفاته كتاب «فضائل مصر»، وكتاب «سيرة محمد بن طغج الإخشيد» وكتاب «أخبار سيبويه المصرى»، نقف منه على كثير من نواحى الحياة الاجتماعية فى العصر الإخشيدى، كما صنف كتبا أخرى فى سيرة جوهر الصقلى وسيرة المعز لدين الله الفاطمى وسيرة العزيز بالله الفاطمى وغيرها[4]. ولم يصلنا من كتب ابن زولاق إلا سيرة سيبويه المصرى، وذيله على كتاب القضاة، أما كتبه الأخرى فقد ضاعت، وإن كان المؤرخون اللاحقون قد نقلوا عنها كثيراً وخاصة المقريزى، ففى كتابيه «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا»، و«المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» مقتبسات كثيرة عن «سيرةالمعز لدين الله»، و«سيرة الماذرائيين»[5]. ومن المؤرخين الذين أدركوا العصر الإخشيدى سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨هـ (٩٣٩م)، وكان بطريركاً على الإسكندرية، كما زاول الطب فترة من الزمن بالفسطاط، وألف كتابه

---

(١) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٥٥٣؛ جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص٢٢٤.

(٢) إبراهيم العدوى: ابن عبد الحكم، ض ١٩٢.

(٣) جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، جـ١ ص ١٣٠.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢ ص ٩١ ـ ٩٢؛ حسن المحاضرة، جـ١ ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١ ص ٢٢١.

(٥) جمال الدين الشيال: تايرخ مصر الإسلامية، جـ١ ص ١٣١.

المشهور «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق»، تناول فيه التاريخ منذ الخليقة إلى العصر الذى عاش فيه[1].

---

(١) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٣٤٥.

الفصل الخامس

الدولة الفاطمية فى مصر

(٣٥٨ - ٥٦٧هـ/ ٩٦٩ - ١١٧١م)

- الفتح الفاطمى لمصر.
- الفتح الفاطمى لبلاد الشام.
- الأخطار التى واجهت النفوذ الفاطمى فى الشام.
- خطر القرامطة على مصر.
- علاقة الفاطميين بالنوبة.
- علاقة الفاطميين بالخلافة العباسية.
- ضعف الدولة الفاطمية وسقوطها.
- بعض مظاهر الحضارة فى مصر الفاطمية.

سياسة التسامح الدينى التى اتبعها الفاطميون.

الجيش والأسطول. الحياة الاقتصادية.

الحياة الاجتماعية. الحياة الدينية.

الحياة الأدبية والعلمية. كتابة التاريخ.

كان قيام الدولة الفاطمية فى المغرب من أهم الأحداث الفريدة الهامة فى التاريخ الإسلامى. إذ أن نجاح الشيعة الإسماعيلية فى إقامة خلافة لهم فى بلاد المغرب عام ٢٩٦هـ(٩٠٨م) جاء بعد محاولات مضنية طويلة فاشلة قام بها الشيعة منذ قيام الدولة الأموية للظفر بالخلافة، وكان هذا الفشل نتيجة لانقسامهم على أنفسهم وتفككهم.

وقد تعددت فرق الشيعة التى تطالب بالخلافة، وهى وإن اختلفت فى أهدافها الرامية إلى حصر الخلافة فى على بن أبى طالب وبنيه. ويهمنا من أمر تلك الفرق الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وكان أنصاره يعرفون بالإسماعيلية، وهم فرقة من الشيعة ترى أن الإمامة انتقلت بعد وفاة الرسول ﷺ إلى على بن أبى طالب، ثم إلى ابنه الحسن، ثم أخيه الحسين، ثم فى بنى الحسين إلى جعفر الصادق. ويروى أن الإمامة إنتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل ثم إلى أبنائه[1]، حتى عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب.

وكان التشيع قد انتشر فى بلاد المغرب على يد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب الذى أفلت من مطاردة العباسيين بعد موقعة فخ فى عهد الخليفة العباسى الهادى سنة ١٦٩هـ(٧٨٥م)، إلى بلاد المغرب. واستطاع إدريس بفضل بلاغته وفصاحته وقرابته من الرسولﷺ التأثير فى نفوس البربر، فالتفوا حوله، وبايعوه بالإمامة، ونجح فى إقامة دولة مستقلة قوية بالمغرب الأقصى فى سنة ١٧٢هـ(٩٠٤م).

ويعتبر الداعى الإسماعيلى أبو عبد الله الشيعى صاحب الفضل الأول فى نشر الدعوة الإسماعيلية فى بلاب المغرب، فقد نجح فى استمالة كثير من قبائل البربر، وخاصة قبيلة كتامة التى بايعه شيوخها على الدفاع عنه. ولما قويت شوكته اعتزم القضاء على دولتى الأغالبة والرستميين. ففى سنة ٢٩٢هـ (٩٠٤م) دارت معركة بينه وبين زيادة الله الثالث، فعظم شأن الشيعى وأتته القبائل من كل مكان[2]. وأخذت المدن تسقط فى يد الشيعى الواحد بعد الأخرى، ولما اقترب من رقادة فر زيادة الله الأغلبى إلى مصر، ودخلها الشيعى

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١ ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٤٨)، جـ١ ص ٧٤ ـ ٨٠

في مستهل رجب سنة ٢٩٦هـ (مارس ٩٠٩م)، وبذلك زالت دولة الأغالبة، وورث الفاطميون أسطولها وممتلكاتها. ثم تابع الشيعى انتصاراته، فقضى على الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط، واستولى على عاصمتها تاهرت فى نفس العام.

وكان أبو عبد الله الشيعى خلال انتصاراته المتلاحقة، قد كتب إلى الإمام الفاطمى عبيد الله المهدى بسلمية من أعمال حمص بالشام يخبره بماتم على يديه،ويدعوه للقدوم إلى المغرب، فخرج المهدى متخفيا فى زى تاجر من سلمية خشية الوقوع فى أيدى العباسيين حتى وصل مصر، ثم ارتحل عنها إلى القيروان، ومنها إلى سجلماسة فى المغرب الأقصى، حيث أقام بها أربعين يوماً، ثم رجع إلى أفريقية (المغرب الأدنى)، ونزل برقادة فى ربيع الثانى سنة ٢٧٩هـ (يناير ٩١٠م) وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين، وضربت السكة باسمه، وذكر اسمه فى الخطبة، وبذلك قامت الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب[١].

الفتح الفاطمى لمصر:

كان فتح مصر أمنية لم تفارق بال الفاطميين منذ قيام دولتهم فى بلاد المغرب، خاصة بعد أن استعصى عليهم فتح الأندلس التى قيض لها آنذاك رجل يعتبر أعظم حكام الأندلس وأبعدهم نظراً وأشدهم مراساً على الإطلاق، وهو عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ـ ٩٦١م)، ولم ينس الفاطميون ثراء مصر وأهمية موقفها الجغرافى وقربها من بلاد الشام، مما يجعلها صالحة لإقامة دولة مستقلة تنافس الخلافة العباسبةوتعمل على تحطيمها فى النهاية، وقد حاول عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين فتح مصر، فأرسل لهذا الغرض ثلاث حملات فى سنوات ٣٠١هـ (١٩٣م)، ٣٠٧هـ (٩١٩م)، ٣٢١هـ (٩٣٣م)، ولكنها جميعا باءت بالفشل، لأن الخلافة العباسية كانت لاتزال من القوة التى جعلتها تقف فى وجه أطماع الفاطميين فى مصر، إذ أسرعت بإرسال نجدات قوية إلى مصر دحرت جيوش الفاطميين، وردتها على أعقابها.

ولما تولى المعز لدين الله عرش الخلافة الفاطمية سنة ٣٤١هـ (٩٤٥م)، اشتدت رغبته فى فتح مصر، وقد ساعدته الظروف القائمة فى العالم الإسلامى وقتئذ على تحقيق

(١) المقريزى: أتعاظ الحنفا جـ١ ص ٨٩ ـ ٩٢.

رغبته.فقد دب الضعف في جسم الخلافة العباسية، ووصلت الأمور فى مصر إلى مرحلة بالغة الضعف بعد وفاة كافور الإخشيدى سنة ٣٥٧هـ (٩٦٨م)، كما رأينا، وزادت المجاعة التى نكبت بها مصر من سوء الأحوال الاقتصادية بها، وفي ذلك يقول المقريزى[١]: «وشمل الخراب عامة أرض مصر لموت أهلها، وقلة أموالها، وتعذر وجوت الأقوات، وكثرة الخوف».

بدأ المعز لدين الله الفاطمي يعد العدة لفتح مصر، فحفر الآبار على الطريق من أفريقية إلى برقة، وأنشأ النزل على رأس كل مرحلة من هذا الطريق. وعندما وصلته الأخبار بموت كافور الإخشيدى جهز جيشاً ضخماً بلغ تعداده مائة ألف مقاتل أغلبهم من القبائل البربرية، عهد بقيادته إلى قائده القدير جوهر الصقلي، وقد تجمع هذا الجيش فى مدينة القيروان، وهناك التفت المعز إلى إلى المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال: «والله لو خرج جوهر هذا وحده ليفتحن مصر، وليدخلنها بالأردية من غير حرب، ولينزلن فى خرابات ابن طولون ويبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا»[٢].

وخرج جوهر من القيروان على رأس جيشه فى ١٤ ربيع الآخر سنة ٣٥٨هـ (٥ فبراير ٩٦٩م) تصحبه بعض السفن الحربية، ووصل الإسكندرية، فدخلها دون مقاومة تذكر، ثم تقدم نحو الفسطاط، واستعد الإخشيديون لقتاله، والتقى الفريقان بالقرب من الفسطاط فى معركة انتهت بانتصار جوهر[٣]، وبذلك زال نفوذ الإخشيديين والعباسيين من مصر. ودخل جوهر الفسطاط فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ (يوليو ٩٩م)، ثم وشع أساس مدينة القاهرة شمالي الفسطاط فى نفس الليلة التى دخل فيها مصر، ولم يمض عامان حتى انتهى من تأسيسها وبناء جامعها المعروف بالأزهر، حيث أقيمت أول صلاة به فى اليوم الجمعة ٧ رمضان عام ٣٦١هـ (٢٢ يونيو ٩٧٢م)، فكان أول مسجد شيد فى مدينة القاهرة المعزية. ولاشك أن فتح مصر على أيد جوهر الصقلي، قد بعث الفرح فى بلاد المغرب وخاصة المعز

---

(١) المقفى، جـ٢ ،ص ٨٩.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١ ص ١٦٢؛ ابن أيبك الدوادار: الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية،، تحقيق صلاح الدين المنجد (القاهرة ١٩٦١)، ص ٣١٨.

(٣) النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ٣٠ ــ ٣١.

لدين الله، الذى أصبح منذئذ سيداً على جميع شمال أفريقية وبعض جزائرالبحر المتوسط. ويتجلى ذلك الفرح من قصيدة ابن هانيء الأندلسى، والتى جاء فيها[١]:

تقول بنو العباس قد فتحت مصر　　　فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

وقد جاوز الإسكندرية جوهر　　　تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

وأمر جوهر بحذف الدعوة للخلفاء العباسيين فى مساجد مصر، وأقامها للخليفة المعز لدين الله الفاطمى، ومنع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين، كما أمر بأن يؤذن فى جميع المساجد بحى على خير العمل[٢]، وأن يقال فى الخطبة: «اللهم صلّ على محمد المصطفى، وعلى علىّ المرتضى وعلى البتول، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»[٣]، وهى من العبارات التى يتميز بها الآذان عند الشيعيين.

ولما استقر الأمر فى مصر لجوهر كتب إلى المعز يستدعيه ليتولى بنفسه حكم مصر، وفى رمضان سنة ٣٦٢هـ (يونيو ٩٧٣م) انتقل المعز إلى القاهرة على رأس أفراد أسرته ومعه توابيت أبائه، دون أن يشق طريقه إلى مدينة الفسطاط التى كانت تهيأت لاستقباله بالزينات، واتجه إلى القصر الشرقى الكبير الذى بناه له قائده جوهر، وأصبحت مصر دار الخلافة[٤]، تقف على قدم المساواة مع الخلافة العباسية ببغداد والخلافة الأموية بالأندلس من ناحية، ولها حكومة ربطت مصلحتها بمصلحة البلاد من ناحية أخرى. ومنذ ذلك التاريخ استقل الفاطميون بمصر استقلالا تاماص لايشوبه أدنى شك، وبقى هذا الاستقلال قائما حتى الفتح العثمانى لمصر سنة ٩٢٣ـ (١٥١٧م)[٥].

ويرى البعض أنه قد توالت على مصر سلسلة من الأسرات الحاكمة أو الدول المستقلة فعلا التابعة من الناحية الإسمية للخلافة العباسية، كالدولة الطولونية والدولة الإخشيدية، أما

---

(١) الخطط، جـ١ ص ٣٧٧.

(٢) جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر (القاهرة ١٩٦٦)، ص ٧٢.

(٣) النجوم الزاهرة، جـ٤ ص ٣٢.

(٤) اتعاظ الحنفا، جـ١ ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

(4) Wiet, Precis de l"Histiore d'Égypte. Deauxiéme partie, p. 173.

الدولة الفاطمية ذات الأصل العربى التس استقلت بمصر، يمكن أن تعد فى معنى ما بمثابة إعادة فتح عربى لمصر، وإنما من قاعدة المغرب، واستردوها من الأتراك. ولم يكن معنى هذا أن مصر تابعة للمغرب، بل العكس هو الصحيح على وجه الدقة والغرابة معاً، وظل شمال أفريقية حتى المحيط الأطلسى تابعاً لمصر، إلى أن ضعفت قبضة الفاطميين على المغرب تدريجياً، وزالت نهائيا فى منتصف القرن الخامس الهجرى على عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤م)، واستقلت به أسرة محلية حاكمة[١].

وهنا نلاحظ أن الفاطميين منذ اللحظة الأولى لقيام دولتهم فى مصر، حرصوا على استمالة المصريين إليهم، حتى يتفرغوا لأهدافهم الرامية إلى توحيد العالم الإسلامى تحت رايتهم ونشر المذهب الشيعى، وهى الأهداف التى من أجلها انتقلوا من المغرب إلى مصر، ولذلك حينما دخلوا مصر لم يدخلوها دخول الغزاة المنتقمين المستغلين، وإنما كان غرضهم اكتساب أهل مصر عدة مرات[٢]. ويظهر ذلك واضحا فى كتاب الأمان الذى كتبه جوهر الصقلى إلى أهل مصر فى شعبان سنة ٣٥٨هـ (يونيو ٩٦٨م)، وقد جاء فيه: «ولكم علىّ أمان الله التام العام، الدائم الشامل، المتصل الكامل، المتجدد والمتأكد، على الأيام، وكرور الأعوام، فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم، ونعمكم وضياعكم ورباعكم، وقليلكم وكثيركم، وعلى أنه لايعترض عليكم معترض، ولايتجنى عليكم ويمنع منكم، فلا يتعرض إلى أذاكم ولايسارع أحد فى الأعتداء عليكم ولا فى الاستطالة على قويكم فضلا عن ضعيفكم، وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه، ويصل إليكم خبره، وتتعرفون بركته»[٣].

حكمت الخلافة الفاطمية مصر مدة تزيد على القرنين، وقد اتفق المؤرخون على تقسيم هذه المدة إلى عصرين اتسم كل منهما بسمات خاصة. ففى العصر الفاطمى الأول

(١) جمال حمدان: شخصية مصر، جـ٢ ص ٦٣٠.
(٢) عبد المنعم ماجد: خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ص ٢٩٤.
(٣) أتعاظ الحنفا جـ١ ص ١٥١ ـ ١٥٢؛ المقفى، جـ٣ ص ٩٣.

ومداه قرن من الزمن وينتهى فى النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر بالله حوالى سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٥م)، بلغت الخلافة الفاطمية ذروة قوتها وازدهارها، فقد قفزت مصر إلى مركز الصدارة والقمة فى العالم الإسلامى، كما نجح الفاطميون فى تأسيس خلافة شيعية فى مصر فاقت الخلافة العباسية فى النفوذ، ونافست القاهرة عاصمة الفاطميين بغداد حاضرة العباسيين. وفى هذا العصر امتد نفوذ الفاطميين إلى الحجاز واليمن، وأصبحت رقعة دولتهم فى عهد الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ ـ ٩٩٦م) تمتد من بلاد العرب شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسى غربا، ومن أقصى بلاد الشام شمالا إلى بلاد النوبة جنوباً.

على أن الخلافة الفاطمية التى بلغت الذروة فى الرخاء والازدهار والقوة داخليا وخارجيا فى عصرها الأول، أصابها الضعف والانحلال فى عصرها الثانى المعروف بعصر نفوذ الوزراء، ويبدأ بمجىء أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٣م) إلى آخر الدولة الفاطمية، وفيه سيطر الوزراء على الأمور فى الدولة، وصار فيه الخلفاء مسلوبى السلطة.

الفتح الفاطمى لبلاد الشام:

كانت الضرورة السياسية والحربية تحتم على الفاطميين بعد أن فتحوامصر أن يوجهوا أنظارهم نحو بلاد الشام. فالشام فى كل عصور التاريخ كانت امتداداً طبيعياً لمصر المستقلة، ولم يغب عن بال جوهر الصقلى تلك الحقيقة، فعمل على فتح هذه البلاد رغبة فى تأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقى، والوقوف فى وجه البيزنطيين والقرامطة[1]. وفى الوقت نفسه لايبعد أن يكون الفاطميون قدخشوا انتقام العباسيين بسبب فتحهم مصر التى كانت أخصب وأغنى بلادهم، ولهذا أخذ جوهر فى اعتباره أن تكون بلاد الشام خط الدفاع الأول عن مصر من الناحيتين الحربية والسياسية[2]. وإلى جانب ذلك، لاينبغى أن

(١) جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة (القاهرة (١٩٦٤م)، ص ١٧.

(٢) حسن إبراهيم حسن: طه أحمد شرف: المعز لدين الله (القاهرة ١٩٦٤)، ص ٩٢.

نغفل عامل الجهاد الذى نظر إليه الفاطميون كمهمة طبيعية أنيطت بهم لتخليص الأراضى التى استولى عليها البيزنطيون أعداء الإسلام، إذ كان الجهاد لدى الفاطميين أساساً جوهريا من أسس سياستهم الحربية ودعامة من دعائم المذهب الشيعى، إلى حد أنهم أطلقوا على واحد من دواوين الحرب إسم ديوان العمائر أو ديوان الجهاد، وهونفس الديوان الذى عرف عند الأيوبيين فيما بعد باسم ديوان الأسطول[١].

وفى ضوء تلك الاعتبارات، وبعد أن استقرت الأمور فى مصر لجوهر الصقلى، أرسل حملة إلى بلاد الشام فى أواخر سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م)، أسند قيادتها إلى جعفر بن فلاح الكتامى فخرج إليه الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيدى من مدينة دمشق، وعسكر بقواته فى مدينة الرملة، وهناك دارت الحرب بينه وبين جعفر سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠م)، فحلت الهزيمة بالحسن بن عبيد الله، ووقع فى الأسر مع كثير من جنده، وبعث به إلى الفسطاط حيث سيق إلى بلاد المغرب[٢]، فظل بها حتى توفى سنة ٣٧١هـ فى خلافة العزيز بالله الفاطمى. وتتابعت انتصارات الفاطميين بعد ذلك، فاستولوا على مدينة طبرية ودمشق. وفى أول جمعة من شهر المحرم سنة ٣٥٩هـ أقيمت الخطبة على منابر دمشق للخليفة المعز لدين الله الفاطمى، وحذف اسم الخليفة العباسى المطيع (٣٣٤ ـ ٣٦٣هـ)، فكان هذا إيذانا بزوال نفوذ العباسيين من بلاد الشام[٣].

الأخطار التى واجهت النفوذ الفاطمى فى الشام:

على أن استيلاء جعفر بن فلاح على دمشق لم يؤد إلى تثبيت أقدام الفاطميين فى جميع أنحاء الشام، فقد كان هناك الحمدانيون فى حلب فى شمال الشام، فى الوقت الذى أخذ البيزنطيون يهددون المدن الشمالية والساحلية ببلاد الشام، وكذلك كان للقرامطة بعض النفوذ فى هذه البلاد منذ أغاروا عليها سنة ٣٥٧هـ (٩٦٩م)[٤].

---

(١) درويش النخيلى: فتح الفاطميين للشام فى مرحلته الأولى من ٣٥٨ إلى ٣٦٢هـ، ص ١١.
(٢) النجوم الزاهرة، جـ٤ ص ٣٢ ـ ٣٣.
(٣) حسن إبراهيم حسن وطه شرف: المعز لدين الله، ص ٩٧.
(٤) جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق، ص ٢١.

والواقع أن الحمدانيين في ذلك الوقت لم يكونوا من القوة التى تسمح لهم بمقاومة الفاطميين ببلاد الشام والتصدى له، فقد ضعفت دولتهم منذ وفاة سيف الدولة الحمدانى فى صفر سنة ٣٥٦هـ (فبراير ٩٦٧م)، كما أن ابنه سعد الدولة الذى خلفه فى الحكم (٣٥٦ ـ ٣٨١هـ/ ٩٦٧ ـ ٩٩١م) لم يكن له من المقدرة ما يمكنه من مواجهة خطر البيزنطيين الذى صار يتهدد بلاد الشام. ففى القرن العاشر الميلادى كانت الإمبراطورية البيزنطية تمر بألمع فترة فى تاريخها السياسى. وبلغت من القوة ما جعلها ترغب فى استعادة البلاد التى فقدتها فى الشرق الأدنى على أيدى العرب عندما قاموا بفتوحاتهم الكبرى فى القرن السابع الميلادى. وعندما اعتلى نقفور قوفاس Nicephorus Phocas (٩٦٣ ـ ٩٦٩م) عرش الإمبراطورية البيزنطية، كان لديه أعظم جيش عرفته تلك الإمبراطورية فى العصور الوسطى، اخترق به جبال طوروس التى ظلت مغلقة فى وجه البيزنطيين بضعة قرون، وفرض الحصار على طرسوس والمصيصة، إلى أن دفع الجوع الشديد أهالى هاتين المدينتين للاستسلام فى سنة ٣٥٥هـ (٩٦٥م). وفى ذى القعدة سنة ٣٥٦هـ (أكتوبر ٩٦٦م)، وقف نقفور بجيوشه أمام أسوار مدينة أنطاكية، وفرض الحصار عليها، ولكنه فشل فى إخضاعها. ثم واصل نقفور هجماته على شمالى الشام فى سنة ٩٦٩م، فاستولى على المدن الساحلية الواحدة تلو الأخرى، وتمكن قواده من الاستيلاءعلى أنطاكية فى ذى الحجة سنة ٣٥٨هـ (أكتوبر ٩٦٩م)[1]. وقد أحدث سقوط تلك المدينة فى أيدى البيزنطيين دويا هائلا، إذ كانت أحد المراكز المسيحية الهامة منذ العهود الأولى للمسيحية. وبعد الاستيلاء على أنطاكية بشهور قليلة، سقطت مدينة حلب فى أيدى البيزنطيين، واضطر صاحبها سعد الدولة إلى عقد صلح مهين معهم سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠م)[2]. وكان نقفور فوقاس عازماً عل التوغل فى بلاد الشام جنوباً والاستيلاء على بيت المقدس، ولكن القدر لم يمهله طويلا، إذ لقى مصرعه ضحية مؤامرة قام بها خلفه يوحنا تزيمسكس John Tzimisces فى ١١ ديسمبر ٩٦٩م[3].

---

(1) Ostrogorsky, Hist of the Byzantine Empire. p., 290.

(2) Ibid.,

(3) Ibid., pp. 292-293.

رأى جعفر بن فلاح أن استيلاء البيزنطيين على أنطاكية يهدد النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام، ومن ثم أعد جيشا ضخما، وأرسل عدة حملات إلى أنطاكية، ولكن هذه الحملات منيت بالفشل[1]. وبقيت أنطاكية فى حوزة البيزنطيين، إلى أن انتزعها منهم سليمان بن قتلتمش سلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغرى فى شوال سنة ٤٧٧هـ (فبراير ١٠٨٥م)، أى قبل مجىء الحملة الصليبية الأولى من الغرب الأوروبى بسنوات قليلة.

أما ثانى خطر واجه القائد الفاطمى جعفر وهدد النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام، فهو خطر القرامطة، وكان جعفر قد قطع عن القرامطة الإتاوة التى اعتادت دمشق أن تدفعها سنويا وقدرها ثلاثمائة ألف دينار لزعيمهم الحسن بن أحمد القرمطى، مقابل تأمين سلامة وصول القوافل الآتية من مصر والشام إلى الحجاز، الأمر الذى حدا بالحسن القرمطى إلى التوجه إلى الشام لمقاتلة حعفر. وسرعان ما اشتبك مع جعفر بن فلاح فى ناحية الدكة على مقربة من دمشق، حيث دارت معركة انتهت بمقتل جعفر وكثير من اتباعه سنة ٣٦٠هـ (٩٧١م)، ودخول القرامطة دمشق[2]. ثم اتجه القرمطى بعد أن فتح دمشق إلى الرملة ليقضى على ما بقى للفاطميين من نفوذ ببلادالشام، فلما علم القائد المغربى المنوط بحمياتها بمسيرة القرامطة إليها، اضطر إلى الرحيل عنها والفرار إلى يافا، وبذلك استولى القرامطة على الرملة، وأصبحت معظم بلاد الشام فى يدهم[3].

خطر القرامطة على مصر:

ترك الحسن بن أحمد القرمطى بعض قواته لمحاصرة يافا، وزحف بجيوشه إلى مصر فى أواخر سنة ٣٦٠هـ (٩٧١م)، ليقضى على الحكم الفاطمى، ويبسط نفوذه عليها، حتى لا يعاود الفاطميون مهاجمته منها[4]. واستطاع القرمطى الاستيلاء على الفرما، ثم هاجم

---

(١) جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ٢٢.

(٢) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق (دمشق ١٩٨٣)، تحقيق سهيل ذكار، ص ١؛ ابن أبيك الدوادارى: الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٣) ذيل تاريخ دمشق، صص ٣؛ الدرة المضية، ص ١٣٥ ـ ١٣٦؛ جمال الدين سرور:النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٤) ذيل تاريخ دمشق، ص ٣؛ جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ٢٩.

مدينة القلزم (السويس حاليا) وتمكن من دخولها وأسر واليها، ولم يلبث القرمطى أن واصل مسيرته فى الأراضى المصرية، فاستولى على عين شمس فى المحرم سنة ٣٦١هـ (٩٧٢م)، ثم تقدم بجيوشه إلى القاهرة[١].

على أن القائد جوهر الصقلى لم يقف مكتوف اليدين أمام خطر القرامطة، فحفر حول مدينة القاهرة خندقا عظيما، وأعد جبيشا قوامه المغاربة والمصريون، فلما هدد القرامطة القاهرة فى ربيع الأول سنة ٣٦١هـ، أبدى الجنود المصريون الذين انضموا إلى جيوش جوهر شجاعة عظيمة استرعت أنظار المؤرخين، فقد تمكنوا من الوقوف فى وجه القرامطة، وتقهقر الحسن بن أحمد بقواته ورحل إلى الإحساء[٢] على ساحل الخليج العربى، واغتنم جوهر الفرصة واسترد يافا.

وفى تلك الأثناء كان المعز لدين الله الفاطمى قد جاء إلى مصر فى سنة ٣٦٢هـ. واتخذ القاهرة حاضرة لخلافته. ورأى المعز أن يقف من الحسن بن أحمد القرمطى موقفا حازما، فأرسل له كتابا طويلا امتلأت به المصادر الإسلامية، وهو كتاب شديد اللهجة، ينطوى على التحدى والترهيب والتخويف، والإشادة بالفاطميين ومذهبهم. ولكن الحسن بن أحمد لم يهتم بتهديد المعز وأجابه بقوله: «وصل كتابك الذى قل تحصيله، وكثر تفصيله،ونحن سائرون إليك فى إثره والسلام». وفعلا وصل الحسن بن أحمد بن على رأس جيش ضخم إلى مصر فى سنة ٣٦٣هـ (٩٧٤م)، ونزل بعساكره فى عين شمس، وانبثت سراياه فى أرض مصر، وبعث عمالا إلى الصعيد فجبى خراجه، ولما علم المعز لدين الله بنزول القرامطة بالقرب من الخندق الذى حفره جوهر الصقلى ضاق عليه الأمر، وحار فى أمر القرمطى، فأشار عليه أهل الرأى من المقربين إليه بالسعى فى تفريق كلمة القرامطة، وبمعنى آخر استخدام سلاح الخديعة والمال. فقدم المعز مائة ألف دينار إلى حسان بن الجراح الطائى الذى كان يحارب بجنده العرب فى صفوف القرامطة، على أن يتظاهر بالهزيمة أمام الجيش الفاطمى. فلما دارت الحرب بين القرامطة والفاطميين تقهقر ابن

---

(١) ذيل التاريخ دمشق، ص ٤.

(٢) الدرة المضية، ص ١٤٣، جمال الدين سرور:المرجع السابق، ص ٢٩ ـ ٣٠.

الجرا ح، مما أدى إلى هزيمة الحسن بن أحمد وارتداده إلى الشام. ولم يلبث المعز لدين الله أن أرسل جيشا لمطاردة الحسن بن أحمد فى الشام، فلم ير الأخير بداً من العودة إلى الأحساء[1]. وبذلك انتزع الفاطميون بلاد الشام من القرامطة، بعد أن واجهوا أشد المتاعب التى اعترضت طريقهم بعد فتح مصر.

علاقة الفاطميين بالنوبة:

بعد أن فتح جوهر الصقلى مصر، واستقرت له الأمور فى أنحائها، حرص على تأمين حدود مصر الجنوبية ضد غارات النوبة. فأرسل أحد أهالى أسوان هو عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى برسالة إلى قيرقى (چورچ) ملك النوبة، يعرض عليه فيه الإسلام، ويطالبه بأداء ماعليه من متأخر ضريبة البقط، فدعاه إلى الإسلام بحضرة شاهدين كانامعه، فكبر ذلك على ملك النوبة وجمع علماءه وأساقفته لمناظرة ابن سليم[2]. ويفهم من ذلك أن ملك النوبة وافق على دفع ضريبة البقط، واعتذر عن الدخول فى الإسلام.

والجدير بالذكر أن عبد الله بن سليم الأسوانى قد صنف كتاباً سماه «أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة ومن عليه وقرب منه من غيرهم» وصفه المقريزى قائلا: «وفيه فوائد كثيرة». وللأسف الشديد فإن ذلك الكتاب قد ضاع، واحتفظ لنا المقريزى بشذرات منه فى كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، أفادتنا فى معرفة أحوال النوبة فى العصور الوسطى[3].

وإذاكان النوبيون قد أغاروا على أسوان إبان الدولة الإخشيدية، إلا أنهم لم يتعرضوا لها طوال العصر الفاطمى. ومن المشاهد أن الدولة الفاطمية حققت صلة من حسن الجوار والمسالمة بينها وبين النوبة المسيحية. ومما يلفت النظر أن تلك الدولة بالرغم مما أصابها من

---

(١) الدرة المضية، ص ١٥٩؛ السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١ ص ٦٠٠ ـ ٦٠١؛ ذيل تاريخ دمشق، ص ٥ ـ ٧.

(2)Lane - Poole, Hist of Egypt in the Middle Ages., p. 105;

محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى، ١٩٠ ـ ١٩١.

(٣) محمود الحويرى: المرجع السابق، ص ١٩١.

ضعف وذبول فى أواخر عهدها، فإن المصادر التى أطلعنا عليها لم ترد فيها إشارة صريحة لمحاولة النوبيين الإغارة على أسوان. وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن مدينة أسوان كانت محصنة جداً فى عهد الفاطميين، بحيث لايستطيع أحد أن يقصدها من النوبة، فضلاعن تواجد جيش دائم بها للمحافظة عليها، وفى ذلك يقول المقريزى[1]: «وكان بأسوان رجال من العسكر مستعدون بالأسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة والسودان عليه. فلمازالت الدولة الفاطمية أهمل ذلك». وربما يرجع السبب أيضا إلى قبيلة ربيعة ـ التى عرفت بقبيلة الكنز ـ التى استقرت فى أسوان فى القرن التاسع الميلادى، وانتعش نفوذها فى القرن العاشر، بفضلها ازدادت قوة العرب فى أسوان. ويبدو أن العلاقات بين بنى الكنزفى أسوان ومملكة النوبة المسيحية، كان يسودها حسن الجوار والتفاهم، بدليل أن كنز الدولة هو الذى استطاع القبض على الثائر أبى ركوة ضد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى عندما توغل فى بلاد النوبة، فضلا عن أن ملك النوبة قد غادر عاصمة ملكه، وتوجه إلى أسوان عام ٤٧٢ هـ (١٠٧٩م) لزيارة بعض كنائسها[2].

علاقة الفاطميين بالخلافة العباسية:

بعد أن نجح العباسيون فى إقامة دولتهم على أنقاض الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ، ناصبوا العلويين العداء، وحرصوا على تعقبهم فى الأقطار الإسلامية والتخلص منهم بالقتل والتشريد، خشية توحيد قواهم وإقامة دولة لهم، وعلى الرغم من أن العلويين لاقوا الكثير من ظلم وتنكيل خلفاء العصر العباسى الأول، إلا أنهم لم يضعفوا، ولم تكسر شوكتهم، وبذلوا كثيراً من التضحيات الجسيمة فى صراعهم مع العباسيين، حتى أن الأصفهانى ألف كتاباً سماه «مقاتل الطالبيين»، تناول فيه العلويين الذين سالت دماؤهم فى سبيل الوصول إلى الحكم الذى كانوا يرون أنهم أحق به. وقد ظل العلويون يناضلون من أجل تحقيق هذا الهدف، حتى نجحوا فى إقامة الخلافة الفاطمية بالمغرب.

---

(١) الخطط، جـ١ ص ١٩٧.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٢٦، أتعاظ الحنفا،جـ٢ ص ٣٢٠.

أيقن الفاطميون أنه لن يتيسر لهم نشر نفوذهم ومذهبهم الشيعى إلا بفتح مصر لتوسطها العالم الإسلامى، ولذلك حرصوا على فتحها حتى نجحوا فى بسط سيادتهم عليها فى عهد المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م)، وأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمى على منابرها، كما ذكرنا من قبل. ولم تقف جهود الفاطميين عند هذا الحد، بل مدوا نفوذهم على الشام والحجاز واليمن، وبذلك تضاءل سلطان العباسيين عليها.

على أن الفاطميين كانوا يتطلعون إلى أبعد من ذلك، إلى بلاد العراق مركز الخلافة العباسية السنية، وخاصة بعد أن استبد البويهيون بالسلطة فى بغداد سنة ٣٣٤هـ (٩٤٥م)، وقضوا على نفوذ الخلفاء العباسيين، بحيث لم يعد لهم من السلطة إلا بعد مظاهرها الدينية. ووجه الأهمية هنا أن البويهيين كانوا شيعة على مذهب الزيدية، ومن ثم صاروا لايعترفون بحق العباسيين فى السيادة على جميع العالم الإسلامى، وإنما اعتبروهم مغتصبين للخلافة من أصحابها العلويين[١].

وقدفكر معز الدولة بين بويه (٣٣٤ ـ ٣٥٦هـ) فى إقامة خلافة شيعية مكان الخلافةالعباسية، ولكن المقربين لديه حذروه من ذلك، وأوضحوا له أن الخليفة العباسى مسلوب السلطة، ومن الممكن التخلص منه متى خرج عن طاعة البويهيين، أما الخلفاء الفاطميون فهم من القوة التى تمكنهم من القضاء على البويهيين إذا أرادوا ذلك[٢]. وبذلك عدل المعز عن تحويل الخلافة من العباسيين إلى الفاطميين، وفضل أن يستبد بالسلطة والنفوذ فى ظل خليفة عباسى ضعيف على أن يكون تابعا لخليفة قوى[٣].

ومهما يكن من أمر، فقد ظل البويهيون على اتصال بالفاطميين، وتوثقت العلاقات بينهما، ويبدو ذلك واضحا فى الرسالة الودية التى بعث بها الخليفة الفاطمى العزيز بالله إلى عضد الدولة البويهى فى سنة ٣٦٩هـ (٩٧٩م)، وقد جاء فيها[٤]: «... وبعد، فإن

---

(١) جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق (القاهرة ١٩٦٤)، ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٧ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٣) جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٤) النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ١٢٤.

رسولك وصل إلى حضرة أميرالمؤمنين، مع الرسول المنفذ إليك، فأدى ماتحمله من إخلاصك فى ولاء أمير المؤمنين ومودتك، ومعرفتك بحق إمامته، ومحبتك لآبائه الطائعين الهادين، فسر أمير المؤمنين با سمعه عنك، ووافق ما كان يتوسمه فيك وأنك لاتعدل عن الحق». ورد عضد الدولة على رسالة العزيز بالله برسالة يعترف فيها بفضل آل البيت، ويقر للخليفة «أنه من أهل تلك النبعة الطاهرة وأنه فى طاعته»[1]. وقد اندهش المؤرخ أبو المحاسن من موقف عضد الدولة البويهى، فعلق على ذلك قائلا[2]: «وأنا أتعجب من كون عضد الدولة كان إليه أمر الخليفة العباسى ونهيه، ويقع فى مثل هذا لخلفاء مصر، وقد علم كل أحد ماكان بين بنى العباس وخلفاء مصر من الشنآن..».

اهتم الفاطميون اهتماماً بالغا بنشر دعوتهم فى بلاد العراق، فأقيمت الدعوة للخليفة العزيز بالله الفاطمى سنة ٣٨٢هـ (٩٩٢م) فى الموصل على يد أميرهاأبى الدرداء محمد بن المسيب العقيلى، كذلك نجح الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى فى استمالة قرواش بن المقلد أمير بنى عقيل الذى آلت إليه السيادة فى الموصل، فخرج عن طاعة الخليفة العباسى القادر بالله سنة ٤٠١هـ (١٠١٠م)، وأحل اسم الحاكم بأمر الله فى الخطبة محل الخليفة العباسى[3].

ونتيجة لذلك لجأ الخليفة العباسى إلى سياسة التشهير بنسب الفاطميين، فأمر فى ربيع الثانى سنة ٤٠٢هـ (نوفمبر ١٠١١م)، بكتابة محضر يتناول الطعن فى نسب الفاطميين وبطلان إمامتهم، على أن يقرأ فى بغداد، وقد جاء فيه[4]: «وهم (الفاطميون) منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمى إخوان الكافرين، ونطف الشياطين.. أدعياء خوارج لانسب لهم فى ولد على بن أبى طالب، وأن ذلك باطل وزور.. وأن هذا الناجم بمصر (الحاكم بأمر الله الفاطمى) هو وسلفه كفار وفساق فجار زنادقة...».

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٤ص ١٢٥.

(٢)نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣)جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق، ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٤) النجوم الزاهرة،جـ٤ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

وفى الوقت الذى كانت الخلافتان العباسية والفاطمية تكيد كل منها للأخرى، وتعمل جاهدة للإطاحة بها، ظهرت قوة الأتراك السلاجقة السنيين على مسرح الأحداث السياسية فى المشرق الإسلامى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى، واستطاع زعيمهم ومؤسس دولتهم الحقيقى طغرل بك (٤٢٩ ـ ٤٥٥هـ/ ١٠٣٧ ـ ١٠٦٣م) أن يلحق بالغزنويين هزيمة ساحقة عند دندانقان بالقرب من مرو عام ٤٣١هـ (١٠٣٩م)، قضت على نفوذهم فى فارس وما وراء النهر، وصارت خراسان كلها للسلاجقة. ثم واصل طغرلبك توسيع رقعة دولته، حتى استطاع السيطرة على بلاد فارس، ودخول بغداد فى سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) بناء على دعوة الخليفة العباسى القائم بأمر الله (٤٢٢ ـ ٤٧٦هـ)، وحل محل البويهيين فى الهيمنة على العراق.

كان لسقوط دولة بنى بويه الشيعية وحلول السلاجقة السنيين مكانها وقع سيىء فى نفوس الفاطميين، وكان رد الفعل عنيفا، إذ قررت الدولة الفاطمية الانتقام من السلاجقة، وذلك بأن شجعت القائد التركى أبا الحارث أرسلان البساسيرى الذى ثار على الخلافة العباسية سنة ٤٤٧هـ. ولم يلبث البساسيرى أن أعلن دخوله فى طاعة الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، واتصل به، وطلب منه نجدة لفتح بغداد وطرد السلاجقة منها، فاستجاب له المستنصر بالله وأمده بالمال والخيل والسلاح[1]. وبفضل الإمدادات التى وصلت إلى البساسيرى انتصر على جيوش الخلافة العباسية فى موقعة سنجار سنة ٤٤٨هـ (١٠٥٦م)، وأعقب ذلك دخوله بغداد رافعاً ألوية الفاطميين، وخطب للخليفة المستنصر بالله على منابر بغداد فى الجمعة ١٣ ذى القعدة سنة ٤٥٩هـ (مستهل يناير ١٠٥٩)[2].

وعندما علم المستنصر بالله بإقامة الخطبة له بمساجد بغداد فرح أشد الفرح، وأقام أهالى القاهرة الزينات ابتهاجاً بذلك، ويروى أن مغنية وقفت تحت قصر الخليفة وأنشدت:

يابنى العباس صدوا ملك الأمر معدٌ

ملككم كان معارا والعوارى تسترد[3]

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٥ ص ٤ ـ ١١.

(٢) النجوم الزاهرة، جـ٥ ص ١١ ـ ١٢.

(٣) النجوم الزاهرة، جـ٥ ص ١٢.

فأعجب المستنصر بغنائها، ووهبها أرضا فى مدينة القاهرة لاتزال تعرف إلى اليوم باسم أرض الطبالة (حاليا فى الفجالة).

وعلى أية حال، لم تدم سيطرة البساسيرى على بغداد طويلا، فقد استنجد الخليفة العباسى القائم بأمر الله بطغرلبك السلجوقى الذى كان مشغولا بحروبه فى شمال العراق، ولما انتهى منها دخل بغداد وتمكن من القضاء على البساسيرى، وإعادة الخطبة للخلافة العباسية على منابر بغداد سنة ٤٥١هـ (١٠٥٩م).

ضعف الدولة الفاطمية وسقوطها:

دخلت الدولة الفاطميةمنذ أواخر القرن الخامس للهجرة (الحادى عشر الميلادى) دور ضعف وانحلال جعلها عاجزة عن الإحتفاظ بكيانها، فضلا عن حماية نفوذها فى المشرق والمغرب جميعا. وثمة عوامل عديدة تضافرت على اختلال أحوال تلك الدولة أواخر أيامها، منها ازدياد نفوذ الوزراء، إذ صارت الأمور كلها بأيدى وزراء مستبدين سيطروا على الخلفاء الفاطميين سيطرة تامة، وتحكموا فى تعيينهم وخلعهم، ووصل الأمر إلى حجبهم عن الناس، وفى ذلك يقول المقريزى[1]: «وصار وزير السيف من عهد أمر الجيوش بدر إلى آخر الدولة هو سلطان مصر، وصاحب الحل والعقد، وإليه الحكم فى الكافة فى الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية، وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية». ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أدى التنافس بين رجال الدولة على تقلد منصب الوزارة فى العصر الفاطمى الأخير إلى أن أصبحت مصر ساحة حرب وقتال من أجل الإنفراد بهذا المنصب، وقدعبر عن ذلك ابن الأثير[2] بقوله: «كانت الوزارة فى مصر لمن غلب، والخلفاءوراء الحجاب، والوزراء كالمتكلمين، وقل أن وليها أحد بعد الأفضل (الوزير الفاطمى) إلا بحرب وقتل، وما شاكل ذلك».

ومما أسهم فى إضعاف الدولة الفاطمية وعجل بسقوطها اضطراب أحوالها الاقتصادية، التى كان إحدى جوانبها حدوث المجاعات، ولاسيما تلك التى حدثت سنة ٤٥٧هـ

---

(١) الخطط، جـ١، ٤٣٩.

(٢) الكامل، جـ٩ ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(١٠٦٤م) فى عهد الخليفة المستنصر بالله، نتيجة لانخفاض النيل واستمرت سبع سنين متوالية، وهو مايعرف فى التاريخ بالشدة المستنصرية العظمى، فقد انعدمت بمصر الأقوات، وارتفعت الأسعار، واشتد بلاؤها على أهل مصر، مما حمل الكثير منهم على مغادرتها والرحيل عنها[١].

ومن العوامل التى أضعفت الدولة الفاطمية تعدد العناصر المكونة للجيش الفاطمى، التى كانت تتألف من المغاربة والعرب والأتراك والسودان وغيرهم من الأجناس. فقد اعتمد المعز لدين الله على المغاربة بطوائفهم العديدة. ولما ولى العزيز بالله الخلافة استخدم الأتراك، ثم ظهر عنصر السودان فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى، وكثر عدده فى عهد الخليفة المستنصر بالله، لأن أباه الظاهر كان قد تزوج من سودانية ولدت له المستنصر. فنال هذا العنصر الحظوة لديها. وظهر الأرمن فى الجيش الفاطمى فى أيام تولى بدر الجمالى وأولاده الوزارة. وقد شب النزاع بين كل عنصر وآخر، وكثيراً ما أدى هذا النزاع إلى خراب البلاد ونهب أموال الأهالى، وكان أسوأ نتائجه ضعف الجيش الفاطمى وبالتالى ضعف الدولة نفسها[٢].

ومن بين تلك العوامل أن معظم خلفاء العصر الفاطمى الثانى تولوا الخلافة وهم بعد أطفال صغار، فعلى سبيل المثال نجح الوزير الأفضل فى تولية المستعلى الخلافة، لأنه صغير السن يمكن التحكم فيه، ولأنه زوج أخته. وقد أدت هذه السياسة إلى ازدياد شوكة الوزراء واستقلالهم بأمور الحكم[٣].

ومن أهم العوامل التى أدت إلى إضعاف الدولة الفاطمية وزوالها ظهور الانقسامات فى المذهب الإسماعيلى، فبعد وفاة الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م)، حدث خلاف بين الإبن الأكبر نزار والإبن الأسغر أبى القاسم أحمد حول منصب الخلافة،ولكن

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٥ ص ١٥ ـ ٧ـ؛ ابن ميسر: أخبار مصر، جـ٢ ص ٣٤.

(٢) جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر، ص ١٠١، جمال الدين الشيال: «مصر فى العصر الفاطمى»، موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثانى، ص ٤٤٦.

(٣) جمال الدين الشيال: نفس المرجع والصفحة.

الوزير الأفضل بن بدر الجمالى أبعد نزاراً صاحب الحق الشرعى فى خلافة أبيه، وأقام على العرش أخاه الأصغر أبا القاسم الذى حكم باسم المستعلى (٤٨٧ ـ ٤٩٥هـ)، مما أدى إلى انقسام الإسماعيلية منذ ذلك الحين إلى فرقتين: الإسماعيلية النزارية التى نجح دعاتها فى إقامة ملك لهم فى قلعة ألموت فى فارس ثم فى الشام، وقد لعبوا دوراً خطيراً فى التاريخ الإسلامى فى القرنين الخامس والسادس للهجرة (الحادى عشر والثانى عشر للميلاد)، والإسماعيلية المستعلية أتباع الخلافة الفاطمية فى مصر وفى اليمن وبعض بلاد الشام. وقد حدث الانقسام المذهبى الثانى بعد مقتل الخليفة الآمر ـ ابن المستعلى ـ سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) وتولية الأمير عبد المجيد الخلافة وتلقيبه بالحافظ لدين الله، فى حين أنه كان قد ولد للآمر قبيل وفاته ابن اسمه الطيب وأخذت له البيعة بولاية العهد، ولهذا انقسمت الإسماعيلية على نفسها مرة أخرى إلى إسماعيلية حافظية وإسماعيلية طيبية[1].

وتأتى الحروب الصليبية فى مقدمة العوامل التى أدت إلى القضاء على الدولة الفاطمية. ومن المعروف أن الحروب الصليبية كانت أضخم حركة استعمارية شرسة داهمت الشرق الإسلامى فى العصور الوسطى. وقد انبعثت تلك الحروب من الغرب الأوربى المسيحى، باعتباره المخطط والمنفذ لها، واتخذت من الدين ستاراً لتخفى أطماعها الرامية إلى الإستيلاء على أراضى وثروات المسلمين والعبث بمقدساتهم فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى. وقد اعتاد الباحثون عند تناولهم لأحداث الدعوة إلى الحروب الصليبية أن يبدأوا بمجمع كلير مونت بإقليم أوفيرن بفرنسا، الذى عقده البابا أوربان الثانى فى نوفمبر سنة ١٠٩٥م. وكانت البابوية فى الغرب الأوربى قد ارتفع شأنها، وصارت لها السيادة على كل الكنائس الأوربية، بفضل سلسلة من البابوات الأقوياء، فأخذت تشجع أمراء الإقطاع على نبذ حروبهم الداخلية، وتوجيهها ضد المسلمين، بغية إشباع نزعتهم القتالية، ووعدت البابوية بمنح الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب. ورحبت المدن التجارية الإيطالية مثل بيزا والبندقية وجنوة بالحروب الصليبية لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة كانت تراودهم، وهى الاستئثار بتجارة الشرق وإقامة مراكز تجارية لهافى بلاد الشام، وجنى الأرباح من وراء ذلك.

---

(١) جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

وفي منطقة الشرق الأدنى تحقق حلم البابوية بخروج أعداد ضخمة من أهالي غرب أوروبا سنة ١٠٩٦م عرفوا بالصليبيين Crusaders على حد تعريف المؤرخين الغربيين لهم، أو الفرنجة وفقاً لما جاء في المصادر العربية، تحت شعار تحرير الأراضي المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين. وكان أن اخترقت الحملة الصليبية الأولى آسيا الصغرى، ومنها زحف الصليبيون نحو مدينة بيت المقدس التي كانت خاضعة للفاطميين آنذاك، فسقطت في أيديهم في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩م، وهناك لم يتورعوا عن ارتكاب أفظع الأعمال الوحشية، فقتلوا عشرات الألوف من المسلمين أطفالا ونساء ورجالا وشيوخاً، مما ترك أثراً سيئا عميقا في جميع أنحاء العالم الإسلامي. ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى أسس الصليبيون ثلاث إمارات كبرى في الرها وأنطاكية وطرابلس، فضلا عن مملكة بيت المقدس الصليبية. وبعبارة أخرى، صارفي أيدي الصليبيين الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام وموانيه لتأمين الاتصال البحري بأوروبا الغربية. واستمر وجودهم ببلاد الشام نحو قرنين من الزمان، على وجه التحديد من سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧م) إلى سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١م).

والواقع أن نجاح الصليبيين في تأسيس كيان لهم ببلاد الشام، لايرجع إلى تفوق جيوشهم في العدد والعدة، ولا إلى كفائتهم الحربية، وإنما يرجع أساساً إلى انعدام المقاومة الإسلامية، وتراخي المسلمين في الذود عن أراضيهم، بسبب تبعثر قواهم، وافتقارهم إلى الوحدة والتماسك. فأمراء الأتراك السلاجقة لم يكن بينهم بعد وفاة أعظم سلاطينهم ملكشاه سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) من يستطيع أن يتولى قيادتهم، ويوجه جهودهم لقتال الصليبيين، في الوقت الذى انكمشت فيه الخلافة الفاطمية في مصر، ولم تكن في حال يسمح لها بأن تنهض بدور فعال في إنقاذ بلاد الشام من براثن الصليبيين، بسبب ما أصابها من ضعف وانحلال في عصرها الثاني. ومما يدل على ذلك ما قاله المقريزي[1] عن الخليفة المستعلي بالله الفاطمي (٤٨٧ ـ ٤٩٥هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١٠١م): «وفي أيامه اختلت الدولة، وانقطعت الدعوة من أكثر مدن الشام، فإنها صارت بين الأتراك (السلاجقة) والفرنجة (الصليبيين)، وصارت الإسماعيلية فرقتين: فرقة نزارية تطعن في إمامة المستعلي، وفرقة أخرى ترى صحة خلافته». وإذا كان من الثابت أن الفاطميين اشتبكوا مع الصليبيين ببلاد الشام، ولكن الفاطميين ظهروا أمامهم في صورة العاجزين، وأخفقوا في استرداد بيت المقدس.

---

(١) الخطط، جـ ١ ص ٣٥٦.

ثم كان أن أظهرت الأحداث ببلاد الشام أقوى الشخصيات الإسلامية فى النصف الأول من السادس الهجرى (النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى)، وهو عماد الدين زنكى، الذى وضع نصب عينيه أن التغلب على الصليبيين وطردهم من بلاد الشام، لايمكن أن يتم إلا بتوحيد الجبهة الإسلامية، وهى المهمة التى بدأها بنفسه، وأتمها ابنه نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين الأيوبى. فبعد وفاة عماد الدين زنكى سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م)، وقف ابنه نور الدين محمود والصليبيون على ضعف مصر الفاطمية، فتسابق الفريقان على الإستيلاء عليها كما سنرى فيما بعد. ووجه الأهمية هنا أن نور الدين محمود كان يرى فى ضم مصر إلى حوزته تطويقا للوجود الصليبى من الجنوب، فى حين أراد الصليبيون أن يتخذوها قاعدة هامة لمشروعاتهم الصليبية فى الشرق الأوسط، وقد انتهى التسابق باستيلاء نور الدين على مصر. وفى هذا الصدد لعب صلاح الدين الأيوبى دوراً بارزاً فى الإجهاز على الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م)، وذلك بقطع الخطبة للفاطميين وإقامتها للخليفة العباسى فى بغداد، كما بذل جهده من أجل القضاء على المذهب الشيعى فى مصر، وعودتها إلى حظيرة المذهب السنى[١]. وقد نجح صلاح الدين فى ذلك، لأن المصريين وإن كانوا قد أحبوا الفاطميين، إلا أنهم لم يتابعوهم فى مذهبهم الشيعى، وذلك لأن الشعب المصرى شعب محافظ حتى فى المسائل الاعتقادية[٢]، ولهذا ظل على المذهب السنى. وبمعنى أخر، لم يكن مذهب الشيعة التى نشرته الدولة الفاطمية فى مصر وحقنتها به طويلا أكثر من مجرد جملة اعتراضية فى إسلام مصر[٣].

ومهما يكن من أمر، فقد سقطت الدولة الفاطمية التى أحبها المصريون، وشعروا بالحزن والألم لانتهاء أيامها، وخير تعبير عن ذلك تلك الصورة التى رسمها المؤرخ أبو المحاسن[٤] بقوله: «وكان لموته (الخليفة العاضد) بمصر يوم عظيم إلى الغاية، وعظم مصابه

(١) للوقوف على التفضيلات أنظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية (القاهرة ١٩٧٦) جزآن؛ السيد الباز العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٦٣)؛وكتابنا بناء الجبهة الإسلاميةالمتحدة وأثرهافى التصدى للصليبيين (القاهرة ١٩٩٢).

(٢) أحمدمختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ٢٦٢.

(٣) جمال حمدان: شخصية مصر، جـ٢ ص ٤٩٣.

(٤) النجوم الزاهرة،جـ٥ ،ص ٣٥٧.

على المصريين إلى الغاية، ووجدوا عليه وجداً عظيماً لاسيما الرافضة (الشيعة)، فإن نفوسهم كادت تزهق حزنا لانقضاء دولة الرافضة (الدولة الفاطمية) من ديار مصر وأعمالها».

بعض مظاهر الحضارة فى مصر الفاطمية:

رأينا فيما سبق أن أحمد بن طولون كان أول من استقل بمصر استقلالا حقيقيا فى ظل تبعية إسمية للخلافة العباسية، واحتذى حذوه محمد بن طغج الإخشيد موسس الدولة الإخشيدية، ولكن الفاطميين عندما فتحوا مصر أوجدوا وضعا سياسيا لم تألفه مصر الإسلامية من قبل، إذ أسسوا دولة مستقلة، لم ترتبط بالخلافة العباسية بأية صورة، بل أصبحت مصر دار خلافة، تقف على قدم المساواة مع الخلافة العباسية، الأمر الذى جعل تاريخ مصر الإسلامية فى عصر الفاطميين يأخذ خطاً متصلا مستقلا عن التيار العام لتاريخ المشرق الإسلامى.

وإلى جانب ذلك كانت الدولة الفاطمية دولة شيعية لها عقائدها المبنية على أساس ودعائم تخالف ما كان عليه المصريون السنيون منذ الفتح العربى. ولهذا لم يدخر الفاطميون وسعا فى نشر مذهبهم الإسماعيلى منذ قيام دولتهم فى مصر، وركزوا اهتمامهم وجهدهم فى تحويل المصريين إلى هذا المذهب، ولكنهم لم ينجحوا فى هذا الشأن، فظل المذهب السنى محتفظا ببعض مظاهر قوته فى مصر. على أن وجود الخلافة الفاطمية فى مصر أحدث تطوراً كبيراً فى حضارتها الفكرية والمادية بصورة جعلتها تحتل مكاناً مرموقا بين الدول المعاصرة لها، وتنعم بالرخاء والاستقرار.

سياسة التسامح الدينى التى اتبعها الفاطميون:

لم تعش الدولة الفاطمية بمنأى عن الحياة المصرية،بل اندمجت فيها،وشاركت فيها بالأعمال الجليلة التى كان لها أثر كبير فى توحيد عناصر الأمة المصرية ونضوح شخصيتها، وذلك لأنها كانت دولة متسامحة إلى حد بعيد، فالمسلم والقبطى واليهودى كانوا يلقون معاملةواحدة[1]. وقد بدت سياسة التسامح التى اتبعها الفاطميون واضحة منذ وصول

(1) Lane - Poole, Hist of the Egypt in the Middle Ages., pp. 169-170;

مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ٢٦١.

الخليفة المعز لدين اله إلى مصر، فقد طلب إليه البطريرك أفرهام السريانى، أن يسمح له ببناء كنيسة أبى مرقورة بالفسطاط، وكذلك الكنيسة المعلقة بقصر الشمع، فوافق الخليفة، وأطلق له من بيت المال ما يصرفه على هذه العمارة، فتصدى الناس للأقباط ومنعوهم من البدء فى عملية البناء، فما كان من المعز إلا أن جاء وأشرف بنفسه على بناء أساس الكنيستين، ثم أمر كل الكنائس التى تحتاج إلى عمارة دون أن يعترضه أحد فى ذلك[1].

ومما يدل على تسامح الفاطميين مع أهل الذمة،أن الخليفة العزيز بالله استخدم اليهود والمسيحيين فى أعلى وظائف الدولة، وفى أهم شئونها، ومن بينهم وزيره القدير يعقوب بن كلس، وهو من أصل يهودى، اعتنق الإسلام فى أواخر أيام كافور الإخشيدى، واتصل بالخليفة المعز لدين الله فى المغرب ودعاه لفتح مصر، ولما ولى العزيز بالله عينه وزيراً له سنة ٣٦٨هـ (٩٧٨م)، وقد اعتمد العزيز بالله عليه فى نشر المذهب الفاطمى، فقام فى هذا الشأن بنشاط كبير، وألف يعقوب كتابا فى فقه الشيعة والدعوة الفاطمية، وأنشأ فى قصره مكتبة ضخمة لخدمة مذهب الفاطميين، وعقد به المجالس التعليمية لنشر هذا المذهب. وعندما مرض مرض الموت سنة ٣٨٠هـ (٩٩٠م)، بكاه العزيز قائلا: «وددت أنك تباع فأشتريك بمالى وولدى»، ودفنه العزيز فى قبة كان قد ابتناها ليدفن هو فيها، وعطل الدواوين أياماً لوفاته[2]. وكانت زوجة العزيز بالله ــ وهى أم الخليفة الحاكم بأمر الله ــ مسيحية،وكان لها أخوان رفعهما العزيز إلى أعلى مناصب الكنيسة، فعين أحدهما بطريركا للملكانيين ببيت المقدس سنة ٣٧٥هـ (٩٨٦م)، وعين الآخر مطرانا للقاهرة، ثم رقى فى عهد الحاكم بأمر الله بطريركا بالإسكندرية سنة ٣٩٠هـ (١٠٠٠م)[3]. وكان من وزراء العزيز عيسى بن نسطورس المسيحى، كما عين مِنَشَّا بن إبراهيم القزاز اليهودى واليا على

---

(١) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية فى مصر، ص ٩١.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢ تحقيق محمد حلمى محمد أحمد (القاهرة ١٩٧١)، ص١٧٥ وهامش رقم ٢ من نفس الصفحة؛ الخطط، جـ٢ ص٦؛ النجوم الزاهرة،جـ٤ ص ١٥٨.

(3) Parkes (James). A Hist . of palestine from 195 A. D. to modern times (London, 1949), p. 98.

بلاد الشام[١]. وتقلد منصب الوزارة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ) الوزير أبو نصر صدقه بن يوسف الفلاحي، وكان يهوديا وأسلم، فأشرك معه فى تدبير شئون الدولة أبو سعد التسترى اليهودى. وقد أثار التسترى كراهية المسلمين لتعصبه لليهود، وإسناده كبرى مناصب الدولة إليهم، مما مكنهم من اضطهاد المسلمين. وعبر عن ذلك الشاعر المصرى الحسن بن خاقان بقوله[٢]:

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهم ... ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر إنى نصحت لكم ... تهودوا قد تهود الفلَك

ويرى البعض أن الخلفاء الفاطميين قد قربوا إليهم الأقباط واختصوهم بإدارة الشئون المالية وولوهم الوظائف فى مختلف الدواوين بسبب عدم ثقتهم برعاياهم المسلمين السنيين[٣]. والحقيقة أن مناصب الدولة كانت لكل من توافرت لديه الكفاءة اللازمة دون أى دخل لمعتقد أو مذهب، ولما كانت الموارد المالية لها أهميتها للدولة، فقد اختار الخلفاء الفاطميون المهرة فى الشئون المالية، ومن بين هؤلاء عدد كبير من أهل الذمة الذين أسلم بعضهم، وظل البعض الآخر على دينه[٤].

الجيش والأسطول:

اهتمت الدولة الفاطمية بالجيش اهتماماً كبيراً لتحقيق أهدافها التوسعية، والدفاع عنها ضد أعدائها. وقد سبق الإشارة إلى أن الجيش الفاطمى كان يتكون من عدة عناصرتشمل المغاربة والأتراك والديلم والسودان والأرمن.

---

(١) الكامل، جـ٧ ص ص٤٧٧.

(٢) حسن المحاضرة،جـ٢ ص ٢٠١ ؛ سعيد عاشور: بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى، ص ٩٦ ؛ مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(3) Ashtor, A Social and Economic Hist of the East., p. 192.

(٤) محمد حمدى المناوى: الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى (القاهر ١٩٧٠)، ص٣٨.

وصف الرحالة الفارسى ناصر خسرو ترتيب الجند الفاطميين فى عهد الخليفة المستنصر بالله، فذكر أن الجند كانوا يسيرون فى صفوف منتظمة فصيلة تلو فصيلة، فيسير فى المقدمة البربر، ويليهم المغاربة، ويسير خلف هؤلاء وأولئك الأتراك والفرس ويطلق عليهم اسم المشرقيين، ويتبعهم الحجازيون والسودان وكان يطلق عليهم اسم عبيد الشراء، أى الأسرى الذين كانوا يشترون بالمال[1].

وكانت طوائف الجند عديدة، تنسب كل منها إلى الخلفاء أو الوزراء، فمن طوائف الخلفاء الآمرية والحافظية والعاضدية، ومن طوائف الوزراء الوزيرية وتنسب إلى الوزير يعقوب ابن كلس، والجيوشية نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى، والأفضلية نسبة إلى ابنه الأفضل، والبرقية وهم جماعة من أهل برقة، استخدم الوزير طلائع بن رزيك فرقة منهم[2].

ويتألف الجيش الفاطمى من الأمراء وهم القادة، وطوائف الجند، ويتميز الأمراء بعضهم عن بعض بعلامات فى المواكب الرسمية والأعياد بحسب مراتبهم، فالأمراء الكبار وهم الذين بخلع عليهم بأطواق الذهب فى أعناقهم، ويقود كل منهم ألف جندى، ويلى هؤلاء فريق من الأمراء يعرفون بأصحاب القضب. يحملون فى أيديهم قضب الفضة، ويقود كل منهم مائة جندى[3].

حرص الخلفاء الفاطميون على توديع الجيوش المتجهة لمحاربة الأعداء، فإذا ما خرج الجيش براً إلى البلاد الشامية، جلس الخليفة بمنظرة باب الفتوح لعرض العساكر وتوديعهم. وفى هذه المنظرة كان يؤذن لقائد الجيش بالمثول بين يدى الخليفة، فيخلع عليه خلعة مزركشة بالذهب، ثم يأمر الجيش بالمسير[4].

ووجه الفاطميون اهتمامهم إلى إنشاء أسطول قوى، وقد وصف المقريزى عناية المعز لدين الله بأمر الأسطول قائلا: «لما سار الروم (البيزنطيون) إلى البلاد الشامية بعد سنة

---

(١) على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٣٥.
(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣ ص ٤٧٨؛ جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر ص١٤٧ ـ ١٤٨.
(٣) صبح الأعشى، جـ٣ ص ٤٧٦؛ جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ١٤٨.
(٤) الخطط، جـ١ ص ٤٨١.

خمسين وثلثمائة، اشتد أمرهم بأخذهم البلاد. وقويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدم المعز لدين الله، وأنشأ المراكب الحربية، واقتدى به بنوه وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد واعتناء بالأسطول، وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر، وإسكندرية، ودمياط، وكانت فى أيام المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة»[1].

وكان يشرف على الأسطول الفاطمى عشرة قواد، عليهم رئيس من بينهم يدعى قائد القواد أو أمير الأسطول، وهؤلاء القواد كانوا يتناولون مرتبات تصل إلى عشرين ديناراً فى الشهر. أما عن نفقات الأسطول، فقد خصصت له الحكومة الفاطمية ميزانية ضخمة من مستغلات الإقطاعات المحبوسة عليها. ولم يزل الأسطول المصرى محل عناية الفاطميين، حتى أمر الوزير شاور بإحراق الفسطاط ليحول دون وصول الصليبيين، كما أمر بإحراق مراكب الأسطول[2].

الحياة الاقتصادية:

وجه الفاطميون عنايتهم للنهوض بمصر، وفى عهدهم نمت ثروة البلاد وزادت، فعاش المصريون يمارسون شئون حياتهم فى جو من الإستقرار والاطمئنان. وبلغ أمن المصريين واطمئنانهم إلى حكومتهم إلى حد أن البزازين وتجار الجواهر والصيارفة، كانوا لايغلقون أبواب محلاتهم، بل يكتفون بإسدال الستائر عليها[3].

اهتم الفاطميون بالزراعة على اعتبار أنها أهم مصادر الثروة فى مصر، فعندما انتقل المعز لدين الله إلى مصر نظم جباية الخراج، وعنى هو ومن بعده بعمارة الجسور وتطهير الترع، وبلغت المساحة المزروعة فى عهد المعز نحو ٢٨٥ ألف فدان. ولاريب أن انتشار الأمن كان سببا هاما فى تقدم الزراعة، ويشهد بذلك أن الخراج حتى نهاية عصر الحاكم بأمر الله تراوح بين ثلاثة وأربعة ملايين دينار[4].

---

(١) الخطط، جـ٢ ص١٩٢.

(٢) الخطط، جـ١ ص ١٩٢.

(٣) ناصر خسرو: سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب (القاهرة ١٩٩٣)، ص ١٢٤.

(٤) راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين (القاهرة ١٩٤٨)، ص ١٠٣.

وعلى الرغم من اهتمام الحكومة الفاطمية بالرى والزراعة، فلم يخل عهدهم من أزمات أثرت فى الإنتاج الزراعى، من ذلك نقص مياه النيل عن المستوى اللازم لرى الأراضى الزراعية، كما حدث فى عهد الخليفة المستنصر بالله، حيث حل بالبلاد الشدة العظمى أو «الشدة المستنصرية» التى استمرت سبع سنوات (٤٥٧ ـ ٤٦٤هـ)، وكان من مظاهرها الغلاء الشديد، وانتشار الأوبئة التى أودت بحياة الألوف من الأهالى فى ريف مصر ومدنها، واقترنت هذه الشدة بقيام الفتن والاضطرابات فى مصر. وقد دفع سوء الأحوال فى مصر بالخليفة المستنصر بالله إلى استدعاء بدر الجمالى من فلسطين لإعادة الأمور إلى نصابها، فلما ولى الوزارة سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٣م)، قضى على المفسدين وعناصر الشدة، فاستقرت الأمور، وعاد الرخاء تدريجيا، فزاد خراج مصر فى أيامه إلى أكثر من ثلاثة ملايين دينار[١].

وكان الفاطميون يعاملون الفلاحين معاملة طيبة تنطوى على الطيبة والرعاية، فلم يتركوا تقدير الخراج للمقطعين، بل حددوا مقداره، كما حرصوا منذ أن انتقلوا إلى مصر على عدم انتزاع الأراضى من أصحابها، وفقا لعهد الأمان الذى أعطاه جوهر الصقلى للمصريين[٢].

ويعتبر العصر الفاطمى عصر ازدهار الصناعة المصرية ووفرة إنتاجها، وتنوع أصنافها، واستحداث أساليب جديدة عليها. ومما ساعد على ارتقاء الصناعة حياة الترف والرفاهية التى عاشها البلاط الفاطمى، وحاجة الجيش والأسطول الفاطمى للأسلحة والعتاد الحربى والملابس، وفتح أسواق جديدة نتيجة التطور العظيم الذى شهدته تجارة مصر الدولية[٣]. ومن الظروف التى كان لها أكبر أثر فى تقدم الصناعة استتباب الأمن وقوة الحكومة المركزية والمعاملة السمحة التى تمتع بها الأقباط وهم عماد الصناعة[٤].

---

(١) الخطط، جـ١ ص ١٩٩؛ جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر، ص ١٥٣.

(٢) راشد البراوى: المرجع السابق، ص ١٠٥؛ جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(3) Ashtor, A Social and Economic Hist of the Near East., p.198.

(٤) راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، ص ١٢١.

ومن الصناعات التى ازدهرت فى هذا العصر واهتم الخلفاء بها صناعة النسيج، وكانت وظيفة «صاحب الطراز» أى المشرف على شئون النسيج فى البلاد لايتولاها إلا أحد كبار الموظفين المقربين من الخليفة، الأمر الذى أدى إلى ازدياد الإنتاج فى الأقمشة وجودة أنواعها. وقد زار الرحالة الفارسى ناصر خسرو مصر وأقام فيها بين عامى ٤٣٩هـ و٤٤١هـ (١٠٤٧ و١٠٤٩م)، وأعجب بما كان ينسج فى مدينة تنيس من قصب ملون تصنع منه ثياب النساء، كما روى أن مصانع تنيس كانت تنتج نوعاً من القماش يسمى البوقلمون يتغير لونه باختلاف ساعات النهار، ويصدره المصريون إلى بلاد الشرق والغرب، كذلك أعجب بالكتان الذى ينسج فى أسيوط ويبدو للعين كأنه الحرير[1].

كذلك تقدمت صناعة الزجاج والخزف فى العصر الفاطمى تقدماً عظيماً، وكانت مراكز صناعة الزجاج فى الفسطاط والفيوم والأشمونين والشيخ عبادة والإسكندرية. وقد أشار ناصر خسرو إلى أن البقالين والعطارين وغيرهم كانوا يقدمون الأوانى الزجاجية والخزفية والورق ليوضع فيها ما يبيعونه، إذ لم يكن لازما أن يبحث المشترى عن شئ يضع فيه ما يبتاعه[2].

كذلك تطورت صناعة الحفر على الخشب فى العصر الفاطمى، إذ اختفت الأساليب الفنية فى الحفر على الخشب التى سادت فى العصرين الطولونى والإخشيدى، ليحل محلها الأسلوب الفاطمى. وقد ازدادت الدقة فى الحفر تدريجيا حتى بلغت غايتها، كما يبدو فى بعض حشوات وصلت إلينا تشهد باتقان عظيم فى نفس الفروع النباتية، فضلا فى استخدام رسوم الحيوانات والطيور عنصراً زخرفيا[3].

وصحب ازدهار الزراعة والصناعة فى مصر الفاطمية انتعاش التجارة الداخلية والخارجية سواد بسواء، ففى التجارة الداخلية ظلت الفسطاط أعظم مركز تجارى لموقعها على النيل

---

(١) زكى محمد حسن: الفنون الإسلامية، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١؛ الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٤٥)، ص ٦١.

(٢) زكى محمد حسن: الفنون الإسلامية، ص ٥٨٦؛ الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٣) زكى محمد حسن: الفنون الإسلامية، ص ٤٥٠ ـ ٤٥٢.

وتوسطها بين الوجهين القبلى والبحرى، واتصالها بالنيل بكافة أنحاء البلاد من أسوان حتى ساحل البحر المتوسط، بالإضافة إلى أنه كان يخرج منها طرق برية مباشرة إلى الحجاز وبلاد الشام وبلاد المغرب. ويلاحظ أن إنشاء القاهرة لم يؤثر كثيراً على مركز الفسطاط التجارى، إذ ظلت القاهرة زمناً أشبه بمعسكر يقيم فيه الجنود والموظفون وغيرهم، كما أن موقعها بالنسبة للنيل كان دون موقع الفسطاط، مما جعل الأسعار فى الأخيرة أقل منها فى عاصمة الفاطميين[١]. وقد لاحظ خسرو أن التجار فى مصر كانوا يبيعون بأثمان محددة، وإذا ثبت على أحدهم الغش فإنه يُركب جملا، ويوضع فى يده جرس يدقه ويطاف به فى البلد، ويرغم على أن يصيح بأعلى صوته: «لقد غششت وها أنا ألقى عقابى، جزى الله الكاذبين[٢]!».

أما عن التجارة الخارجية، فقد اتسع نطاقها مع البلاد الاسيوية والأوربية. ذلك أن الحروب الصليبية قد أثرت على طرق المواصلات بمصر، وخاصة أن استيلاء الصليبيين على حصن الكرك قطع طريق الحج والتجارة البرى إلى دمشق والحجاز، فاضطر التجار والحجاج إلى البحث عن طريق آخر أكثر أمنا. فانتقل النشاط التجارى إلى النيل الأوسط والأعلى فى مصر، وأصبح التجار والحجاج يتوجهون فى النيل حتى قوص أو أسوان ثم يعبرون الصحراء الشرقية إلى عيذاب ومنها يبحرون فى البحر الأحمر إلى جدة[٣]. ومما يجدر ذكره أن البحر الأحمر فى عهد الفاطميين حل محل الخليج العربى كطريق رئيسى للتجارة من الهند إلى البحر الآبيض المتوسط، ويرجع السبب فى ذلك إلى القلاقل والفتن التى اجتاحت العراق وفارس وقتئذ، فضلا عن تدهور مدينة سيراف ـ المرفأ العظيم على الخليج ـ بعد أن دمرتها الزلازل، وانعدام الأمن فى المدن الأخرى الواقعة على الخليج. حدث هذا فى الوقت الذى فضّل التجار الإيطاليون الحصول على سلع الهند من المراكز التجارية فى مصر وبلاد الشام،

(١) راشد البراوى: حالة مصرالاقتصادية فى عهد الفاطميين، ص ١٠٠.

(٢) زكى محمد حسن:الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص ٥٨.

(٣) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى،جـ٢ (القاهرة ١٩٩١)، راشد البراوى: المرجع السابق، ص ٢٤٢.

بدلا من زيارة سواحل الخليج العربى النائية والمحفوفة بالأخطار[1]. وقد شجع الفاطميون استخدام البحر الأحمر طريقا للتجارة العالمية، لما يعود عليهم من أرباح طائلة، فى الوقت الذى كانوا يهدفون إلى نشر نفوذهم السياسى والدينى فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، وبمعنى آخر سار الدعاة وراء التجار، الأمر الذى يؤكد أن تسمية أتباع المذهب الإسماعيلى فى الشمال الغربى من الهند بالبُهْرة ـ أى التجار ـ لم يكن مجرد صدفة[2].

ولقد مكنتنا الوثائق اليهودية المكتوبة باللغة العربية (أوراق الجنيزة) التى اكتشفت فى القاهرة من معرفة التحول الكبير الذى طرأ على السلع الهندية الواردة إلى مصر فى العصر الفاطمى. وتشير هذة الوثائق التى يرجع معظمها إلى القرن الحادى عشر الميلادى إلى أن التوابل والأصبغة قد حلت محل العطور الثمينة التى كانت السلعة الرئيسية للتجارة الهندية[3].

وقد قامت بين مصر والمدن الإيطالية علاقات تجارية، فأخذ البنادقة يمدون الفاطميين بالحديد والسلاح وخشب السفن، وهى المواد التى احتاجت إليها بلادهم كثيراً، وحملت سفنهم فى عودتها من مصر التوابل والمنسوجات وسائر المنتجات الفاخرة[4].

وعلى الرغم من المنازعات السياسية بين مصر والدولة البيزنطية، فإن العلاقات التجارية لم تتوقف، إذ كانت بيزنطة فى حاجة إلى بعض المصنوعات المصرية الممتازة مما تنتجه مصانع نسيج تنيس ودمياط، كما أن مصر كانت تستورد بعض منتجات الدول البيزنطية وبخاصة الغلال؛ وقد ذكر ناصر خسرو أن كثيراً من السلع التى رآها وأعجب بها فى أسواق مدينة مصر كانت تأتى من بلاد الروم[5].

الحياة الاجتماعية:

أسهب المؤرخون فى وصف مظاهر الترف والبذخ والثراء التى عرفها العصر الفاطمى

---

(1) Ashtor, A Social and Economic Hist of the Near East., p. 195.

(2)Ibid.

(3) Ibid.,pp. 196-197.

(٤) ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ص ٣٢٨.

(٥)راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، ص ٢٤٦.

بصورة لا نجدها فى مصر فى سائر العصور، ويتجلى بذخ الخلفاء فى القصور التى بنوها، ومن أشهرها القصر الشرقي الذى بناه جوهر الصقلى للخليفة المعز لدين الله الفاطمى، والقصر الغربى الذى بناه الخليفة العزيز بالله غربى القصر الشرقى، ومن القصور العديدة التى بناها العزيز وصف ابن خلكان[1] أحدها بأنه لامثيل له فى الشرق ولا فى الغرب.

ومما يدل على مظاهر الثروة والأبهة عند الخلفاء الفاطميين الوصف الذى أورده المؤرخ الصليبى وليم الصورى رئيس أساقفة صور عن زيارة سفيرى عمورى الأول ملك بيت المقدس للقصر الفاطمى فى عهد الخليفة العاضد آخر الدولة الفاطمية، فقد جاء فيه: «وقد استقبل السفيران بحفاوة، فاجتازوا الردهات والأبواب التى يقف عليها حراس سودانيون أشداء بسيوفهم اللامعة، وكذلك الحدائق المليئة بالحيوانات والطيور النادرة، وأخذا يسيران من قاعة إلى أخرى، حتى ظهرت أمامهما قاعة العرش الذهبى، وقد أسدل عليها ستارة من الحرير مرصعة بالذهب واللآلىء، ومثلت عليها صور بشرية كثيرة وهيئات طيور وحيوانات، تتألق بأحجار الزمرد والياقوت والأحجار الكريمة من كل نوع؛ ثم فتحت الستارة، فظهر الخليفة جالسا على مقعد من الذهب والأحجار الكريمة، وقد ارتدى ملابس فاخرة لم يتح لكثير من الملوك إذ ذاك لبسها، ويحيط به أبرز مستشاريه وقد كساهم الوقار. وقد أراد أحد السفيرين أن يصافح يد الخليفة عارية من القفاز، فارتاع رجال البلاط وشرحوا له أنه من المستحيل إجابة طلبه، ولكن الخليفة ابتسم ساخراً، وخلع قفازه وصافح السفير، ثم انسحب السفيران وقد هالهما الثروة التى تتمتع بها الخلافة الفاطمية[2].

واهتم الفاطميون بالاحتفال بالأعياد الدينية، وهم الذين أقاموا الاحتفال برأس السنة الهجرية، وبليلة المولد النبوى الكريم، وليلة أول رجب، وليلة المعراج فيه، وليلة أول شعبان ونصفه، وغرة رمضان، وعيد الفطر ، وعيد الأضحى، ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب، ومولد ولديه الحسن والحسين، ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء، ويوم عاشوراء

---

(١) وفيات الأعيان، جـ٥ ص ٣٧٢.

(٢) ستانلى لين بول: سيرة القاهرة (القاهرة ١٩٥٠)، ص ١٢٨ ـ ١٢٩؛ أولج فولكف: القاهرة، مدينة ألف ليلة وليلة، ترجمة أحمد صليحة، ص ٦١ ـ ٦٢.

وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين بن على فى كربلاء. وكانت الخلافة الفاطمية تحتفل بهذه الأعياد - عدا يوم عاشوراء - فى فيض من البهاء والبذخ، فينتظم موكب الخليفة برسومه ومظاهره الرائعة، وتقام لذلك المآدب والحفلات الشائقة، ويكثر البذل والعطاء، ويستقبل الشعب المصرى هذه الأعياد بالفرح، وتغمره البهجة. أما يوم عاشوراء فكان يعتبر يوم حزن عام، تغلق فيه الأسواق، ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر يرثون الحسين، ويقام سماط يسمى سماط الحزن، من خبز الشعير والعدس والجبن، ويحضره الخليفة ملثما ومرتديا الثياب القاتمة(١).

واحتفل الخلفاء الفاطميون بأعياد الأقباط بكثير من مظاهر الأبهة والعظمة، ومن أهم تلك الأعياد ليلة الغطاس وخميس العهد. وكانت ليلة الغطاس من أعظم الاحتفالات التى اشترك فى إحيائها المسلمون، فقد كان الناس يسهرون طول الليل، وتقام الملاهى، ويظهر الأهالى بأعظم مباهج السرور. أما خميس العهد فهو أحد الأعياد التى بقيت فى عهد الفاطميين مشاركة منهم للأقباط فى شعورهم الدينى، وهو الخميس الذى كان يحتفل فيه بإنجيلهم قبل الفصح بثلاثة أيام(٢).

كذلك اهتم الفاطميون بالاحتفال بوفاء النيل، فقد كان الخليفة يخرج وفى ركبه عشرة آلاف فارس يمتطون الخيل المطهمة الملجمة، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة، ويلى هؤلاء صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة تقودها طائفة من جند الخليفة. وكان موكب الخليفة يخترق شوارع القاهرة ومصر حتى يأتى «منظرة دار الملك» بالقرب من المقياس، فيركب منها فى العشارى الخاص بصحبة وزيره وكبار رجال دولته، فإذا دخله صلى هو والوزير ركعتين، ثم يقوم المشرف على المقياس بتخليقه (أى تعطيره)، بينما يتناوب قراء الحضرة تلاوة القرآن، ثم يخرج الخليفة راكبا فى العشارى، فإذا ما وصل إلى منظرة دار الملك عاد بموكبه إلى القصر(٣).

---

(١) الخطط، جـ١ ص ٤٢٩ - ٤٣٠.

(٢) على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى، ص ٤٨٦ - ٤٨٧.

(٣) جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر، ص ١٦٩ - ١٧٠.

حفلت مصر فى العصر الفاطمى بالمجالس الاجتماعية وخاصة مجالس الموسيقى والغناء، واشترى الخلفاء والوزراء والأعيان الجوارى المغنيات من كل مكان، وكان اللعب بالخيّال والتماثيل والسمّاجات، كما احترف بعضهم التقليد والمحاكاة، وبلغ من حذق بعض الناس المحاكاة أنهم كانوا يقلدون طوائف السكان على اختلاف نزعاتهم وأجناسهم. وكانت المجالس الاجتماعية تعقد فى قصور الخلفاء والوزراء والأعيان، حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة، كما كانت المجالس الخاصة تعقد فى داخل المنازل لسماع النوادر والأحاديث التى تتجلى فيها اللباقة العقلية، ولقضاء أوقات فراغهم فى لعب الشطرنج والنرد اللذين نقلا إليهم من الفرس[1].

الحياة الدينية:

دخل جوهر الصقلى مدينة الفسطاط فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ (١٧ يوليو ٩٦٩م)، وعسكر فى الفضاء الواقع فى شمالها، وفى تلك الليلة نفسها وضع جوهر أساس مدينة القاهرة لتكون حاضرة الدولة الفاطمية. ورأى جوهر ألا يفاجىء السنيين فى مساجدهم بشعائر المذهب الشيعى، لذلك عول على بناء مسجد يتلقى فيه الناس الدعوة الشيعية، وليكون رمزاً لسيادة تلك الدعوة، فشرع فى بناء الجامع الأزهر فى ٤ رمضان سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠م)، وتم بناؤه فى سنتين تقريبا، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة فى اليوم السابع من رمضان سنة ٣٦٠هـ (٩٧٢م).

وإذا كان الهدف الأول من بناء الجامع الأزهر هو جعله مركزاً للمذهب الشيعى، فقد أصبح منذ نشأته منهلا للثقافة الدينية يرده العلماء والطلاب من كل صوب فى العالم الإسلامى، وخاصة بعد اجتياح المغول لبغداد عاصمة الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، وبذلك صار الجامع الأزهر أعظم جامعة علمية فى العالم الإسلامى فى العصور الوسطى، تخرج منها علماء أفذاذ[2]، ومازالت تؤدى خدمات عظيمة للإسلام والمسلمين.

---

(١) جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ١٧١ ـ ١٧٣.

(2) Arberry (A.T.), The Contribution to Islam, in The Legacy of Egypt., p. 351.

وتتضح شخصية المصريين عندما حاول الخلفاء الفاطميون اجتذابهم إلى اعتناق المذهب الإسماعيلى، أى تغيير مذهبهم السنى إلى المذهب الشيعى، ولكن المصريين رفضوا ذلك، فظل المذهب السنى محتفظاً بقوته رغم تحول بعض المصريين إلى المذهب الفاطمى. ومما يدل على موقف المصريين من المذهب الفاطمى، ما حدث عندما أصدر الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١هـ/٩٩٦ ـ ١٠٢٠م) مرسوما يقضى بسب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية وغيرهم من الصحابة، وأمر الحاكم أن يتم ذلك جهراً فى المساجد والقبور والحوانيت. ولكن هذا المرسوم أثار المصريين وحدثت اضطرابات، وتظاهروا وحاصروا قصر الحاكم، مما اضطروه أن يرضخ لإرادة المصريين، ويصدر مرسوما آخر سنة ٣٩٧هـ (١٠٠٦م) يلغى فيه المرسوم السابق ويطلب من المصريين أن يترحموا على الصحابة[١]. وبعد ست سنوات أصدر الحاكم مرسوماً فى سنة ٤٠٣هـ (١٠١٣م)، لايخرج مضمونه عن مضمون المرسوم الذى أصدره سنة ٣٩٧هـ،وهو منع الشيعة من سب أبى بكر وعمر والترحم على السلف من الصحابة، وأزال الألواح التى فيها سب الصحابة، وأمر بعدم الخوض فى سيرتهم[٢].

ومن الجدير بالذكر أن بعض دعاة الشيعة من فارس أتوا إلى مصر فى عهد الحاكم بأمر الله، وما لبثوا أن اعتنقوا المذهب الفاطمى، وخرجوا على تعاليم المعتدلين من الإسماعيلية، نادوا بحركة تأليه الحاكم، وهى حركة استمدت من معتقدات متطرفى الشيعة. ولكن المصريين قاوموا هذه الحركة تارة بالاعتداء على دعاة التأليه حتى قتلوا أحدهم وفر الباقون من مصر خوفا على حياتهم، وتارة أخرى باستخدام المصريين سلاحهم التقليدى وهو التهكم والسخرية بالإمام الحاكم بأمر الله وفكرة تأليهه ودعاته، فأزمع الحاكم على أن ينتقم من المصريين، فأحرق مدينة الفسطاط، فازداد سخط المصريين على الأئمة الإسماعيلية، وكثر تندر المصريين بهم، وطرحوا عقيدة الإسماعيلية من نفوسهم، أو على الأقل زاد شكهم فى العقائد الإسماعيلية[٣]. وهنا نلاحظ أنه وإن كان المصريون قد

---

(١) اتعاظ الحنفا، جـ٢ ص ٦٩.

(٢) اتعاظ الحنفا، جـ٢ ص ٩٨.

(٣) محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية (القاهرة ١٩٥٩م)، ص ٤٠.

راقهم ما فى المذهب الشيعى من دعوة للعدالة والمساواة، فإنهم لم يقبلوا فكرة تقديس الأئمة وعصمة الإمام، وهى الفكرة التى كانت تضفى عليه نوعا من القدسية الإلهية رفضها المصريون من قبل فيما يتعلق بألوهية فرعون أو الأباطرة الرومان فيما بعد، وكان المصريون يسخرون كثيراً من هذا الجانب فى المذهب الشيعى[1]. فعلى سبيل المثال صعد الخليفة العزيز بالله ذات يوم جمعة، فوجد ورقة كتب فيها[2]:

بالظلم والجوْر قد رضينا وليس بالفكر والحماقة

إن كنت أعْطيت علم الغيب فقل لنا من كاتب البطاقة

وعلى الرغم من تعصب الفاطميين للمذهب الإسماعيلى ومحاولتهم نشرة بشتى الطرق، فإنهم كانوا لايصادرون أهل السنة فى إقامة شعائرهم الدينية وفق مذاهبهم، اكتسابا لودهم. فظهرت فى أيامهم مذاهب الأئمة مالك والشافعى وابن حنبل، أما مذهب الإمام أبى حنيفة، فقد منع العمل به لأنه كان مذهب منافسيهم من العباسيين.

ومهما يكن من أمر، فقد ظهر فى عصر الفاطميين بعض علماء مذاهب أهل السنة، وكانوا يلقون دروسهم على جمهور المستمعين، فمن فقهاء المالكية محمد بن سليمان أبو بكر النعالى المتوفى سنة ٣٨٠هـ(٩٩٠م)، وكانت حلقته فى جامع عمرو بن العاص تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها، وعظم شأنه، وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر[3]. ومنهم أيضا أبو القاسم الجوهرى عبد الرحمن بن عبد اللة الغافقى المصرى صاحب مسند الموطأ والمتوفى سنة ٣٨٠هـ[4]، وكذلك على بن الحسن بن محمد الفهرى، وهو من أهل مصر، وقد ألف فى فضائل مالك[5].

ومن فقهاء الشافعية فى العصر الفاطمى أبو الحسن على بن الحسين الموصلى، ولد بمصر سنة ٤٠٥هـ(١٠١٤م). وكان فقيها صالحا، وأعلى أهل مصر إسنادا، وتوفى سنة

(١) الطاهر عبد الحكيم: الشخصية الوطنية المصرية، ص ٩٨ ـ ٩٩.
(٢) وفيات الأعيان، جـ٥ ص ٣٧٣؛ النجوم الزاهرة، جـ٤ ص ١١٦.
(٣) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٤٥١.
(٤) محمد حمدى المناوى: الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى، ص ١١١.
(٥) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٤٥٢.

٤٩٢هـ(١٠٩٩م)[١]، ومنهم أيضاً أبو الفتح سلطان بن إبراهيم القدسى، ولد بالقدس سنة ٤٤٢هـ(١٠٥٠م)، وتفقه على الشيخ نصر القدسى، ثم جاء إلى مصر، وتوفى بها سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م)، وقد قال عنة الحافظ السلفى: «كان من أفقه الفقهاء بمصر، وعليه قرأ أكثرهم»[٢].

وشهد العصر الفاطمى الكثير من الزهاد الصالحين والنساك الورعين، الذين خدموا التصوف خدمة جليلة، ونهضوا بالتراث المصرى الروحى، حتى ضارع ما كان فى العراق وبغداد خاصة[٣]. ومن أعلام التصوف فى هذا العصر محمد بن الحسين بن على الغزى المعروف بابن الترجمان المتوفى سنة ٤٥٨هـ(١٠٦٦م)،وقد لقب شيخ الصوفية فى مصر، ولم نجد أحداً سبقه قد ذكر هذا اللقب له، مما لعله نظام جديد اتبع فى مصر، وهو اختيار شيخ للصوفية، كما كان متبعا فى العراق مثلا انتخاب نقيب للهاشميين[٤]. وكذلك محمد بن الوليد أبو بكر الطرطوشى الأندلسى نزيل الإسكندرية، المتوفى سنة ٥٢٠هـ(١١٢٦م)، «وكان عالماً زاهداً، ورعاً ديناً، متواضعاً متقشفاً، متقللاً من الدنيا راضياً باليسير»[٥].

الحياة الأدبية والعلمية:

وفى عصر الفاطميين، مر الأدب المصرى بأزهى عصوره، ومن أهم الأسباب التى أدت إلى ازدهار وتشجيع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم الأدب والأدباء بالعطايا، فى الوقت الذى عجزت الخلافة العباسية عن ذلك، ومنها أيضا الأعياد التى كان يعنى بها الفاطميون فى شئ كثير من الأبهة والعظمة، سواء منها الأعياد الإسلامية والأعياد المسيحية، وعلاوة على ذلك فإن المذهب الإسماعيلى الذى أتت بة الدولة الفاطمية إلى مصر جعلها تحرص على

---

(١) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٤٠٤.
(٢) حسن المحاضرة، جـ١ ص ص٤٠٥.
(٣) محمد عبد المنعم خفاجى:التراث الروحى للتصوف الإسلامى فى مصر، ص ٩٠.
(٤) المرجع السابق، ص ٦١.
(٥) النجوم الزاهرة، جـ٥ ص ٢٣١.

نشرة بتشجيع الشعراء والكتاب وأصحاب الأقلام.[1] وقد نجح الفاطميون فى جعل مصر كعبة العلوم والفنون، ومركز إشعاع جذب إلية الكثير من العلماء والأدباء والشعراء.

أما عن شعراء العصر الفاطمى، فنذكر منهم طلائع بن رزيك الملقب الملك الصالح وزير مصر المتوفى سنة ٥٥٦هـ (١١٦١م)، وكان شاعراً عظيماً، وقال عنه ابن خلكان: «وكان فاضلا سمحاً فى العطاء سهلا فى اللقاء ومحبا لأهل الفضائل جيد الشعر، وقفت على ديوان شعره وهو فى جزأين[2]. وقد اتهم ابن رزيك بأنه كان يستعين بشعراء كبار فى تنقيح شعره، بل قيل إن شعره من نظم المهذب بن الزبير. ومنهم أيضا القاضى الجليس أبو المعالى بن الحباب التميمى المتوفى سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م)، كان أوحد عصره فى مصر نظما ونثرا، وترسلا، ودعى بالجليس لكثرة مجالسته للخلفاء الفاطميين ومدحه إياهم[3].

وقد أنجبت أسوان فى العصر الفاطمى شاعرين أخوين عظيمين، هما الحسن بن على بن إبراهيم الأسوانى المعروف بالقاضى المهذب المتوفى عام ٥٦١هـ، وأحمد بن على بن إبراهيم الأسوانى المعروف بالرشيد المتوفى سنة ٥٦٣هـ (١١٦٨م)، رحلا من أسوان إلى القاهرة، ومازالا يرتقيان فى مناصب الدولة حتى بلغا مرتبة القضاء وجالسا الوزراء والأمراء؛ ويصف العماد الأصفهانى شعر المهذب قائلا: «محكم الشعر كالبناء المشيد، وهو أشعر من أخيه، وأعرف بصناعته وأحكام معانيه، لم يكن فى زمانه أشعر منه أحد وله شعر كثير، ومحل فى الفضل أثير»[4].

ويلاحظ أن النثر فى العصر الفاطمى لم يبق منه إلا القليل، مثل بعض الكتب الرسمية التى ذكرها القلشندى فى كتابه صبح الأعشى، فضلا عن مجموعة «رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته»، وقد كتبها بعض الدعاة تحت إشراف الخليفة الحاكم نفسه. وتدل هذه البقايا المتناثرة من النثر الفنى على تقدمه، وميله إلى الزينة، واستخدامه المحسنات اللفظية والسجع[5].

---

(١) عبد اللطيف حمزة: الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجىء الحملة الفرنسية، ص ٥٧.
(٢) وفيات الأعيان، جـ٢ ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧.
(٣) النجوم الزاهرة، جـ٥ ص ٥٦١.
(٤) أنظر أسوان فى العصور الوسطى، ص ١٧١ ـ ١٨٤.
(٥) سعيد عاشور: مصر فى العصور الوسطى، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

تفوقت الحركة العلمية في العصر الفاطمي على مثيلتها في العصرين الطولوني والإخشيدي، وأسهم بعض العلماء في الدراسات الفلكية والرياضية والطبية. فأنشئت المراصد لتتبع سير الكواكب والوقوف على حركتها، وكان المعز لدين الله مولعا بالتنجيم، وشاء الحاكم بأمر الله نفسه أن يكون منجما فلكيا. ومن أبرز كبار الفلكيين أبو الحسن على بن يونس المصرى المتوفى سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٩م)، وقد عرف الفاطميون قدره وقدروا علمه ونبوغه، فشجعوه على متابعة بحوثه في الفلك والرياضيات، وبنوا له مرصداً على جبل المقطم قرب الفسطاط وجهزوه بكل ما يلزم من الآلات والأدوات؛ ووضع ابن يونس جداول فلكية من أدق ما عرف في عصره، وهي المشهورة باسم «الزيج الحاكمي الكبير»، نسبة إلى الحاكم بأمر الله، أو «زيج ابن يونس»[1].

ومن أكبر علماء المسلمين في الطبيعة والرياضيات والفلك، أبو على الحسن بن الهيثم المتوفى سنة ٤٣٠هـ (١٠٣٨م). وقد نشأ ابن الهيثم بالبصرة، وذاع صيته، فأخذ عنه الناس. فلما بلغ الخليفة الحاكم بأمر خبر تفوقه في العلوم الرياضية والهندسية، استدعاه إلى مصر، وقد وضع في القاهرة أدق نظرياته في البصريات، وهاله طغيان فيضان النيل على المدن والقرى، وأراد أن يعدل مجراه ويحمى مصر من أخطاره، فطالبه الحاكم تنفيذ هذه الفكرة. فسافر ابن الهيثم مع جماعة من الصناع إلى الموضع المعروف بالجنادل جنوبي أسوان، ولكنه وجد الأمر لايتفق مع فكرته التي خطرت له، فعاد إلى القاهرة[2].

وفي العصر الفاطمي ظهر أطباء مصريون، منهم على بن رضوان المتوفى سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٨)، الذي اتصل بابن بطلان الطبيب البغدادي المسيحي، ودار بينهما حوار، فكان إذا ألف أحدهما كتابا أو ابتدع رأيا رد عليه الآخر. وقد سافر ابن بطلان إلى مصر ليرى محاوره، وأقام بها ثلاث سنوات استمرت خلالها المناظرات بينهما، ثم رحل ابن بطلان من مصر مغضبا على ابن رضوان، وقصد أنطاكية حيث نزل بأحد أديرتها وظل بها

---

(١) وفيات الأعيان، جـ٣ ص ٤٢٩؛ المقفى، جـ٢ ص ٧٩؛ حسن المحاضرة، جـ١ ص ٥٣٩؛ قدرى حافظ طوقان: العلوم عند العرب (القاهرة ١٩٥٦)، ص ١٤٣.

(٢) إبراهيم مدكور: «الحياة الثقافية بين القاهرة وبغداد»، جـ١ ص ٥٩؛ جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

إلى أن توفى وقد ألف على بن رضوان كثيراً من الكتب فى الطب، تدل على سعة فكره وتعمقه، وكان مجدداً فى صناعته، فلم يعمد فى مؤلفاته إل نقل وشرح كتب من كان قبله من الأطباء، بل كانت له إبداعاته الخصبة، وقد اتخذه العزيز بالله الفاطمى طبيبا له، وأصبح بفضل اجتهاده رئيس الأطباء فى بلاط الحاكم بأمر الله[1]. ومن الأطباء المصريين الذين نبغوا خمسة من الخلفاء هم الآمر والحافظ والظاهر والفائز والعاضد آخر الخلفاء الفاطميين، «ولم يزل الشيخ السيد رئيسا على سائر المتطببين إلى حين وفاته بالقاهرة سنة ٥٩٢هـ (١١٩٦م)[2].

وكان للفاطميين ولع شديد بالكتب، بجمعونها فى خزائن منظمة، أعظمها القصر الفاطمى، وقد اختلف المؤرخون فى عدد الكتب التى احتوتها، والتى كانت تتناول ألوان الثقافة المختلفة فى ذلك العصر؛ وقد قسمت هذه الكتب ووضع لها فهرس منظم، وألصق عل باب كل خزانة ورقة مترجمة عما فيها من الكتب، ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت فى العصر الفاطمى[3]. ولكن هذه المكتبة التى تعب الفاطميون فى جمعها، لقيت شر مصير على يد صلاح الدين الأيوبى فيما بعد، فباعها بأرخص الأثمان، وفى ذلك يقول المقريزى[4]: «ووجد من الكتب النفيسة ما لايعد، ويقال إنها كانت ألف ألف (مليون) وسبعمائة ألف كتاب، منها مائة ألف بخط منسوب (أى بخط كبار الكتاب المعروفين)، وألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى، فباع السلطان (صلاح الدين الأيوبى) جميع ذلك، وقام البيع فيها عشر سنين».

وتعتبر دار الحكمة أحد مصادر الثقافة الرفيعة التى شهدتها مصر فى العصر الفاطمى. وقد أطلق عليها هذه التسمية رمزاً إلى الدعوة الشيعية، لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة[5]. وقد أنشأها الحاكم بأم الله سنة ٣٩٥هـ (١٠٠٥م)، وعين لها

---

(١) إبراهيم مدكور: المرجع السابق، ص ٥٩؛ جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ٢٤٤.
(٢) أحمد أحمد بدوى: الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية، ص ٣١٩.
(٣) المرجع السابق، ص ٨٢ ـ ٨٣.
(٤) إتعاظ الحنفا، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد (القاهرة١٩٧٣)، جـ٣ ص ٣٣١.
(٥) جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، ص ٢٣٤.

جماعة من الفقهاء والقراء والنحويين ورجال الحديث والأدب واللغة ،علماء الفلك والطب والرياضة والمنطق والفلاسفة، وأجريت عليهم الأرزاق الواسعة، وجهزت الدار بمكتبة ضخمة، نقلت إليها الكتب فى سائر العلوم والآداب من خزائن القصر الفاطمى، وأودعت بها كتب الشيعة، كما زودت بما يحتاجه المترددون عليها من الحبر والأقلام والورق والمحابر، وحبس الحاكم أوقافا للصرف عليها، وفتحت الدار أبوابها لجميع الناس على اختلاف طبقاتهم[1]. وقد اختلفت مناهج التعليم فى هذه الدار عن مناهج التعليم بالمساجد فى العصر الفاطمى، إذ كانت تغلب عليها الصفة العلمية، بينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية[2]. وإلى جانب ذلك، كانت الدار بمثابة جامعة علمية تقام فيها المناظرات والندوات العلمية والدينية بين علمائها، وكان الحاكم بأمر الله يشرف على هذه المناظرات ويباشرها بنفسه، ثم ينعم على جميع المتناظرين، وبهذا كانت دار الحكمة أكاديمية علمية بمعنى الكلمة[3].

كتابة التاريخ:

شهدت مصر فى عصر الفاطميين نخبة من المؤرخين أسهمت بنصيب وافر فى الحياة الفكرية. وممن نبغ من المؤرخين فى هذا العصر أبو الحسين على الشابشتى المتوفى سنة ٣٨٨هـ (٩٨٨م)، وقد تعلق بخدمة العزيز بالله الفاطمى، فولاه خزانة كتبه، واتخذه من جلسائه وندمائه يقرأ له الكتب، «وكان حلو المحاورة، لطيف المعاشرة»، وله كتاب «الديارات»، ذكر فيه كل دير بالعراق والموصل والشام والجزيرة ومصر، وما قيل فيها من أشعار وأحداث[4]. كما نبغ الأمير المختار عز الملك محمد المعروف بالمسبحى المتوفى سنة ٤٢٠هـ وشغل فى عهده بعض المناصب الإدارية، فتقلد القيس والبهنسا من أعمال الصعيد، ثم تولى ديوان الترتيب، وألف عددا من الكتب أشهرها كتابه «أخبار مصر وفضائلها» الذى لم يبق منه إلا جزءاً واحداً هو الجزء الرابع، وكتاب «التاريخ الكبير»، ولم

---

(١) أحمد بدوى: الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية، ص ٢٧.

(٢) جمال الدين سرور: المرجع السابق، ص ٢٣٤.

(٣) مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ٢٩١.

(٤) وفات الأعيان، جـ٣ ص ٣١٩.

يبق منه إلا فقرات متفرقة فى كتب التاريخ، والجزء الأربعون المخطوط بمكتبة الإسكوريال بأسبانيا، وقد نقل عن المسبحى المقريزى وأبو المحاسن والسخاوى والسيوطى وغيرهم.

ومن أشهر مؤرخى هذا العصر أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤هـ (١٠٦٢م)، وكان من أعلام الفقه الشافعى، وتولى القضاء، وأوفده الخليفة المستنصر بالله الفاطمى سفيراً إلى الإمبراطورة البيزنطية تيودورا سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م)، ليحاول عقد الصلح بينهما، ولكنه لم ينجح فى سفارته[١]. وقد ألف القضاعى عدة كتب فى الفقه والتاريخ، منها كتاب «مناقب الإمام الشافعى وأخباره»، وكتاب فى خطط مصر سماه «المختار فى ذكر الخطط والآثار»[٢]. كذلك على بن منجب الصيرفى المتوفى سنة ٥٤٢هـ (١٠٥٠م)، وقد اشتهر بالشعر وجمال الخط، واستخدمه الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فى ديوان المكاتبات سنة ٤٩٥هـ (١١٠١م)، وتولى ديوان الرسائل للخليفة الآمر بأحكام الله، وظل فيه إلى سنة ٥٣٦هـ (١١٤١م). وله عدة كتب فى الأدب والتاريخ، منها كتاب «قانون ديوان الرسائل»، وقد نقل عن ابن سعيد فى مؤلفه «المغرب فى حلى المغرب» كثيراً من أخبار الطولونيين والإخشيديين والفاطميين، ومن أشهر كتبه كتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة» الذى أمدنا بقدر طيب من تاريخ الفاطميين، ولايزال الكتاب باقيا إلى اليوم[٣].

وصفوة القول، إن الدولة الفاطمية بلغت شأواً بعيداً فى الحضارة، بدليل ما خلفته من آثار باقية على مر الزمن تشهد لها بالعظمة والرقى. ولاشك أن مصر بمركزها الفريد فى وسط العالم الإسلامى، وثرواتها المادية الوفيرة، كانت الأساس المتين الذى أقام عليه الفاطميون حضارتهم ونشروها على نطاق واسع.

---

(١) وفيات الأعيان، ج١ ص ٤١؛ النجوم الزاهرة، جـ٤ ص ٣٧٧؛ جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١، محمد عبد الله عنان: مؤرخو مصر الإسلامية، ص ٥٣ ـ ٥٤؛

Arberry, op. cit., p. 357.

(٢) وفيات الأعيان، جـ٤ ص ٢١٢؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨٠؛ أحمد بدوى: الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية، ص ٢٦٩.

الفصل السادس

الدولة الأيوبية فى مصر

(٥٦٩ ـ ٦٤٨هـ ١١٧٤ ـ ١٢٥٠م)

ـ ظهور الأسرة الأيوبية.
ـ قيام الدولة الأيوبية فى مصر.
ـ موقف نور الدين من صلاح الدين.
ـ توحيد الجبهة الإسلامية فى مصر والشام والعراق.
ـ صلاح الدين والصليبيون.
ـ الحملة الصليبية الثالثة.
ـ الأيوبيون بعد صلاح الدين.
ـ الحملة الصليبية الخامسة.
ـ الحملة الصليبية السابعة على مصر.
ـ بعد مظاهر الحضارة فى مصر زمن الأيوبيين.
الحياة الدينية.
الحياة الأدبية والعلمية.
الجيش والأسطول.
الحياة الاقتصادية.

جاءت الدولة الأيوبية فى مصر من الناحية الزمنية بين دولتين هما الدولة الفاطمية والدولة المملوكية. ولكن الدولة الأيوبية أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التى أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها، إذ ولدت الدولة الأيوبية فى وقت كان الصليبيون ببلاد الشام أشد ما يكونون قوة وعنفا، حتى هدد خطرهم بابتلاع البلدان العربية ليس فى الشام فحسب، بل أيضا فى مصر والحجاز[1].

ظهور الأسرة الأيوبية:

من دراسة موطن الأيوبيين الأصلى ونشأتهم الأولى، يتبين لنا أنهم أكراد الأصل والجنس. فأسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب وهو الأكبر، إبنا شاذى من بلد دوين، وهى من آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس، وجميع أهل ذلك البلد من الأكراد الروادية، أحد بطون الهذبانية[2]. وقد حاول بعض الأيوبيين الإبتعاد عن الأصل الكردى الالتصاق بالدم العربى من ناحية، والارتباط بأصحاب الأمجاد العالمية من ناحية أخرى. ولكن المقريزى حسم الموضوع عندما علق عليه بقوله: «إنما هى أقوال الفقهاء لهم، ممن أرادوا الحظوة لديهم لما صار الملك إليهم». وعلى أية حال، فإن الأيوبيين ليسوا عرباً بالدم والجنس والأصل، بل هم عرب باللغة والحضارة والتاريخ والأحاسيس والإسلام.

وليس من المعروف التاريخ الذى انتقلت فيه الأسرة الأيوبية من موطنها الأصلى دوين، وإن كان البعض يرى أن شاذيا كان له صديق فى تلك البلدة اسمه مجاهد الدين بهروز، تولى شحنة العراق من قبل السلطان السلجوقى، ومنحه قلعة تكريت[3] إقطاعاً له، فجعل بهروز صديقه شاذى حاكما على تلك القلعة، واستمر شاذى فى وظيفته حتى توفى، فرأى بهروزفى ابنه نجم الدين «عقلا ورأياً حسنا وحسن سيرة»، فولاه مكان أبيه[4].

---

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام (القاهرة ١٩٧٠)، ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(٢) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ القسم الأول، ص ٤٢.

(٣) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهى إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخا (ياقوت الحموى: معجم البلدان).

(٤) أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جـ١ ص ١٧؛ وفيات الأعيان، جـ٧ ص ١٤١ ـ ١٤٢؛ النجوم الزاهرة، جـ٦ ص ٣ ـ ٤؛ محمود الحويرى: العادل الأيوبى (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٨ ـ ٩.

ثم شاءت الصدفة التاريخية أن تجمع بين عماد الدين زنكى صاحب الموصل والأخوين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوة، وقد وقعت هذة الصدفة سنة ٥٢٦هـ (١١٣١م)، عندما هاجم عماد الدين زنكى أتابك الموصل مدينة بغداد، مظاهراً للسلطان مسعود السلجوقى ضد الخليفة العباسى المسترشد بالله، بيد أنه لقى الهزيمة، واضطر إلى التقهقر فوصل تكريت، وهناك لقيه حاكمها نجم الدين أيوب بترحاب،وساعده فى عبور نهر دجلة بأن قدم له السفن[١]. ويقول المؤرخ ابن واصل: «وكان هذا أول المعرفة بين عماد الدين زنكى وبين نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه، ومبدأ سعادتهما، ولكل شىء سبب!». ثم شاءت الظروف أن تحمل أيوبا وأخاه أسد الدين شيركوه على ترك قلعة تكريت، والتوجه إلى عماد الدين زنكى بالموصل، حيث رحب بهما، رداً لجميلهما القديم، وانخرطا فى سلك جنده؛ ويبدو أنهما بذلا جهداً فى حروب عماد الدين زنكى، بدليل أنه ما كاد يستولى على حصن بعلبك، حتى أسند قيادته إلى نجم الدين[٢]. وعندما سقط عماد الدين زنكى قتيلا فى سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م)، خلفه ولداه نور الدين محمود فى حلب، وسيف الدين غازى فى الموصل، وصار شيركوه فى خدمة نور الدين الذى قربه إليه، لما عرف عنه من شجاعة وإقدام وجرأة فى الحروب ضد الصليبيين[٣].

قيام الدولة الأيوبية فى مصر:

رأينا أن الخلافة الفاطمية فى القرن السادس الهجرى (النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى) وصلت إلى مرحلة بالغة الضعف. فالخلفاء الأواخر أصبحوا ألعوبة فى أيدى الوزراء، وأدى التنافس بين أولئك الوزراء إلى استعانة بعضهم بمملكة بيت المقدس الصليبية، على حين استنجد البعض الآخر بقوة نور الدين محمود فى الشام. ولاشك أن كلا من الصليبيين فى بيت المقدس، ونور الدين محمود فى الشام، قد أدرك أن القوة التى ستظفر بمصر سيكون لها الغلبة، نظراً لما تتمتع به مصر من ثروات مادية وبشرية من ناحية،

---

(١) وفيات الأعيان، جـ٧ ص ١٤٣؛ الروضتين، جـ١ ص ١٧؛ النجوم الزاهرة، جـ٦ ص ٤.

(٢) مفرج الكروب، جـ١ ص ٨ ــ ٩.

(٣) النجوم الزاهرة، جـ٦ ص ٥.

وموقع جغرافى استراتيجى ممتاز من ناحية أخرى، تستطيع أن تقلب ميزان القوى فى الشرق الأدنى.

وهنا نلاحظ أن الملوك الأوائل لمملكة بيت المقدس الصليبية، وضعوا نصب أعينهم ضرورة الاستيلاء على مصر، فجودفرى دى بوايون - أول حكام بين المقدس - وضع خطة للاستيلاء على مصر، ولكنه مات سنة ١١٠٠م قبل أن يبدأ فى تنفيذها(١). وفى سنة ١١١٨م قاد بلدوين الأول مملكة بيت المقدس حملة لمهاجمة مصر، وصلت إلى الفرما (بيلوزيوم) جنوب شرقى بورسعيد الحالية، وبعد أن قام بنهبها، واصل زحفه إلى تنيس على شاطىء بحيرة المنزلة، حيث مرض، وتوفى أثناء عودته سنة ٥١٢هـ (١١٨م)، فشق الصليبيون بطنه وصبروه - أى حنطوه - ورموا أحشاءه فى المكان الذى نسب إليه، وصار يعرف بسبخة البردويل قرب بورسعيد الحالية(٢). ومما يذكر أن المصادر الصليبية قد أشارت إلى أن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٤ - ١١٦٣م)، قد هدد بالزحف على مصر فى سنة ١١٦٠م، منتهزاً فرصة الفوضى التى انتشرت بها عقب وفاة الخليفة الفائز الفاطمى سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م)، ولكن الدولة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن عزمه مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار، وإن كانت هذه الجزية لم يجر دفعها مطلقا(٣).

وفى وسط المصاعب التى غرست بأنيابها فى الدولة الفاطمية، جرت أحداث عجلت بانهيارها، وجعلت كلا من نور الدين والصليبيين يتسابقان من أجل الاستيلاء على مصر. فقد حدث أن لقى الخليفة الظافر لدين الله مصرعه فى سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤)، وأقيم بدلا

---

(١) سعيد عاشور: «شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية»، مقالة فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى، (بيروت ١٩٧٧)، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(2) William of Tyre, A Hist. of Deeds done beyond the sea, Vol. I, pp. 315-316' Grousset, Histoire des Crosade., Vol. I, p. 2w84.

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العرينى، (بيروت ١٩٦٧ - ١٩٦٩)، جـ٢ ص ٥٩٢؛ الباز العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص ٦٦١ - ٦٦٢؛ سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٢٠٤.

منه في الخلافة ابنه الفائز الذى كان طفلا فى الرابعة من عمره، فاستبد بالأمور فى مصر الوزير طلائع بن رزيك، وهو من أصل أرمني. ولم يزل طلائع صاحب السلطةالفعلية فى مصر، حتى توفى الخليفة الفائز وهو فى الحادية عشرة من عمره، فأقام طلائع فى الخلافة العاضد ابن عم الفائز، الذى لم يتجاوز التاسعة من عمره، وزوجه ابنته ليبقى على زمام الأمور في يده. ولما ثقلت وطأة طلائع على الخليفة العاضد، حنق عليه نساء القصر، وأعقب ذلك أن تآمرت عليه إحدى عمات الخليفة، فرتبت له من قتله فى رمضان سنة ٥٥٦هـ (١١٦١م)(١)، وخلفه فى الوزارة ابنه العادل، حتى قتله شاور بين مجير السعدى حاكم قوص عاصمة الصعيد آنذاك، وحل محله فى الوزارة سنة ٥٥٨هـ (١١٦٣م). على أن شاور لم يلبث هو الآخر أن استبد بالحكم وأساء السيرة، وعامل الخليفة العاضد معاملة سيئة، فخرج عليه ضرغام بن عامر قائد إحدى فرق الجند، وتمكن من إيقاع الهزيمة به، فأسرع شاور إلى الفرار، متخذاً طريقه إلى الشام فى رمضان ٥٥٨هـ (أغسطس ١١٦٣)، للاستنجاد بنور الدين محمود، «فأكرم مثواه، وأحسن إليه، وأنعم عليه»(٢).

ومهما يكن من أمر، فقد استغل عمورى الأول - أو أملريك - ملك بيت المقدس الصليبى (١١٦٣ ١١٧٤م) فرصة تدهور الأوضاع الداخلية فى مصر الفاطمية وقام بتجهيز حملة للاستيلاء على مصر، وقد تذرع بأن الدولة الفاطمية لم تدفع الجزية التى وعدت بها أخاه بلدوين الثالث. ثم سار عمورى على رأس جيوشه إلى العريش فى ذى القعدة سنة ٥٥٨هـ (سبتمبر ١١٦٣)، دون أن تصادفه أية مقاومة، حتى بلغ بلبيس فى محافظة الشرقية، وضيق عليها الخناق، حتى كادت أن تسقط فى يده، لولا أن ضرغام استغل فيضان النيل، فعمد إلى قطع السدود، فساح الماء وأغرق الأرض، الأمر الذى أرغم عمورى على الإنسحاب والعودة إلى فلسطين(٣).

علم نور الدين محمود بأخبار الغزوة الفاشلة التى قام بها عمورى الأول ضد مصر،وخشى أن تتكرر المحاولة الصليبية مرة أخرى، فتضيع مشاريعه الرامية إلى توحيد الجبهة

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٥ ص ٣١٣ - ٣١٥.

(٢) اتعاظ الحنفا، جـ٣ ص ٢٦٠ - ص٣٦٤.

(3) William of Tyre, II, pp. 302 - 303' Schlumberger (G.), Compagnes du Roi Amaury Ier de Jenusalem en Egypte (Paris, 1906), pp. 38-43.

الإسلامية ضد الصليبيين. ولذلك قرر نور الدين إرسال حملة عسكرية إلى مصر، لإعادة الوزير الفاطمي المخلوع شاور، وحماية مصر من السقوط في أيدى الصليبيين. وهنا بادر ضرغام بالاستنجاد بالصليبيين أعداء نور الدين، وعقد معهم معاهدة تصير مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين.

وكان أن خرج شيركوه على رأس حملته الأولى صوب مصر فى سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م)، يصحبه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذى كان يناهز السابعة والعشرين من عمره، ونجح شيركوه فى الوصول إلى القاهرة، وتحت أسوارها اشتبك فى معركة عنيفة مع ضرغام، انتهت بهزيمة ضرغام بعد أن تخلى عنه جميع أعوانه، ولقى مصرعه فى رجب سنة ٥٥٩هـ (يونيو ١١٦٤)، ودخل شاور منتصراً، وأعيد إلى منصبه فى الوزارة[١].

على أن الغدر كان يجرى فى دماء شاور، إذ لم يكد ينجح فى التخلص من منافسه ضرغام بفضل المساعدة التى قدمها له نور الدين، حتى أساء معاملة الناس، ولم يف بما وعد به نور الدين، بل طلب من شيركوه الخروج من مصر، فامتنع شيركوه ورد على موقف شاور بالاستيلاد على إقليم الشرقية. وهنا اندفع شاور كسلفه ضرغام يطلب المعونة من عمورى الأول ملك بيت المقدس، وعرض عليه مبلغاً ضخماً من المال مقابل إخراج شيركوه من مصر[٢]. وأسرع عمورى بالحضور إلى مصر على رأس قواته للمرة الثالثة فى رمضان ٥٥٩هـ (أغسطس ١١٦٤)، وفور وصوله اتصل بشاور، وقاما بفرض حصار على شيركوه فى بلبيس بمحافظة الشرقية، وبعد حصار دام حوالى ثلاثة شهور، تم الاتفاق بين شيركوه وعمورى على مغادرة مصر، بعد أن اتضح لشيركوه أن الموقف لم يعد فى صالحه، أما عمورى الأول، فقد حرص على الانسحاب من مصر، لأن نور الدين انتهز فرصة تغيبه وشدد هجماته على المعاقل الصليبية بالشام[٣]. وعلى الرغم من انسحاب شيركوه

---

(١) مفرج الكروب، جـ١ صص ١٣٨ - ١٣٩؛ النجوم الزاهرة، جـ٥ ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

(2) Schlumberger, op. cit., pp. 59-60; Newby, Saladin., p. 46.

(٣)الروضتين، جـ١ ص ٣٣٥ - ٣٣٧؛ اتعاظ الحنفا،جـ٣ ص ٢٧٤ - ٢٧٥؛

Stevenson (W.B), The Crusandes in the East. (Cambridge, 1907), p. 47.

والصليبيين من مصر، إلا أن الفريقين وقفا على مدى ما وصلته مصر من ضعف وفوضى.

وقد انتهز شاور فرصة خروج أسد الدين شيركوه وعمورى الأول من مصر، وانبرى على عادته بظلم ويصادر أموال الناس، بحيث لم يبق للخليفة الفاطمى العاضد معه أى نفوذ. ولما ثقلت وطأة شاور على العاضد، كتب الأخير إلى نور الدين محمود «يستنجد على شاور، وأنه قد استبد بالأمر وظلم وسفك الدماء»[1].

خرج شيركوه إلى مصر على رأس حملته الثانية فى ربيع الأول سنة ٥٦٢هـ (١ يناير ١١٦٧)، ومعه ابن أخيه صلاح الدين، وقد اتخذ الطريق البرى بعيداً عن الطريق الصليبى، حتى لايصدم بالصليبيين، ومضى فى طريقه إلى الدلتا، ولكنه لم يتوجه إلى القاهرة بعد أن علم أن الصليبيين وشاور قد عسكرا بها، واضطر إلى السير جنوبا إلى إطفيح الواقعة على بعد حوالى أربعين ميلا جنوبى القاهرة ومن هناك عبر النيل، وسار حتى بلغ الجيزة، فعسكر فيها قبالة الفسطاط[2]. والواقع أنه لم تكد الأخبار تصل إلى شاور بقدوم شيركوه إلى مصر، حتى رأى أن يستنجد بالصليبيين للمرة الثانية طالبا العون، فوافقوا على تحقيق مطلبه خشية أن تقع مصر فى حوزة نور الدين. وأسرع عمورى إلى الخروج بقواته من عسقلان فى ٧ ربيع الثانى ٥٦٢هـ (٣٠ يناير ١١٦٧)، وعندما وصل إلى مصر استقبله شاور، واستقر الأمر بينهما على أن يؤدى شاور له أربعمائة ألف دينار مقابل طرد شيركوه من مصر، على أن يعجل بدفع نصف هذا المبلغ، ويؤجل دفع النصف الآخر[3].

ولم تلبث أن اجتازت قوات شاور والصليبيين النيل إلى الضفة الغربية ليوقعا بشيركوه وقواته، فما كان من شيركوه إلا أن اندفع جنوبا إلى الصعيد، حيث لحق به شاور وعمورى بالقرب من الأشمونين (مركز ملوى بمحافظة المنيا) فى موضع يعرف بالبابين، حيث دارت معركة فى ٢٥ جمادى الآخرة ٥٦٢هـ (١٨ مارس ١١٦٧)، انتهت بانتصار

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٥ ص ٣٤٨.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات (القاهرة ١٩٦٣)، ص ٢ ص١٣؛ الروضتين، جـ١ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

(3) William of Tyre. II. pp. 318-319.

شيركوه على شاور وحلفائه الصليبيين، وارتدادهم إلى القاهرة[١]. وكان بوسع شيركوه أن يستولى على القاهرة، لو أنه تعقب أعداءه، بيد أنه لم يشأ ذلك، فقد كان لايشك فى أن الملك الصليبى سيأخذ طريقه إلى بيت المقدس بعد الهزيمة التى لحقت به، وتوجه رأسا إلى الإسكندرية، فتلقاه أهلها طائعين مرحبين به، وسلموها إليه بسهولة[٢]، لميلهم إلى مذهب السنة من ناحية، وتأييدهم له ضد شاور الذى تحالف مع الصليبيين أعداء المسلمين من ناحية أخرى.

لم يطل شيركوه البقاء فى الإسكندرية، خشية أن يقوم شاور والصليبيون بفرض حصار عليها، ولهذا ترك عليها ابن أخيه صلاح الدين ترافقه قوة صغيرة، أما هو فقد اتجه مرة أخرى صوب الصعيد وأوغل فيه، وسيطر عليه، وتمكن من الحصول على أموال وفيرة من الأهالى تقوى بها. وقد حدث ما كان يتوقعه شيركوه، إذ اتجه شاور وعمورى إلى الإسكندرية وضيقا عليها الحصار من البر والبحر حوالى ثلاثة شهور، ساء فيها موقف صلاح الدين وقاست المدينة حتى قلت الأقوات بها. وعندما تحرج موقف صلاح الدين أرسل لعمه بالصعيد يشرح له سوء موقفه ويطلب منه النجدة العاجلة، فعاد شيركوه مسرعاً إلى الإسكندرية لنجدة ابن أخية[٣]. ويبدو أن الأمور لم تجر كما كان يأمل شيركوة، وعلى هذا لم يعد أمامه إلا التفاوض على الصلح مع عمورى، الذى بادله الرغبة فى ذلك، خاصة بعد أن ساء موقف الصليبين ببلاد الشام آنذاك تحت ضغط هجمات نور الدين محمود[٤]. واستقر الأمر على أن يترك الطرفان مصر. على أن عمورى لم يغادر القاهرة بجيوشه إلا بعد أن عقد اتفاقا مع شاور، تعهد الأخير بمقتضاه أن يكون للصليبيين شحنة (حامية)، وأن

---

(١) مفرج الكروب، جـ١ ص ١٥١؛ الروضتين، جـ١ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(٢) حسين مؤنس: نورالدين محمود، ص ٣٠١.

(٣) مفرج الكروب، جـ١ ص ١٥١؛ الروضتين، جـ١ ص ٣٦٥ص ـ ٣٦٦؛

William of Tyre, II, pp. 334-338.

(4) Stevenson, The Crusades in the East, p. 191; Newby, Saladin., p. 50; Schlumberger op. cit.,p. 159.

تكون أبواب البلد بيد هذة الحامية، كما يكون للصليبيين من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار(١).

بعد أن انسحب شيركوه وعمورى الأول من مصر، صار كل منهما أكثر تمسكا بفكرة استحوازه على مصر، لاسيما وأن الصليبيين قد خبروا ضعفها، «واطلعوا على عوراتها»، وقد أدرك عمورى شدة حاجته إلى قوة خارجية تساعده فى الاستيلاء على مصر، فتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية، واتفقا على أن تقوم القوات الصليبية البيزنطية بغزو مصر، على أن يقتسم الإمبراطور البيزنطى والملك الصليبى كل ما يجرى الاستيلاء عليه بمصر(٢).

على أن كبار رجال الملك الصليبى وباروناته رفضوا أن يشاركهم البيزنطيون اقتسام مصر، وقد شجعهم على ذلك وصول جماعة كبيرة من الفرسان الصليبيين إلى فلسطين. وكان أن اضطر الملك الصليبى إلى الرضوخ لرأى الأغلبية، فخرج على رأسه حملته من عسقلان فى المحرم سنة ٥٦٤هـ (أكتوبر ١١٦٨)، وواصل سيره حتى وصل بلبيس، وبعد أن حاصرها ثلاثة أيام اقتحمها، فوقعت فريسة فى يده، وقتل الكثير من أهلها(٣). ثم توجه مسرعاً إلى القاهرة، وظهر أمام أسوار الفسطاط ليستولى عليها، ولكن شاور ليمنعه أمر بإحراقها فى صفر سنة ٥٦٤هـ (نوفمبر ١١٦٨). وهنا رأى عمورى صعوبة الاستيلاء على مدينة القاهرة، بعد أن رأى ما أصاب الفسطاط من خراب ودمار، فتراجع عنها بعد أن دفع له شاور مائة ألف دينار، فانسحب إلى المطرية بالقرب من القاهرة، وعسكر هناك بقواته(٤).

وكان الخليفة الفاطمى العاضد عندما رأى المصاعب تحيط ببلاده آنذاك، قد كتب إلى نور الدين يستنجد به من الغزو الصليبى، فأسرع نور الدين إلى تلبية النداء بإعدادحملة

---

(١) التاريخ الباهرة، ص ١٣٤ ؛مفرج الكروب، جـ١ ص ١٥٢ ؛ النجوم الزاهرة، جـ٥ ص ٣٤٩.

(2) William of Tyre, II, op. cit., 347-349.

(3) Willam of Tyre, II, op. cit., 350-351' Runciman, A Hist. of the Crusades, II, pp.369 - 380.

(4) Baldwin, "The Latin States", p. 556; Runciman, op., cit., pp. 381-382; Schlumberger, Campagnes du Roi Amaury Ier., p. 208.

ضخمة على رأسها شيركوه، الذى كانت الرغبة مازالت تملأ جوانحه للمسير إلى مصر، وانضم إليه فى حملته الثالثة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى. ولما وصلت الأخبار إلى عمورى الأول باقتراب شيركوه من مصر، خرج بجيشه إلى بلبيس على أمل أن يباغت قوات شيركوه وهى متعبة، غير أن شيركوه خيب ظنه بأن تسلل إلى الجنوب من موضع عمورى متجنبا الالتقاء به، حتى وصل القاهرة، فاستقبله أهلها مرحبين، وبذلك فاتت الفرصة على عمورى فى الالتقاء بشيركوه، وأحس بحرج موقفه، فاضطر إلى الجلاء عن مصر راجعاً إلى فلسطين فى ربيع الأول ٥٦٤هـ (يناير ١١٦٩)(١).

أيقن شاور أن غاية شيركوه البقاء فى مصر، وأن الأمر قد خرج من يده، ولذلك أخذ يتودد إلى شيركوه، ولكن شيركوه كان على دراية تامة بغدره وألاعيبه، وتلا ذلك أن استدرجه صلاح الدين وجماعة من الجند إلى ضريح الإمام الشافعى، وقاموا بقتله فى ١٧ ربيع الأول ٥٦٤هـ (يناير ١١٦٩)، وانتهت بذلك حياته المليئة بالخيانة. وبلغ الخليفة العاضد ما حدث لشاور، فلم ينكره، بل خلع على شيركوه خلعة الوزارة. غير أن شيركوه لم يمكث فى الوزارة إلا شهرين وخمسة أيام، إذ مات فجأة فى رجب سنة ٥٦٥هـ (مارس ١١٦٩)؛ وما كاد جسده يوارى التراب، حتى نشب النزاع بين قواد الجيش فيمن يخلفه فى المنصب، ولم يحسم الأمر سوى الخليفة العاضد، عندما أصر على اختيار صلاح الدين للوزارة لصغر سنه(٢). ومن العوامل التى رجحت كفة صلاح الدين، أن أسد الدين شيركوه ترك ضمن ما ترك خمسمائة من المماليك التابعين له، انحازوا إلى جانب صلاح الدين، بالإضافة إلى الأمراء الأكراد من الأسرة الأيوبية وخارجها، الذين مالوا بدورهم إلى تأييد صلاح الدين(٣).

على أن الصعاب كانت تهدد صلاح الدين الأيوبى منذ تقلده منصب الوزارة، فالخلافة الفاطمية لازالت موجودة يسندها الجيش الفاطمى وكبار رجال الدولة الفاطمية، وأهم من ذلك أن الخطر الصليبى لازال على مقربة من أبواب مصر الشرقية.

---

(1) William of Tyre, II, pp. 355-356.

(٢) مفرج الكروب، جـ١ ص ١٦٧ ـ ١٧٠.

(٣) الروضتين، جـ١ القسم الثانى ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩؛ على بيومى: قيام الدولة الأيوبية فى مصر (القاهرة ١٩٥٢)، ص ١٥٠.

وكانت المؤامرة التى تزعمها جوهر مؤتمن الخلافة أحد طواشية القصر الفاطمى وقائد الجند السودانيين، أولى المتاعب الحقيقية التى واجهت صلاح الدين. ذلك أن صلاح الدين عقب اعتلائه منصب الوزارة، ضايق أهل القصر، واستبد بأمور الدولة، وأضعف مركز الخلافة، فاستقر رأى المتآمرين على ضرورة التخلص منه بمكاتبة الصليبيين ودعوتهم إلى مصر، على أن تصير البلاد قسمة بينهم وبين الصليبيين. غير أن صلاح الدين مالبث أن أمسك بخيوط المؤامرة، وتمكن من قتل جوهر فى سنة ٥٦٤هـ (أواخر ١١٦٩). ونتيجة لذلك ثار الجند السودانيون تعصبا لمؤتمن الخلافة، ودارت معركة عنيفة بينهم وبين قوات صلاح الدين فى المكان المعروف ببين القصرين بالقاهرة، انتهت بهزيمتهم هزيمة ساحقة، وفرار فلولهم إلى الصعيد[1].

لم يكد صلاح الدين ينفض يده من مؤامرة جوهر ومشكلة السودانيين حتى واجه أزمة أخرى أشد وطأة. ذلك أن الصليبيين بعد أن وحد نور الدين محمود بين مصر والشام أدركوا الخطر الداهم الذى يهدد وجودهم من الشمال والجنوب، فاتفقوا مع الإمبراطورية البيزنطية على الاشتراك فى غزو مصر. ووصلت الحملة الصليبية البيزنطية إلى دمياط فى صفر سنة ٥٦٤هـ (أكتوبر ١١٦٩)، ولكن القوات البيزنطية أخذت تعانى نقصا حاداً فى المؤن. وكادت أن تموت جوعا، وزاد من سوء وضع القوات المتحالفة أن هبت رياح شديدة أغرقت معسكر الصليبيين وحولته إلى مستنقع، فى الوقت الذى أبدى المسلمون شجاعة فى الدفاع عن المدينة. ونتيجة لذلك فشل الحصار المضروب على دمياط، ورجعت الحملة الصليبية فى ٢٨ ربيع الأول ٥٦٥هـ (٢١ ديسمبر ١٩٦٩)، دون أن تحقق شيئا من أهدافها[2].

وفى سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) وجه صلاح الدين اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعى وتقوية المذهب السنى فى مصر، فأنشأ مدرسة لتدريس المذهب الشافعى، وأناب عنه

(١) مفرج الكروب، جـ١ ص ١٧٤ - ١١٧؛ اتعاظ الحنفا، جـ٣ص ٣١٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢ص ٢٥٨.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٤١ - ٤٣؛ مفرج الكروب، جـ١، ص ١٧٩ - ١٨٣؛ النجوم الزاهرة، جـ٦ ص ٧؛

William of Tyre, II, pp. 362-368.

قضاة شافعية فى جميع أنحاء البلاد، فارتفع شأن المذهب السنى، وانحسر المذهب الإسماعيلى تدريجيا، حتى اختفى فى النهاية. كذلك أبطل صلاح الدين من الآذان حى على خير العمل، محمد وعلى خير البشر، وأخذ فى إضافة أسماء الخلفاء الراشدين فى الخطبة، فضلا عن الدعاء لنور الدين محمود بعد الخليفة العاضد الفاطمى. ومن الجدير بالذكر، أنه رغم انفراد صلاح الدين بالسلطة فى مصر، واهتمامه بسياسة إضعاف الذهب الإسماعيلى، إلا أنة ظل متخوفا من إقامة الخطبة للخليفة العباسى. ذلك أن موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة كان موقفا غريبا فى حد ذاته، فهو وزير للخليفة الفاطمى العاضد الشيعى، وفى نفس الوقت قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السنى، فهو موزع الولاء، ومع هذا كان صلاح الدين يتبع فى سياسته إزاء الرجلين الحكمة والتوءدة[1]. ثم صدرت الأوامر من نور الدين إلى صلاح الدين بقطع الخطبة للخليفة العاضد وإقامتها للخليفة العباسى، ولم يكن صلاح الدين فى وضع يسمح له بالخروج على أوامر سيده، فألقيت أول خطبة للخليفة العباسى المستضىء بأمر الله فى أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ(١٠ سبتمبر١١٧١م)، فلم يحتج أحد. ويقال إن العاضد كان مريضا وقتذاك مرضا ميئوساً منه، فأخفى عنه ذلك أهله وأصحابه، حتى توفى فى العاشر من المحرم(يوم عاشوراء) من نفس العام[2]، دون أن يدرى بأمر هذا القرار الحاسم الذى أطاح بالخلافة الفاطمية.

وكان المؤرخ ابن واصل[3] قد اعتبر تولية صلاح الدين منصبالوزارة بداية قيام الدولة الأيوبية فى مصر، فلما قطعت الخطبة للخليفة الفاطمى وأقيمت للخليفة العباسى، رأى فى ذلك تأكيداً لقيام تلك الدولة، إذ قال: «واستقر قدم أيوب فى مصر،واستثبت الملك لهم».

موقف نور الدين من صلاح الدين:

أصبح صلاح الدين مركز القوة فى مصر، وأدرك أهمية مصر فى القيام بالدور الحاسم فى معركة الجهاد ضد الصليبيين، نظراً لما تملكه مصر من إمكانيات بشرية ومادية هائلة.

---

(١) جمال الدين الشيال: «مصر فى العصر الفاطمى»، ص ٤٥٥.

(٢) مفرج الكروب، جـ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٣) مفرج الكروب، جـ١ ص ٢٢٠.

ولذلك استقر رأيه على تأسيس دولة تحمل إسم أسرته، قادرة على القيام بهذا الدور، بينما كان نور الدين محمود يرى أن بلاد الشام هى ميدان النزاع الحقيقى بين المسلمين والصليبيين، وأن دور مصر فى هذا الشأن لا يتعدى كونها ولاية من الولايات التى تمده بنفقات الحرب والقوة البشرية. والواقع أن صلاح الدين كان محقا فى رأيه، فمصر هى التى مكنته من القيام بدوره في الجهاد ضد الصليبيين، وبدونها كان ذلك مستحيلاً.

على أن الأمور لم تجر كما كان يأمل صلاح الدين، فقد شهدت الفترة التالية لسقوط الخلافة الفاطمية جفوة فى العلاقات بينه وبين نور الدين. وترجع بداية الجفوة بين الإثنين إلى صفر سنة ٥٦٧هـ(أكتوبر١١٧١)، عندما دعى نور الدين نائبه صلاح الدين ليسير بقواته إلى حصن الشوبك، حيث قرر هو الآخر التوجه إليه فى نفس الوقت، ومن ثم يتعاون الاثنان على الاستيلاء عليه. فخرج صلاح الدين من القاهرة، وضيق الخناق على الحصن، وكاد يفتحه، ولكنه ما لبث أن رفع الحصار عندما علم بمسيرة نور الدين إليه من دمشق، وأرسل إليه كتابا مؤداه أن الموقف فى مصر غير مأمون العواقب، وأنه يخشى انتفاض الفاطميين أثناء غيابه، الأمر الذى يحتم رجوعه إلى مصر، فغضب نور الدين لذلك، واعتزم دخول مصر، وإبعاد صلاح الدين عنها[1].

ويلاحظ أن صلاح الدين أراد أن يحتاط لنفسه فى ظل الظروف التى كانت تمر بها دولته الوليدة، ولهذا فكر فى ضرورة إيجاد مكان أمين يلجأ إليه إذا قصد نور الدين مصر، وأرغمه على مغادرتها. وكان أن استقر رأيه على غزو بلاد النوبة، فجهز لهذا الغرض حملة كبيرة بقيادة أخيه تورانشاه الذى سار إلى مدينة أسوان فى جنوب مصر سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢)، ومنها تطرق إلى بلاد النوبة، فوجدها «قليلة الجدوى» لاتصلح للغرض المنشود[2].

ويبدو أن الأمور قد هدأت مؤقتا بين نور الدين وصلاح الدين، بدليل أنه فى شوال سنة٥٦٨هـ (مايو ١١٧٣م)، اتفق الاثنان على منازلة حصن الكرك جنوب شرقى البحر

---

(١) مفرج الكروب: جـ١ ص ٢٢١؛ المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ ص ٤٨ ـ ٤٩؛ النجوم الزاهرة، جـ ١ ص ٢١ ـ ٢٢.

(٢) مفرج الكروب: جـ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩؛ الروضتين، جـ القسم الثانى، ص ٥٣٠ ـ ٥٣٣.

الميت، وخرج صلاح الدين بجيوشه من القاهرة، ولكنه ما كاد يفرض الحصار على الحصن، حتى انسحب راجعاً إلى مصر بعد أن علم بقرب وصول نور الدين على رأس جيشه، متعللا بمرض أبيه مرض الموت، فزادت تلك الواقعة من غضب نور الدين على صلاح الدين. وبات من المؤكد أن صبر نور الدين قد نفذ، ولم يعد أمامه إلا اللجوء إلى إستخدام القوة لإخراج صلاح الدين من مصر، أورده إلى الطاعة والخضوع(١).

وفي هذه المرة أيضا لم يقف صلاح الدين ساكنا، بل فكر في مكان آخر يلوذ به إذا هاجمه نور الدين، خاصة بعد أن تبين له أن بلاد النوبة لاتصلح مأوى للأيوبيين، لذلك أرسل أخاه تورانشاه إلى اليمن في رجب ٥٦٩هـ (أواخر١١٧٣) بحجة القضاء على النفوذ الفاطمي، وإعادة المذهب السني، فأخضعها وصارت منذئذ تابعة لنفوذ صلاح الدين(٢).

وفي تلك الأثناء واجه صلاح الدين مؤامرة خطيرة في القاهرة في رمضان سنة ٥٦٩هـ (أبريل ١١٧٤)، دبرها سلالة الفاطميين وأنصارهم الناقمين على الوضع الجديد، بغرض إحياء الخلافة الفاطمية التي غربت شمسها، واشترك في هذه المؤامرة الشاعر عمارة اليمني الذي أنشد أعظم قصائده في مدح الفاطميين. ولما أدرك المتآمروت أنهم في حاجة إلى عون من الخارج لضمان نجاح مؤامراتهم، كاتبوا سنانا زعيم الباطنية (الحشيشية)(٣) يطلبون منه أن يرسل من الفداوية من يغتال صلاح الدين، واتصلوا أيضا بالصليبيين بالشام، وملك صقلية وليم الثاني النورماني ليهاجم أسطوله الإسكندرية. ولكن صلاح الدين أمسك بخيوط المؤامرة ووقف على تفاصيلها بعد أن اكتشف الصلة بين الصليبيين بالشمال وزعماء الفتنة في مصر، وألقى القبض على زعماء المتآمرين، وأمر بشنقهم جميعا ومن بينهم عمارة اليمني(٤).

---

(١) النوادر السلطانية، ص ٤٧؛ على بيومي: قيام الدولة الأيوبية، ص ١٨٧.
(٢) النوادر السلطانية، ص ٤٦؛ مفرج الكروب، جـ ١ ص ٢٣٧؛ الروضتين، جـ١ ص ٥٥١ ـ ٥٥٤.
(٣) انظر ص ٢٥٣.
(٤) مفرج الكروب، جـ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٥١؛ الروضتين، جـ٢ القسم الثاني، ص ٥٦٠ ـ ٥٦١؛ السلوك جـ١ ص ٥٣ ـ ٥٤.

وشاء يمن طالع صلاح الدين أن يضع حلا للمشاكل القائمة بينه وبين نور الدين، إذ مات الأخير فجأة فى نفس العام (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) بعلة الخوانيق (الذبحة الصدرية) عن ست وخمسين عاماً، وكان موته خسارة بالنسبة للمسلمين. وبذلك أصبح الجو خالياً تماماً لصلاح الدين فى مصر.

توحيد الجبهة الإسلامية في مصر والشام والعراق:

بعد أن انتهى صلاح الدين من توطيد نفوذ دولته فى مصر، لم يبق أمامه سوى أن يوجه جهوده الحربية ضد الصليبيين ببلاد الشام، فى الوقت الذى أخذ على عاتقه توحيد الجبهة الإسلامية فى مصر والشام والعراق بعد وفاة نور الدين محمود. ولاشك أن صلاح الدين كان خير من يخلف نور الدين، بفضل عمق واتساع الأثر الدينى فى شخصيته والتزامه القوى بالسلوك القويم، وانعكاس ذلك على أفعاله وتصرفاته طيلة حياته، وقد أفاض المؤرخ القاضى ابن شداد اذى كان مقربا من صلاح الدين فى إعطائنا صورة حية صادقة عن أخلاق صلاح الدين وصفاته الحميدة ومدى حبه للجهاد.

وفى تلك الأثناء ظهرت مشكلة تقسيم دولة نور الدين محمود، فقد صار الوريث الأول لدولته ابنه الملك الصالح إسماعيل (٥٦٩ ـ ٥٧٦هـ/ ١١٧٤ ـ ١١٨١م)، وهو صبى لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره عند وفاة أبيه، مما جعله هدفا للمطامع وتنافس أمراء أبيه فى السيطرة عليه. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل عمل هؤلاء الأمراء على مصالحة الصليبيين فى بيت المقدس فى ذلك الوقت العصيب الذى تمر به الأمة الإسلامية، الأمر الذى أثار سخط صلاح الدين، وأدرك أن واجبه الحفاظ على وحدة المسلمين قبل التصدى للصليبيين. بيد أن الأمور فى مصر شغلته عن التوجه إلى الشام، إذ تعرضت مصر آنذاك لخطرين جسيمين أحدهما أتى من الشمال، والآخر من الجنوب.

ففيما يتعلق بالخطر الذى جاء من الشمال، فقد سبق الإشارة إلى أن أنصار الفاطميين قد اتصلوا بملك صقلية والصليبيين لغزو مصر. فظهر فى ذى الحجة ٥٦٩هـ (يوليو ١١٧٤) أسطول ضخم أمام الإسكندرية أرسله وليم الثانى النورمانى ملك صقلية، وحاصر المدينة، كما دمر بعض السفن التجارية الراسية فى الميناء. غير أن شجاعة الجيش

الأيوبى ومقاومة أهل الإسكندرية الباسلة خيبت آمال وليم الثانى، وحملت أسطوله على أن يقلع من الإسكندرية فى مستهل أغسطس من نفس العام[1].

أما الخطر الذى ووجه به صلاح الدين من الجنوب، فيتمثل فى الحركة التى تزعمها كنز الدولة، وهو أحد ملوك النوبة فى أسوان، حيث التف حوله السودانيون وبقايا الفاطميين، وأوهمهم أن بوسعه إعادة الدولة الفاطمية، وبادر بالتوجه شمالا إلى قوص. وعندما علم صلاح الدين بما أقدم عليه كنز الدولة، أرسل أخاه العادل ساعده الأيمن على رأس جيش ضخم» ، من الذين ذاقوا حلاوة مُلك الديار المصرية، وخافوا على فوت ذلك منهم». والتقى العادل بالثائر فى قرية طود (بالقرب من الأقصر) التى صارت مركزتجمع قواته، وحدثت معركة عنيفة انتهت بمصرع كنز الدولة فى المحرم ٥٧٠هـ (أغسطس ١١٧٤)، وبذلك قضى على آخر محاولة قامت بها البقايا الفاطمية[2].

ولما فرغ صلاح الدين من القضاء على حركة كنز الدولة، واطمأن إلى استقرار الأوضاع بمصر، خرج إلى الشام لتحقيق الوحدة الإسلامية من الفرات إلى النيل أمام الصليبيين. ولما وصل دمشق فى ربيع الآخر ٥٧٠هـ (أكتوبر ١١٧٤) فتحت له المدينة أبوابها دون مقاومة، ثم توجه إلى حلب، ولكنها قاومته، فى الوقت الذى لجأ كمتشكين الوصى على الصبى الصالح إسماعيل إلى الاستعانة بسنان زعيم الباطنية بالشام لإبعاد صلاح الدين عن أسوار حلب، فاستجاب إلى طلبه، وبعث بجماعة من الفداوية فى أوائل سنة ٥٧١هـ (يناير ١١٧٥) إلى معسكر صلاح الدين لاغتياله متنكرين فى ثياب الجند، وتمكن بعضهم من التسلل إلى خيمة صلاح الدين، وطعنه أحدهم بخنجره فى رأسه وخده، فجرح جرحاً غير مميت، ونجا بأعجوبة من محاولة اغتياله[3]. ولاشك أن الباطنية لم

---

(١) مفرج الكروب، جـ٢ ص ١١ ـ ١٦؛

Stevenson, The Crusades in the East., pp. 203-204.

(٢) النوادر السلطانية،ص ٤٧ ـ ٤٨؛ مفرج الكروب، جـ٢ ص ١٦ ـ ١٧؛ النجوم الزاهرة، جـ٦ ص ص٢٤؛ محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى، ص ٣٧ ـ ٣٨، العادل الأيوبى، ص ١٦ ـ ١٧.

(٣) مفرجة الكروب، جـ٢ ص ٢٤؛ الروضتين، القسم الثانى، جـ١ ص ٦٠٧ ـ ٦١١.

يقوموا بمحاولتهم إلا بعد أن أدركوا ما يتعرضون له من أخطار بظهور صلاح الدين، وما عزم عليه من توحيد المسلمين ونشر المذهب السنى، ولذلك اعتبروه من ألد أعدائهم[1].

لم يشأ صلاح الدين أن يضيع وقته أمام أسوار حلب، وركز جهوده للاستيلاد على المناطق الواقعة بينها وبين الفرات. فهاجم بزاعة واستولى عليها، ثم سار إلى منبج وأحكم عليها الحصار، ولكنه لقى مقاومة عنيفة، ولم تستسلم له إلا بعد أن أمر النقابين بنقب أسوار قلعتها، ثم فرض الحصار على أعزاز، واستولى عليها فى ذى الحجة سنة ٥٧١هـ (يونيو ١١٧٦)، وفى هذا الموضع كاد صلاح الدين أن يلقى حتفه على يد أحد الباطنية الذى تسلل إلى خيمته، وضرب رأس صلاح الدين بسكين، ولولا الزرد الذى تحت القلنسوة (العمامة) لقتله[2]. وبعد أن استولى صلاح الدين على أعزاز توجه إلى حلب وحاصرها، وفى أثناء الحصار ترددت الرسل بينه وبين الحلبيين بشأن الصلح، فوافق الطرفان وعقد الصلح فى المحرم سنة ٥٧٢هـ (يوليو ١١٧٦)، وعقب ذلك انصرف صلاح الدين من أمام أسوار حلب[3].

أما الباطنية ـ أو الحشيشية ـ الذين حاولوا اغتيال صلاح الدين ونجا منهم بمعجزة خلال حصاره لأعزاز، فقد وطد عزمه على الثأر منهم، لذا لم يكد يفرغ من الصلح مع الحلبيين حتى اتجه من فوره لحصارهم فى أمنع قلاعهم مصياف، وقتل الكثير منهم، ولم يتركهم إلا بعد أن شفع خاله شهاب الدين الحارمى صاحب حماه، «وكانوا قد راسلوه فى ذلك لأنه جيرانه»[4]. ثم عاد صلاح الدين إلى مصر فى سبتمبر سنة ١١٧٦م لينظم أمورها، حتى يتفرغ بعد ذلك لتوحيد الجبهة الإسلامية، فشرع فى بناء القلعة على جبل المقطم، وأمربناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة، واهتم أيضا بإعادة تنظيم الأسطول وحماية الموانى المصرية، وعنى بنشر المذهب السنى فى مصر.

---

(1) Lewis (Bernard), "The Ismailites and the Assassins", p. 122.'

الباز العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ١ ص ٧٤٦.

(٢) مفرج الكروب، جـ ٢ ص ٤٢ ـ ٤٥؛ الروضتين، جـ١ ص ٦٥٥ ـ ٩ص٦٥.

(٣) مفرج الكروب، جـ٢ ص ٤٦؛ جـ١ ص ٦٨ ـ ٩٦٩.

(٤) مفرج الكروب، جـ١ ص ٤٧ ـ ٤٨؛ Lewis, op. cit., p. 123.

خرج صلاح الدين من مصر بعد أن أشرف على تحصينها، ومستهدفاً توحيد الجبهة الإسلامية فى أعالى الشام والعراق، وبمعنى آخر توحيد الموصل وحلب. فتوجه إل حصار الموصل سنة ١١٨٢م، بيد أنه لم يستطع الاستيلاء عليها. ثم توجه إلى حلب وفرض الحصار عليها فى العام التالى، وما لبث أن دارت المفاوضات بينه وبين صاحبها، انتهت إلى تسليم حلب إلى صلاح الدين فى ١٨ سفر سنة ٥٧٩هـ (٢٢ يونيو ١١٨٣)، وكانت فرحة صلاح الدين عظيمة بأخذ حلب، حتى أنه قال: «الآن قد تبينت أننى أملك البلاد، وعلمت أن ملكى قد استقر وثبت»[1]. وفى المحرم سنة ٥٨١هـ (أبريل ١١٨٥) حشد صلاح الدين عساكره فى حلب، وغادرها قاصداً الموصل، فحاصرها، غير أن المواصلة سعوا إلى عقد الصلح بين صلاح الدين وعز الدين مسعود صاحب الموصل، وجرى الصلح مقابل الإبقاء على عز الدين مسعود أتابكا للموصل وتوابعها، وأن يخطب لصلاح الدين على منابرها، وتضرب السكة باسمه، وأن يتعهد عز الدين بمساعدة صلاح الدين بالجيوش والعتاد فى استرداد بيت المقدس من الصليبيين[2]. وبذلك نجح صلاح الدين فى توحيد الجبهة الإسلامية تحت قيادته، ولم يعد يشغله إلا أن يواصل الجهاد ضد الصليبيين وتطهير بلاد الشام منهم.

صلاح الدين والصليبيون:

ونلاحظ أنه أثناء انشغال صلاح الدين بتوحيد القوى الإسلامية فى مصر والشام والعراق، أى من الفرات إلى النيل، لم يغفل أمر الصليبيين، وإن كانت حروبه معهم قبل سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦) لم تتخذ صورة الحرب الشاملة، بل كانت حروب يغلب عليها الطابع الدفاعى لحماية أملاك المسلمين وأراضيهم. ولكن صلاح الدين ابتداء من سنة ١١٨٦م حارب الصليبيين بكل ما لديه من طاقة، حتى حقق انتصاراته الهائلة التى خلدت ذكراه فى التاريخ[3].

---

(١) ابن شاهنشاه الأيوبى: مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشى، ص ١٤٤.

(٢) النوادر السلطانية، ص ٧٠؛ مفرج الكروب، جـ٢ ص ١٧١ ـ ١٧٢؛ وفيات الأعيان، جـ٥ ص ٢٠٧؛ مضمار الحقائق، ص ٢٢٣.

(٣) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، ص ٥٧ ـ ص٥٨.

ففى خلال الفترة التى قضاها صلاح الدين فى توحيد القوى الإسلامية، خرج صلاح الدين من مصر على رأس قواته، وانطلق إلى عسقلان فوصلها فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ (٢٣ نوفمبر ١١٧٧)، وكان بلدوين الرابع ملك مملكة بيت المقدس الصليبية قد دخلها قبيل وصول صلاح الدين إليها بأيام قليلة لمقاومة الهجوم المتوقع منه. وبسبب ذلك انتشرت قوات صلاح الدين فى الأرض، وأخذت تغير على المعاقل الصليبية القريبة حتى بلغت الرملة، فوجدت أن الصليبيين قد دخلوها وأحرقوها. وسرعان ما تغير الموقف لصالح الصليبيين، ففى يوم ٢٥ نوفمبر وصلت الإمدادات الصليبية إلى عسقلان، فباغت الصليبيون جيش صلاح الدين الرئيسى أثناء عبوره مخاضة عند تل الصافية، وحلت به الهزيمة(١)، ولكن صلاح الدين رد على هذه الهزيمة، ففى المعركة التى دارت رحاها فى سهل مرج عيون، حقق صلاح الدين انتصارا ساحقا على الصليبيين فى ٣ المحرم ٥٧٥هـ (١٠ يونيو ١١٧٩)، وفيها قتل العديد من فرسانه، ولم ينج بلدوين نفسه إلا بصعوبة، ووقع فى الأسر كثير من الفرسان والبارونات(٢).

توالت انتصارات صلاح الدين على الصليبيين فى سرعة مذهلة، بحيث لم يعد الصليبيون يلاحقون تحركاته. فلم يكد يمر شهران على موقعة مرج عيون، حتى جمع صلاح الدين قواته، وخرج من دمشق قاصداً حصن بيت يعقوب (بيت الأحزان) الذى شيده الصليبيون حديثا للاستيلاء عليه، وبعد حصار استغرق أربعة أيام، سقط الحصن فى أيدى المسلمين فى ربيع سنة ٥٧٥هـ (سبتمبر ١١٧٩)، ولم يتركه صلاح الدين إلا بعد أن هدمه من أساسه وسواه بالأرض(٣).

ونتيجة للضربات المتلاحقة التى كالها صلاح الدين للصليبيين، طلب بلدوين الرابع وكبار باروناته الصلح من صلاح الدين فى مايو ١١٨٠م، فوافق وعقد معهم هدنة مدتها

---

(١) مفرج الكروب، جـ٢ ص ٥٩ ـ ٦٠؛ مضمار الحقائق، ص ١٦ ـ ١٨؛

William of Ture, II, op. cit., pp. 442-443; Stevenson, p. 217.

(٢) مفرج الكروب، جـ٢ ص ٧٥ ـ ٧٧؛ الروضتين، جـ١ ص ٦٩٩ ـ ٧٠٣؛ النجوم الزاهرة، جـ٦ ص ٢٧؛

William of Ture, II, op. cit., pp. 426-431; Stevenson, p. 221.

(٣) مفرج الكروب، جـ٢ ص ٨٠ ـ ٨٢؛ مضمار الحقائق، ص ٢٥ ـ ص٢٨.

سنتين[١]. غير أن ريجنالد شاتيون Reginald of Chatillon ـ الذى عرفته المصادر العربية باسم أرناط ـ صاحب حصن الكرك، قام بعمل أصاب المسلمين بالفزع والغضب، إذ لم يعترف بالشروط التى فرضتها عليه الهدنة الموقعة مع صلاح الدين، بما تضمنته من حرية عبور المسلمين والصليبيين أراضى كل منهم الآخر دون خوف. ومن ثم فقد خرج أرناط على رأس قواته وتوغل فى صحراء العرب حتى واحة تيماء، بغرض التوجه إلى المدينة المنورة «ليستولى عليها وعلى تلك النواحى الشريفة»، ولما علم بذلك فرخشاه ابن أخى صلاح الدين ونائبه فى دمشق، أسرع بالعساكر الدمشقية إلى حصن الكرك، وأخذ ينهب ويخرب نواحيه، وظل مرابطا تجاه الصليبيين، الأمر الذى جعل أرناط يعجل بالعودة إلى إمارته للدفاع عنها، فعاد فرخشاه إلى دمشق[٢].

على أن أرناط لم تفتر عزيمته عن قتال المسلمين، فقد قام بمحاولة جريئة رعناء استهدفت الاستيلاء على الحرمين الشريفين، والاعتداء على قبر الرسول ﷺ، وهدم الكعبة. ففى خريف سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢) بنى عدة سفن ونقلها مفككة على ظهور الجمال حتى خليج العقبة، حيث ركبت، وشحنها بالرجال والعتاد، ثم بدأ عمله فى البحر الأحمر بالإغارة على ميناء عيذاب المصرى المواجه لجدة، فأخذ مراكب التجار الراسية فيه، وقتل عدداً كبيراً من المسلمين[٣]. وبعد أن نهب أرناط ميناء عيذاب أبحر بأسطوله يريد غزو المدينة المنورة لينبش قبر الرسول ﷺ، فاجتاز البحر الأحمر إلى ساحله الآسيوى، متجها إلى الأراضى المقدسة. وما كاد هذا الخبر يصل إلى الملك العادل الأيوبى بمصر، حتى بادر بقمع تلك المحاولة المتهورة بأن عد أسطولاً قويا أسند قيادته إلى الحاجب حسام الدين لؤلؤ، فأخذ فى تتبع الصليبيين حتى أدركهم ولم يبق بينهم وبين المدينة المنورة إلا مسافة يوم، فأحبط محاولتهم، وعاد بأسراهم إلى القاهرة[٤]. ولاشك أن وصول تلك الحملة

---

(1) Stevenos, p. 222.

(٢) مفرج الكروب، جـ٢ ص١٠١ ـ ١٠٢؛ مضمار الحقائق، ص ٦٠؛ سعيد عاشور: الناصر صلاح الدين (القاهرة ١٩٦٥)؛ الباز العرينى: مصر فى عصر الأيوبيين، ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٣) السلوك، جـ١ القسم الأول ص ٧٨ ـ ٧٩؛ البداية والنهاية، جـ١٢ص ٣١١.

(٤) مفرج الكروب، جـ٢ ص ١٢٧ ـ ١٣١؛ الروضتين، جـ٢ ص ٣٥؛ الخطط، جـ٢ ص ٨٥.

الصليبية الجريئة إلى شواطىء الحجاز، يوضح لنا مدى الخطورة التى كانت تهدد المسلمين فى أعظم مقدساتهم، ولكن يقظة الدولة الأيوبية فى تلك المرحلة من تاريخها ردت اعتداء الغزاة الصليبيين إلى نحورهم، فلم ينالوا مغنما مما أرادوه[1].

وكان أن أحس الصليبيون بحاجتهم إلى فترة يعيدون فيها قواهم، فبادروا إلى عقد هدنة مع صلاح الدين مدتها أربع سنوات اعتباراً من ذى الحجة ٥٨٠هـ (مستهل أبريل ١١٨٥)، وقد وافق صلاح الدين عى تلك الهدنة حتى يتفرغ لمشكلة الموصل فى أعالى العراق، قد انتهت تلك المشكلة باعتراف صاحب الموصل بطاعة صلاح الدين كما شاهدنا من قبل. غير أنه فى صيف سنة ٥٨١هـ (١١٨٥) مات الملك بلدوين الرابع، وخلفه إبن أخته الصغير الذى عرف باسم بلدوين الخامس، ولكنه لم يلبث أن توفى بعد بضعة أشهر من إعلانه ملكا[2]. وهنا انقسم الصليبيون على أنفسهم حول من يتولى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية، فرأى فريق أن يتولى العرش جاى لوزجنان وهو أمير ضعيف اتصف بالتردد وعدم الكفاية، فى حين رأى الفريق الآخر اختيار ريموند الثالث كونت طرابلس ملكا، ونجح جاى لوزجنان فى الوصول إلى عرش المملكة بمساعدة أرناط صاحب حصن الكرك[3].

ولكن أرناط لم يترك الصليبيين ينعمون بالهدنة التى عقدوها مع صلاح الدين. ففى أوائل سنة ١١٨٧م انقض على قافلة كبيرة قادمة من مصر إلى دمشق، وقتل الجند المكلف بحراسة القافلة وحمل التجار أسرى إلى حصنه. ولما وصل خبر ما حدث للقافلة إلى صلاح الدين أرسل إلى أرناط يطلب إطلاق سراح الأسرى ورد ما نهبه، فامتنع ورد على رسل صلاح الدين قائلا: «قولوا لمحمد يخلصكم»، ورفض تسليم الأسرى.

وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب، فأعلن الجهاد، وأرسل إلى سائر الأطراف يطلب العساكر، فجاءته من كل ناحية، وخرج على رأس جيوشه من دمشق فى ٣ المحرم

---

(١) محمود الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة، ص ١٩٧.

(2) Stevenson, pp. 236-238.

(3) Stevenson, p. 238.

سنة ٥٨٣هـ (منتصف مارس ١١٨٧)، والتقى مع الملك جاى لوزجنان وجيوشه قرب صفورية فى مايو سنة ١١٨٧م، في معركة سقط فيها معظم الجيش الصليبى بين أسرى وقتلى[1]. ثم قام صلاح الدين الأيوبى بمهاجمة مدينة طبرية، ولم يلبث أن استولى على المدينة فى يوليوسنة ١١٨٧م، وإن لم يستطع الاستيلاء على قلعتها. واستقر رأى الصليبيين على التحرك من صفورية للدفاع عن طبرية، فساروا فى شهر يوليو يعانون من حرارة الصيف الشديدة وقلة الماء ومشقة الطريق، فى الوقت الذى كان المسلمون فى أماكنهم ينعمون بالظل ووفرة الماء.وفى ٢٥ ربيع الأخر سنة ٥٨٣هـ (٤ يولييو ١١٨٧) وقع اللقاء الحاسم بين المسلمين والصليبيين عند قرية حطين، وهى فى منتصف الطريق تقريبا بين صفورية وطبرية، ودارت معركة انتهت بهزيمة الصليبيين هزيمة ساحقة، ذهب فيها معظم جيش مملكة بيت المقدس وجيوش الإمارات الصليبية، كما وقع فيها جاى لوزجنان ملك بيت المقدس وأرناط صاحب الكرك وغيرهما أسرى فى يد صلاح الدين[2]. وقد عامل صلاح الدين الأسرى معاملة طيبة، فيما عدا أرناط الذى قتله صلاح الدين بسيفه، جزاء له على غدره ومكره، ولأنه«تجاوز الحد، وتجرأ على الأنبياء»[3]. وتعتبر موقعة حطين بمثابة الكارثة التى ألمت بالصليبيين، وزرعت فى قلوبهم اليأس.

بعد أن انتصر صلاح الدين على الصليبيين فى حطين، وجه اهتمامه ونشاطه إلى الاستيلاء على الموانى الهامة، ليحرم الصليبيين من وصول أى نجدات إليهم من الغرب الأوربى عن طريق البحر. فلم يلبث أن اتجه إلى عكا، واستطاع دخولها فى جمادى الأخرى سنة ٥٨٣هـ (يوليو ١١٨٧)، وأثناء إقامته بتلك المدينة التى اتخذها قاعدة لعملياته الحربية، وجه العساكر إلى سائر الجهات الصليبية لإخضاعها[4]. وفى تلك الأثناء، كان الملك العادل أخو صلاح الدين قد أخذ فى مهاجمة المدن الساحلية بفلسطين،

---

(1) Stevenson, p. 242.

(2) Stevenson, pp. 245-247.

(٣) مفرج الكروب، جـ٢ ص ١٨٦ ـ ١٩٥.

(٤) مفرج الكروب، جـ٢ ص ٢٠١؛

Stevenson, p. 249.

فاستولى على حصن مجدليابا ـ بين يافا ونابلس ـ ثم ألقى الحصار على يافا، فقاومته أول الأمر، ولكنها وقعت فى يده أخيراً(١). كما سقط حصن تبين وصرفند وصيدا وبيروت فى أيدى المسلمين فى أواخر يوليو سنة ١١٨٧م، ثم سار صلاح الدين إلى عسقلان، يدفعه الحرص على أخذها، «إذ كانت عنده أهم من غيرها، لأنها على طريق الديار المصرية فإذا أخذت أمنت الطريق واتصلت القوافل»، وجرى فرض الحصار عليها، حتى استسلمت المدينة بعد مقاومة ضعيفة فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٣هـ (سبتمبر ١١٨٧م)(٢). وهنا نلاحظ أن المدن الساحلية جنوبى فلسطين وقعت فى أيدى صلاح الدين فيما عدا صور، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن صلاح الدين كان يعطى الفرصة لأهالى المدن التى فتحها فى أن يبقوا أو يرحلوا، فكانوا يفضلون الرحيل إلى صور، مما جعلها تعج بجموع البقايا الصليبية(٣) من ناحية، وصارت قوة لها خطرها فيما بعد من ناحية أخرى.

وبعد أن فشلت جهود صلاح الدين فى الاستيلاء على صور توجه إلى مدينة بيت المقدس، وبدأ هجومه عليها فى ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧م، وعندئذ أدرك الصليبيون عجزهم عن المقاومة، فاستقر رأيهم على طلب الأمان من صلاح الدين، فوافق على أن يسمح لهم بالخروج سالمين مقابل عشرة دنانير للرجل وخمسة للمرأة وديناران للطفل، وجرى تسليم المدينة فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ (٢ أكتوبر ١١٨٧)(٤). ولاشك أن ما فعله صلاح الدين جاء متناقضا تماما لما فعله الصليبيون عندما استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧م).

بعد أن أنتهى صلاح الدين من غزو فلسطين، اعتزم إخضاع الصليبيين فى شمالى الشام، فتقدم لمهاجمة المواتى الكبيرة والحصون الداخلية. ولم تأت سنة ٥٨٥هـ

---

(١) مفرج الكروب، جـ٢ ص ٢٠٢؛

King (E.J.), The Kinghts Hospitllers in the Holy Land. (London, 1931), p. 129.

(٢) النوادر السلطانية، ص ٨٠؛ مفرج الكروب، جـ٢ ص ٢٠٩؛ King, op.cit., p. 130 ; Stevenson, pp. 251-252.

(3) Steveson, p. 249.

(٤) مفرج الكروب، جـ٢ ص ٢١١ ـ ٤١٢؛ السلوك جـ١ ص ٩٦؛

Stevenson, pp. 252-253.

(١١٨٩م)، حتى سقطت المدن والقلاع الصليبية، ولم يبق فى أيدى الصليبيين سوى أمارتى أنطاكية وطرابلس وبعض المدن الساحلية، وأهمها صور التى استعصت عليه بعد أن تجمعت فيها البقايا الصليبية التى سمح لها صلاح الدين بالخروج آمنة من المدن التى استولى عليها.

الحملة الصليبية الثالثة:

لم تكد الأنباء تصل إلى الغرب الأوربى بانتصارات صلاح الدين الأيوبى، التى توجها بالإستيلاء على بيت المقدس، حتى ثارت ثائرته، واستجاب للنداءات التى وجهتها إليها البابوية، فكانت الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة، بقيادة الملوك الثلاثة الكبار فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا.

سار فردريك بربروسا فى ١١ مايو سنة ١١٨٩م من مدينة رجنسبورج Regensburg على رأس جيش بلغت عدته حوالى مائة ألف جندى، وقد اختار أن يسلك الطريق البرى إلى آسيا الصغرى مخترقا بلاد المجر والبلقان[١]. وعندما أحس صلاح الدين باقتراب الجيش الألمانى من حدود الشام، أسرع إلى إخلاء وتدمير بعض المعاقل التى خشى استيلاء الصليبيين عليها والإفادة منها. غير أنه حدث مالم يكن فى الحسبان، فبعد أن عبر بربروسا جبال طوروس، أراد أن يخفف من تأثير حرارة الصيف اللافحة، فنزل أحد أنهار آسيا الصغرى فى ١١ يونيو سنة ١١٩٠م، ومات غرقا، فتشتت جيشه وعمته الفوضى، وعاد معظم الجيش إلى وطنه، ولم يصل منه إلى عكا سوى ألف رجل فى رمضان سنة ٥٨٦هـ (أكتوبر ١١٩٠)[٢].

أما فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد، فقد اختارا طريق البحر، وأبحرا من غرب أوروبا فى صيف سنة ١١٩٠م قاصدين بلاد الشام، غير أنهما قبل أن يصلا إلى الشام قضيا شهوراً فى صقلية.. ثم اتجه فيليب نحو عكا مباشرة، أما ريتشارد فقد تخلف فى جزيرة

---

(1) Mayer (H.E.(, The Crusades. Trnslated by John Cillingham., pp. 140-141.

(2) Mayer, op. cit., p. 141' Stevenson, pp. 264-265' Treece (Henry), The Crusades (U.S.A., 1964), p. 130.

قبرس، ثم لحق بفيليب فى عكا فى ٨ يونيو سنة ١١٩١م. وحاصرت جيوش الحملة الصليبيةالثالثة والبقايا الصليبية ببلاد الشام المسلمين فى عكا، ولم تفلح جهود صلاح الدين فى إنقاذ عكا،وساء موقف الحامية الإسلامية المدافعة عنها، فاضطرت إلى التسليم فى جمادى الثانية سنة ٥٨٧هـ (يوليو ١١٩١)، وقام الصليبيون بتقل حوالى ثلاثة آلاف أسير مسلم(١).

وفى أعقاب استيلاء الصليبيين على عكا نشب الخلاف بين فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد بسبب المنافسة الشديدة بينهما، فرحل فيليب إلى بلاده فى الغرب الأوربى فى أوآئل أغسطس سنة١١٩١م، على حين بقى ريتشارد منفرداً بزعامة الحملة، وجعل من عكا قاعدة لمحاربة المسلمين. وكان أن عزم ريتشارد على استرداد ساحل فلسطين من عكا إلى عسقلان، فإذا تمكن من ذلك اتجه نحو بيت المقدس لاستعادته، فاستولى على حيفا ثم على قيسارية فى نهاية أغسطس سنة ١١٩١م، وعند أرسوف دارت معركة بين المسلمين والصليبيين انتهت بانتصار الصليبيين فى رمضان سنة ٥٨٧هـ (سبتمبر ١١٩١م)(٢). ولم يحاول ريتشارد أن يستغل انتصاره فى أرسوف بالزحف على عسقلان قبل أن يقوم صلاح الدين بتخريبها حتى لايستفيد منها الصليبيون، ولكنه بدلا من ذلك ضيع وقته فى تعمير مدينة يافا، الأمر الذى مكن صلاح الدين من إعادة تنظيم صفوفه وتحصين مدينة بيت المقدس. ثم تحرك ريتشارد من يافا فى نهاية أكتوبر سنة ١١٩١م قاصداً بيت المقدس، فوصل إلى الرملة، ثم إلى النطرون، ومنها إلى بيت نوبة، حيث أصبح عل مقربة من بيت المقدس، ولكن ريتشارد أوقف زحفه، بسبب المتاعب التى أحاطت ببلاده وتطلبت منه العودة على وجه السرعة، ولذلك لجأ إلى فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين(٣).

---

(1) Mayer, op. cit., pp. 145-146., Treece, op. cit.,pp. 131132.

(٢) النوادر السلطانية، ص ١٨٣ ـ ١٨٤؛

Mayer, The Ceusdades., p. 47.

(3) Mayer, op. cit., pp. 148-149' Stevenson, pp. 267-277.

ومن الأمور الطريفة اتى تخللت سير المفاوضات ابين الجانبين الإسلامى والصليبى، مشروع زواج العادل من الأميرة جوانا أرملة وليم الثانى ملك صقلية وأخت ريتشارد[1]. وقد تقدم ريتشارد بذلك المشروع، مستهدفاً اشتراك الزوجين ـ العادل وچوانا ـ فى حكم فلسطين، بما فيها بيت المقدس والمدن الساحاية، وإذا تم الصلح على تلك الصورة، يرحل ريتشارد عائداً إلى بلاده. وقد وافق العادل على هذا المشروع، وربما رحب به، بغية إقرار السلام فى بلاد الشام على أساس الارتباط الودى بين الفريقين الإسلامى والصليبى، ولكن الأميرة چوانا هى التى وقفت فى طريق تنفيذ ذلك المشروع ورفضته غاضبة[2].

ومهما يكن من أمر، فقد انتهت المفاوضات بين الجانبين الإسلامى والصليبى بصلح الرملة فى ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨هـ (٢ سبتمبر ١١٩٢)، ومن أهم شروطه أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية الممتدة من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف، ويكون جنوبى تلك المنطقة بما فيها بيت المقدس للمسلمين، وعلى أن يكون للمسيحيين حرية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبتهم بدفع أية ضريبة[3]. وبعد أن عقد الصلح غادر ريتشارد قلب الأسد بلاد الشام عائداً إلى بلاده فى ٩ أكتوبر سنة ١١٩٢. وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثالثة برغم ضخامتها، وقيادة كبار ملوك أوربا وحكامها لها، وكل ما حصلت عليه لايتعدى تغييراً قليلا فى الأوضاع الإقليمية ببلاد الشام.

ولم يلبث صلاح الدين أن أدركته الوفاة فى ٢٧ صفر سنة ٥٨٩هـ (أوائل مارس ١١٩٣م) مخلفا ورائه دولة موحدة الأركان، تمتد من مصر جنوبا إلى الشام شمالا، فيما عدا بعض الحصون الصليبية المتناثرة فى أرجاء الشام. وقد كان على حق حينما رأى أن مصر بمواردها البشرية والمادية، وهى الركيزة الأساسية فى محاربة الصليبيين وكسر شوكتهم. ويكفى ما قاله أحد الباحثين من أن صلاح الدين يعتبر أعظم حاكم تولى حكم

---

(1) Treece, The Ceusades, p. 133.

(2) Stevenson, p. 278'

محمود الحويرى: العادل الأيوبى، ص ٣٩ ـ ٤٠.

(3) Stevenson, The Crusades in the East, pp. 283-284.

مصر منذ عهد بطليموس الثالث الذى حكم مصر قبل ذلك بتسعة قرون(١). وقد قال المؤرخ السيوطى(٢) فى صلاح الدين: «فرحمة الله عليه فى سائر الأوقات، فلقد كان إماما عادلا، وسلطانا كاملا، لم يل مصر بعد الصحابة مثله لاقبله ولابعده».

الأيوبيون بعد صلاح الدين:

بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى، انقسمت دولته الواسعة بين أبنائه وإخوته وأبناء عمومته وأمراء دولته. فأكبر الأبناء، وهوالملك الأفضل نور الدين على، احتفظ لنفسه بدمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين إلى الداروم قرب حدود مصر. أما الإبن الثانى، وهو الملك العزيز عماد الدين عثمان، فكان بمصر وقت وفاة أبيه، فاحتفظ بها، على حين أخذ الابن الثالث وهو الملك الظاهر غياث الدين غازى حلب وأعمالها. أما إخوة صلاح الدين، فمنهم الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب الذى احتفظ باليمن، والملك العادل سيف الدين أبوبكر كان بيده الكرك والشوبك والبلاد الشرقية (الجزيرة وديار بكر(٣)، وكلها إقطاعات ثانوية، قليلة الأهمية، لاتتفق مع مقدرة العادل ومكانته(٤)، وهو الرجل الذى أظهر مقدرة فائقة فى حروب أخيه ضد الصليبيين، وبذل قصارى جهده فى مساندة أخيه عندما كان نائبه فى مصر، حتى يمكن القول إن كل الأحوال تشير أنه كان جديراً بأن يكون على رأس الدولة الأيوبية بعد وفاة أخيه(٥).

وهنا نلاحظ أن البيت الأيوبى بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى حتى ذهابه على أيدى المماليك، لم يكن تاريخه سوى أحداث النزاع والحروب بين أمرائه، فكل منهم يحاول أن يكسب أرضا جديدة على حساب جاره. ففى النزاع الذى دار بين إبنى صلاح الدين

(1) Asimov, The Egyptians, p. 236.

(٢) حسن المحاضرة، جـ٢ ص ٢٠.

(٣) مفرج الكروب، جـ٣ ص ٣ ـ ٤.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢ ص ٨٧٥؛

King, The Kinghts Hospiallers in the Holy Land., p. 1765.

(5) Lane - Poole, AHist of the Egypt in the Middle Ages., pp. 213-214.

الأفضل صاحب دمشق والعزيز صاحب مصر، نرى عمهما الملك العادل يتدخل فى هذا النزاع ويتوسط بينهما، فتارة ينحاز إلى الأفضل، وتارة ينحاز إلى جانب العزيز. ولم يغب عن بال المعاصرين ما يدور فى ذهن العادل، فسياسته المتقلبة أراد بها أن تكون له الكلمة العليا فى الدولة الأيوبية. ويبدو ذلك واضحا فى أن الأفضل أساد السيرة، لميله إلى اللهو وسماع الأغانى، وشرب الخمر، ولم يعد صالحا للحكم(١). فاتفق العادل مع ابن أخيه العزيز على إبعاد الأفضل، وزحفا على دمشق، فسقطت فى أيديهما فى شعبان ٥٩٢هـ (١١٩٦م)، وعندئذ حل العادل محل الأفضل فى حكم دمشق. أما الأفضل، فقد أعطى صرخد فى إقليم حوران حيث عكف على التقوى والعبادة ولبس الصوف الخشن(٢). وبفوز الملك العادل بحكم دمشق، يكون بذلك حقق جزءاً من خطته الرامية إلى الإستيلاء على دولة أخيه صلاح الدين. ومن الأمور التى ساعدته على المضى فى طريقه بنجاح، هو أن أبناء أخيه لم يكن لهم حظه من الدهاء والحيلة، فالملك العزيز بعد أن تحالف مع عمه ضد أخيه لم يكن يدرى أن الدور لابد أن يأتى عليه، وأن الكأس التى شربها أخوه الأفضل، لابد أن يتجرعها(٣).

وكان أن سمحت الظروف للملك العادل بالتدخل فى شئون مصر، ففى ٢٦ رجب سنة ٥٩٥هـ (نوفمبر ١١٩٨) لقى العزيز مصرعه أثناء ممارسته لرياضة لصيد، إذ سقط على الأرض من صهوة فرسه سقطة أفضت إليه موته(٤). وأوصى العزيز قبل وفاته أن يخلفه إبنه الملك المنصور محمد، وهو طفل لم يتجاوز العاشرة من عمره، فقام بالوصاية عليه عمه الأفضل. وقد أراد الأخير أن يستعيد نفوذه فى دمشق، فاستغل فرصة تغيب عمه العادل بمحاصرة ماردين، وخرج من القاهرة لتحقيق غرضه. وعندما وصلت الأنباء إلى العادل بقصد ابن أخيه الأفضل، ترك حصار ماردين لابنه الملك الكامل محمد، وسار على رأس قواته متوجها إلى دمشق فوصلها فى١١ شعبان سنة٥٩٥هـ(٨ مايو ١١٩٨)، قبل أن

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٦ ص ١٢٠.

(٢) مفرجة الكروب، جـ٣ ص ٦٨ ـ ٢ص٧؛ الروضتين، جـ٢ ص ٢٣٤.

(٣) محمود الحويرى: العادل الأيوبى، ص ٦٢.

(٤) مفرج الكروب، جـ٣ ص٨٢ ـ ٨٣؛ السلوك، جـ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

يصلها الأفضل بيومين[1]. وبعد أن عاد الأفضل إلى مصر،أدرك العادل أن الطريق للاستيلاء على مصر بات ممهداً، لذلك لم يشأ أن يترك ابن أخيه ينعم بالاستقرار، فمضى على رأس جيوشه إلى مصر. وعندما وصل إلى بركة الجب، أرسل إلى الأفضل من قال له: «أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة، لأنها أعظم معاقل الإسلام، ولاتحوجنى إلى أخذها بالسيف، واذهب إلى صرخد وأنت آمن على نفسك»[2]. فاستسلم الأفضل، وعاد إلى إقطاعه فى صرخد، فى حين تسلم العادل القاهرة فى ربيع الآخر سنة ٥٩٦هـ (فبراير ١٢٠٠).

بعد أن استولى الملك العادل على مصر، صار من الصعب عليه أن يظل أتابكا (وصيا) للملك المنصور، إلى أن يكبر ويسلم البلاد إليه. لذلك لم يلبث أن أحضر جماعة من الأمراء والفقهاء، وأعلن أمامهم صراحة: «إنه قبيح بى أن أكن أتابكاً لصبى مع الشيخوخة والتقدم مع أن الملك ليس هو بالميراث، إنما هو لمن غلب، ولقد كان يجب أن أكون بعد أخى السلطان الناصر رحمه الله صاحب الأمر، غير أنى تركت ذلك إكراماً لأخى ورعاية لحقه»[3]. وهكذا وصل الملك العادل إلى عرش السلطنة، وصار صاحب السيادة والنفوذ، بعد أن خطط للأمر بعمق وروية، لم يكشف النقاب عما يدور فى ذهنه من أطماع فى دولة أخيه بعد وفاته[4]. وعلى أية حال، فقد تم توحيد الجبهة الإسلامية مرة أخرى على يد العادل الأيوبى، بعد أن اعترف له البيت الأيوبى بالسيادة المطلة.

وثمة ملاحظة جديرة بالانتباه، فإبان الصراع الدائر بين أبناء صلاح الدين وعمهم العادل، لم يستعن أحدهم بالصليبيين المجاورين فى بلاد الشام. كما أنهم عندما كانوا يتحاربون، وتجرى بينهم العداوة الشديدة، كانوا لايفعلون مثل جيرانهم سلاجقة الروم، فقد كان من عادة أفرادذلك البيت السلجوقى، إذا ظفر أحدهم بأخيه أو ابن عمه أعدمه، وفى حالات قليلة أخرى، كان يسجنه إلى أن يموت[5].

---

(١) مفرج الكروب، جـ٣ ص ٩٣ ـ ٩٥؛ النجوم الزاهرة، جـ٦ ص ١٤٧؛
Lane - Poole, op. cit., p. 214.

(٢) مفرج الكروب، جـ٢ ص ٩ ـ ١٠.

(٣) مفرج الكروب، جـ٢ ص ١١١؛ الروضتين، جـ٢ ص ٢٣٨؛ السلوك، جـ١ ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٤) محمود الحويرى: العادل الأيوبى، ص ٦٦.

(٥) مفرج الكروب، جـ٣ ص ٢١٩.

الحملة الصليبية الخامسة:

رأى الصليبيون أن الضرورة تقتضى استيلائهم على مصر أولاً، حتى يمكن لهم استرداد بيت المقدس بعد ذلك. وبمعنى آخر تنبهوا إلى أن الحملات الصليبية التى توجه إلى بلاد الشام خلال الصراع الدائر بينهم وبين المسلمين مضيعة للوقت والجهد، وأن الطريق إلى بيت المقدس يبدأ من القاهرة، ومن ثم ركزوا خطتهم المقبلة فى الإستيلاء على مصر بالبحر وأن تكون دمياط هدفهم الرئيسى. والجدير بالذكر، أن ريتشارد قلب الأسد قبل مفادرته بلاد الشام، نصح الصليبيين بتركيز جهودهم فى الاستيلاء على مصر، مركز الثقل فى الدولة الأيوبية. وقد أشار المؤرخ ابن واصل[1] إلى ما دار من مناقشات بين الصليبيين فى عكا، حول مستقبل مشاريعهم الصليبية، التى أكدوا فيا ضرورة الاستيلاء على مصر بقولهم: «إن الملك صلاح الدين، إنما استولى على الممالك، وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديارمصر، وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد أولا مصر ونملكها، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد».

والواقع أن الصليبيين قد أخطأوا منذ البداية فى اتخاذ الطريق السليم الذى بوصلهم إلى بيت المقدس. فقد زحفت الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق الأدنى الإسلامى عن طريق القسطنطينية وآسيا الصغرى إلى بلاد الشام، بعد معاناة شديدة كان الصليبيون فى غنى عنها، إذا أغفلوا شأن مصر التى كانت القاعدة الأساسية لمن يروم السيطرة على بلاد الشام. وإذا كان الصليبيون قد انتبهوا إلى أهمية الاستيلاء على مصر خلال الصراع الذى دار بينهم وبين نور الدين محمود، حاولوا الاستيلاء عليها ولكن محاولتهم باءت بخذلان، واستقر الأمر لصلاح الدين فى مصر، حيث استفاد ـ كما سبق أن ذكرنا ـ من ثروتها المادية والبشرية، واتخذها قاعدة انطلاق ضد الصليبيين، فكسر شوكتهم. ولو كان الصليبيون قد فعلوا ما فعله صلاح الدين، لتغير وجه الشرق الأدنى لعدة قرون.

ومهما يكن من أمر، فقد واجهت مصر فى القرن الثالث عشر الميلادى حملتين صليبيتين يعرفان باسم الحملتين الخامسة والسابعة، تركز نشاطهما حول ميناء دمياط الذى

---

(١) مفرج الكروب، جـ٣ ص ٢٥٨.

كان من أهم الموانئ المصرية على البحر الأبيض المتوسط، فضلا عن قربه من بلاد الشام وقبرس التى لعبت دوراً هاماً فى تاريخ الحركة الصليبية.

أما عن الحملة الصليبية الخامسة، فقد أخذت الجموع الصليبية الضخمة تتدفق من أوربا إلى عكا فى أواخر شهر أبريل سنة١٢١٨م. ولما اكتملت استعدادات الصليبيين أبحروا من عكا بقيادة حنا دى برين ملك بيت المقدس إلى مصر، تساند أسطولهم الريح الطيبة، فوصلوا إلى مصب فرع دمياط فى ربيع الأول سنة٦١٥هـ(٢٩مايو١٢١٨)، وعسكروا على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط. وقد تراوح عدد الجيش الصليبى بين عشرين ألف وثلاثين ألف محارب، شارك فيه فرسان الهيئات الدينية الحربية الاسبتار والداوية والتيوتون[1]. وشاركت أيضا قبرس فى تلك الحملة بالعديد من فرسانها بزعامة مطران نيقوسيا، عدا مواد التموين التى أمدت بها قبرس الحملة من أولها إلى آخرها[2]. ولم يفت الصليبيون عندئذ أن يتصلوا بنجاشي الحبشة المسيحى، ليتعاون معهم فى حرب الإسلام والمسلمين، عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة[3].

لم يكد الصليبيون ينصبون معسكرهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط، حتى أدركوا فداحة الخطأ الذى ارتكبوه. ففضلاً عن حصانة المدينة ومناعتها، امتدت سلاسل غليظة عبر النهر، من الشاطئ الشرقى إلى برج مقام على جزيرة قريبة من الشاطئ الغربى، لمنع المراكب الواصلة فى البحر المالح إلى الديار المصرية[4]. وما إن بلغ الملك الكامل الذى ينوب عن أبيه العادل فى حكم مصر خبر نزول الصليبيين، حتى عسكر بقواته جنوبى دمياط بمنزلة «العادلية»لمنعهم من العبور إلى دمياط، ثم أصدر أوامره إلى والى الغربية بجمع العربان وحشدهم للمشاركة فى صد العدوان الصليبى. هذا فى الوقت الذى أرسل فيه السلطان العادل الأيوبى ـ وكان موجوداً بمرج الصفر بدمشق ـ العساكر إلى مصر للدفاع عن دمياط فتوجهوا إليها أولا فأولا، حتى لم يبق من العساكر إلا

(1) King, op.cit., pp. 190-191' Stevenson, The Crusaders., p. 303.

(٢) سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧)، ص ٤٠.

(٣) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٩٤.

(٤) مفرج الكروب، جـ٣ ص ٢٥٨؛ الخطط ص ٢١٤؛ السلوك، جـ١ ص ١٨٨

القليل»[1]. ولم يكتف العادل بذلك، بل أمر ولده الملك الأشرف بالإغارة على المعاقل الصليبية ببلاد الشام، «فرحل في عساكره إلى حمص، ودخل إلى بلاد الفرنج ليشغلهم عن محاصرة دمياط»[2].

قضى الصليبيون ثلاثة أشهر، حاولوا خلالها الاستيلاء على برج السلسلة، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل. ويرجع السبب في ذلك إلى أن البرج كان بعيداً عن الشاطىء، فلم تستطع القذائف التي وجهتها السفن الصليبية إليه أن تنال منه، وحتى يمكن التغلب على تلك العقبة، صمم المهندسون برجاً متحركاً، وهو برج خشبي أقيم على سفينتين أحكم ربطهما معاً، صار بمثابة «حصن عائم» استطاع إيواء ثلاثمائة محارب، ثم جرى تغطيته بالنحاس والجلد[3]. وبفضل ذلك البرج المتحرك استطاع الصليبيون التغلب على مقاومة المسلمين والاستيلاء على برج السلسلة في آخر جمادى الأولى سنة ٦١٥هـ (٢٤ أغسطس ١٢١٨)، بعد أن شنوا هجوما كثيفا عليه، ثم قطعوا السلاسل الغليظة التي كانت تعترض مجرى النهر، وبذلك أضحى بوسع الأسطول الصليبي الوقوف تحت أسوار مدينة دمياط[4]. ولاريب أن سقوط برج السلسلة قد أحدث دويا هائلا في العالم الإسلامي. ويقال أن سقوط البرج كان السبب في موت السلطان العادل الأيوبي، فعندما طار الخبر إليه أثناء إقامته بمرج السفر، كانت الصدمة أقوى من أن يحتملها، «فدق بيده على صدره، ومرض مرض الموت»، إلى أن أدركته الوفاة في ٧ جمادى الآخر سنة ٦١٥هـ (٣١ أغسطس ١٢١٨).

وفي تلك الأثناء انسحب الكامل الأيوبي فجأة من العادلية إلى أشموم طناح، بسبب أنه اكتشف مؤامرة دبرها أحد قواده وهو عماد الدين بن المشطوب، لعزله وإحلال أخيه الفائز مكانه في الحكم، الأمر الذي جعل الموقف سيئا في الجانب الإسلامي. ولكن وصول الملك المعظم صاحب دمشق على رأس جيشه غير الموقف، إذ وقف إلى جانب أخيه

---

(١) مفرج الكروب، جـ٣ ص ٢٦١. (٢) مفرج الكروب، جـ٣ ص ٢٦٥.

(3) Lamb (H),The Crusafes. Flame of Islam) (London, 1936), p. 222.

(٤) الخطط، جـ١ ص ٢١٤؛ السلوك جـ١ ص ١٩٠؛

King, op. cit., p. 192'Mayer, op. cit., p. 222.

(٥) الخطط، جـ١ ص ٢١٤ ـ ٢١٥؛ السلوك،جـ١ ص ١٩٠.

الكامل، وتمكنا من القضاء على مؤامرة ابن المشطوب[1] من جهة، وإعادة تنظيم الجيش الذى عسكر فى فارسكور الواقعة على مسافة ستة أميال جنوبى دمياط من جهة أخرى.

وعندما وصلت الأخبار إلى السلطان الكامل الأيوبى بوصول نجدات من الغرب الأوربى للصليبيين، لم يلبث أن أرسل إليهم يعلن استعداده للتنازل عن بيت المقدس وتوابعها، باستثناء حصنى الكرك والشوبك لمناعتهما وأهميتهما، فضلا عن تسليم الصليب المقدس الذى استولى عليه صلاح الدين فى سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧)، وإعادة جميع الأسرى، مقابل جلائهم عن دمياط. وقد وافق الملك الصليبى حنا دى برين وباروناته والنبلاء القادمون من الغرب الأوربى على قبول هذا العرض السخى، ولكن المندوب البابوى بلاجيوس فى المعسكر الصليبى رفضه، بحجة أنه من الخطأ التوصل إلى اتفاق مع الكفار على حد زعمه، ففشلت المفاوضات[2]، الأمر الذى يدل على أن هدف الصليبيين لم يكن دينيا قاصرا على استعادة بيت المقدس، ولو كان غرضهم دينيا لما ترددوا فى قبول ما عرضه عليهم الكامل الأيوبى. وكان أن زحف الصليبيون على دمياط التى ازدادت حالة حاميتها سوءاً، وعانى سكانها المجاعة والأمراض، فاستولوا عليها دون أن يواجهوا مقاومة تذكر فى ٢٥ شعبان سنة ٦١٦هـ (٥ نوفمبر ١٢١٩)، وارتكبوا كثيراً من أعمال السفك والقتل[3]، وفى ذلك يقول المقريزى[4]: «ولما أخذوا البلد (دمياط) وضعوا السيف فى الناس، فتجاوزوا الحد فى القتل، وأسرفوا فى مقدار القتلى».

وعقب سقوط دمياط اشتدت الخلافات بين الملك يوحنا دى برين والمندوب البابوى بلاجيوس، إذ أصر الأخير على أن يتولى قيادة الحملة باعتباره نائبا للبابا، فأبحر يوحنا عائداً إلى عكا فى أوائل سنة ١٢٢٠م، وبذلك صارت قيادة الحملة فى أيدى بلاجيوس[5].

---

(١) الخطط، جـ١ ص ٢١٥ ـ ٢١٦؛ النجوم الزاهرة، جـ٦ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٢) مفرج الكروب، جـ٤ ص ٩٥؛

Mayer, The Crusades. pp. 223-224.r

(3) Stevenson, The Crusders, pp.304-305.

(٤) الخطط، جـ١ ص ٢١٦.

(5) Mayer,The Crusades., p. 225.

حدث هذا في الوقت الذى أقام السلطان الكامل معسكره في موضع يقع على الضفة الشرقية للنيل عند التقائه بالبحر الصغير، أطلق عليه المنصورة.

وكان أن قرر بلاجيوس الزحف على القاهرة، فأرسل إلى حنا دى برين يرجوه العودة للمشاركة في الزحف، فأتى حنا إلى دمياط حتى لايتهم بالتقصير وعدم التعاون مع الصليبيين. وفي جمادى الأولى سنة ٦١٨هـ (يوليو ١٢٢١) تحرك الجيش الصليبى نحو فارسكور، ثم واصل زحفه حتى بلغ البحر الصغير استعداداً للزحف على القاهرة. وهنا أمر الكامل بفتح السدود وقطع الجسور، فتدفقت مياه النيل على الأراضى التى كان على الصليبيين اجتيازها، فغرقت مساحات شاسعة من الأراضى، ووجد الصليبيون أنفسهم محاطين بالمياه والوحل والطين، الأمر الذى عاق تقدمهم، وعزلهم عن قاعدتهم العسكرية دمياط، ولم يعد أمامهم إلاطلب الصلح في رجب سنة ٦١٨هـ (أواخر أغسطس ١٢٢١)، فوافق الكامل، ورضى الصليبيون بالجلاء التام عن مصر دون قيد أو شرط[١]، وفي ٨ سبتمبر سنة١٢٢١م أبحر الصليبيون الغربيون إلى أوربا، في حين عاد حنا دى برين إلى الشام ترافقه مرارة الفشل[٢].

الحملة الصليبية السابعة على مصر:

توفى السلطان الكامل الأيوبى في سنة ٦٣٥ـ (٩١٢٣٨) وبوفاته انقسم البيت الأيوبى على نفسه، وفتح باب المنازعات والحروب الأهلية بين ولديه. فقد تولى السلطنة بالقاهرة العادل الثانى بن الكامل، ولم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من عمره، منصرفا إلى حياة اللهو والفجور، «واتخذ لنفسه جماعة يساعدونه على ما هو بصدده من اللعب واللهو، وأبعد أهل الرأى والمعرفة، ومن كان أبوه يعتمد عليهم في أموره...»[٣]. غير أن الأبن الأكبر للكامل وهو الصالح نجم الدين أيوب الذى كان وقتذاك بشمال الشام رفض الاعتراف بسلطنة أخيه، وعزم على أن يحل محل أبيه في السلطنة بالقاهرة. وفي النزاع

(١) مفرج الكروب، جـ٤ ص ٩٦ ـ ٩٩.

(2) Mayer, op. cit., pp. 226-227' Stevenson, op. cit., pp.306-307.

(٣) مفرج الكروب، جـ٥ ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

الذى نشب بين الأخوين استعان كل منهما بأنصار من البيت الأيوبى، وكان الأمراء الأيوبيون قد ضافوا ذرعاً بتصرفات العادل الثانى، فقبضوا عليه فى ٩ ذى الحجة سنة ٦٣٧هـ (نهاية مايو ١٢٤٠) وعزلوه، واستدعوا الصالح أيوب لاعتلاء السلطنة بدلا منه، فحضر إلى مصر ليصبح سلطاناً عليها(١).

وفى عهد الصالح نجم الدين أيوب تعرضت مصر لغزوة صليبية بقيادة ملك من أشهر ملوك أوربا فى ذلك الحين، وهو لويس التاسع ملك فرنسا، وهى التى درج المؤرخون على تسميتها بالحملة الصليبية السابعة. وكان لويس قد وقع فريسة للمرض، فنذر أثناء مرضه أن يقوم بحملة صليبية جديدة إلى الشرق إذا شفى من مرضه، ولم يكد يسترد عافيته حتى شرع فى إعداد الحملة(٢). وكان الصالح أيوب مريضا فى دمشق عندما بلغته أخبار تلك الحملة، فحمل إلى مصر، ونزل بأشموم طناح على الضفة الشرقية للنيل بالقرب من دمياط، وأخذ فى الاستعداد بالأقوات والمؤن والأسلحة، كما عمل على تحصين مدينة دمياط(٣).

أبحر ملك فرنسا على رأس حملته فى جمادى الأولى سنة ٦٤٦هـ (٢٥ أغسطس ١٢٤٨)، ووصل إلى جزيرة قبرص فى ١٧ سبتمبر من نفس العام، حيث قضى ثمانية شهور، حصل خلالها على كميات ضخمة من المؤن لقواته، واستقر الرأى على أن تكون مصر هى الهدف الرئيسى الذى يقصده الصليبيون. وفى صفر سنة ٦٤٧هـ (نهاية مايو ١٢٤٩) تحركت حملة لويس السابع من ميناء ليماسول نحو مصر، فى الوقت الذى كانت الدولة الأيوبية فى مصر الشام، لاتزال تعانى الكثير من المتاعب بسبب المنازعات الدائرة بين أمراء البيت الأيوبى(٤).

---

(١) مفرج الكروب، جـ٥ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٥.

(2) Petit-Dutaillis (Charles), "Saint Louis" in Camb. Med. Hist. Vol. VI, (London, 1957). p.357.

(٣) الخطط، جـ١ ص ٢١٨؛ السلوك، جـ١ ص ٣٣٣.

(4) Mayer, The Crusades., p. 262.

أخيراً ألقت سفن الحملة الصليبية السابعة مراسيها أمام البر الغربي لدمياط في ٢٠ صفر سنة ٦٤٧هـ (٤ يونيو ١٢٤٩)، وقبل أن يقوم لويس التاسع بأية عملية حربية، أرسل كتابا إلى السلطان الصالح أيوب مليئا بعبارات التهديد، مستهدفاً التأثير في الروح المعنوية للمسلمين، جاء فيه: «وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء»[١]. ولكن السلطان لم يأبه بتهديد لويس، ورد عليه رداً عنيفا قائلا: «فلو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا، وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولابد أن تزل بك القدم، في يوم أوله لنا وآخره عليك..»[٢]. ولما كان السلطان مقيما بأشموم طناح يعاني آلام المرض العضال، ولايستطيع التحرك لإدارة دفة الحرب ضد الصليبيين، فقد عهد إلى وزيره فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بتولي قيادة الجيش ومنع الصليبيين من النزول إلى البر، كما أمر عرب بني كنانة المعروفين بفروسيتهم بالبقاء في دمياط للدفاع عنها إلى جانب الحامية الموجودة بها.

بدأت عملية إنزال الجيوش الصليبية إلى الشاطىء في ٥ يونيو سنة ١٢٤٩م، ودخل معهم فخر الدين بن الشيوخ في معركة عنيفة لمنعهم من النزول، ولكنه لم ينجح، وأجبر على الارتداد إلى دمياط، الأمر الذي بعث الفزع والخوف في قلوب أهلها، فتركوا المدينة، «وخرجوا منها على وجوههم في الليل لايلتفتون إلى شيء، وتركوا المدينة خالية من الناس، ولحقوا بالعسكر في أشموم وهم حفاة عرايا، جياع حيارى، بمن معهم من النساء والأولاد»[٣]، كما أن عربان بني كنانة تركوا دمياط هاربين. وبذلك صارت دمياط خالية من سكانها وحماتها، فدخلها لويس في ربيع الأول سنة ٦٤٧هـ (٦ يونيو ١٢٤٩)، واستولى على ما حوته من الأسلحة والذخائر والأقوات والأموال والأمتعة وغير ذلك[٤].

---

(١) السلوك، جـ١ ص ٣٣٤.
(٢) السلوك، جـ١ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥.
(٣) الخطط، جـ١ ص ٢١٨ ـ ٢١٩؛ السلوك جـ١ ص ٣٣٥.
(٤) الخطط، جـ١ ص ٢١٩؛ السلوك جـ ص ٣٧٧.

ونتيجة لذلك رأى السلطان التراجع مع جيشه جنوبا إلى المنصورة للتحصن ضد الصليبيين، فحمل فى سفينة إليها، وشرع فى إقامة الاستحكامات حولها.

ولم يستغل الملك لويس التاسع الموقف الناجم عن الاستيلاء السهل على دمياط، بالزحف السريع جنوبا نحو القاهرة، ولاسيما أن الجيش الصليبى لم يكن بحاجة إلى راحة بعد دخوله دمياط دون قتال. وقرر لويس أن يقضى شهور الصيف فى دمياط، إلى أن تأتى النجدات التى وعده بها أخوه الفونسو Alfonso، كما أراد أن يجنب حملته ويلات ما ارتطمت به حملة حنا دى برين وبلاجيوس من عراقيل مائية منذ ثلاثين سنة، بسبب زحف تلك الحملة أثناء موسم فيضان النيل[1]، ولم يعلم لويس أن مياه الفيضان لاتصل إلى الدلتا قبل أواخر شهر يوليو من كل عام، أى أنه كان باستطاعته أن يزحف جنوبا نحو القاهرة قبل ذلك الميعاد بمدة طويلة[2]. غير أن ركود الحملة أثناء شهور الصيف سنة ١٢٤٩م، وهى شهور الحرارة الشديدة والرطوبة فى أرض الدلتا، أفسد الروح العسكرية للجند، وأدى إلى ظهور بعض الأمراض الوبائية بين صفوفهم، فضلا عن نفاذ الأقوات، فى جو من البطالة الرتيبة، والتدهور الخلقى[3]، والانغماس فى اللذات وحياة الفجور.

وبعد أن جاءت النجدات التى انتظرها لويس، استعد فى أواخر أكتوبر سنة ١٢٤٩م للزحف على القاهرة، لاسيما بعد أن هبط النيل، ولم يكد يشرع فى السير جنوبا، حتى أراح الموت السلطان الصالح أيوب من مرضه العضال فى ١٥ شعبان سنة ٦٤٧هـ (٢٢ نوفمبر ١٢٤٩). ولاشك أن وفاته فى تلك الظروف الصعبة التى كانت تمر بها مصر، تعتبر خسارة فادحة، وقد أثنى عليه المؤرخ أبو المحاسن[4] قائلا: «وفى الجملة هو عندى أعظم ملوك بنى أيوب، وأجلهم، وأحسنهم رأياً وتدبيراً ومهابة وشجاعة وسؤدداً بعد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب».

---

(1) Mayer, The Crusades., p. 263.

(٢) محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة (القاهرة ١٩٦١)، ص١٢٠؛ Guth)Paul), Saint Louis Roi de France (Paris, 1980), p. 97.

(٣) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٤) النجوم الزاهرة، جـ٦ ص ٣٣٦ ٣٣٧.

وخشية أن تؤثر وفاة الصالح أيوب فى الروح المعنوية لجنده، ويقع الاضطراب فى صفوفهم، أخفت زوجته شجر الدر الأرمينية الأصل خبر وفاته، ولم يعلم بها إلا إثنان من المقربين إليها، وهما قائد الجيش فخر الدين بن شيخ الشيوخ والطواشى جمال الدين محسن الذى كان أقرب الناس إلى السلطان(١). وكان للسلطان الصالح أيوب ابن واحد اسمه تورانشاه ينوب عنه فى حصن كيفا وديار بكر فى إقليم الجزيرة، فأرسلت إليه تستدعيه على عجل ليتولى دفة الأمور، عل الرغم من أنه لم يكن ولدها(٢)، مما يدل على حرصها الحفاظ على وحدة الدولة الأيوبية وتماسكها أمام الصليبيين فى ذلك الوقت العصيب.

على أن خبر وفاة السلطان الصالح أيوب لم يلبث أن تسرب إلى لويس التاسع، فتحرك بجيشه على وجه السرعة من دمياط، وسار على الضفة الشرقية لفرع دمياط بحذاء النيل جنوبا، حتى وصل إلى نقطة تفرع بحر أشموم (البحر الصغير)، من فرع دمياط، فوجدوا النيل يفصل بينهم وبين المنصورة، وهى منطقة مليئة بالعقبات التى تجعل المرور فيها صعبا. ولم يلبث الصليبيون أن عبروا مخاضة عند قرية سلمون، وشنوا هجوما مباغتا على المعسكر الإسلامى الذى يقع على مسافة ميلين خارج المنصورة فى ٤ ذى القعدة ٦٤٧هـ (٨ فبراير ١٢٥٠)، وقتل فى هذا الهجوم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وكثير من الفرسان، وتفرق المسلمون يمينا وشمالا(٣)، «وكادت الكسرة أن تكون بالكلية»(٤).

على أن روبرت دى أرتوا شقيق لويس التاسع ارتكب عندئذ حماقة لاتغتفر، إذ أراد أن يتعقب القوات الإسلامية التى فرت إلى مدينة المنصورة، أملا فى القضاء عليها سريعا، والانفراد وحده بما حققه دون سائر الجيش الصليبى، على الرغم مما فى ذلك من مخالفة لتعليمات أخيه الملك لويس(٥). وفى تلك الأثناء استطاع المماليك البحرية بزعامة بيبرس البندقدارى الصالحي أن يستجمعوا قواهم ويوحدوا صفوف الجند بعد موت ابن شيخ

(١) السلوك، جـ١ ص ٣٤٣.
(٢) الخطط، جـ١ ص ٢١٩.
(3) Guth, op. cit., pp.104-105' Stevenson, The Crusaders., p. 327.
(٤) السلوك، جـ١ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.
(5) Lanb, The Flame of Islam., p. 354.

الشيوخ. وكان أن دخل الصليبيون مدينة المنصورة، وتوغلوا في أزقتها ودروبها وحاراتها، فخرج المماليك البحرية من كمائنهم وأطبقوا على الصليبيين وسدوا عليهم الطرق والمنافذ. وقد أسهم أهالي المنصورة بنصيب وافر في إبادة الفرسان الصليبيين المبعثرين في مدينتهم على غير هدى، إذ أخذ بعضهم في عرقلة مسيرة الصليبيين وسد الطريق بكتل من الخشب، فضلا عن رميهم بالحجارة والطوب وغير ذلك من شبابيك البيوت وسطوحها، وأخذتهم السيوف من كل جانب، فلم يفلت إلا عدد قليل من الفرسان فروا راجلين إلى ضفاف النيل، ولم يلبثوا أن غرقوا في مياهه، وكان في مقدمة الضحايا روبرت كونت أرتوا شقيق الملك لويس وثلاثمائة من رجاله[١]. وهكذا انتصر المسلمون على الصليبيين في ظهر يوم الثلاثاء ٥ ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ (٨ فبراير ١٢٥٠)، وهو اليوم الذى عرف في التاريخ باسم يوم معركة المنصورة. وكانت تلك المعركة الضربة النهائية القاتلة لآمال الغرب الأوربي في السيطرة على بيت المقدس، ويمكن أن نعتبرها تاريخ نهاية الحروب الصليبية[٢].

وعندما علم لويس التاسع بخبر الكارثة التى حلت بفرسانه، لم يفقد شجاعته ورباطة جأشه، بل استطاع أن يعيد النظام إلى صفوف جيشه. ولكن موقف الصليبيين في الواقع أخذ يزداد سوءاً، بسبب قلة المؤن وانتشار الأوبئة والأمراض في معسكرهم، حتى أن لويس نفسه لم يسلم من المرض. حدث هذا في الوقت الذى وصل توران شاه إلى المعسكر الإسلامي في المنصورة في ٢١ ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ (٢٥ فبراير ١٢٥٠)، بعد أن نودى به سلطان في دمشق. ولاشك أن وصول توران شاه قد رفع الروح المعنوية عند الجند، وبعث فيهم النشاط والحماس. فقد أمر بسحب عدد من المراكب المصرية الأيوبية الراسية جنوبا، وتفكيكها لتحمل قطعا على ظهور الجمال، ثم أعيد تركيبها وأنزلت في الماء شمالي موضع الصليبيين، لقطع الطريق على السفن الآتية بالمؤن والإمدادات من دمياط إلى معسكر الصليبيين[٣].

---

(1)Guth, Saint Louis, pp. 105-108; Lamb, TheFlame of Islam, Vol. II, pp. 355-356.

(2) Treece, The Crusades., p. 192.

(3) Lamb, op. cit.,Vol. II, p. 963.

ووسط تلك الظروف القاسية التى أحاطت بملك فرنسا، استقر رأيه فى مستهل أبريل سنة ١٢٥٠م على التراجع بقواته إلى دمياط.ويبدو أن لويس أدرك صعوبة التراجع، بسبب وجود السفن الإسلامية التى تعرقل خطوط مواصلاته من ناحية، وانتشار المجاعة والأمراض بين صفوف جنده من ناحية أخرى(١). لذلك اضطر إلى الاتصال بتوران شاه، وعرض عليه استعداده للانسحاب بجيشه شمالا إلى دمياط، تمهيداً للجلاء عن مصر، شريطة أن يتنازل السلطان عن مدينة بيت المقدس وبعد المدن الساحلية فى فلسطين، ولكن توران شاه رفض هذا العرض رفضاً قاطعا، لأن وضع المسلمين بعد معركة المنصورة اختلف كلية عن وضعهم قبلها.

وبعد أن فقد لويس التاسع الأمل فى الوصول إلى اتفاق يريق ماء وجهه مع توران شاه، فكر فى العودة سريعا إلى دمياط، لتخليص حملته من الأوبئة والأمراض التى أوشكت أن تفنيها. فأصدر أوامره بالإنسحاب فى مستهل المحرم سنة ٦٤٨هـ (٥ أبريل ١٢٥٠). غير أن المماليك البحرية لم يتركوا الصليبيين يتراجعون فى سهولة، بل عملوا على مطاردتهم، وعند فارسكور أطبق المماليك على الجيش الصليبى، فحلت به هزيمة ساحق، ووقع فى الأسر. وكان من جملة الأسرى الملك لويس الذى سيق إلى المنصورة، حيث سجن فى دار القاضى إبراهيم بن لقمان، وعهد إلى الطواشى صبيح بحفظه والعناية به.

وبقى لويس فى الأسر، إلى أن تقرر أن يفتدى نفسه بتسليم دمياط ودفع مبلغ مقداره خمسمائة ألف دينار، ولما تم الاتفاق استرد المسلمون دمياط فى ٢٦ المحرم سنة ٦٤٨هـ (٣٠ أبريل ١٢٥٠). على أن هذا النصر كلف السلطان توران شاه حياته، بسبب سلوكه تجاه زوجة أبيه شجر الدر ومماليك أبيه، فقد أعرض عنهم وأساء إليهم وتوعدهم، «وصار إذا سكر فى الليل جمع ما بين يديه من الشمع وضرب رؤسها بالسيف حتى تتقطع، ويقول: «هكذا أفعل بالبحرية»(٢)، مع أنهم أصحاب الفضل فى تحقيق النصر على الصليبيين. ونتيجة لذلك قرر المماليك البحرية التخلص من نوران شاه قبل أن يتخلص هو منهم(٣)،

---

(1) Mayer, The Crusdes, p. 264.

(٢) السلوك، جـ١ ص ٣٥٩.

فاتفقوا على قتله، ففى ٢ مايو أقام توران شاه سماطا بعد نزوله بفارسكور، فتقدم إليه بيبرس البندقدارى وضربه بالسيف، فهرب إلى البرج الخشب الذى نصب فى النيل، وهويقول: «ما أريد ملكا، دعونى أرجع إلى الحصن يا مسلمين، ما فيكم من يصطنعنى ويجيرنى؟» فأسرع المماليك إلى مطاردته، وظلوا يضربونه بالسيف «حتى مات جريحا حريقا غريقا»[1] بعد أن حكم واحداً وستين يوماً. وبموته أجمع المماليك على تنصيب شجرة الدر سلطانة عليهم لمقدرتها ورجاحة عقلها، ولعلمهم أنها كانت تشارك زوجها الصالح أيوب فى تدبير أمور الدولة. وهى التى قامت بإدارة شئون الحكم فى الفترة الواقعة بين وفاة زوجها ومقدم ابنه توران شاه إلى مصر، فوافقتهم على ذلك، وخطب لها على منابر مصر والقاهرة. وبذلك سقطت الدولة الأيوبية، وقامت دولة المماليك فى مصر والشام، ودخلت مصرمرحلة جديدة من استقلالها وشخصيتها فى تحريك أحداث العالم الإسلامى فى العصور الوسطى.

وعلى أية حال، عاشت الدولة الأيوبية فى مصر واحداً وثمانين عاماً، برزت فيها شخصية مصر، فغدت أعظم دولة فى الشرق الأدنى، وقلب المقاومة فى العالم الإسلامى ضد الصليبيين. ويكفى الأيوبيين فخراً أن دولتهم فى مصر بدأت عهدها بانتصارها على الصليبيين، وانتهى عهدها بانتصارها عليهم أيضا، وبقيت مدينة بيت المقدس فى حوزة المسلمين.

بعض مظاهرالحضارة فى مصر زمن الأيوبيين:

فى الوقت الذى كان الأيوبيون يجاهدون ضد الصليبيين فى بلاد الشام ومصر، ويزلزلون الأرض تحت أقدامهم، عملوا على استتباب الأمن فى مصر، وتوفير الرخاء الاقتصادى لها، بدليل انعدام ثورات الفلاحين فى مصر فى العصر الأيوبى كله.

ومن المعروف أن مدينة القاهرة كانت مقر حكم الفاطميين ومركزهم الإدارى وعاصمتهم، بيد أنها لم تكن مدينة عامة، فقد كان الأهالى يعيشون فى مدينة الفسطاط التى غلب عليها إسم مصر آنذاك. وبمعنى آخر لم يسمح لأحد بدخول القاهرة التى كانت

---

(١) السلوك، جـ١ ص ٣٥٩.

تغلق أبوابها إلا بإذن خاص، فيما عدا أولئك الذين كانوا يخدمون الخليفة الفاطمى[1].
وعندما سقطت الدولة الفاطمية على أيدى الأيوبيين، نلاحظ أن صلاح الدين لم يقم بتأسيس عاصمة جديدة جريا على سياسة من سبقه من حكام مصر. ولعل ذلك يرجع إلى أنه قضى وقتاً قصيراً فى القاهرة، لانشغاله معظم سنوات حكمه فى خوض معارك الجهاد ضد الصليبيين فى بلاد الشام، ومات ودفن فى دمشق. على أن صلاح الدين ترك بصمة واضحة فى القاهرة، فقد بدأ فى إنشاء قلعة الجبل فى سفح تلال المقطم المطلة على مدينة القاهرة، فضلا عن أنه صاحب الفضل فى توحيد القاهرة الفاطمية والفسطاط وبعض الأحياء الطارئة المختلفة، وربطها بسور عظيم وهو سور القاهرة، ليشكلوا جميعا مدينة واحدة، ولذلك يمكن اعتبار صلاح الدين مؤسس القاهرة الحديثة[2]:

الحياة الدينية:

عندما انتقل الحكم من الفاطميين الشيعة إلى الأيوبيين السنة، كان أول ما عهد إليه صلاح الدين وخلفاؤه هو إغلاق معاهد الدعوة الشيعية ومذاهبها، وتأسيس المدارس السنية. فأنشأ صلاح الدين المدارس على غرار مدارس حلب ودمشق فى القاهرة والإسكندرية وغيرها من المدن الكبرى[3]. وعلى الرغم من أن صلاح الدين كان شافعى المذهب، فقد حرص على أن يكون لكل مذهب مدارسه وقضاته، وبقيت هذه العادة من بعده، ولم يضعفها إلا الحكم العثمانى فى تعصبه للمذهب الحنفى، وساعدته هذه المدارس على التخلص من كل آثار الشيعة، وحلت محل الأزهر الذى لم يشترك فى نشر التراث السنى إلا بعد فترة[4]. ومن المدارس التى أنشأها صلاح الدين المدرسة المعروفة بالصالحية الناصرية بجوار مدافن الإمام الشافعى، وقد زارها الرحالة ابن جبير[5]، ووصفها قائلا: «وبنى بإزائه

---

(1) Marlowe, (John), Four Aspects of Egypt. (London, 1966), pp.52-53.

(2) Ibid.,p. 53.

(٣) محمد مصطفى زيادة: «الدولة الأيوبية»، ص ٤٧٧.

(٤) مصطفى السفا: «الحياة الأدبية فى مدينة القاهرة»، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس ـ أبريل ١٩٦٩ (القاهرة ١٩٧١)، جـ٣ ص ٦٢.

(٥) رحلة ابن جبير، ص ٢٢.

مدرسة لم يُعْمَر بهذه البلاد مثلها، ولا أوسع ولا أحفل بناء، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته».

ويعتبر العصر الأيوبى فى مصر امتداداً للعصرين الطولونى والإخشيدى، فيما يتعلق بالعلوم التى نهض بها المصريون، وهى علوم الحديث والتفسير والقراءات والنحو والبلاغة. وقد أحرز العصر الأيوبى تقدماً ملموساً فى تلك العلوم على أيدى علماء كان لهم شهرتهم ومؤلفاتهم، وقد أعانهم على ذلك حكام الدولة الأيوبية الذين كانوا يميلون بطبعهم إلى العلم ويحبون الفقهاء، بل كان منهم الفقيه والنحوى والكاتب والشاعر والمؤرخ، ولولا ذلك لما استطاع العصر الأيوبى أن يحقق نهضة علمية زاهرة[1].

ومن أبناء مصر الذين نبغوا فى علم التفسير ابن المنير الإسكندرانى المتوفى سنة ٦٨٣هـ (١٢٨٤)، وهو أحد الأئمة المتبحرين فى التفسير والفقه والبلاغة. وكان الشيخ عز الدين عبد السلام يقوله عنه: «الديار المصرية تفخر برجلين فى طرفيها: ابن دقيق العيد بقوص، وابن المنير بالإسكندرية»[2]. ومن الذين أقاموا فى مصر واتخذوها وطنا لهم أبو طاهر عماد الدين السلفى، الذى جاء من الشام إلى مدينة الإسكندرية سنة ٥١١هـ، وظل مقيما بها إلى أن توفى فى سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠)، ونال رعاية الفاطميين والأيوبيين؛ وقد نبغ السلفى فى علم الحديث، ولم يكن فى مصر من يضارعه فى هذا العلم، بل لقد تفرد به فى العالم الإسلامى كله[3]. وكذلك أبو محمد القاسم بن خلّف الشاطبى المقرىء الضرير المتوفى سنة ٥٩٠هـ (١١٩٤)، أحد الأعلام فى عصره، كان من شاطبة وتعلم بها وارتحل للحج، فسمع من السلفى واستوطن مصر عام ٥٧٢هـ، واشتهر اسمه وقصده الطلبة والناس من كل النواحى، وكان إماما علامة كثير الفنون، علما فى القراءات، حافظاً للحديث»[4].

---

(١) عبد اللطيف حمزة: الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيىء الحملة الفرنسية (القاهرة بدون تاريخ)، ص ٣٥.

(٢) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٣١٦.

(٣) حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٥٤؛ أحمد بدوى: الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية، ص ١١٩.

(٤) محمد عبد المنعم خفاجى: التراث الروحى للتصوف الإسلامى فى مصر، ص ٦٨.

وقد رأينا من قبل أن مصر فى عصر الولاة عرفت التصوف الإسلامى، وظهر فيها أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصرى المعروف بذى النون، الذى كان أحد أقطاب الصوفية ومؤسسها فى مصر. وقد ظل التصوف فى مصر ظاهرة فردية حتى بداية العصر الأيوبى فى أواخر القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى)، ذلك أن صلاح الدين الأيوبى لم يكتف بإنشاء المدارس السنية للقضاء على المذهب الشيعى، بل رأى أن يحارب المذهب الشيعى بنفس سلاحه، ونعنى بذلك التصوف، فقد استغل الفاطميون التصوف لنشر مذهبهم. ومن الثابت أن صلاح الدين استغل هذه الناحية نفسها للقضاء على آثار المذهب الشيعى عن طريق «التصوف السنى»، ورغم ذلك ظل التصوف هادئا قليل الأثر، ولم يشتد تياره فى الحياة الاجتماعية والدينية إلا فى عصر سلاطين المماليك[١].

وكان صلاح الدين الأيوبى أول من أنشأ بيتا للصوفية فى مصر فى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤)، وهو الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، وقد جعل صلاح الدين هذه الخانقاه للفقراء الصوفية القادمين من البلاد الإسلامية، وأوقف عليهم عدة جهات، ورتب لهم كل يوم طعاما ولحما وخبزا، وبنى لهم حماما بجواره، فكانت أول خانقاه أقيمت بمصر، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ. وشرط صلاح الدين أن من مات من الصوفية وترك عشرين ديناراً فمادونها كانت للفقراء، ولايتعرض لها الديوان السلطانى، ومن أراد السفر منهم يعطى تسفيرة[٢]. ويشير ابن جبير[٣] إلى أن «الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرّغ خواطرهم لعبادته من الفكرة فى أسباب المعايش، وأسكنهم فى قصور تذكرهم قصور الجنان.. وهم على طريقة شريفة، وسنة فى المعاشرة عجيبة، وسيرتهم فى التزام رتب الخدمة غريبة، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوّق جميلة.. وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة».

الحياة الأدبية والعلمية:

اشتهر الأيوبيون بحبهم للعلماء والأدباء منذ قيام دولتهم فى مصر، فقرب صلاح

---

(١) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) الخطط، جـ٢ ص٤١٤ ـ ٤١٥.

(٣) رحلة ابن جبير، ص ٢٥٦.

الدين الأيوبى الأدباء إليه، ويكفى الإشارة إلى أن القاضى الفاضل المتوفى عام ٥٩٦هـ (١٢٠٠) كان وزيره. ووصل إلى مكانة سامية في الدولة الأيوبية، وكتب عدداً ضخم من الرسائل كان لها قيمة تاريخية كبرى إلى جانب قيمتها الأدبية. وعرف القاضى الفاضل كيف يخرج بمصر من عزلتها الثقافية، فاجتذب إليها العلماء والباحثين من مختلف الأقطار[١]. ومن أشهر الأدباء في العصر الأيوبى العماد الأصفهانى المتوفى سنة٥٩٧هـ(١٢٠١)، الذى قال عنه المقريزى[٢]: "من العلماء المتقنين فقها وخلافا وأصولا ونحواً ولغة. وله معرفة بالتواريخ وأيام الناس. وله فى البلاغة والإنشاء والنظم والنثر اليد الطولى والباع الممتد. وإليه تشد الرحال في ذلك وعليه تعقد الخناصر، وكان من محاسن الزمان لم تر العيون مثله. وللعماد الأصفهانى من الكتب التاريخية كتاب «البرق الشامى»، وقد سماه بهذا الإسم لأنه شبه أوقاته التى قضاها فى الشام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها ووضع كتابا فى أخبار الدولة السلجوقية سماه «نصرة الفطرة»، وألف كتاب «خريدة القصر، وجريدة العصر»، ذكر فيه تراجم أدباء القرن السادس الهجرى، وله كتاب سماه «نحلة الرحلة»، ذكر فيها اختلال الأحوال بعد موت صلاح الدين، واختلاف أولاده[٣].

ومن أشهر المؤرخين المصريين فى العصر الأيوبى على بن يوسف القفطى، ولد بمدينة قفط من أعمال قنا سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢) ومات بحلب سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨)، درس فى حداثته العلوم العربية الإسلامية، وكان جمّاعة للكتب، حريصا عليها، وساعدته هذه العادة الحميدة على تأليف عدد كبير من للكتب أغلبها فى التاريخ، لم يصلنا منها إلا كتاب «أخبار العلماء بأخبار الحكماء»[٤]، وله كتاب تاريخ النحاة المعروف باسم «إنباه الرواة على أنباء النحاة»[٥].

---

(١) مصطفى السقا: «الحياة الأدبية فى مدينة القاهرة»، ص ٦١.

(٢) المقفى، جـ٧ ص ٢٠٥.

(٣) عبد اللطيف حمزة: المرجع السابق، ص ٣٢٢_٣٢٣؛ أحمد بدوى: المرجع السابق، ص ٢٧١_٢٧٢.

(٤) أحمد بدوى: الحياة العقلية فى عصر الصليبية، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥. وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن زكى أن القفطى كان طبيبا، والحقيقة أنه لم يكن له صلة بالطب. أنظر مقالته «من تراث مصر العلمى فى العصر المملوكى»، فى كتاب بحوث فى تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٣٤.

(٥) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٥٥٤.

وقد نبغ فى مصر زمن الأيوبيين عدد من الشعراء المبرزين، نذكر منهم القاضى السعيد أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١)، له ديوان موشحات اسمه «درّ الطراز»، به موشحات من نظمه ومن نظم شعراء من المغرب والأندلس،وله كذلك ديوان شعر يشتمل على أكثر من ثمانين قصيدة مدح فيه القاضى الفاضل وصلاح الدين وأولاده[١]. ومنهم على بن المنجم المتوفى سنة ٦١٦هـ (١٢١٩)، كان أشعر أهل زمانه، وأفضل أقرانه، وكان من أعلام أدباء مصر المشاهير[٢]. ومنهم أيضا جمال الدين بن مطروح المتوفى سنة ٦٥٠هـ (١٢٥٢)، وأصله من صعيد مصر، ولد ونشأ به، ثم قدم إلى القاهرة، وبرع فى الأدب والكتابة، واتصل بخدمة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وهو أحد الشعراء المجيدين، وديوان شعره مشهور[٣]. ومن أشهر شعراء مصر فى العصر الأيوبى، بهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨)، ولد بمكة سنة ٥٨١هـ، ثم رحل إلى مصر أول عهده بالشباب، واختار مدينة قوص بالصعيد للإقامة بها، ثم تركها إلى القاهرة، واتصل بخدمة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، فكان رئيسا للكتاب بديوان الإنشاء[٤]. وينقسم شعر البهاء زهير إلى قسمين، أولهما الشعر الرسمى الذى قيل فى مدح السلاطين والملوك والأمراء وكبار رجال الدولة، وثانيهما الشعر التلقائى أوالذاتى، وفيه الغزل ووصف مجالس الشراب والهجاء والسخرية، وفى هذا القسم تتجلى الروح المصرية فى شعر البهاء زهير، ويظهر تأثره بالبيئة المصرية والتقاليد والعادات المصرية[٥].

وقد أنجبت مدينة أسوان ثلاثة شعراء بارزين ظهرو فى العصر الأيوبى، أولهم الحسن بن على بن إبراهيم الأسوانى المعروف بالمهذب بن الزبير المتوفى سنة ٥٦١هـ (١١٦٦)، وقد ذكره العماد الأصفهانى فى الخريدة قائلا: «لم يكن بمصر فى زمانه أشعر منه، وأنه أعرف به من أخيه الرشيد»[٦]. أما ثانى الشعراء الذين أنجبتهم أسوان فهو على بن أحمد بن عرام

---

(١) عبد اللطيف حمزة: المرجع السابق، ص ١١٥.
(٢) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٥٦٥.
(٣) النجوم الزاهرة، جـ ٧ ص ٢٧؛ حسن المحاضرة، جـ١ ٥٦٧.
(٤) النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ٦٢.
(٥) عبد اللطيف حمزة: الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية، ص ١٣٦ ـ ١٤٠.
(٦) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٥٦٣

الأسوانى، وقد أثنى عليه العماد ووصفه بأنه شيخ من أهل الأدب بأسوان، وقد مات فى حدود سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤)[١]. أما ثالث الشعراء الذين ظهروا فى أسوان، فهو فخر الدولة الأسوانى المتوفى بحلب سنة ٥٨١هـ (١١٨٥)، وقد كان شاعراً وكاتبا، كتب الإنشاء للسلطان صلاح الدين الأيوبى، ثم لأخيه العادل الأيوبى[٢].

وفى مصر زمن الأيوبيين، كان العلماء يواصلون أبحاثهم العلمية ويؤلفون كتبهم التى استفادت منها أجيال الباحثين فى العصور التالية. ومن علماء مصر الأيوبية قيصر بن عبد الغنى الأصفونى، ولد بأصفون من أعمال قنا بصعيد مصر سنة ٥٥٤هـ، وتوفى بدمشق سنة ٦٤٩هـ (١٢٥١)، كان عالما بالرياضيات والفلك والهندسة والموسيقى[٣]، صنع كرة فلكية (سماوية) انتقلت إلى خزينة كاردينال يورچينا فى ڤلليترى حتى عام ١٨٠٩م، ثم آلت إلى متحف نابولى الوطنى حيث توجد اليوم، وقد نقش على الكرة اسم صانعها بالخط الكوفى وعام ٦٢٢هـ[٤]. ومما يذكر أن الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى (١١٩٨ - ١٢٥٠م) وريث النورمان فى صقلية كان صديقا للسلطان الكامل الأيوبى، وفى بعض الأحيان كانت تعترض فردريك الثانى مشكلة علمية، فكان يبعث إلى أصدقائه من ملوك المسلمين، ويطلب أن يعرضوها على من لديهم من علماء للإجابة عليها. وعلى سبيل المثال أرسل فردريك مسألة إلى الكامل، حلها العالم الرياضى المصرى قيصر الأصفونى، «فإنه كان المشار إليه فى ذلك»[٥].

واشتهر فى مصر الأيوبية عدد من الأطباء، منهم الطبيب موسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٤)، تلميذ ابن رشد، وأكبر فيلسوف يهودى فى العصور الوسطى، نزح من شمال أفريقية إلى مصر، وأضحى طبيب صلاح الدين الخاص، ونشر دراسة الطب فى مدينة الإسكندرية، والتقى به فى القاهرة عبد اللطيف البغدادى صاحب كتاب «الإفادة

---

(١) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٥٦٥.
(٢) حسن المحاضرة،جـ١ ص ٥٦٤.
(٣)حسن الماضرة، جـ ص ٥٤٢.
(٤) عبد الرحمن زكى: «من تراث مصر العلمى فى العصر المملوكى»، ص ٣٤.
(٥) الطالع السعيد، ص ٤٦٩ - ٤٧٠.

والاعتبار» الذى اشتغل بالطب والأدب، وقضى فى القاهرة زمنا[1]. وهناك الطبيب أحمد ابن قاسم بن خليفة الخزرجى المعروف بابن أبى أصيبعة، ولد فى حدود عام ٥٩٥هـ بالقاهرة، وكان شاباً موهوباً، ردس الطب، وأخذ عن كبار أطباء عصره، وكتب تاريخه المعروف بعيون الأنباء الذى انتهى بتراجمه إلى سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨)، أى قبل وفاته بعام واحد[2]. ومن المعروف أن للطب صلة قديمة ووثيقة بدراسة الأعشاب، وقد حظيت القاهرة بأكبر عشاب عربى وأعظم نباتى ظهر فى العصور الوسطى، هوابن البيطار المتوفى سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨)، نزح من المغرب واتصل بالسلطان الكامل الأيوبى، وجعله رئيسا على سائر العشابين فى مصر، ولما مات الكامل خدم ابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب، ولم يفت ابن أبى أصيبعة أن يتصل به ويدرس مؤلفاته فى الأعشاب، فوجد فيها العلم غزيراً[3].

وقد تشبه الأيوبيون بالفاطميين فى عنايتهم بإنشاء المكتبات، وأهمها المكتبة التى عنى بها السلطان الكامل بالقلعة، وكانت فى الأصل تؤلف مكتبة القاضى الفاضل ثم آلت إلى ابنه الأشرف أحمد، حتى أمر السلطان الكامل بوضع اليد عليها ونقلها إلى القلعة لتصبح نواة مكتبة كبرى، وقد تم نقلها إلى القلعة سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م)[4]. كما أنشأ السلطان الكامل فى مدرسته داراً للكتب، وأصبحت قاعة الكتب من بناء المدرسة. ولم تقتصر خزائن الكتب على المدارس وحدها، بل عمت المساجد والجوامع. كذلك كان بعض الوزراء يقوم بتكوين هذه المكتبات فى منازلهم؛ فهذا الأفضل بن بدر الجمالى يكون له خزانة عامرة، وعندما علم أن أفرائيم الطبيب باع كتبه لرجل عراقى، أبى الأفضل إلا أن تبقى الكتب فى مصر، فبعث إلى أفرائيم من عنده بجملة المال الذى كان قد اتفق عليه مع العراقى، ونقلت الكتب إلى خزانة الأفضل.

---

(١) مصطفى السقا: «الحياة الأدبية فى مدينة القاهرة»، ص ٦٢؛ قدرى حافظ طوقان: العلوم عند العرب، ص ٢٠٣ ـ ص٢٠٤.

(٢) أحمد بدوى: الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٣) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٥٤٢؛ أحمد بدوى: المرجع السابق، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٤) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ١٥٣.

الجيش والأسطول:

من المعروف أن الجيش الفاطمى اعتمد على عناصر مؤلفة من الأتراك والبربر والأرمن والسودانيين، فلما زالت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ (١١٧١) قام صلاح الدين الأيوبى بإحلال عناصر جديدة محل عناصر الجيش الفاطمى، فأحل الأكراد والأتراك محل السودانيين والأرمن والبربر[١]. وإلى جانب الأكراد والأتراك اعتمد صلاح الدين فى تكوين جيشه على القبائل العربية التى تقطن مصر والشام[٢]. وكذلك انضمت جماعات من المغاربة إلى الجيش الأيوبى، ويحتمل أنهم انضموا إليه بصفتهم جنود غير نظاميين، تطوعوا بدافع الحماس الدينى للجهاد فى سبيل الله ضد الغزاة الصليبيين[٣]. ولاتتوفر أية معلومات عنهم سوى ما قاله الرحالة ابن جبير[٤] الذى زار مصر والشام فى عهد صلاح الدين بقوله: «ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة، بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها فى افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم. فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما ينفقون أموالهم فى هذه السبيل».

ومهما كانت العناصر التى ساهمت فى تكوين جيش مصر على عهد صلاح الدين، فإنه قسمه إلى عدة فرق، تنسب كل واحدة منها إلى سلطان سابق أو قائد عظيم، فيقال المماليك النورية نسبة إلى السلطان نور الدين محمود، والأسدية نسبة إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين، أما مماليك صلاح الدين فأطلق عليهم عدة أسماء، فيقال لهم المماليك الصلاحية نسبة إليه، أو الناصرية نسبة إلى لقبه «الملك الناصر»، أو جند الحلقة، وتعتبر الطوائف الثلاث النورية والأسدية والصلاحية عصب الجيش وقوته الثابتة، وعليهم تقع الحروب والغزوات والأعمال الحربية الهامة[٥].

---

(١) الخطط، جـ١ ص ٩٤.

(٢) السلوك، جـ١ ص ٤٧.

(٣) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين، ص ١٠١.

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٠.

(٥) نظير حسان سعداوى: جيش مصر أيام صلاح الدين (القاهرة ١٩٥٩) ص ص٢٤ ـ ٢٦.

وأشرف على شئون الجيش على عهد الأيوبيين ديوان كان يطلق عليه «ديوان الجيش»، وهو بمثابة وزارة الدفاع فى الوقت الحاضر، ولابد لمن يتولاه أن يكون مسلما وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة، وله اختصاصات واسعة، فهو مسئول عن معرفة أحوال الجند وتسجيل الأمور الخاصة بحضورهم وغيابهم وأوضاعهم الصحية وموتهم[١]. وكذلك كان عليه أن ينتقل أثناء المعركة من صف إلى صف للتأكد من سلامة الخيل، وجودة السلاح، وعدد الجنود، واستعراض ملابسهم وزينتهم، وأنهم جميعا فى حال مرضى[٢].

ومن ميزانية ديوان الجيش أنشأ الأيوبيون مدناً عسكرية وهى العادلية والمنصورة والصالحية. فشيد العادل الأيوبى سنة٦١٤هـ(١٢١٧) مدينة العادلية جنوبى دمياط، وشحنها بالمقاتلة استعداداً لقدوم الصليبيين إلى مصر من ناحية البحر، فأصبحت منذ ذلك الحين مدينة جهادية. وبنى السلطان الكامل مدينة المنصورة سنة٦١٦هـ(١٢١٩) عندما استولى الصليبيون على دمياط، فعسكر بجنوده مكان تلك المدينة، وغدت رباطا جهاديا هاما ضد الصليبيين. وشيد السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدينة الصالحية سنة٦٤٤هـ(١٢٤٦) فى أول الصحراء التى تفصل بين مصر والشام، لتكون نقطة أمامية للدفاع عن حدود مصر، وغدا للصالحية أهمية كبيرة خاصة للطريق البرى الذى يربط بين القاهرة ودمشق[٣].

وساد مصر فى عهد صلاح الدين الأيوبى وخلفائه نظام الإقطاع الحربى، وهو لا يختلف فى أصوله وقواعده ومظاهره عن الإقطاع السلجوقى، ويقصد بذلك توزيع الأراضى على كبار أمراء الدولة وأمراء الأجناد بدل منحهم الرواتب والأعطية النقدية، مقابل تأديتهم خدمات حربية وتقديم عدد من الجند إلى الجيش السلطانى زمن الحرب كاملى العدة[٤]. واستعان صلاح الدين وخلفاؤه كذلك بعربان مصر وأهمها جذام وثعلبة، فأقطعهم الإقطاعات نظير المحافظة على الأمن والاشتراك معه فى الجهاد ضد الصليبيين، وجاءت غالبية إقطاعاتهم بالبلاد المصرية الشرقية[٥].

---

(١) محسن محمد حسين: المرجع السابق، ص ١١٩ ـ ١٢٠.
(٢) نظير سعداوى: المرجع السابق، ص٣٠.
(٣) حسنين محمد ربيع: النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين (القاهرة ١٩٦٤)، ٦٩ ـ ٧٠.
(٤) المرجع السابق، ص ٣٥.
(٥) إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، ص ٤١.

أما الأسطول المصرى، فكان فى حالة سيئة عند قيام الدولة الأيوبية، ولم يكن قادراً على الدفاع عن سواحل مصر، بسبب الضعف الشديد الذى أصاب مصر فى أواخر العصر الفاطمى. وقد أدرك صلاح الدين منذ اللحظة الأولى التى تولى فيها حكم مصر ضرورة وجود أسطول قوى يساعده فى حروبه ضد الصليبيين، لذلك أمر بإنشاء ديوان خاص أطلق عليه ديوان الأسطول، وعين لهذا الديوان موارد مالية من جهات مختلفة من الفيوم وإيراد الزكاة بمصر والنطرون، فضلا عن أشجار السنط فى البهنساوية والاشمونين والأسيوطية والأخميمية والقوصية. وسلم صلاح الدين ديوان الأسطول لأخيه العادل، الذى أقام فى مباشرته صفى الدين بن شكر[1]. وعلاوة على ذلك رفع صلاح الدين راتب البحارة لتشجيع الناس على الخدمة بالأسطول، كما لجأ إلى جمع المواد اللازمة لبناء السفن، ولهذا الغرض عقد معاهدات تجارية مع الجمهوريات الإيطالية، حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع[2].

وقسم صلاح الدين الأسطول إلى قسمين، الأول يتألف من خمسين سفينة تعهدت بحماية السواحل المصرية، والثانى يتألف من ثلاثين سفينة لمهاجمة الصليبيين وموانيهم بالشام[3].

وقد أثبت الأسطول المصرى وجوده فى البحرين المتوسط والأحمر، وازداد دور هذا الأسطول بروزاً فى الأحداث التى أعقبت موقعة حطين سنة٥٨٣هـ(١١٨٧)، إذ قام الأسطول بدور فعال فى مساعدة صلاح الدين فى الاستيلاء على بعض الموانى الهامة بالشام مثل عكا[4].

ومما يجدر ذكره أن خلفاء صلاح الدين لم يولوا عنايتهم بالأسطول، فضعف شأنه، وقد أشار المقريزى[5] إلى ذلك بقوله: فلما مات الساطان صلاح الدين يوسف بن أيوب،

---

(١) الخطط، جـ١ ص ١٩٣.

(٢) الباز العرينى: مصر فى زمن الأيوبيين، ص١٧١ ـ ١٧٢.

(٣)السلوك، جـ١ ص ٧٢؛ الباز العرينى: المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٤) سعيد عاشور: مصر فى العصور الوسطى، ص ٤١٧.

(٥) الخطط، جـ٢ ص ١٩٤.

استمر الحال في الأسطول قليلا، ثم قل الاهتمام به، وصار لا يفكر في أمره إلا عند الحاجة إليه. فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه، طلب له الرجال، وقبض عليهم من الطرقات، وقيدوا في السلاسل نهارا، وسجنوا في الليل حتى لا يهربوا، ولا يصرف لهم إلا شئ قليل من الخبز ونحوه، وربما أقاموا الأيام بغير شئ كما يفعل بالأسرى من العدو، فصارت خدمة الأسطول عاراً يسب به الرجال، وإذا قيل لرجل في مصر يا أسطولي غضب غضباً شديداً، بعد ما كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله، والغزاة في أعداء الله، ويتبرك بدعائهم الناس".

الحياة الاقتصادية:

قامت الدولة الأيوبية في مصر في ظروف جعلت منها دولة حربية، فقد وقع على كاهلها عبء الجهاد ضد الصليبيين بهدف تطهير الشام منهم، وحماية الشام ومصر من أخطار الحملات الصليبية الوافدة من الغرب الأوربي. ومن هذا المنطلق كانت الدولة تنفق الكثير من موارد الدولة على الجيش وبناء الحصون والاستحكامات والقلاع، ومايتبقى بعد ذلك ينفق في الإصلاح الداخلي.

ولم يكد صلاح الدين يستقر في مصر، حتى عمد إلى توزيع الأراضي في صورة إقطاعات على الأمراء وكبار رجال الدولة والأجناد، مقابل ما يؤدونه من خدمات حربية للدولة، وكان على المقطع الأيوبي أن يهتم بصيانة السدود وقنوات الرى والجسور والطرق، والاهتمام بالزراعة والإشراف على الحصاد[1]. وقد حمت الحكومة الفلاحين، فحددت قيمة الإيجارات التي كانوا يدفعونها للسيد الإقطاعي، ولذلك لم يتحول الفلاحون في العصرالأيوبي إلى أرقاء كما حدث في العصور اللاحقة. ومما يدل على اهتمام الأيوبيين بالزراعة، حرصهم على زيادة الإنتاج الزراعي، حتى أن السلطان الكامل الأيوبي كان

(1) Ashtor. A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages., pp. 237-238.

يشرف بنفسه على إقامة السدود وصيانتها وغير ذلك من أعمال الرى[1]، وبذلك ازدهرت الزراعة، ولم تستطع الحروب التى خاضها الأيوبيون أن تؤثر عليها .

ومن المعروف أن الحياة فى مصر فى العصور الوسطى، كان موردها الرئيسى الزراعة، والأخيرة بدورها تعتمد اعتماداً كليا على النيل، الذى كان ـ ولايزال ـ شريان الحياة الاقتصادية فى مصر. ولهذا كان هبوط النيل من نكبات الطبيعة التى تجتاح البلاد، وتلحق بها الدمار.فإذا حدث أن قصر النيل عن ستة عشر ذراعا شرقت الأراضى، وعاش الناس فى فزع، خوفا من حدوث مجاعة. أما إذا زاد فيضان النيل وتجاوز الستة عشر ذراعاً أغرق الأراضى الزراعية. وفى كلتا الحالتين ـ الفيضان والزيادة ـ كانت مصر تعانى الخسائر الجسيمة. أما إذا وصل فيضان النيل إلى ستة عشر ذراعاً، فإن المعاصرين كانوا يتفاءلون به خيراً، ويقيمون الاحتفالات احتفاء به.

وفى عصر السلطان العادل الأيوبى حدث أن قصر النيل فى عام ٥٨٦هـ عن بلوغ مقياسه المعتاد، حتى أنه لم يصل إلى أثنى عشر ذراعا، فتسبب فى أن أقفرت الأراضى الزراعية من مياه الرى اللازمة لها[2]. وكان من الطبيعى أن تتعرض مصر لغلاء فاحش، تبعه وباء شديد القسوة، أفضى إلى موت الآلاف من الناس كل يوم.وقد وصف أبو المحاسن[3] ذلك الوباء قائلاً: هلك القوى فكيف الضعيف، ونحف السمين فكيف العجيف! وخرج الناس حذر الموت من الديار، وتفرق فريق مصر فى الأمصار». ومن المشاهد أن هبوط النيل فى تلك السنة بلغ مستوى، لم يعهد مثله إلا مرة واحدة فى زمن الدولة الفاطمية، حيث حلت بالبلاد الشدة العظمى التى استمرت سبع سنوات.

وإلى جانب الزراعة، ازدهرت فى مصر الأيوبية عدة صناعات أهمها صناعة النسيج، وهناك أنواع معينة من المنسوجات المصرية أحرزت شهرة عالمية وبخاصة فى غرب أوربا، مثل قماش الفستيان Fustian الذى نسب إلى الفسطاط[4]. غير أن صناعة النسيج فى الشرق

(1) Ibid., p. 238.

(٢) مفرج الكروب، جـ٣ ص ٦٤ ؛ المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة،ص ٢٩.

(٣) النجوم الزاهرة، جـ٦ ص ١٧٤ ؛ محمود الحويرى: العادل الأيوبى، ص ١٠٩ ـ ١١١.

(٤) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

الأدنى قد تدهورت فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى، فمدينة تنيس أحد المراكز الهامة لصناعة المنسوجات الكتانية فى مصر، قد دمرت فى سنة ١٢٢٧م بأمر من السلطان الكامل الأيوبى، خوفا من وقوعها فى أيدى الصليبيين، وبقيت خرابا بعد ذلك، كما أغلقت مراكز صناعية أخرى مثل دبيق والقيس وشطا. ولم تستطع صناعة المنسوجات فى الشرق الأدنى منافسة المنسوجات الواردة من غربى وجنوبى أوربا[١].

واشتهرت مصر باستخراج الزيوت من السمسم والكتان والقنب والخس، ولم تكن الزيوت تزيد على حاجة السكان، إذ جرى الإفادة منها فى الإضاءة وفى صناعة الصابون، وتعتبر قفط فى أعالى الصعيد من أهم مراكز صناعة الصابون، كما ازدهرت صناعة السكر، وكان يصدر الفائض إلى خارج مصر[٢].

وبلغت صناعة التحف الزجاجية الإسلامية ذروتها فى مصر والشام فيما بين القرنين السادس والتاسع بعد الهجرة (بين الثانى عشر والخامس عشر للميلاد)، بفضل رعاية سلاطين الأيوبيين والمماليك[٣]. أما صناعة الخزف ذى البريق المعدنى فقد اضمحلت منذ نهاية القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى)، وظل الخزفيون فى العصر الأيوبى وعصر المماليك يقلدون الخزف الصينى ولاسيما ما كان منه ذا طلاء من لون واحد[٤].

واحتفظت صناعةالحفر على الخشب فى العصر الأيوبى بالأساليب الفنية التى كانت سائدة فى نهاية العصر الفاطمى، ولكن الذى نلاحظه فى التحف الأيوبية أن خط النسخ قد حل محل الخط الكوفى فى معظم الحالات، وأن الزخارف النباتية فى الحشوات ازدادت دقة وإبداعا[٥].

أما عن التجارة، فقد ازدهرت فى العصر الأيوبى، وأصبحت مصر الوسيط التجارى بين الشرق وغرب أوربا. وعلى الرغم من الحروب الصليبية التى استمرت نحو قرنين من الزمان،

---

(1) Ashtor, A Social and Econmic Hist. of the Near East., p. 246.

(٢) الباز العرينى: مصر فى عصر الأيوبيين، ص ٢٠٠.

(٣) زكى محمد حسن: الفنون الإسلامية، ص ٥٩٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٥) المرجع السابق، ص ٤٦٢.

فإنه تخللها هدنات طويلة الأمد، جرى فى أثنائها تبادل العلاقات التجارية بين المعسكرين الإسلامى والصليبى مما أفاد الأحوال الاقتصادية عند الجانبين[١].

وفى عهد صلاح الدين نشطت التجارة الخارجية مع الجمهوريات الإيطالية، بيزا والبندقية وجنوة، فكان التجار الإيطاليون يفدون على ثغرى دمياط والإسكندرية للحصول على سلع الشرق. ومما يدل على ذلك ما ورد فى الرسالة التى بعث بها صلاح الدين إلى الخليفة العباسى سنة ١١٨٢م، عند الإشارة إلى الجيوش المختلفة «ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبيازنة والجنوية كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لاتطاق ضراوة ضرهم، ولاتطفأ عنهم يد الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله....»[٢].

وهنا نلاحظ أن وفاة صلاح الدين لم تؤد إلى تغيير العلاقات بين الدولة الأيوبية والجمهوريات الإيطالية. فقد حدث أن هدد البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦م) التجار الأوربيين بإصدار قرار الحرمان على كل من يزاول التجارة مع المسلمين. غير أن جمهورية البندقية أوضحت له عن طريق سفرائها الضرر الذى يصيب رخاءها من جراء إغلاق هذا السوق، الأمر الذى جعل البابا يوافق مراعاة لمصالحها على أن يأذن لها ـ بصفة مؤقتة على الأقل ـ بالإبقاء على الوضع الراهن، وقصر التحريم على المواد الحربية[٣].

وفى عهد السلطان العادل الأيوبى أخى صلاح الدين، أرسلت جمهوريةالبندقية سفارة إلى مصر لعقد معاهدة تجارية جديدة، فوافق عليها العادل، وأصدر أوامره بأن يعامل التجار البنادقة فى مصر كلها باعتبارهم رعايا أمة صديقة، كما منحهم تخفيضا فى الضرائب، فضلا عن إقامة فندق جديد لهم[٤].

---

(١) الباز العرينى: مصر فى عصر الأيوبيين، ص ٢٠١.

(٢ الروضتين، جـ١ ص ٣٤٣.

(٣) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، جـ٢ (القاهرة ١٩٩١)، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٤) المرجع السابق، جـ٢ ص٥٥.

الفصل السابع

دولة المماليك فى مصر

(٦٤٨- ٩٢٣م / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)

- أصل المماليك وخصائصهم.
- سلطنة سيف الدين قطز.
- صد الخطر المغولى.
- الظاهر بيبرس وإحياء الخلافةالعباسية.
- تطهير بلاد الشام من البقايا الصليبية.
- بيبرس والباطنية (الحشيشية).
- المماليك البحرية والنوبة.
- حركات العربان فى عصر المماليك البحرية.
- دولة المماليك الجراكسة.
- چقمق ومحاولات فتح رودس.
- المماليك والعثمانيون.
- برسباى وفتح قبرس.
- وصول البرتغاليين إلى الهند.
- سقوط دولة المماليك.
- بعض مظاهر الحضارة فى مصر المملوكية.

العمارة والفنون. الحياة الاقتصادية.

الحياة الدينية. التصوف.

الأدب واللغة. مدرسة التاريخ فى مصر المملوكية.

أصل المماليك وخصائصهم:

اصطلح المؤرخون فى تقسيم تاريخ المماليك الذين حكموا مصر بعد سقوط الدولة الأيوبية فى مصر إلى عصرين: عصر دولة المماليك البحرية أو دولة الأتراك (٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٣٨١م)، وقد أسكنهم السلطان الصالح نجم الدين أيوب جزيرة الروضة على بحرالنيل؛ وعصر دولة المماليك الچراكسة أو المماليك البرجية (٧٨٤ ـ ٩٢٢هـ/ ١٣٨٢ ـ ١٥١٧م)، وهم الذين سكنوا فى ثكنات جديدة حول برج قلعة القاهرة، كما يسمون بالمماليك الچراكسة نسبة إلى أصلهم الذى ينتمون إليه، وذلك لأن أحداً منهم لم يكن تركيا.

والمماليك كما يدل عليهم اسمهم أرقاء أصبحوا فى حيازة غيرهم عن طريق البيع أو المبادلة أو الأسر فى الحرب أو المهاداة، أو كجزء من الضريبة المفروضة على أحد الحكام التابعين. ولكن إذا كان كل مملوك فى أصله رقيقا، فلم يكن كل رقيق من طبقة المماليك، لأن الرقيق فى الإسلام إما أسود أو أبيض، وفق أصولهم والبلاد العديدة التى جلبوا منها. فالنوع الأول كان من الزنوج والسود عامة، أما النوع الثانى هو الرقيق الأبيض، فهؤلاء هم المماليك[1]. وكانت الغالبية العظمى من المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم إلى مصر، تأتى من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر، فكانوا بذلك خليطا من الأتراك والچراكسة والروم والروس والأكراد، فضلا عن أقلية من مختلف البلاد الأوربية[2].

وقد كان أحمد بن طولون، وهو ابن واحد من المماليك الأتراك، أول من جلب المماليك إلى مصر واستخدمهم فى عسكرها. وسار الفاطميون على نهجه، ثم تبعهم الأيوبيون فاستعانوا بالمماليك فى نزاعاتهم الأهلية وضد الصليبيين. وقد كان السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ ـ ٦٤٧هـ/ ١٢٤٠ ـ ١٢٤٩م)، وهو السلطان قبل

---

(١) محمد مصطفى زيادة: «الدولة المملوكية الأولى»، موسوعة تاريخ الحضارة الإسلامية، المجلد الثانى، ص ٤٨١ ـ ٤٨٢.

(٢) على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى، ص ١٧٠؛ دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٢؛ محمد عبد العزيز مرزوق: الناصر محمد بن قلاوون، ص ٧٤.

الأخير من سلاطين البيت الأيوبى فى مصر، أكثر السلاطين فى شراء المماليك وفى استخدامهم. ذلك أن الصالح أيوب لم يشعر بميل نحو جنده الأتراك والأكراد، ولذلك أكثر من شراء المماليك الجدد، وجلبهم من مختلف الأسواق، وإن كان معظمهم من الأتراك المتحدثين بالتركية؛ وبعد ذلك شيد الصالح أيوب بجزيرة الروضة قلعة لنفسه تطل على النيل، وانتقى من هؤلاء المماليك صفوة لتكون حرساً خاصا له بتلك القلعة، وبسبب ذلك عرفوا باسم المماليك البحرية[1]. ومن المعروف أن البحر يشمل النهر العذب والبحر المالح، فيوصف النيل بأنه بحر، كما يوصف بذلك البحر الأحمر أو البحر المتوسط وغيرهما، وفى سورة فاطر: { وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج } ، ويلاحظ أن القرآن الكريم يستعمل كلمة «ملح» وصفا لماء البحر، ولايستعمل كلمة «مالح» الشائعة خطأ. وهنا يرى البعض أن تسمية المماليك البحرية نسبة إلى بحر النيل الذى أحاط بثكناتهم فى جزيرة الروضة تسمية غير صحيحة، وإنما سموا بذلك لأنهم جاءوا من وراء البحر، على أساس أن المماليك البحرية زمن الأيوبيين والمماليك عبارة عن فئة من الغرباء الذين جلبوا من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطىء البحر الأسود، وأن الطريق العادى الذى سلكوه من بلادهم إلى مصر هو عبر البحر الأسود، ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية ومنه إلى البحر المتوسط، حيث منه إلى ميناء الإسكندرية أو دمياط[2].

وكان هؤلاء المماليك يلقون تدريبا جاداً، فما يكادون يصلون إلى مصر وهم أطفال صغار حتى يودعوا فى مبنى ضخم للتدريب مشيد من عدة طوابق حيث ينامون فى قاعات فسيحة، ويشرف عليه أساتذة من الأغوات، ويتلقون أصول العقيدة الرسلامية، ويأخذون نصيبهم من التعليم الحربى. ويقول المقريزى[3]: «وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة، أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان، ونزله فى طبقة جنسه،

---

(١) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص ٤٨٣؛ بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر، مجلة كلية الآداب،جامعة القاهرة، المجلد الرابع، الجزء الأول مايو ١٩٣٦ (الطبعة الثانية ١٩٥٣)، ص ٧٢.

(٢) مختار العبادى: قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام (القاهرة ١٩٨٨)، ص ٩٧.

(٣) الخطط، جـ٢ ص ٢١٢.

وسلمه لطواشى برسم الكتابة. فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ فى تعليمها كتاب الله تعالى، ومعرفة الخط، والتمرن بآداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الرسم إذ ذاك ألا يجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئا من الفقه، وأقرأه فيه مقدمة. فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ فى تعليمه أنواع الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية فى معرفة ما يحتاج إليه». وعندما ينتهى المملوك من تدريبه ويثبت جدارته ويصير محاربا كفئا ينقل إلى خدمة السلطان ويتدرج فى الرتب حتى يصير من الأمراء، فإذا وصل المملوك إلى تلك المرتبة أصبح سلطاناً مصغراً[١].

وعلى الرغم من أن المماليك قد تلقوا تربية دينية وعسكرية وهم صغار، وبرعوا فى الفروسية وحمل السلاح، ومنهم ـ فى النادر ـ من برع فى الفلسفة والشريعة والعلوم، وصاروا مهيئين لتولى المناصب العليا والقياداة، إلا أننا نقرأ عن بعض السلاطين الذين كانوا لايستطيعون توقيع أسمائهم وبقوا أميين، ولم يهتموا باستخدام اللغة العربية. كما أن المماليك فيما بينهم استخدموا لغتهم التركية[٢].

ومهما يكن من أمر، فقد نشأ المماليك تنشئة حربية ممتازة، واعتمد نظامهم أساساً على الفروسية الإقطاعية، وفق مراتب عسكرية ووظائف سياسية معينة، بحيث غدت فى أيديهم جمع المناصب العسكرية والإقطاعات المقررة لها، فضلا عن الوظائف الكبيرة وإقطاعاتها فى مصر وسائر أقاليم الدولة المملوكية، وأطلق على المماليك عموما إسم رجال السيف تمييزاً لهم عن رجال القلم، وهم أصحاب الوظائف الدينية من أهالى البلاد المصريين المسلمين وغير المسلمين[٣]، الذين لم يكن لهم نصيب فى الجيش المملوكى، باستثناء بعض الأعمال غير العسكرية كأعمال الأئمة والصناع والأتباع. وفى العصر المملوكى استأثر

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤ ص ٦٠.

(2) Muir (Sir William). The Mamluke Slave Dynasty of Egypt 1260-1517 A.D. (London, 1896), pp. 218-219.

(٣) محمد مصطفى زيادة: «الدولة المملوكية الأولى»، ص ٥٠١.

سلاطين المماليك وأمراوهم بشئون الحكم والإدارة، وعاش المصريون بعيدين عن المشاركة في أية مؤسسة من مؤسسات الحكم، فيما عدا بعض المناصب الإدارية الصغيرة والقضاء والوظائف الدينية التى تتطلب تضلعا فى علوم اللغة والدين. ولاشك أن العمل فى مهنة القضاء والكتابة لاتتفق وطبيعة النشأة التى شب عليها أمراء المماليك إذ من النادر ـ كما سبق أن أشرنا ـ أن اجتهد أحدهم فى فقه أو برز فى أدب أو شارك فى علم، فى الوقت الذى كانت الدولة فى حاجة إلى قضاة يحكمون بين الخصوم بالعدل حتى لاتتعطل مصالح الناس[1]. ونتيحة لذلك لعب القضاة دوراً بارزاً فى توجيه أمور الدولة المملوكية، لأن سلاطين المماليك كانوا فى حاجة لوجودهم إلى جوارهم.

وهنا نكرر القول إن المماليك البحرية جاءوا إلى مصر كرقيق من بلاد متعددة وأمم شتى، وأصول عرقية متنوعة، ووجه الأهمية هنا أنهم أتوا أطفلا صغاراً انقطعت حبالهم نهائيا بمواطنهم الأصلية، وتربوا تربية إسلامية، وتعلموا اللغة العربية، ولم يعودوا يعرفون لهم وطنا غير مصر، واستقروا فيها إلى الأبد. ومهما قيل فى أن المماليك أجانب عن مصر، وأنهم ولدوا فى أرض غير إسلامية، أو أنهم يرجعون فى أصولهم إلى دماء غير مصرية، فإن هذا القول مردود عليه، لأن الانتماء الحقيقى للوطن يقوم أساساً على خدمة هذا الوطن والدفاع عنه ورعاية مصالحه، بغض النظر عن الجنس الذى يعيش فوق أرضه، أو الأصول التى تحدر منها، وهى حقيقة أثبتها التاريخ على مداه الطويل. فليس ثمة وطن يجرى فى عروق أبنائه دماء واحدة نقية خالصة. ومصر بموقفها الجغرافى وتاريخها الطويل قد استقبلت أجناساً عديدة تركت أثرها فيها بصورة ما، وإن كانت مصر قد امتصت تلك الأجناس وطبعتها بطابعها وشخصيتها، فصارت مصرية. وهذه الحقيقة تنطبق على المماليك فى مصر، فهم الذين جموا شعبها، وحاربوا باسمه، وحافظوا على استقلاله ضد الغزاة. وينبغى ألا ننسى أن المماليك منذ ظهورهم على مسرح الأحداث فى مصر ومنطقة الشرق الأوسط، قد ارتبطوا بالشرعية التى منحتها لهم الخلافة الإسلامية بوصفهم حماتها والمدافعين عنها وعن الإسلام. ولذلك من الظلم الفادح أن نعتبر المماليك أجانب عن مصر.

---

(١) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى (القاهرة ١٩٤٧)، القسم الثانى، ص ٣٠٩.

عاش المماليك خلال حكمهم الطويل الذى استغرق فترة تجاوزت قرنين ونصف من الزمان كطبقة مغلقة منفصلة عن رعايااهم المصريين، واحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم، ولم يتزوجوا من نساء المصريين إلا فى حالات قليلة. وعلم الرغم من هذا التزاوج المحدود، فقد ظل المماليك بعيدين عن الاختلاط بالأهالى. ولم يحدث أن اقتحم أحد من الأهالى طبقتهم. ولعل هذا كان ترفعا من المماليك، أو أنهم اعتبروا أنفسهم طبقة أرقى من الشعب، بصرف النظرعن اختلاف أصولهم، وما مروا به من عبودية[1]. لقد اعتنق المماليك الإسلام، وغدا تاريخا حيا فى نفوسهم، وكان هذا خليقا باندماجهم فى المصريين، ولكنهم حافظوا على عزلتهم، وخاصة أنهم كانوا يجددون طبقتهم ويبعثون فيها الاستمرارية بما يفد عليها من الخارج عادة من أسواق الرقيق. ولم يخرجوا من تلك العزلة إلا فى القرن السادس عشر الميلادى، بعد أن قضى السلطان العثمانى سليم الأول على دولتهم فى سنة ١٥١٧م، ومنذئذ بدأوا فى الاضمحلال والاندراج فى غمار شعب مصر. ثم جاء نابليون بونابرت على رأس حملته إلى مصر سنة ١٧٩٨م ليكسر شوكتهم بعض الوقت، حتى تم القضاء على نفوذهم بحسم على يد محمد على فى مذبحة القلعة الشهيرة التى حدثت فى مارس سنة ١٨١١م، والتى راح ضحيتها أربعمائة مملوك فى القلعة وحوالى أربعة آلاف فى شوارع القاهرة وحاراتها، ولم يكتف محمد على بذلك، بل أخذ يتتبع الفارين منهم، الأمر الذى جعل المماليك يذوبون تماماً فى كيان المصريين، دون أن ينسخوا لون المصريين، وإن كانوا قد ساهموا فى تعديله بعض الشىء.

ومما يجدر ذكره أن المصريين قبلوا حكم المماليك رغم قسوته واستبداده، بسبب أن المماليك قد ورثوا عن الأيوبيين وقفتهم الرائعة فى الجهاد ضد الصليبيين، وقام المماليك بصد المغول الوثنيين، كما أن حكمهم قد باركه الخلفاء العباسيون الذين انتقلوا إلى مصر بعد استيلاء المغول على بغداد. على أنه إذا كان المماليك قد كونوا طبقة عسكرية شديدة البأس، واستبدوا بشعب مصر، فقد أدى ذلك إلى ظهور علماء الدين المصريين الذين وقفوا أمام استبداد المماليك، وتكلموا بلسان الشعب المصرى باعتبارهم من أبنائه، ودافعوا عنه

---

(1) Muir, op. cit., p. 217.

ضد كل طغيان. وبلغ رجال الدين فى دولة المماليك مكانة سامية، جعلت سلاطين المماليك يستمعون إلى شكواهم ويجيبون طلباتهم، بل توجسوا من بعضهم خيفة. وليس أدل على ذلك من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يزجر السلطان الظاهر بيبرس عن المظالم وينهاه عنها، ولذلك لما بلغ السلطان وفاة الشيخ عز الدين قال: «ما استقر ملكى إلا الآن»[1]. ويروى الرحالة ابن بطوطة[2] فى سياق حديثه عن قضاة مصر حينما زارها، أن قاضى قضاة الحنفية شمس الدين الحريرى كان شديد السطوة لا تأخذه فى الله لومة لائم، وكانت الأمراء تخافه، ولقد ذُكر لابن بطوطة أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قال يوما لجلسائه: «إنى لا أخاف أحداً إلا شمس الدين الحريرى». ومن هذا المنطلق كان المماليك يقربون علماء الدين والقضاة المصريين، حرصا منهم على تدعيم سلطتهم بالنفوذ الدينى، واتخاذهم مظهراً شرعياً يؤمن جانبهم، باعتبار أن ما يصدرونه من أحكام إنما يستمد شرعيته من فتاوى العلماء ورجال الدين، فضلا عن أنهم يمثلون الشعب المصرى إلى جانب الحكام. وكثيراً ما كان السلطان المملوكى يرجو نصح علماء الدين باعتبارهم أهل الحل والعقد، ولايقوم بحرب أو يتخذ قرارات عليا هامة تمس أمور الدولة إلا بعد استشارتهم؛ هذا فى الوقت الذى كان رجال الدين يعتبرون سلاطين المماليك درع الأمة الإسلامية، وأن احترامهم من احترام الإسلام، الذى ينشأون عليه منذ دخولهم الطباق[3].

سلطنة سيف الدين قطز:

سبق الإشارة إلى أن شجرة الدر قد أخفت وفاة زوجها الصالح نجم الدين أيوب خلال الغزو الصليبى لمصر بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع، واستدعت ابن زوجها توران شاه فى حصن كيفا لتولى السلطنة وقيادة دفة الحرب ضد الصليبيين. ولكنه أنكر صنيعها وأساء معاملتها، وطالبها بأموال أبيه، فما كان من شجرة الدر إلا أن أرسلت إلى أمراء المماليك البحرية تقول لهم: «اقتلوا توران شاه وعلىّ رضاكم»[4]. ولم يكن أمراء المماليك فى حاجة

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ١ القسم الأول، ص ٣١٨.

(٢) رحلة ابن بطوطة: (القاهرة ١٩٣٤)، جـ١ ص ٣٤.

(٣) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، ص ٢٨؛ عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر (القاهرة ١٩٨٥)، ص ١٢٢.

(٤) النجوم الزاهرة، جـ٦ ص ٣٦٤.

إلى من يحرضهم ضد توران شاه، بعدأن تبين لهم نيته على التخلص منهم فقتلوه فى سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م).

وعقب مقتل توران شاه نادى المماليك وكبار الدولة بشجرة الدر سلطانة على مصر، ودعى لها على المنابر، وكان الخطباء يقولون على المنبر بعد الدعاء للخليفة العباسى: «واحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية (نسبة إلى الخليفة المستعصم)، صاحب السلطان الملك الصالح»[1]. ومن الواضح أن قيام شجرة الدر فى السلطنة كان البداية العملية لدولة المماليك، لأنها بحكم أصلها كانت أقرب إلى المماليك منها إلى الأيوبيين.

والواقع أنه كان من الصعب على شجرة الدر أن تبقى فى السلطنة، فقد عارض المصريون فى تولى أمرأة العرش عليهم، وخاصة أن الخليفة لم يوافق على اختيارها، وأرسل إلى أهل مصر قائلا: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأخبرونا حتى نسير إليكم رجلا». ولوضع حد لهذه المشكلة اتفق أمراء المماليك على أن تتزوج شجرة الدر من الأمير المعز أيبك أتابك العسكر وتترك له السلطنة، فتنازلت له عن السلطنة، بعد أن حكمت البلاد ثمانين يوما[2]، أثبتت فيها كفايتها وبراعتها فى تصريف الأمور.

وبعد أن تولى المعز أيبك عرش السلطنة لم تستقر الأمور له، فقد اختار الأيوبيون بالشام الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب، وطلبوا منه الحضور إلى حلب لتسليمها إياه، توطئة لإعادة نفوذهم فى مصر، باعتبارهم أصحاب الحق الشرعى فى حكم البلاد. وعندما وصلت الأخبار إلى أمراء المماليك بتهديد الأيوبيين بغزو مصر، «اختاروا أن يقيموا صبيا عليهم من بنى أيوب يكون له إسم السلطنة، وهم يدبرونه كيفما شاءوا، ويأكلون الدنيا به!»، فأتوا بطفل صغير من أبناء البيت الأيوبى، وبايعوه سلطانا ولقبوه الملك الأشرف، وعمره لايتجاوز عشر سنوات، وجعلوا المعز أيبك أتابكا له. وكانت المراسيم تخرج باسم الملك الأشرف والمعز، غير أن الأشرف فى حقيقة الأمر لم يكن له من السلطنة إلا اسمها،

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٣٧٤.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبين، ص ٣٨ ـ ٣٩.

فى حين كانت السلطة الحقيقية بيد المعز أيبك، وفى ذلك يقول أبو المحاسن[1] : «واستمر الحال على ذلك مدة، والمعز هو المستولى بالتدبير، ويعلم على التواقيع، والأشرف المذكور صورة».

غير أن هذه الحيلة لم تنطل على الأيوبيون فى الشام، ومن ثم خرج الملك الناصر على رأس جيوشه من بلاد الشام، ووصل إلى مصر بقصد الاستيلاد عليها والقضاء على قوة المماليك الوليدة، ولكن جيوش المماليك بقيادة المعز أيبك ألحقت به هزيمة فادحة قرب الصالحية بالشرقية فى ٢ فبراير سنة ١٢٥١م، وأرغمته على العودة إلى بلاد الشام[2]. وكان أن انتهز المعز أيبك فرصة ازدياد خطر المغول ببلاد الشام وتهديدهم مصر سنة ٦٥٠هـ (١٢٥٢)، فقطع اسم الأشرف من الخطبة وسجنه بقلعة الجبل[3].

وفى تلك الأثناء ساءت العلاقة بين المعز أيبك وبين زوجته شجرة الدر. فقد كانت شديدة الغيرة عليه، حتى أنها أجبرته على التخلص من زوجته الأولى أم ولده على، ومنعته من مقابلتهما وزيارتهما. ومالبث أن ضاق أيبك بتصرفات شجرة الدر، فأرسل إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته. وعندما علمت شجرة الدر بما عزم عليه المعز، قررت التخلص منه، فحرضت خمسة من غلمانها الأشداء على قتله بالحمام، فانقضوا عليه وقتلوه، وساهمت شجرة الدر فى مقتله، فأخذت تضربه بالقبقاب على رأسه حتى مات[4].

بعد أن لقى المعز أيبك مصرعه، اختار زعماء المماليك ابنه على عرش السلطنة، وكان عمره وقتئذ إحدى عشر سنة، ولقب بالمنصور، وعين سيف الدين قطز أقدم مماليك أبيه أتابكا له[5]. وقد بدأ هذا السلطان عهده بالانتقام لمقتل أبيه من شجرة الدر، قبض عليها وسلمها لأمه التى أمرت جواريها بضربها بالقباقيب إلى أن ماتت، وألقى بها من سور القلعة، وليس عليها سوى سروال وقميص، ثم دفنت بتربتها قرب مشهد السيدة نفيسة[6].

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ٦.   (٢) النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ٩.

(٣) النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ١٢؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ٣٩.

(٤) النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ١٢ ـ ١٣.

(٥) النجوم الزارة، جـ٧ ص ٤١.

(٦) السلوك، جـ١ ص ٤٠٣ ـ ص٤٠٤.

وكان قطز فى ذلك الوقت يعمل على اغتصاب السلطنة من المنصور، فاستغل تهديد الخطر المغولى لبلاد الشام، وعقد مجلساً حضره زعماء المماليك، وقال: «لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبى صغير لايعرف تدبير المملكة»[1]، فأجابه الجميع «ليس لها غيرك!»[2]. ولم يلبث قطز أن قبض على المنصور، واعتقله بقلعة الجبل، وأعلن نفسه سلطانا على مصر سنة ٦٥٨هـ (١٢٥٠).

صد الخطر المغولى:

المماليك البحرية أصحاب فضل على مصر والعالم الإسلامى، فهم الذين جعلوا من مصر قوة مرهوبة الجانب فى وقت كادت جموع الصليبيين والمغول الوثنيين أن تطبق عليها من الغرب والشرق. فوقف المماليك ـ كما رأينا ـ سداً منيعا أمام قوات الحملة الصليبية السابعة فى المنصورة سنة ١٢٥٠م. ثم استدار المماليك البحرية ليواجهوا المغول. وكان هؤلاء قد خرجوا من جوف قارة آسيا المجدبة، بعد أن نجح زعيمهم چنكيزخان فى توحيد قبائلهم، وثلوا عروش الممالك التى نازلوها فى الشرق والغرب ودمروها وأحرقوها، حتى أصبحت أثراً بعد عين.

كان الغزو المغولى للعالم الإسلامى عنيفا شديد الوطأة، فقد ضرب المغول الأقاليم الإسلامية، وسالت الدماء على طول الطريق الذى سلكته جحافلهم البربرية إليها، وقاسى المسلمون أنواع العذاب، وتجمع المصادر الإسلامية على أن تحركات المغول وغزواتهم كانت مصحوبة بالمجازر، وتركت أثر سيئاً فى النفوس. وخير صورة توضح ذلك ما قاله المؤرخ المعاصر ابن الأثير[3] فى حوادث سنة٦١٧هـ(١٢٢٠) تحت عنوان«ذكر خروج التتر(المغول) إلى بلاد الإسلام»:«لقد بقيت عدة سنين معرضا عن هذه الحادثة، استعظاما لها، كارها لذكراها، فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه ذكر ذلك، فياليت أمى لم تلدنى، ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا، إلا أنى حثنى جماعة من

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ٥٠.
(٢) النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ٥٥.
(٣) الكامل فى التاريخ، جـ١٠ ص ٣٩٩.

الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا، فنقول هذا العمل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عفت الأيام والليالى عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها... وهؤلاء(المغول) لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، لهذه الحادثة التى استطار شررها، وعم ضررها، وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح».

وعلى أية حال، بعد وفاة جنكيز خان فى رمضان سنة٦٢٤هـ(٢٥أغسطس١٢٢٧)، تاركا خلفه إمبراطورية ضخمة، تمتد من أقصى حدود الصين، إلى قلب أوربا وإلى عواصم المسلمين غربا، توقفت الحركة التوسعية للمغول، وانشغلوا بأحوالهم الداخلية. ولما أصبح مونكو خان المغول الأعظم، عهد إلى أخيه الأصغر هولاكو- حفيد جنكيز خان - بالقضاء على طائفة الإسماعيلية بفارس، والخلافة العباسية فى بغداد، والاستيلاء على الشام[١].

وقد خرج هولاكو من منغوليا، وبدأ غزوه للأقاليم الإسلامية فى عام٦٥١هـ(١٢٥٣)، فوصل إلى بلاد ما وراء النهر فى شعبان سنة٦٥٣هـ(أكتوبر١٢٥٥)، ثم عبر نهر جيحون إلى خراسان، وتقدم فى شمال فارس، حيث قضى على طائفة الإسماعيلية، واستولى على جميع قلاعهم وحصونهم وكنوزهم فى سنة٦٥٤هـ، ثم اتجه إلى العراق لمهاجمة بغداد عاصمة الخلافة العباسية، التى كانت تعانى ضعفا شديداً آنذاك. وفى يناير سنة١٢٥٨م اجتمعت الجيوش المغولية للإطباق على بغداد، فأقام هولاكو معسكره فى الضواحى الشرقية لبغداد، على حين أخذ قواده مواقعهم على الضفة الغربية لنهر دجلة. وقد حاول الخليفة العباسى المستعصم أن يستميل المغول، ولكن بعد فوات الأوان، إذ اجتاحوا كل الدفاعات وهاجموا بغداد، فسقطت فى أيديهم فى٢١المحرم سنة٦٥٦هـ(٢٨يناير١٢٥٨)، وأمعنوا القتل والذبح فى أهلها وجنود الحاميات التى حاولت الفرار[٢]. وفى١٠ فبراير من نفس العام

---

(1)Hitti, History of the Arabs., p.486.

(2) Grousset (René), The Empire of The Steppes. A Hist. of Central Asia. Tran. from the French by Naomi Walford. (New Jersy,1970), pp. 354-356.

أتى الخليفة إلى معسكر المغول وسلم نفسه إلى هولاكو، الذى طلب منه أن يأمر الأهالى بمغادرة المدينة، ويسلموا أنفسهم عزلا للمغول، فأتى الأهالى وقتلهم المغول على الفور، ثم دخل المغول بغداد وأجروا مذبحة فى الأهالى الذين رفضوا الإستسلام لأوامر هولاكو، واستمر نهب المدينة سبعة عشر يوما، مات خلالها تسعون ألفا من أهل بغداد بمن فيهم من أبناء البيت العباسى والأمراء وكبار رجال الدولة والعلماء. أما الخليفة، فقد أجبره المغول على أن يسلم كنوزه لهم، ثم وضعوه فى كيس، وسحقته حوافر الخيول، وأشعلوا النار فى المدينة وخاصة المسجد الجامع، فأتت على كثير من تراث الحضارة الإسلامية[1]. وهكذا انتهت الخلافة العباسية، وصار العالم الإسلامى للمرة الأولى بدون خليفة.

وكانت الخطوة التالية أمام هولاكو هى الاستيلاء على بلاد الشام ومصر، حيث أثارت أخبار سقوط بغداد وما فعله بها المغول موجة من الرعب والفزع. وكان أن زحف هولاكو على بلاد الجزيرة واستولى على مدنها، ثم عبر الفرات واستولى على حلب فى ٩ صفر سنة ٦٥٨ هـ (٢٥ يناير ١٢٦٠)، وخربها وأجرى فيها مذبحة مروعة[2]. كما دخل المغول دمشق بسهولة فى ١٧ ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ (٢ مارس ١٢٦٠)، وأجروا فيها مذبحة لا تقل فى بشاعتها عن مذبحة حلب. ثم استولى المغول على بقية بلاد الشام فى الأسابيع التالية، حتى وصلوا إلى غزة[3]، وبذلك حل الدور على مصر.

ولم يلبث هولاكو أن بعث برسالة تهديد إلى السلطان المملوكى سيف الدين قطز وحذره من عاقبة العناد إذا حدثته نفسه بالمقاومة، قال فيها: «فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى. وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب». ولكن قطز لم يأبه لذلك، بل قتل رسل هولاكو، وعلق رءوسهم على باب زويله[4]. وصمم قطز على الخروج بجيوشه لصد خطر المغول الذين وصلوا إلى أطراف مصر الشرقية، إذ رأى أن الهجوم خير من الدفاع فى محاربة

(1) Ibid.,p. 356.

(٢) السلوك، جـ١ ص ٤٢٢؛ ابن العميد: تاريخ الأيوبيين، ص ٤٩.

(٣) السلوك، جـ ١ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥؛ النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ٧٥ ـ ٧٧.

(٤) السلوك، جـ١ ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

الأعداء، وبعد أن جهز قطز استعداداته خرج من مصر لملاقاة الهجوم، وقرب الصالحية بالشرقية تراخى بعض أمراء المماليك في السير مع قطز خوفا من المغول. ولكن قطز هب فى أمرائه صائحا: «يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون. أنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه وخطيئة المسلمين فى رقاب المتأخرين»[1]. وفى تلك الأثناء كان هولاكو قد عاد إلى قراقورم حاضرة المغول في جوف آسيا بسبب وفاة أخيه، وترك كتبغا نائبا عنه فى الشام[2]. وعند عين جالوت على أرض فلسطين بين بيسان ونابلس، دارت معركة فاصلة فى رمضان سنة٦٥٨هـ(سبتمبر١٢٦٠)انتصر فيها المسلمون انتصاراً عظيما، وقتل فيها كتبغا قائد الجيش المغولى، واندفع الجيش المملوكى خلف المغول الذين فروا من دمشق وبقية بلاد الشام إلى ما وراء نهر الفرات.

وتعتبر هزيمة المغول فى عين جالوت أول هزيمة لحقت فى تاريخ توسعهم البربرى الخاطف منذ أيام جنكيز خان، وبداية انحسار خطرهم الذى هدد الحضارتين الإسلامية والعالمية. ويعلق المؤرخ هوارث[3]على انتصار المصريين فى موقعة عين جالوت قائلا: «وكان انتصار المصريين نقطة تحول فى تاريخ العالم، فللمرة الأولى منذ أمد طويل، يلقى المغول هزيمة ساحقة. وأوقفت هذه الموقعة مد الخطر المغولى، وأنقذت مصر وحضارة المسلمين، فقد ازدهرت مصر المملوكية، وأصبحت القاهرة قبلة الأنظار ودرة مدن الشرق، وقدر لحضارتها أن تصل إلى المغول، إلى دولة المغول المعروفة باسم القبيلة الذهبية(مغول القفجاق)عند بحر قزوين جنوبى روسيا، وإلى امبراطورية الإيلخانات نفسها بصورة واضحة ملموسة.

على أن السلطان قطز لم ينعم بالانتصار الذى أحرزه فى عين جالوت، ذلك أنه كان قد وعد ركن الدين بيبرس البندقدارى بنيابة حلب إذا أبلى بلاءً حسنا فى قتال المغول، ولكن

---

(١) السلوك، جـ ص ٤٢٩.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١ ص ٣٠٦؛ تاريخ الأيوبيين، ص ٥١ ـ ٥٣.

(3) Howorth (Henry H,) History of the Monglos from the 9th the 19th Century,(London, 1888), Part III, pp. 169-170.

قطز أخلف وعده ومنح حلب للأمير علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ، الأمر الذى أغضب بيبرس ومماليكه، واتفقوا على قتل قطز أثناء عودته إلى القاهرة. وحانت الفرصة للمتآمرين عندما وصل السلطان إلى القصير إحدى قرى مركز فاقوس بالشرقية حيث بقى بعض خواصه وأمرائه، على حين رحل جنده إلى الصالحية. فقد انشغل قطز بصيد الأرانب، فثارت أرنب، وانطلق خلفها حتى ابتعد عن خواصه وامرائه فتبعه المتآمرون، وتقدم بيبرس وشفع عنده فى إنسان فأجابه. ثم انحنى بيبرس ليقبل يد السلطان، وقبض عليها بشدة ليشل حركته، فى حين رماه بقيه المتآمرين عن فرسه، وضربوه بالسيوف والنشاب إلى أن مات، وتركوه ملقى على الأرض، واتجهوا جميعا إلى الدهليز السلطانى بالصالحية ودخلوه. وهناك قابلهم الأمير أقطاى وسألهم: «من قتله منكم؟»، فقال بيبرس «أنا قتلته»، فرد عليه أقطاى: «ياخوند اجلس فى مرتبة السلطنة مكانه»[١]. وفى ١٩ ذى الحجة سنة ٦٥٨هـ (نوفمبر ١٢٦٠) وصل بيبرس ومعه الأمراء إلى القلعة وتسلمها، ونودى فى القاهرة أن «ترحموا على الملك المظفر، وادعوا لسلطانكم الملك القاهرركن الدين بيبرس»[٢].

الظاهر بيبرس وإحياء الخلافة العباسية:

ذكرنا من قبل أن أحمد بن طولون ومحمد بن طغج الإخشيد حاولا نقل الخلافة العباسية، ولكن محاولتهما لم يكتب لها النجاح، ولم يتحقق ذلك إلا على يد السلطان الظاهر بيبرس الذى يعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقى لدولة المماليك البحرية. فبعد أن قام هولاكو المغولى بقتل المستعصم آخر الخلفاء العباسيين فى بغداد. استقدم بيبرس من دمشق أحد أبناء البيت العباسى وبايعه بالخلافة، وهو أبو القاسم أحمد الذى لقب بالمستنصر بالله. وعقب ذلك قام المستنصر بالله بتقليد بيبرس «أمور البلادالإسلامية، وما ينضاف إليها بما سيفتحه الله على يديه من البلاد التى بيد الكفار»[٣]. وهنا نلاحظ أن الظاهر بيبرس لم يفكر فى إعداد هذا الخليفة لاسترجاع بغداد وإقامة الخلافة بها، بل قصد أن يكون

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ١٠٢.

(٢)السلوك، جـ١ ـ ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

(٣) ابن خلدون: العبر، جـ٥ ص ٤٤٠ ـ ٤٤١؛ المقفى،جـ١ ص٦٩٥ ـ ص ٦٩٦.

الخليفة شخصية نافعة فحسب، وأن يسبغ الشرعية على حكم سلاطين المماليك[1]، ولايتجاوز بأى حال سلطته الدينية. وقد وصف المقريزى[2] وضع الخليفة العباسى فى القاهرة بأن خلافته «ليس فيها أمر ولانهى، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين».

ولاشك أن اتخاذ مصر قاعدة للخلافة الإسلامية أكسبها احترام الجميع فى العالم الإسلامى، وارتفع شأنها، وفى ذلك يقول السيوطى[3]: «واعلم أن مصر من حين صارت دار خلافة عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلتْ فيها السنة، وعفتْ منها البدعة، وصارت محل سكن العلماء، ومحط رجال الفضلاء». وقد بقيت الخلافة فى مصر تابعة لسلاطين المماليك وتحت هيمنتهم، إلى أن استولى العثمانيون على مصر فى سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧)، وأصبحت الآستانة مقر خلافتهم.

تطهير بلاد الشام من البقايا الصليبية:

لم يكن سلاطين المماليك أقل حماسة فى طرد البقايا الصليبية ببلاد الشام من أسلافهم الأيوبيين، لاسيما أن الفضل فى الانتصار على حملة لويس التاسع فى المنصورة وجلائها عن دمياط يرجع إلى بسالة المماليك فى القتال. على أن انشغال المماليك بصد الخطر المغولى وإيقاف زحفه من ناحية، وتثبيت مركزهم فى دولتهم الوليدة من ناحية أخرى، صرف المماليك عن متابعة حروبهم ضد الصليبيين بالشام. ولما توطدت سلطة المماليك باعتلاء السلاطن الظاهربيبرس عرش سلطنة المماليك (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧)، وجه أنظاره نحو معاقل الصليبيين بالشام.

ومما يدل على مهارة بيبرس السياسية، أنه لم يبدأ فى تنفيذ مشاريعه الحربية ضد الصليبيين، إلا بعد أن عقد محالفات مع بعض القوى الخارجية القريبة منه، فتحالف مع بركة خان سلطان مغول القفچاق أو القبيلة الذهبية عند بحر قزوين وهم الذين اعتنقوا الإسلام حديثا، واشتدت العداوة بينهم وبين مغول فارس الوثنيين، كما عقد معاهدة دفاعية

---

(١) محمدمصطفى زيادة: بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر، ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) الخطط، جـ١ ص ٣٩١.

(٣) حسن المحاضرة، جـ٢ ص ٩٤؛ بدائع الزهور، جـ١ القسم الأول ص ٣٢١.

مع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوجوس (١٢٥٩ ـ ١٢٨٢) فى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦٢م). ولم يكتف بيبرس بذلك، بل تحالف مع ما نفرد ملك صقلية، وسلطان سلاجقة الروم. وقد بدأ بيبرس حروبه ضد الصليبيين بالشام، بإغارة بعض أمرائه على أعمال أنطاكية في صيف سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠)، حيث أحرقوا ميناءها، وحطموا السفن الراسية فيه[١]. وبعد أن فرغ بيبرس من المشاكل التى واجهته، خرج من مصر فى جمادى الأول سنة ٦٦١هـ (مارس ١٢٦٣) على رأس جيش ضخم، وهاجم الناصرة، وأمربهدم كنيستها الشهيرة. ثم توجه إلى عكا، وشن هجوما عليها فى ١٤ أبريل ١٢٦٣م، ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها[٢]، وخرب نواحيها. وبعد حوالى سنتين (١٢٦٥م) هاجم بيبرس بنفسه قيسارية، فسقطت المدينة فى يديه فى ٢٦ فبراير من نفس العام، وفر السكان إلى قلعة المدينة، فحاصرها بيبرس حصاراً عنيفاً حتى اضطرت إلى الاستسلام فى ١٥ جمادى الأولى سنة ٦٦٣هـ (٥ مارس ١٢٦٥)، ثم أمر بهدمها[٣]. كما أرسل بيبرس جيشا إلى حيفا قام بتدمير المدينة وقلعتها، فى الوقت الذى هاجم بيبرس بنفسه عثليت فخربها «حتى لم يدع لها أثراً»، ثم زحف بعد ذلك إلى أرسوف، فشدد عليها الحصار، وسقطت المدينة فى ٨ رجب سنة ٦٦٣هـ (نهاية أبريل ١٢٦٥م)، ثم عاد بيبرس إلى القاهرة، فوصلها فى مايو من نفس العام[٤]. وهنا نلاحظ أن الظاهر بيبرس فى هذه الحملة قد استخدم سياسة الهدم والتخريب فى المعاقل الصليبية التى استولى عليها، وهى السياسة التى سار عليها خلفاؤه، فحطم تماما الموانى حتى لا يستخدمها الصليبيون كنقاط تجمع أو لرسو السفن بها[٥].

وبعد أن جهز بيبرس جيوشه خرج هلى رأسها فى مستهل شعبان سنة ٦٦٤هـ (٨ مايو ١٢٦٦)، فحاصر صفد، ولم تفلح جهود الصليبيين فى الدفاع عن قلعتها، فاضطروا إلى تسليمها، وبذلك صار كل إقليم الجليل فى يده، ثم شن بيبرس هجوما على هونين والرملة وتبنين، فسقطت فى يده بسهولة[٦].

---

(1) Stevenson, The Crusaders in the East, pp. 335-336; Mayer, The Crusades., p. 281.

(2)Stevenson, op. cit., 336-337; Mayer. op. cit., p. 281.

(٣) السلوك، جـ١ ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧.

(٤) السلوك، جـ١ ص ٥٢٧ ـ ٥٢٩؛ Stevenson, op. cit., 338-339.

(5) Mayer, op. cit.,p. 281.

(6) Mayer. op. cit., p. 281.

وفي جمادى الآخرة سنة ٦٦٦هـ (فبراير ١٢٦٨) خرج بيبرس مرة أخرى لمحاربة الصليبيين، فاستولى على يافا وهدم قلعتها، ثم توجه بعد ذلك إل قلعة الشقيف أرنون الحصينة، وضيق عليها الحصار إلى أن سقطت فى يده فى نهاية رجب سنة ٦٦٦هـ (١٥ أبريل ١٢٦٨) بعد تسعة أيام من قذفها بآلات الحصار[1].

ولم يلبث أن زحف بيبرس بجيوشه على مدينة أنطاكية، وهى أول إمارة أقامها الصليبيون ببلاد الشام، وعرفت بمناعتها وحصانتها. وقد ظهر بيبرس أمام أسوار أنطاكية فى ١٦ مايو سنة ١٢٦٨م، وهناك قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام، فتوجه الجيش الأول إلى ميناء السويدية للاستيلاء عليه وقطع الاتصال بين أنطاكية والبحر، وتحرك الجيش الثانى إلى شمال أنطاكية، لمنع أيه مساعدة تصل إلى أنطاكية من قيليقية، أما الجيش الثالث بقيادة بيبرس، فقد حاصر أنطاكية، ثم لم يلبث أن شن هجوما على المدينة فى رمضان سنة ٦٦٦هـ (٢١ مايو ٢٦٨) انتهى بسقوطها، وأمعن المسلمون القتل فى أهلها، ووقع الكثير منهم أسرى، ثم أمر بيبرس بإشعال النار فى القلعة وهدمها، حتى سويت بالأرض[2]. ولاشك أن سقوط أنطاكية فى أيدى المسلمين، كان أشد كارثة لحقت بالصليبيين من استيلاء صلاح الدين الأيوبى على بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، بحيث لم يعد للصليبيين بعد ذلك من المدن الكبيرة غير عكا وطرابلس.

وعندما اعتلى المنصور قلاوون عرش سلطنة المماليك فى سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩)، واصل سياسة بيبرس فى محاربة الصليبيين بالشام. فبعد أن تغلب المنصور على بعض المشاكل الداخلية التى صادفته، قرر الإستيلاء على حصن المرقب التابع لفرسان الإسبتارية، وهو من أمنع الحصون الصليبية بالشام. وفى سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥) ظهر المنصور على رأس جيوشه أسفل الجبل الذى يقع تحت الحصن. ووصفه قائلا: «غاية العلو والحصانة، لم يطمع أحد من الملوك الماضيين فى فتحه». ولهذا ظل المسلمون فى حصاره مدة ثمانية وثلاثين يومًا، حتى تمكنوا من إحداث الثقوب فى أسوار الحصن وأشعلوا النار فيه فى ٢٥

---

(١) السلوك، جـ١ ص ٥٦٤ ـ ٥٦٦؛ Stevenson, TheCrusders in the East., p. 340.

(٢) السلوك، جـ١ ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨؛ Stevenson, op. cit., p.341.

مايو سنة ١٢٨٥م، الأمر الذى أجبر أهله على طلب الأمان، فأجابهم المنصور قلاوون فى إبقائه سليما، وسمح لهم بالتوجه إلى طرابلس حاملين معهم كل ممتلكاتهم التى استطاعوا حملها[١].

وفى شهر ربيع الأول٦٨٨هـ (فبراير ١٢٨٩) خرج السلطان المنصور قلاوون من مصر على رأس جيش ضخم إلى الشام لمنازلة مدينة طرابلس. فوصل إليها وفرض عليها حصاراً شديداً استمر أربعة وثلاثين يوماً، انتهى بفتحها عنوة فى ربيع الأخر سنة ٦٨٨هـ (أبريل ١٢٨٩)، وهرب أهلها إلى جزيرة تجاه طرابلس، ثم أمر السلطان بهدمها وإحراقها[٢]. ولم يلبث المنصور أن استولى على بعض المعاقل الصليبية التابعة لطرابلس مثل بيروت وجبلة. وبذلك لم يبق من بلاد الصليبيين الهامة بالشام بعد ذلك غير عكا[٣]، وبدأ المنصور يستعد للاستيلاد عليها لولا وفاته المفاجئة.

ثم جاءت النهاية الأليمة للصليبيين بالشام على أيدى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ ـ ٦٩٣هـ/ ١٢٨٩ ـ ١٢٩٣). فلم تكد تستقر الأمور له، حتى خرج على رأس حملة ضخمة ومعه مائة من آلات الحصار إلى الشام، فوصل دمشق سنة ٦٨٠هـ (مارس ١٢٩١)، ومنها إلى عكا حيث عسكر أمام أسوارها المنيعة فى أوائل أبريل سنة ١٢٩١، وضيق عليها الخناق بآلات الحصار. وفى أثناء الحصار وصل الملك هنرى الثانى صاحب قبرس ومعه مائتا فارس وخمسمائة جندى من المشاه. فانتاب الفرح أهالى عكا وتيمنوا خيراً بقدومه. ولكن المسلمين واصلوا قصف المدينة بعنف بالغ، فى الوقت الذى أخذ المهندسون فى نقب الأسوار، ودار قتال عنيف راح ضحيته العديد من الصليبيين، فى حين هرب هنرى ملك قبرس وكثير من قادة الصليبيين بالسفن الراسية فى الميناء[٤].

وباستيلاء الأشرف خليل على عكا، خضعت بقية مدن فلسطين دون مقاومة، فسقطت صور وصيدا وبيروت وطرطوس وقلعة الحجاج. وبذلك انتهى الوجود الصليبى ببلاد الشام،

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ٣١٤ ـ ٣١٥؛ Stevnson, op. cit., p. 340.

(٢) السلوك الزاهرة، جـ١ ص ٧٤٧ ـ ٧٤٨؛ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١ ص ١٢٢.

(٣) النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(4) Stevenson, op. cit.,pp. 352 - 354; Mayer, op. cit., p. 286.

وطويت صفحته، وأسدل الستار على أهم فصول الصراع بين المسلمين والصليبيين، الذى استمر قرابة قرنين من الزمان.

بيبرس والباطنية (الحشيشية):

ينتمى أتباع طائفة الباطنية إلى إسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٥هـ (٧٦٢م)،وقد نجح أتباع إسماعيل هذا فى إقامة الدولة الفاطمية فى مصر. على أنه حدث بعد وفاة الخليفة الفاطمى المستنصر بالله عام ٤٨٧هـ (١٠٩٤) أن قام الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بإقصاء ابنه نزار ولى عهده وأكبر أبنائه عن العرش، وبايع أخاه الصغير أبا القاسم أحمد ولقبه بالمستعلى بالله. وقد أدى هذا إلى ظهور فريق يتشيع لنزار بمصر، بل دعا إلى إمامته بعض أهالى فارس من الإسماعيلية، الذين كانوا يدعون إلى انتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه اسماعيل وبنيه من بعده[1]. ومن أهم المبادىء التى أقام الإسماعيلية عليها مذهبهم، إيمانهم بأن لكل عقيدة ظاهراً وباطناً، ولكل تنزيل تأويل[2]. وقد أدى بهم هذا الرأى إلى تأويل أحكام الشريعة، فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادة باطنا، ولذلك أطلق الناس عليهم اسم الباطنية.

وكان أول ظهور للباطنية أو الإسماعيلية فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م) فى فارس فى بلدة ساوة (بين الرى وهمذان)، وازداد نفوذهم حتى استولوا على أصبهان، ونشروا بها دعوتهم فى عهد زعيمهم وداعى دعاتهم أحمد بن عبد الملك ابن عطاش، وأخذوا يلحقون الأذى بمخالفيهم، وأدخلوا الفزع بين الأهالى[3]. وبعد وفاة ابن عطاش، حل محله تلميذه الحسن بن الصباح،الذى اختار عدداً من الدعاة وأرسلهم إلى القلاع والحصون الواقعة فى جنوبى بحر قزوين. وسرعان ما استولى ابن الصباح على قلعة الموت المنيعة (بفتح الهمزة واللام)، ومعناها وكر النسر فى سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م،

---

(١) جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر، ص ١١٣ ـ ١١٦؛ محمود الحويرى: الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٣٠ ـ ٣٥.

(٢) الخطط، جـ١ ص٣٩٢.

(٣) سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، ص ٥٥١ ـ ٥٥٢.

واشتد نفوذه، وقدساعده على ذلك وفاة ملكشاه عدو الإسماعيلية اللدود بعد الاستيلاء على قلعة الموت بسنتين وتفكك الدولة السلجوقية من بعده[1]، فضلا عن ضعف الخلافة العباسية.

وقد عمل الحسن بن الصباح على تنظيم جماعته تنظيما دقيقا ليضمن لها البقاء. وكان الفدائيون(الفداوية)أهم مراتب ذلك التنظيم، فهم الأداة الفعالة التى قامت بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة فى الحروب الصليبية. ويذكر الرحالة البندقى ماركو بولو فى القرن الثالث عشر، أن شيخ الجبل ـ أى الحسن بن الصباح ـ قد شيد بالقرب من قلعة ألموت فى وادى بين جبلين، أكبر وأجمل حديقة غناء تقع عليها العين، غرس فيها جميع أنواع الزهور وأشجار الفاكهة، وجعل فى هذه الحديقة أنهاراً من خمر وأخرى من عسل وثالثة من لبن، لفتنة أتباعه بأن هذه هى الجنة التى وعد الله بها المتقين، وجعل فيها أجمل العذارى ممن يجدن فن الغناء والرقص والعزف على الآلات الموسيقية، كما شيد أجمل القصور المزينة بالصور الجميلة ذات المنظر الجذاب، ولا يسمح بدخول تلك الحديقة إلا من وقع عليه اختيار شيخ الجبل، ليكون فدائيا. ويختار شيخ الجبل الفتية الفداوية، من الذين يتراوح سنهم ما بين الثانية عشرة والعشرين، ولهم القدرة على حمل السلاح[٢]. واعتاد الشيخ أن يجتمع بالبعض من الشباب، ثم يأمرهم بإعطائهم جرعة من الحشيش توقعهم فى النوم السريع، ثم بعد ذلك يحملون إلى الحديقة، حتى إذا أفاقوا اعتقدوا أنهم صاروا فى الجنة فعلا. فالفتيات الحسان تبقين مع الشباب تداعبنه، ويعزفن له، ويغنين، ويبعث جواً من المرح الزائد، بالإضافة إلى قضاء الشباب وقتا ممتعا معهن. وهكذا كان يحصل الشباب على ما يتمناه، وإذا تركت له حرية الاختيار، لايود مغادرة الجنة، ولكنهم سرعان ما يحملوا ـ وهم فى غيبوبة ـ إلى دار شيخ الجيل، وعندا يفيقون يسألهم عن المكان الذى أتوا منه، فيرددون أنهم كانوا فى الجنة. أما الشباب الذى كان فى حضرة الشيخ، والذين لم يروا تلك الجنة، فبمجرد سماعهم ما ذكره الشباب حتى تحرقهم الرغبة للذهاب إلى تلك الجنة[٢].

(١) محمد كامل: طائفة الإسماعيلية (القاهرة١٩٥٩)، ص ٦٩ ـ ٧١.

(1) Marco Polo, The Travels., pp. 49-50; Lamb, The Crusades Vol. II(The Falame of Islam). p. 25.

(3) Marco Polo. pp. 50-51.

ولهذا، فعندما كان شيخ الجبل يرغب فى قتل شخصية كبيرة، أو أى رجل آخر، فإنه كان يستخدم بعض الفداوية (الحشيشية)، ويخبرهم أن القتل هو الوسيلة الوحيدة لدخولهم الجنة. وقد نفذ الفداوية تعاليم الشيخ بمنتهى السعادة، ومن ثم لايهرب من يرام التخلص منه من الموت[١]. ويرى المؤرخ رنسيمان أنه نظراً لاستخدام الحسن بن الصباح سلاح الاغتيال Assassintaion فى تنفيذ سياسته الرامية إلى القضاء على خصومه، ومنه جاء الاسم الذى نعت به أصحابه assassins بمعنى القتلة، وهى كلمة مشتقة من الحشاشين[٢].

وعلى الرغم مما ذكره الرحالة ماركو بولو عن وجود الجنة المزعومة، فإن الدكتور محمد كامل حسين[٣] يرى أنه لايوجد أى دليل يؤكد صحة ذلك، كما أن ما قيل فى الباطنية ما هو إلا أقوال خرافية قالها أعداؤهم عنهم، والحقيقة تخالف ذلك تماما. فمن المعروف أن مدمن الحشيش جبان لايستطيع أن يقوم بالأعمال الخطيرة التى كان يقوم بها الفدائيون من قتل الأعداء أو قتل نفسه إذا فشل فى مهمته، والحشيش يشل التفكير ويخدر العقل ويجعل المدمن يهذى ويبوح بأشياء وأسرار ربما حاول أن يكتمها، بينما الفدائى الإسماعيلى كان يمتاز بالفطنة والدقة التامة فى كل أعماله وتصرفاته، ويقدر موقفه تقديراً يحقق له النجاح مع شدة الحرص على الكتمان، وهذا كله لايتفق مع الإدمان على الحشيش.

وحوالى الوقت الذى كان فيه الصليبيون يدخلون الشام من الشمال الغربى، كان الباطنية يدخلونها من الشمال الشرقى. وبمعنى آخر أخذ نشاط الباطنية الهدام يمتد إلى بلاد الشام منذ بداية القرن الثانى عشر الميلادى. فقاوموا المذهب السنى، ولم يتحرجوا عن محالفة الصليبيين فى سبيل مصالحهم الخاصة. ويتضح ذلك فى أن الإسماعيلية فى حلب ضاقوا ذرعاً بالأمر الذى أصدره نور الدين محمود فى سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨) بإبطال «حى على خير العمل» فى الآذان، ولكنهم لم يستطيعوا القيام بعمل مضاد، خوفا من نور الدين.

---

(1) Marco Polo, The Travels., pp. 51-52.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢ ص ١٩٤.

(٣) طائفة الإسماعيلية، ص ٧٤ ـ ص٧٥.

وازدادت قوة الإسمعيلية بالشام بظهور شخصية قوية وداعية داهية، وهو راشد الدين سنان (٥٥٧ ـ ٥٨٨هـ/ ١١٦١ ـ ١١٩٢)، الذى استطاع بمقدرته أن يجمع كل إسماعيلية الشام حوله، وأن يجعل منهم قوة متحدة. وأرسل إليه نور الدين محمود الجيوش تلو الجيوش لمحاربته دون أن يتغلب عليه، حتى عزم نور الدين محمود الجيوش تلو الجيوش لمحاربته دون أن يتغلب عليه، حتى عزم نورالدين على السير بنفسه لمحاربته، لولا وفاته المفاجئة[١]. وقد سبقت الإشارة إلى أن الباطنية حاولوا اغتيال صلاح الدين الأيوبى نفسه، لولا أن الله أراد له النجاة من خناجرهم المسمومة.

وإذا كان صلاح الدين قد فشل فى إخضاع الباطنية والقضاء عليها، فإن النهاية كانت على يد السلطان الظاهربيبرس. فمن ناحية المبدأ لم يرض المماليك عن الباطنية بسبب شذوذ مذهبهم من ناحية، ثم بسبب موقفهم المائع بين الصليبيين والمسلمين من ناحية أخرى[٢]. ولهذا كان من المستحيل أن يقبل وضعهم على هذا النحو ببلاد الشام، ومن ثم وجه جهوده للقضاء عليهم. وأول ما فعله هو أنه بادر إلى منعهم من دفع الجزية للصليبيين ولاسيما فرسان الاسبتارية فى حصن الأكراد، وأجبرهم على دفعها له. ومما يدل على سيطرة بيبرس على الإسماعيلية، أنه صار يتدخل فى تعيين البعض من زعمائهم، وعزل البعض الآخر، ففى سنة ٦٦٨هـ (١٢٧٠) قلد بيبرس زعامة الإسماعيلية لصارم الدين بن الرضى صاحب العليقة على أن تكون مصيافا تابعة للسلطان، وعزل نجم الدين الشعرانى[٣]، ثم طوى بيبرس صفحة الإسماعيلية بالاستيلاء على حصونهم المنيعة ببلاد الشام حصنا بعد أخر، وهى العليقة، والخوابى، والمنيقة، والقدموس، والكهف، «وعفيت المنكرات منها، وأظهرت شرائع الإسلام وشعائره»[٤]. ومنذ ذلك الحين تفرق شمل الباطنية بالشام، وباتوا لايمثلون خطورة على العالم الإسلامى.

---

(١) محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص ٩٨ ـ ١٠٣.

(٢) سعيد عاشور: العصر المملوكى ص ٢١١.

(٣) السلوك، جـ١ ص ٥٨٦ ـ ٥٨٧.

(٤) الحسن بن عبد الله: اثار الأول فى ترتيب الدول (القاهرة ١٢٩٥هـ)، ص ١٥٢.

المماليك البحرية والنوبة:

شهدت بلاد النوبة تغيراً ملحوظاً فى نهاية القرن العاشر الميلادى، فالإسلام غدا منتشراً فى منطقة المريس[١]، وأضحى العرب الذين هاجروا إلى تلك المنطقة مستقلين من الناحية العملية، ومن السمات المميزة أيضا لنهاية ذلك القرن ازدياد الهجرة العربية إلى جنوب مصر وشمال النوبة،فقد صارت أسوان ومنطقة المريس محط ترحال الهجرات العربية الآتية من مصر بعيداً عن السلطة الحاكمة فيها.

وعندما قامت دولة المماليك البحرية فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، أخذت غارات النوبيين على أسوان تأخذ طابعاً عنيفاً لما قبله. إذ انتهز ملك النوبة داود فرصة انشغال السلطان الظاهر بيبرس بحروبه فى أرمينيا الصغرى عام ٦٧١هـ (١٢٧٢)، وأغار على ثغر عيذاب، وقتل عدداً من أهله بما فيهم القاضى والوالى، ثم تلى ذلك الإغارة على أسوان، فنهبها وخرب سواقيها، وأسر عدداً من أهلها، وإزاء ذلك توجه والى قوص على رأس جيش لمحاربة النوبيين، فتمكن من صدهم عن أسوان، وأخذ يطاردهم إلى أن وصل بالقرب من دنقلة، فقتل وأسر وعاد إلى ولايته[٢].

وقد أدرك الظاهر بيبرس هذا الخطر الكامن فى الجنوب، ووضع فى اعتباره احتمال طعن النوبيين لمصر من الخلف أثناء انشغالها بتصفية الجيوب الصليبية من الشام[٣]. لذلك ثار بيبرس على اعتداء النوبة على أسوان وعيذاب، ذلك الاعتداء الذى هدد دولته فى أعظم موارد ثروتها وقوتها وهى التجارة، فأسوان وعيذاب كانتا من أهم الثغور المصرية فى ذلك الوقت، إذ تأتى عن طرقهما بضائع الشرق ووسط أفريقية. وبات بيبرس يترقب الفرصة، إلى

---

(١) كانت منطقة المريس يحكمها موظف من قبل ملك النوبة يعرف بصاحب المريس. كما يعرف صاحب الجبل لأن منطقة نفرذه تقع بالقرب من أراضى المسلمين، ويعتبر الجزء الشمالى من منطقة المريس ـ بين الشلال الأول والثانى ـ منطقة مفتوحة للمسلمين، أما إلى الجنوب من الشلال الثانى(وادى حلفا) فإنها منطقة مغلقة فى وجه المسلمين. وتنحصر مسئولية حاكم الجبل فى عدم السماح لأى شخص بالمرور إلا إذا كان لديه ترخيصاً بذلك. وقد استمرت سياسة العزل جنوب الشلال الثانى تنفذ بحزم وشدة. انظر، محمود الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى، ص٣١.

(٢) الخطط، جـ١ ص ٢٠١ ؛ السلوك، جـ١ ص ٦٠٨ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية،جـ١٢ ص ٢٦٣.

(٣) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية (القاهرة ١٩٥٨)، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

أن أتيحت له فى عام ٦٧٤هـ (١٢٧٥م)، عندما فرشكندة ملك النوبة المخلوع، يشكو إلى بيبرس ما فعله به حاله الملك داود. فأسرع بيبرس بتجهيز حملة ضخمة، فأغارت على قلعة الدر، ثم واصلت السير إلى جزائر ميكائيل عند شلال وادى حلفا، فأجبرت الملك داود على الفرار بعد أن وقع معظم رجاله قتلى، وعين المماليك شكندة ملكا على النوبة بدلا من داود، وألبس التاج. وانتهت تلك الحملة الناجحة، بعقد اتفاقية جديدة تنظم العلاقات بين مصر والنوبة. وكان من أهم شروطها تنفيذ اتفاقية البقط القديمة، وأن تكون بلاد العلى وبلاد الجبل (الجزء الشمالى من بلاد النوبة) ملكا للسلطان الظاهر بيبرس لقربها من أسوان، كما تم إطلاق سراح الأسرى من أهل عيذاب وأسوان الذين سخرهم النوبيون فى بناء كنيسة[1].

وعلى أية حال، حققت حملة السلطان الظاهر بيبرس على بلاد النوبة ما لم تستطع حملة أخرى أن تحققه منذ الفتح العربى لمصر. وفى ذلك يقول المؤرخ مفضل بن أبى الفضائل[2]: «وفتحه هذه البلاد، مما يفوق بها كل ملك تقدمه». وقد بسطت تلك الحملة نفوذ مصر السياسى على بلاد النوبة، وصارت سلطنة المماليك بعد بيبرس تتدخل فى شئون النوبة الداخلية.

وكان السلطان المنصور قلاوون الذى اعتلى عرش سلطنة المماليك سنة ٦٧٩هـ (١٢٧٩م) حريصا على فرض سيادة السلطنة المملوكية على بلاد النوبة. فعندما خرج سمامون ملك النوبة عن طاعة السلطان، ونقض شروط الاتفاقية التى عقدها شكندة مع بيبرس، أرسل قلاوون حملة ضخمة فى ذى الحجة سنة ٦٨٦هـ (١٢٨٧) بقيادة الأمير علم الدين سنجر المسرورى المعروف بالخياط، والأمير عز الدين الكورانى، كذلك كتب السلطان قلاوون إلى عز الدين أيدمر السيفى والى قوص يأمره أن يشترك فى تلك الحملة بمن عنده من المماليك السلطانية والأجناد والعربان. وعندما وصلت الحملة إلى أول الحدود الشمالية للنوبة، انقسمت الحملة إلى قسمين: قسم بقيادة الأمير سنجر الخياط سار

---

(١) النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ص ٢٥٢؛ السلوك، جـ١ ص ٢٠١.
(٢) السلوك، جـ١ ص ٧٣٦ ـ ٧٣٧.

بالبر الغربى لنهر النيل، والقسم الثانى بقيادة أيدمر والى قوص زحف بحذاء الشاطىء الشرق للنيل الذى تقع فيه المدن الهامة فى مملكة النوبة، ومنها العاصمة دنقلة[1]. على أن سمامون ملك النوبة الذى وصفته المصادر بأنه «كان صاحب مكر ودهاء وعنده بأس» وضع خطة الغرض منها استدراج الجيوش المملوكية إلى داخل البلاد، وبعد أن يدركها التعب من طول الطريق يشتبك معها فى معركة فاصلة عند دنقلة. ولذلك كتب إلى جريس صاحب الجبل يأمره بإخلاء البلاد أمام المماليك دون أى احتكاك بهم.وعندما وصل أيدمر إلى دنقلة خرج إليه سمامون، فدارت بينهما معركة عنيفة راح ضحيتها أعداد كبيرة من المماليك، وانتهت بفرار سمامون جنوبا، فتتبعه أيدمر لمسيرة خمسة عشر يوما، ولكنه لم يستطع أن يظفر به، وإن كان قد ظفر بابن خاله سمامون وجريس. وقام أيدمر بتعيين ابن أخت سمامون ملكا على النوبة، وجعل جريس نائبا عنه، وترك معهما حامية عسكرية. وقد تعهد ملك النوبة الجديد بتنفيذ معاهدة البقط، وأن يقسم يمين الولاء للسلطان المملوكى، فامتثل لما أمربه[2].

غير أن السلطان المنصور قلاوون لم يهنأ بالانتصار الذى حققه طويلا، فبعد أن رجعت الحملة إلى القاهرة ظهر سمامون مرة أخرى، وسيطر على دنقلة، فى حين فر ملك النوبة الجديد وجريس صاحب الجبل إلى القاهرة، الأمر الذى أغضب السلطان، وأمر بإعداد حملة ضخمة لإخضاع النوبة[3]. وعهد السلطان إلى الأمير عز الدين أيبك الأفرم بقيادة تلك الحملة، ومعه الأمير قبجاق المنصورى والأمير بكتمر الجوكندار والأمير أيدمر والى قوص، فضلا عن ملك النوبة المعزول وجريس صاحب الجبل[4].

وفى سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩) انطلقت الحملة من القاهرة، ولما وصلت إلى أسوان مات الملك النوبى، وكتب الأمير الأفرم إلى السلطان يخبره بذلك، فأرسل السلطان إليه ابن أخت

(١) السلوك، جـ ١، ص ٧٣٧.
(٢) السلوك، جـ ١ ص ٧٣٧.
(٣) السلوك، جـ١ ص ٧٤٣.
(٤) السلوك، جـ١ ص ٧٤٩.

للملك السابق داود، لتعيينه ملكا فى دنقلة. وبمجرد وصوله إلى أسوان، بادرت الحملة بالسير جنوبا لغزو النوبة، وقد اتبعت نفس الخطة التى اتبعتها الحملة المملوكية السابقة، إذ قسمت إلى قسمين: قسم سار بالضفة الغربية لنهر النيل بقيادة الأمير الأفرم، والقسم الآخر سار بالضفة الشرقية للنيل بقيادة أيدمر والى قوص. وعندما وصل المماليك إلى دنقلة وجدوها خالية من السكان، إلا من رجلين طاعنين فى السن، أخبرا المماليك أن سمامون فر إلى جزيرة فى النيل تبعد عن دنقلة مسيرة خمسة عشر يوما(١). ولم يجد أيدمر والى قوص بدأ من التوجه إلى تلك الجزيرة لإخضاع سمامون، فوصل إليها ونزل قبالتها، وأرسل إلى سمامون يستأمنه ويعرض عليه الدخول فى الطاعة، فلم يقبل، بل هرب جنوبا إلى مملكة الأبواب التى تبعد عن الجزيرة مسيرة ثلاثة أيام. على أن كثيراً من أتباع سمامون رفضوا أن يتبعوه إلى مملكة الأبواب، وعادوا مع المماليك إلى دنقلة، حيث توج الملك الجديد، بعد أن تعهد الولاء والطاعة لسلطان المماليك، وعلى أن يؤدى البقط السنوى المقرر(٢).

ومما يجدر ذكره أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ ـ ٧٤١هـ / ١٢٩٣ ـ ١٣٤١) اتبع سياسة جديدة لبسط نفوذه على النوبة، وهى تعيين ملك مسلم على النوبة بدلا من ملك مسيحى،ومن شأن تلك السياسة انتشار الإسلام فى مملكة دنقلة المسيحية، وازدياد العنصر العربى فيها(٣). ففى عام ١٣٠٤م حضر إلى القاهرة أماى ملك النوبة طالبا النجدة من السلطان الناصر محمد ضد منافسيه، وقد استجاب السلطان وأرسل معه حملة بقيادة طقصبا والى قوص، وبعد أن أنجزت هذه الحملة مهمتها، ونجحت فى تثبيت أماى عرشه، عادت إلى القاهرة(٤). على أن الأمور فيما يبدو لم تستقر تماماً لأماى، أذ يشير المقريزى(٥) إلى أن أماى لقى مصرعه فى سنة ٧١١هـ (١٣١١م) على يد أخيه كرنبس الذى اعتلى عرش مملكة النوبة بدلا منه. وحتى لايتعرض كرنبس لنقمة السلطان،

---

(١) السلوك، جـ١ ـ ص ٧٤٩ ـ ٧٥٠.
(٢) السلوك، جـ١ص ٧٥١ ـ ٧٥٢.
(٣) سعيد عاشور: العصر المملوكى، ص ٩٤.
(٤) السلوك، جـ٢ ص ٧ – ٨؛ القلشقندى: صبح الأعشى، جـ٥ ص ٢٤٧.
(٥) السلوك، جـ٢ ص ١٠٧.

فقد أتى إلى القاهرة حاملا الهدايا والضرائب المفروضةعلى بلاده، معلنا ولائه وطاعته لسلطنة المماليك.

ولم تكد الأمور تستقر لكرنبس فى عرشه، حتى فكر فى التخلص من تبعيته لسلطنة المماليك، وامتنع سنة ٧١٥هـ (١٣١٥م) عن أداء الالتزامات المفروضة عليه. ولذلك عزم السلطان الناصر محمد على حسم الموقف تماما ببلاد النوبة، فأعد حملة ضخمة أسند قيادتها للأمير عز الدين أيبك جهاركس: وأرفق معاها أمير نوبى، وهو سيف الدين عبد الله برشمبو، لتتويجه ملكا على النوبة بدلا من كرنبس. وكان برشبمو ابن أخت داود ملك النوبة الأسبق قد وقع أسيراً فى إحدى الحملات المملوكية السابقة، وتربى فى الطباق السلطانية، واعتنق الإسلام. وعندما علم كرنبس بعزم السلطان على تعيين ملك مسلم على النوبة رشح ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز لذلك المنصب، ولكن السلطان رفض تعيين كنز الدولة الذى ينحدر من أصل عربى صميم، فضلا عن أن له أتباع كثيرون من العرب المقيمين فى بلاد النوبة. وعين السلطان عبد الله برشمبو ملكا على النوبة بعد أسر كرنبس وأخيه إبرام ونقلهما إلى القاهرة[1].

غير أن كنز الدولة رأى أنه صاحب الحق فى تولى عرش مملكة النوبة، طبقا لما هو متبع فى نظام الوراثة عند النوبيين، الذى يخول لابن الأخت الأولوية فى تولى العرش فى حالة وفاة الملك أو عزله، فحارب الملك الذى عينه السلطان، واستطاع قتله واغتصاب عرش النوبة، ولم يتهاون السلطان، فأسرع بإرسال إبرام لتولى مقاليد الحكم فى النوبة والقبض على ابن اخته كنز الدولة، وما أن وصل إبرام حتى قبض على مناوئه كنز الدولة، ولكن وفاته المفاجئة أعادت كنز الدولة إلى عرش النوبة سنة ١٣١٧م[2].

ولم يتوان السلطان الناصر محمد إزاء تحدى كنز الدولة له، فأرسل حملة إلى النوبة فى سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٣م)، بصحبتها كرنبس لتولى عرش النوبة، ولم تكد تصل إلى دنقلة حتى أسرع كنز الدولة بالهروب، فاعتلى كرنبس العرش، وبعد أن أدت الحملةمهمتها

---

(١) السلوك،جـ٢ ص ١٦١.

(٢) السلوك، جـ١ ص ١٦١ ـ ١٦٢.

قفلت راجعة إلى مصر،وكأن تلك العودة كانت بمثابة إشارة لظهور كنز الدولة، الذى أسرع بطرد خاله إلى أسوان، ونصب نفسه فى الحال ملكا على النوبة للمرة الثانية[1].

ومهما يكن من أمر، فإن اعتلاء ملك مسلم عرض مملكة النوبة،أدى إلى إنتشار الإسلام على نطاق واسع فى بلاد النوبة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى، وأبطلت الجزية التى كانت تؤديها النوبة لمصر بمقتضى اتفاقية البقط القديمة، لدخول أهلها فى الإسلام.

حركات العربان فى عصر المماليك البحرية:

نزحت هجرات عربية إلى مصر منذ الفتح العربى لها، بحثا عن حياة أفضل، واستقرت فى جميع أنحاء مصر، وامتزجت بالمصريين، وظلت بقية منها فى الأطراف. ولاشك أن تلك الهجرات لاسبيل إلى إحصائها، وكل ما يستطيعه الباحث أن يسجل أهم الهجرات وأظهرها فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى.

وفى عصر المماليك، أطلقت المصادر المعاصرة على القبائل التى كانت تعيش فى أجزاء مختلفة فى الوجهين البحرى والقبلى إسم العربان. ولعل السبب فى إطلاق إسم العربان إلى أنهم كانوا يعيشون فى طور الانتقال من حياة التنقل إلى حياة الاستقرار، على عكس القبائل العربية التى وفدت على مصر، وذابت فى كيان الشعب المصرى، ولم تعد هناك سمات تميزها. ولعل إسم العربان جاء عنواناً للإخلال بالأمن والاعتداء على الأمنين من أهالى القرى والمدن، ومن ثم عرفوا بذلك.

وأيا كان الأمر، فقد عاش العربان فى مصر خارج القرى الآهلة بالفلاحين من أهالى البلاد على زراعة القليل من الحبوب، وتربية المواشى، ولهذا كانوا ينتقلون فى جزء معين من السنة إلى الريف، حيث تتوفر المراعي الجيدة، فإذا ما انتهوا من تسمين مواشيهم عادوا إلى مواطنهم. وكان مشايخ العربان تقع عليهم مسئولية حفظ النظام وتوفير الأمن فى القرى والأرياف. ووصل بعضهم إلى درجة عالية من الثراء، لامتلاكهم قطعانا ضخمة من

---

(١) السلوك، جـ١ ص ١٦٢.

الأغنام والجمال. أما قبائل العربان التى استقرت عند حدود مصر الجنوبية، فقد زاولت التجارة مع النوبة، وجنت من ورائها أرباحاً طائلة. وفيما عدا ذلك كانت غالبية العربان لاتمتلك شيئا، ولذلك أغارت على القرى المجاورة الآمنة، واستولت على كل ما تصل إليه أيديها من مواشى وحبوب[1]. وكانت للعربان تقاليدهم الخاصة، فقد يحدث أن يتزوج أحد العربان من بنات الفلاحين، فى حين لايحدث العكس، لأن العربى يفضل أن يأكل ابنته التمساح ولايأخذها الفلاح.

وعندما تولى السلطان المعز أيبك أول سلاطين المماليك البحرية حكم مصر، استاء العربان من الخضوع للمماليك الذين مسهم الرق، وأرادوا الإطاحة بحكمهم، وإعادته إلى العرب أصحاب السيادة القديمة فى مصر. وقد ساعدت الأحوال السياسية والاضطرابات التى عمت مصر فى بداية سلطنة المعز أيبك، على قيام العربان بثورة شاملة هددت حكم المماليك فى سنة ٦٥١هـ (١٢٥٣م)، وقد أشعل تلك الثورة ببلاد الصعيد والوجه البحرى الجعافرة الأشراف، وتزعمها الشريف حصن الدين بن ثعلب، الذى قال: «نحن أصحاب البلاد»، وصرح هو ومن التفوا حوله: «بأنا أحق بالملك من المماليك، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب، وهم خوارج خرجوا على البلاد»[2]. وصادفت ثورة حصن الدين بن ثعلب قبولا لدى العربان فى الوجه البحرى، فأتت جموع ضخمة منهم من أطراف البحيرة ومن الجيزة والفيوم، ومن أقصى بلاد الصعيد، «وهم يومئذ فى كثرة من المال والخيل والرجال»، وأقام حصن الدين دولة عربية مستقلة، كانت قاعدتها ديروط الشريف (نسبة إليه) فى مصر الوسطى[3].

وكاتب حصن الدين بن ثعلب الملك يوسف الأيوبى صاحب الشام، يطلب مساعدته فى محاربة أيبك[4]، ولكن الناصر يوسف لم يكن باستطاعته محاربة أيبك فى ذلك الوقت، إذ كانت رسل الخليفة العباسى المستعصم قد تدخلت لفض النزاع بينهما[5]. ولكن

---

(1) Ashtor, A Social and Economic Hist., pp. 285-286.

(٢) السلوك، جـ١ ص ٣٨٦؛ البيان والإعراب عما أرض مصر من الأعراب، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٣) السلوك، جـ١، ص ٣٨٧؛ البيان والإعراب، ص ١٢٣.

(٤) البيان والإعراب، ص ٣٨.

(٥) مختار العبادى: قيادم دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، ص ١٣١.

السلطان أيبك أرسل جيشا ضخما بقيادة الأمير فارس الدين أقطاى لتأديب العربان وردهم إلى الطاعة، ونجح فى إلحاق الهزيمة بهم فى بلبيس بمحافظة الشرقية فى سنة ٦٥٣هـ (١٢٥٣م). وبعد الهزيمة التى لقيها الشريف حصن الدين، أرسل إلى السلطان أيبك يطلب الأمان، فأمنه ووعده بإقطاعات، فحضر هو وأصحابه إلى معسكر المماليك ببلبيس، ولكن أيبك خدعه وقبض عليه، ثم بعثه إلى الإسكندرية حيث حبس[١]. ويرى البعض أن حصن الدين بن ثعلب ظل طليقا، ولم يتمكن أيبك ومن جاءبعده من سلاطين المماليك من القبض عليه، إلى أن خدعه السلطان بيبرس، وقبض عليه بعد أن أمنه وشنقه بالإسكندرية سنة ١٢٦١م[٢]. ويبدو أن شنق حصن الدين بن ثعلب أدى إلى استياء العربان بالصعيد، فثاروا، «وكثر طمعهم وهموا بتغيير الممالك، ووثبوا على الأمير عز الدين الهواش والى قرص وقتلوه»، ولكن السلطان الظاهر بيبرس أرسل إليهم حملة عسكريةبقيادة عز الدين الأفرم،فهزم العربان وبدد شملهم[٣].

والواقع أن العربان لم يكن لهم من النظام والمهارة الحربية وحسن الاستعداد ما يناظر المماليك، ولذلك لم يستطع العربان الصمود طويلا فى وجه المماليك. وفى كل مرة كانت الهزيمة تحل بالعربان. ومع ذلك يعودوا إلى الثورة بعد قليل، حتى سببوا كثيراً من المتاعب فى ذلك العصر. وكانت معظم حركاتهم تظهر عند قيام سلطان جديد أو أثناء حكم سلطان قاصر[٤]. وهنا نلاحظ أن ثورات العربان بالصعيد كانت تفوق من حيث العدد والشدة مثيلاتها بالوجه البحرى، ويرجع السبب فى ذلك إلى بعد الصعيد عن قبضة السلطة المركزية بالقاهرة.

ويضيق بنا المقام عن ذكر الثورات التى أشعلها العربان بغية النهب والسلب وقطع الطرق على الأهالى الآمنين والتجار طوال عصر المماليك، فلم تسلم البلاد من عبثهم وإغارتهم

(١) السلوك، جـ١ ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨.
(٢) البيان والإعراب، ص ٣٨؛ مختار العبادى: المرجع السابق، ص ١٣٢.
(٣) السلوك، جـ١ ص ٤٧١.
(٤) سعيد عاشور: العصر المملوكى، ص ٣١٤ ـ ٣١٥.

عليها، ولكن المماليك لم يقفوا عاجزين أمام العربان، بل استخدموا فى قمع ثوراتهم أبشع أنواع التنكيل والقهر، مثل التوسيط، وسلخ الجلود، وتعليق رؤوس القتلى حول أعناق نسائهم اللواتى أجبرن على السير فى المدن للفرجة[1]، إلى غير ذلك من وسائل التعذيب المعروفة فى العصور الوسطى.

دولة المماليك الچراكسة:

عزم السلطان المنصور قلاوون (٦٧٩ ـ ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ ـ ١٢٨٩) على تكوين فرقة جديدة من المماليك تدين له بالولاء والطاعة، ويعتمد عليها، وتختلف فى أصولها عن فرقة المماليك الأخرى التى غلب عليها عنصر الأتراك. ولذلك أقبل على شراء المماليك الچراكسة من المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود، وأسكنهم فى أبراج القلعة، ليكونوا كما قال: «كل الملوك عملوا شيئا يذكرون به ما بين مال وعقار، وأنا عمرت أسواراً، وعملت حصونا مانعة لى ولأولادى وللمسلمين وهم المماليك»[2]، فسموا البرجية تمييزاً لهم عن المماليك البحرية الذين أقاموا فى جزيرة الروضة. وساعد المنصور قلاوون على تحقيق رغبته، كثرة الچركس فى أسواق الرقيق، بسبب اشتداد غارات المغول على بلادهم منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، فضلا عن رخص سعرهم آنذاك بالنسبة للعناصر التركية. وسار السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ ـ ٦٩٣هـ/ ١٢٨٩ ـ ١٢٩٣م) على نهج أبيه فى الإكثار من المماليك الچراكسة، فاشترى منهم حوالى ألف مملوك. على أن السلطان خليل خرج عن المألوف فى تربية المماليك، فبعد أن كان لايسمح لهم بمغادرة القلعة، سمح لهم أن ينزلوا منها فى النهار بشرط ألا يبيتوا خارجها[3]، مما أدى إلى وقوفهم على الأحوال العامة، بعد أن كانوا بمعزل عن الناس، وبدأت بذلك المنافسة بين الترك والچراكسة[4].

---

(1) Ashtor, op. cit., pp. 286-287.

(٢) الخطط، جـ٢ ص ٢١٣.

(٣) نفس المصدر والمكان.

(٤) حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٤.

أخذ نفوذ المماليك البرجية فى الازدياد، وبخاصة فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية، فيصف المقريزى[1] ارتفاع شأنهم سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٩م)، قائلا: «قويت شوكة البرجية بديار مصر وصارت لهم الحمايات (المكوس) الكبيرة، وتردد الناس إليهم فى الأشغال». وإلى جانب هذا أظهر المماليك البرجية شجاعة رائعة فى صد خطر المغول الذين هاجموا بلاد الشام فى واقعة شقحب (إحدى قرى دمشق) سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٣م)، وفى ذلك يقول المؤرخ أبو المحاسن[2]: «وسلموا أنفسهم إلى الموت، فلما رأى باقى الأمراء منهم ذلك ألقوا بأنفسهم إلى الموت، واقتحموا القتال».

وهنا نلاحظ أنه منذ انتهاء عصر الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م) تصف المصادر المعاصرة فرقة المماليك البرجية وصفا عنصريا فتطلق عليها كلمة الچراكسة. ولعل ذلك سببه تكتل الچراكسة الذين تكونت منهم هذه الفرقة ووقوفهم ضد الترك عدة مرات وضحت فيها العنصرية والعصبية[3].

وفى عصر أحفاد الناصر محمد برز اسم أحد أمراء الچراكسة، وهو الأمير برقوق، الذى استطاع بفضل طموحه وقوته أن يصل إلى منصب أتابك العسكر سنة ٧٨٠هـ (١٣٧٨م)[4]. وانتهز فرصة صغر سن حاجى حفيد الناصر محمد الذى أعلن سلطانا سنة ٧٨٣هـ (١٣٨١م)، واضطراب أحوال البلاد فى عهده، وعقد اجتماعاً كبيراً بالقلعة فى العام التالى، حضره الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء، قرروا فيه: «إن أحوال المملكة قد فسدت، وتزايد فساد العربان فى البلاد، من الشرقية والغربية والصعيد، وقد خامرت النواب وخرجوا عن الطاعة، والأحوال غير صالحة، وإن الوقت محتاج لإقامة سلطان كبير من الأتراك، تجتمع فيه الكلمة، ويردع العربان، ويمهد البلاد، ويسكن الاضطراب، ويقمع أهل الفساد، فإن السلطان الملك الصالح صغير السن، وقد قلت حرمته فى البلاد وبين

---

(١) السلوك، جـ١ ص ٨٧٥.

(٢) النجوم الزاهرة، جـ٨ ص ١٦٠ ـ ١٦١.

(٣) حكيم عبد السيد: المرجع السابق، ص ٢٧.

(٤) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٢٩٧.

الناس». وأجمعوا على خلع حاجى، وإعلان برقوق سلطانا وتلقب بلقب الظاهر، وبذلك قامت دولة المماليك الجراكسة[1].

وترتب على قيام دولة المماليك الجراكسة بتولية الظاهر بيبرس برقوق عرش السلطنة المملوكية، أن عمل سلاطينهم على الإكثار من المماليك الجدد، وهم الذين عرفوا بالجلبان أو الأجلاب. والمعروف عن المماليك أنهم كانوا فى البداية يجلبون صغاراً، ويجرى تربيتهم وفق تعاليم معينة يشبون عليها من الصغر، ويلتزمون بها فى الكبر. ولكنه منذ عهد السلطان فرج ابن برقوق (٨٠١ ـ ٨١٥هـ/ ١٣٩٦ ـ ١٤١٢) لم يعد المماليك الذين يجلبون من الخارج صغاراً، فأهمل شرط صغر السن، لأنهم فى هذه الحالة كانوا أرخص ثمنا من المماليك الصغار، وصار تجار الرقيق يجلبون إلى مصر المماليك الكبار، فى الوقت الذى بخل عليهم السلاطين بالمال والتربية الصالحة، ولم يدفعوا بهم إلى فقيه أو مؤدب، وتهاونوا فى تربيتهم، فضعفت روحهم العسكرية، وكثرت ثوراتهم، وصاروا مصدر قلق واضطراب وفوضى، قاسى من جرائها أهالى مصر والشام، حتى عجز السلاطين عن كبح جماحهم، الأمر الذى عاد بالوبال على دولة المماليك الجراكسة. وخير تعبير عن حالة المماليك الجراكسة وماطرأ عليهم من فساد وتدهور ما وصفهم به المقريزى[2]، فقد قال فى نقد لاذع: «وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس، وأدناهم وأخسهم قدراً، وأشحهم نفسا، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثرهم إعراضا عن الدين، ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد، وألص من فأرة، وأفسد من ذئب». وفى عهد تلك الدولة صار منصب السلطنة نهبا للمنافسات بين كبار أمراء المماليك، ولم يكن يمر حادث خلع سلطان أو تنصيب آخر من غير سلسلة من المؤامرات والاغتيالات. وفضلا عن ذلك، إن أمراء المماليك فى بلاد الشام اعتادوا القيام بحركات ثورية شغلت جانبا كبيراً من مجهود السلاطين، وهناك كذلك غارات العربان المتكررة على مصر وغزوات المغول فى عهد زعيمهم تيمور لنك، وتعرضت مصر أيضا لكثير من المجا عات الناجمة عن كثرة الفتن الداخلية والاضطرابات الخارجية،

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ١ القسم الثانى، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.
(٢) الخطط، جـ٢ ص ٢٤٨.

الأمر الذى هدد كيان الدولة المملوكية وعجل بسقوطها. وعلى الرغم من ذلك كله، فإن سلاطين المماليك الجراكسة استطاعوا المحافظة على دولتهم فى مصر والشام، بل عمدوا إلى توسيع ممتلكاتها، ونشر تجارتها الخارجية فى البحرين المتوسط والأحمر، وحافظوا على سيادتها على الحجاز[1].

برسباى وفتح قبرس:

ذكرنا أن السلطان الأشرف خليل بن قلاون قد قضى على آخر المعاقل الصليبية فى عكا سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١م)، غير أن بقايا الصليبيين الذين غادروا بلاد الشام قذف بهم البحر إلى جزيرة قبرس، حيث اتخذوها مركزاً لتجمعهم وإقامتهم، على أمل أن يرجعوا منها إلى الشام، واستعادة بيت المقدس. وكانت قبرس خير موقع جغرافى ملائم يصلح قاعدة أخيرة للإنقضاض على مصر والشام، فهى بحكم موقعها فى طريق الحملات الصليبية الوافدة من الغرب الأوربى، وتواجه بلاد الشام. ولم يكد الصليبيون يستقرون بالجزيرة، حتى بدأوا القيام بأعمال القرصنة على سفن المسلمين، وشن الغارات على سواحل مصر والشام، وتهديد تجارتهما تهديداً خطيراً. وقد تبنى ملوك قبرس من آل لوزجنان فكرة الحروب الصليبية، فحاولوا على مساعدات من الغرب الأوربى للقيام بحملة صليبية ضد المسلمين على غير جدوى. وكان أن انتهز بطرس الأول لوزجنان (١٣٥٠ ـ ١٣٦٩م) ملك قبرس، الذى امتاز بحماسه الشديد للأعمال الصليبية، فرصة ضعف دولة المماليك فى عهد السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد (٧٦٤ ـ ٧٧٨هـ/ ١٣٦٣ ـ ١٣٧٦م) وهو طفل صغير فى الحادية عشرة من عمره، وخلو الإسكندرية من وسائل الدفاع والحماية، فقاد حملة فى المحرم سنة ٧٦٧هـ (أكتوبر ١٣٦٥م) إلى الإسكندرية وهاجمها فور وصوله، وأعمل القتل فى أهلها أسبوعاً كاملاً دون تمييز بين مسلم ومسيحى، ونهبها، وضرب رجاله المساجد والزوايا وحرقوها، واعتدوا على النساء والفتيات، ثم عاد محملاً بالأسرى والغنائم[2]، قبل أن يدركه الجيش المملوكى. وقد عاب المؤرخ النويرى

---

(١) محمد مصطفى زيادة: «الدولة المملوكية الأولى»، ص ٥١١.

(٢) النويرى الإسكندرانى: كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية، جـ٣ ص ٦٤ ـ ٦٥ ابدائع الزهور، جـ١ القسم الثانى، ص ٢٢ ـ ٢٣.

الإسكندرانى[1] على بطرس لوزجنان أنه أتى إلى الإسكندرية» على حين غـــفلة من حماتها» ، فدخلها وسرقها كاللص، وهرب منها خوفا من وصول جيش السلطان لو أدركه بها.

ولم ينس المصريون ذلك التخريب الذى حدث لمدينتهم على أيدى القبارسة، وحانت فرصة الانتقام بعد حوالى ستين سنة فى عهد السلطان الأشرف برسباى (١٤٢٢ ـ ١٤٣٨م) ، فأرسل ثلاث حملات بحرية كانت أهم الأحداث التى شهدها الشرق الأدنى فى القرن الخامس عشر الميلادى، الأولى سنة ٨٢٧هـ (١٤٢٤م) ، والثانية ٨٢٨هـ (١٤٢٥م) ، والثالثة سنة ٨٢٩هـ (١٤٢٦م).

وقد أغارت الحملة الأولى على مدينة اللمسون (لبماسول) ، وكان أهلها قد استعدوا لها، فرجع المسلمون إلى مصر بعد أن أحرقوا عدة سفن قبرسية، وفى أيديهم كميات ضخمة من الغنائم[2]. ودلت هذه الحملة على مبلغ ضعف قبرس وعجزها عن مقاومة المسلمين، مما حدا بالسلطان إلى التفكير جديا فى فتح قبرس[3]. أما الحملة الثانية، فقد غادرت مصر إلى طرابلس، ومنها إلى الماغوصة (فاماجوستا) ، حيث نزل المشاة، وأكثر الفرسان إلى البر، وهناك عرف المسلمون باستعداد جانوس ملك قبرس (١٣٩٨ ـ ١٤٣٢م) لمحاربتهم، ولم يلبث أن أرسل إليهم بعض السفن لصدهم، ولكن المسلمين استطاعوا إلحاق الهزيمة بالقبارسة، كما أنزلت القوات البرية المملوكية التى كانت تسير على الساحل هزيمة ساحقة بفرسان جانوس، وأخذ المماليك «يقتلون ويأسرون ويحرقون القرى، حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى، وامتلأت أيديهم بالغنائم» ، ثم عادت الحملة إلى مصر[4]. على أن السلطان برسباى لم يقنع بذلك، لأنه كان قد عقد العزم

---

(١) كتاب الإلمام بالإعلام، جـ٣ ص ٦٥ ـ ٦٨.
(٢) السلوك، جـ٤ القسم الانى، ص ٦٧١ ـ ٢ص٦٧؛ النجوم الزاهرة، جـ١٤ ص ٢٧٠.
(٣) سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧)، ص ٩٢.
(٤) السلوك، جـ٤ القسم الثانى، ص ٦٩٤ ـ ٦٩٥؛ النجوم الزاهرة، جـ١٤ ص ٢٧٨ ـ ٢٨٠.

على إخضاع جزيرة قبرس نهائيا، ولم يكن غرضه إرسال حملة لمجرد النهب والسلب والعودة محملة بالغنائم، ولذلك قرر إرسال حملة ثالثة لتحقيق فتح قبرس[1].

وكان أن جهز برسباى الحملة الثالثة بأساطيها وجيوشها، وعهد بقيادة القوات البحرية إلى الأمير إينال الحكمى، فى حين عهد بقيادة القوات البرية إلى الأمير تغرى بردى المحمودى، ومعهما كثير من أمراء المماليك والمتطوعين. وقد خرجت الحملة فى ٢ رجب سنة ٨٢٩هـ (يوليو ١٤٢٦) من ساحل بولاق إلى الإسكندرية فى يوم مشهود، «يجل عن الوصف، تجمع الناس فيه للفرجة على المسافرين من الأقطار والبلاد والنواحى، حتى صار ساحل بولاق لايستطيع الرجل أن يمر فيه لحاجته إلا بعد تعب ومشقة زائدة»[2]. ثم أقلعت الحملة من الإسكندرية إلى قبرس، ونزلت فى ليماسول واستولت على قلعتها، ونهبت وسلبت أهلها، وأمعنت القتل فيهم، ثم هدمتها. وتوغل المسلمون فى داخل الجزيرة، وحدثت بينهم وبين جانوس ملك قبرس معارك عنيفة، انتهت بهزيمته هزيمة ساحقة ووقوعه فى الأسر، وقتل العديد من فرسانه، ثم زحف الأمير تغرى برى المحمودى إلى نيقوسيا عاصمة قبرس، فوقعت فى يده، ورفع عليها الرايات السلطانية. ولما بلغ السلطان برسباى فتح قبرس «كاد أن يطير فرحا»، ودقت البشائر بقلعة الجبل، وزينت القاهرة سبعة أيام. وعاد الفاتحون إلى مصر، ووصلوا إلى ساحل بولاق فى ١٣ أغسطس سنة ١٤٢٦م، فشقوا القاهرة فى موكب حافل، وخلفهم الأسرى، والغنائم بين أيديهم، وجانوس ملك قبرس أمامهم حيث وضع على بغل أعرج وهو منكس الأعلام، «وقد اجتمع لرؤيتهم خلائق لايعلم عدتهم إلا الله تعالى، حتى أتت أهل القرى والبلدان من الأرياف للفرجة»[3].

ثم سيق جانوس إلى القلعةعارى الرأس مقيداً بالحديد، وظهر فى بلاط السلطان بحضور مبعوثين من حكام المناطق الإسلامية فى تركيا، وإمارات التراكمة فى آسيا الصغرى، وملك

---

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ١٠٣؛ العصر المماليكى، ص ١٦٧.
(٢) النجوم الزاهرة، جـ١٤ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.
(٣) النجوم الزاهرة، جـ١٤ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٩.

تونس، وشريف مكة، وأكابر الدولة من الأمراء والأعيان. وقبل ملك قبرس الأرض عند قدمى السلطان، ثم سقط فاقد الوعى[1]. وتوسط قنصل البنقدقية وتابعه من تجار أوربا من أجله، ضامنين دفع مائة ألف من الدوقات الذهبية فى الحال كمقدم للجزية، على أن تؤدى مثل هذه القيمة بعد عودة الملك إلى قبرس. وعلاوة على هذا تعهد جانوس أن يدفع جزية سنوية، وأن يكون تابعا للسلطان، وعندئذ أطلق سراحه، وعاد إلى قبرس فى مايو سنة ١٤٢٧م[2]. هكذا انتقمت مصر لنفسها من جزيرة قبرس، ونجحت فى القضاء على نشاطها فى مياه البحر المتوسط، وظلت قبرس من ذلك الوقت تابعة للقاهرة، وتدفع جزية سنوية حتى نهاية حكم المماليك على يد العثمانيين سنة ١٥١٧م.

جقمق ومحاولات فتح رودس:

من المعروف أن الهيئات الدينية الحربية لعبت دوراً بالغ الأهمية فى الدفاع عن مملكة بيت المقدس طوال القرن الثانى عشر، وفى خلال القرن التالى انتقل عبء الدفاع عن الممتلكات الصليبية فى الشام إلى تلك الهيئات، التى كان أقدمها هيئة فرسان الاستبارية. وبعد أن سقطت عكا فى أيدى المسلمين عام ١٢٩١م وانتهى الوجود الصليبى ببلاد الشام، اتخذت الاسبتارية من جزيرة قبرس مقراً لها. على أنها لم تلق شيئا من التقدير الذى كانت تأمله فى تلك الجزيرة، فاستولت على جزيرة رودس فى أغسطس سنة ١٣٠٨م، واتخذتها قاعدة لنشاطها[3]. ولم يكن فرسان الاسبتارية الذين حولوا الجزيرة إلى قلعة منيعة يقلون حماساً عن آل لوزجنان فى قبرس فى مشاريعهم الصليبية ضد المسلمين.

أدرك الإسبتارية الخطر الذى يتهددهم بعد أن نجح السلطان برسباى فى فتح قبرس، وخشوا أن يحاول المماليك غزو رودس، فعرضوا على السلطان عقد معاهدة صلح وعدم اعتداء، فقبل ذلك لانشغاله بحرب المغول. على أن إغارات القراصنة على شواطىء مصر لم تتوقف عقب استيلاء المماليك على قبرس سنة ٨٣٠هـ (١٤٢٦م)، مما لم يدع مجالا

---

(١) السلوك، جـ٤ القسم الثانى، ص ٧٢٤ ـ ٧٢٥.

(٢) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ص ١٢٨.

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣ ص ٧٣٠.

للشك فى أن أولئك القراصنة اتخذوا جزيرة رودس قاعدة لنشاطهم بعد أن سقطت قبرس[١]. ومما يؤكد ذلك أنه فى عهد السلطان جقمق (٨٤٢ ـ ٨٥٧هـ/ ١٤٣٨ ـ ١٤٥٣)، دخلت فرع رشيد فى ربيع الأول سنة ٨٤٣هـ (١٤٣٩) أربع سفن للصليبيين، حتى «قاربت مدينة رشيد، وأخذت منها أبقاراً وغيرها»، ثم عادت أدراجها[٢].

وكان من المستحيل على دولة المماليك الجراكسة أن تقف مكتوفة الأيدى أمام القراصنة الذين اتخذوا من سواحل جزيرة رودس أوكاراً يخرجون منها للإغارة على شواطىء مصر، كما وجدوا من فرسان الاسبتارية خير مشجع على اعتداءاتهم التى تهدد تجارة المسلمين وأمنهم فى بلادهم، ولذلك أراد السلطان جقمق إخضاع جزيرة رودس ليبسط سيادته على مياه شرق البحر المتوسط[٣].

وقد أرسل جقمق ثلاث حملات لغزو رودس، فتوجهت الحملة الأولى فى سنة ٨٤٤هـ (١٤٤٠م)، إلى قبرس ومنها إلى رودس، ولكن فرسان الاسبتارية استطاعوا أن يوقفوا نزول المماليك، وألحقوا بالسفن الإسلامية بعض الخسائر، وقتل إثنا عشر من المماليك، وأصيب كثيرون آخرون، مما اضطر رجال الحملة إلى الانسحاب إلى مصر، «وأعلموا السلطان بأنه لم يكن لهم طاقة بأهل رودس»[٤].

أما الحملة الثانية التى أرسلها جقمق، فقد كانت بقيادة الأمير إينال العلائى الناصرى، والأمير تمر باى، ومعهما عدد كبير من المماليك السلطانية والأمراء والمطوعة، وخرجت الحملة فى المحرم سنة ٨٤٦هـ (١٤٤٣)، فوصلت إلى رودس، ولكن الشتاء بعواصفه الشديدة كان على الأبواب، ويحول بينهم وبين مصر، فاضطروا إلى العودة إلى مصر، «ولم ينالوا غرضا»[٥].

---

(١) سعيد عاشور: العصر المملوكى، ص ١٧٠.

(٢) النجوم الزاهرة، جـ١٥ ص ٣٣٤.

(٣) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٤) النجوم الزاهرة، جـ١٥ ص ٣٤٣.

(٥) النجوم الزاهرة، جـ١٥ ص ٣٥١ ـ ٣٥٢.

أما الحملة الثالثة والأخيرة، فلم تكن أفضل من سابقتيها، ففى ربيع الأول سنة ٨٤٨هـ (١٤٤٤) خرجت تلك الحملة مجهزة بعدد وافر من الرجال والعتاد إلى طرابلس، ومنها إلى رودس. وعلى الرغم من الشجاعة التى أبداها المماليك، إلا أن فرسان الاسبتارية قاوموا بشدة، مما جعل المسلمين يستنفذون قواهم تدريجيا، وأحسوا بالإجهاد، فأبحروا عائدين إلى مصر[١]. ولم يلبث أن تم الصلح بين الاسبتارية فى رودس والسلطان جقمق فى مصر، وظل الإسبتارية فى رودس حتى سنة ٩٢٩هـ (١٥٢٢م)، حين استولى عليها الأتراك العثمانيون، فرحلوا عنها إلى جزيرة مالطة واتخذوها مقراً لهم.

وصول البرتغاليين إلى الهند:

غير أن الازدهار الذى نعمت به مصر فى عصر دولة المماليك، تعرض لخطر أوربى جديد قبل أن يشرف القرن الخامس عشر على نهايته. ذلك أن فكرة الحروب الصليبية فى هذا القرن قد تطورت، فبدلاً من مواجهة المسلمين فى معارك دامية أثبتت الحروب الصليبية فشلها الذريع فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، إذا بها فى القرن الخامس عشر تتجه إلى توسيع نطاق تلك الحروب، وذلك بتطويق المسلمين من الأمام والخلف. ووجه الأهمية هنا أن الطريق إلى تحقيق هذا الهدف لم يكن معروفا، ويتطلب جهوداً متواصلة لاكتشافه. ومن ثم كانت النزعة الاستعمارية هى القاعدة العريضة التى قامت عليها الكشوف الجغرافية فى أواخر العصور الوسطى[٢]. وفى هذا الدور من أدوار الحركة الصليبية ظهرت البرتغال بجهودها الكشفية ذات الطابع الصليبى، وشجعها البابوات، على أساس تطويق المسلمين من الأمام والخلف، وتحطيم سيطرتهم على تجارة الهند التى تمثل المنبع الرئيسى لثروتهم ورخائهم. وفى ٢٠ مايو سنة ١٤٩٨م (٩٠٤هـ) بعد رحلة استغرقت أكثر من عشرة شهور، تمكن ڤاسكو دى جاما من الطواف حول أفريقية عن طريق رأس رجاء الصالح، والوصول إلى كاليكوت أهم موانى ساحل ملبار الهندى، وبذلك حقق البرتغاليون إنجازاً جديداً، وبعبارة أخرى فإن وصول ڤاسكو دى جاما إلى الهند، يمثل تحولاً بارزاً فى تاريخ

---

(١) النجوم الزاهرة، جـ ١٥ ص ٣٦٠ ـ ٣٦٣.

(٢) محمود الحويرى: ساحل شرق أفريقية من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالى (القاهرة ١٩٨٦).

التجارة الشرقية. إذ كانت حاصلات الشرق تصل إلى أوربا حتى ذلك الوقت بواسطة التجار في مصر المملوكية، الذين كانوا يبيعونها بدورهم إلى البنادقة بأسعار مرتفعة، وقد عادت تلك التجارة في تلك الحاصلات على مصر والبندقية بأرباح طائلة. وهكذا ذهبت حصيلة الضرائب التي كان سلاطين المماليك يحصلون عليها وأدت إلى ثرائهم من جهة، واستمدوا منها أسباب قوتهم وعظمتهم من جهة أخرى[1].

وعبثا حاولت دولة المماليك الجراكسة إيقاف البرتغاليين عن التعرض بسوء للتجار المسلمين في الهند وتهديد سفنهم التجارية، فدخلت في حرب معهم كان نصيبها فيها الهزيمة الساحقة وتحطيم أسطولها في معركة ديو البحرية في ٣ فبراير سنة ١٥٠٩م (٩١٥م)، فلم تقم للتجارة المملوكية في الهند بعد ذلك قائمة، وتدهور مركزها الاقتصادي، ولم تعد سوقا عالميا للتجارة بين الشرق والغرب، ولم تمض على تلك المعركة سوى سنوات قليلة، حتى سقطت الدولة المملوكية فريسة هينة في أيدي العثمانيين، كما سنرى بعد قليل.

المماليك والعثمانيون:

سبق الإشارة إلى أن المغول بقيادة جنكيز خان اجتاحوا العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وكانت دولة خوارزم شاه في بلاد ما وراء النهر أول دولة إسلامية سقطت في أيدي المغول سنة ٦١٧هـ (١٢٢٠م)، ثم اندفع المغول إلى غربي آسيا، ولم تكن هناك غير ممالك ضعيفة جرفها السيل المغولي. وكان فيمن فر سليمان ـ جد عثمان مؤسس الدولة العثمانية ـ فنزح بعشيرته من خراسان التي كانوا قد هاجروا إليها منذ أمد بعيد من أواسط آسيا، واتجه إلى الغرب، حيث انتهى به المطاف في أرمينية على ضفاف الفرات في سنة ٦٢١هـ (١٢٢٤م). وبعد سنوات قليلة بلغه خبر موت جنكيزخان، فرغب في العودة بقومه إلى خراسان، ومن ثم سار بحذاء الفرات متجها نحو بلاد الشام، غير أنه لقي حتفه أثناء عبور النهر في سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١م)[2].

---

(١) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج٤ ص ٤ ـ ٤٥ محمود الحويري: المرجع السابق، ص ٧٤ ـ ٨٦.

(2) Creasy (Sir Edward), Turkey and the Balkans (U.S.A.,1928), p. 9.

وعندئذ انقسم أتباع سليمان إلى جماعتين، الأولى وهى الأكثر عدداً اتجهت إلى خراسان، أما الأخرى بقيادة أرطغرل بن سليمان، فقد عزمت على أن تستوطن منطقة آسيا الصغرى، وعندما وصل أرطغرل إلى حدود سلطنة سلاجقة الروم، وقع بصره على جيشين يتحاربان دون أن يكون له سابقة بمعرفتهما، فدفعته الشهامة إلى الوقوف مع أضعفهما حتى تم له النصر، وتبين لأرطغرل بعد ذلك أنه ساند جيش علاء الدين سلطان سلاجقة الروم ضد المغول، فابتهج لأنه انتصر لقوم تربطه بهم روابط الدم. واعترافا من علاء الدين بالخدمة التى أداها له أرطغرل منحه إقليما فى غرب آسيا الصغرى، على مقربة من حدود الدولة البيزنطية[1].

وبعد وفاة أرطغرل فى سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م) خلفه ابنه عثمان الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة العثمانية. إذ استغل فرصة ضعف دولة سلاجقة الروم ووفاة سلطانها سنة ٧٩٧هـ (١٣٠٧م) وأخذ يتوسع بسرعة على حساب الإمارات التركية والدولة البيزنطية. واتخذ ينى شهر (المدينة الجديدة) عاصمة له، وكان ذلك فى بداية الدولة العثمانية. وبعد وفاة عثمان خلفه على عرش السلطنة ابنه أورخان فى سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦)، فاستولى على نيقوميديا فى السنة الأولى من اعتلائه العرش، ثم استولى سنة ٧٣١هـ (١٣٣٠) على مدينة نيقية التى تلى القسطنطينية فى الأهمية، وبذلك سيطر أورخان على كل الشمال الغربى من آسيا الصغرى[2]، ولم يعد يفصله عن أوربا غير بحر مرمرة، الأمر الذى أثار الفزع فى أوربا وخاصة البابوية.

وكان أن عبر العثمانيون بقيادة أورخان البحر إلى الشاطىء الأوربى، واستولوا على غاليبولى سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤م). ومضت جيوش الدولة العثمانية حتى بلغت مشارف عاصمة النمسا فى أواسط أوربا، فكانت الدولة العثمانية أول دولة إسلامية تصل بقواتها إلى هناك، وتقوم بنشر الإسلام بها. ومنذ أن اعتلى محمد الثانى عرش الدولة العثمانية فى ١٨ فبراير سنة ١٤٥١م قرر إخضاع مدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، وابتدأ حكمه باستعدادات ضخمة، ثم استطاع تدمير كل القرى المجاورة للقسطنطينية، ففقدت

(1) Ibid.,pp. 9 - 10.

(2) Ibid., p.23.

المدينة الاتصال كلية بالمناطق المجاورة لها. وفى ٦ أبريل سنة ١٤٥٣، اقترب العثمانيون من أسوار القسطنطينية وحاصروها، وقد شارك فى الدفاع عنها كثير من مسيحيى أوربا من روسيا وأسبانيا وچنوة، ومع ذلك سقطت القسطنطينية في يد محمد الثانى فى ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ (٢٩ مايو ١٤٥٣م)، وبذلك انتهت الدولة البيزنطية من صفحة التاريخ، وعرف محمد الثانى منذ ذلك الوقت باسم محمد الفاتح.

ولما وصلت الأخبار إلى مصر باستيلاء العثمانين على مدينة القسطنطينية، احتفلت مصر بهذا النصر، وأرسل السلطان المملوكى إينال العلائى التهانى إلى السلطان العثمانى محمد الثاني. وفى ذلك يقول المؤرخ ابن إياس[1]: «فلما بلغ السلطان ذلك ووصل وفد الفاتح دقت البشائر بالقلعة، ونودى فى القاهرة بالزينة، ثم إن السلطان عين برسباى أمير آخور ثانى رسولا إلى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح العظيم».

ومما يجدر ذكره أن الدولتين المملوكتين والعثمانية ارتبطتا بعلاقات ودية طيبة، وتمثلت تلك العلاقات فى تبادل الهدايا والرسل بين الدولتين، وفى التهنئة فى المناسبات المختلفة، وظل الحال فى ذلك حتى عهد السلطان المملوكى خشقدم (٨٦٥ ـ ٨٧٢هـ/١٤٦١ ـ ١٤٦٧). ففى سنة ٨٦٨هـ (١٤٦٣)، وصل إلى القاهرة رسول من قبل السلطان محمد الفاتح، ورفض أن يقوم بالمراسيم المألوفة أمام سلطان مصر، والتى منها تقبيل الأرض بين يديه، فغضب خشقدم ولم يخلع عليه، ثم ازداد غضبه عندما قرأ رسالة محمد الفاتح، ولم يجد بها الألقاب الجديرة بمكانته، وكاد أن يفتك بالرسول، لولا أن الأمراء منعوه من ذلك، «وكان هذا سببا لوقوع العداوة بين سلطان مصر وبين ابن عثمان، واستمرت الوحشة عمالة بينهما إلى دولة الأشرف قايتباى»[2]. ومن الأسباب التى أدت إلى الاحتكاك بين المماليك والعثمانيين الإمارتين التركمانيتين قرمان ودلغادر بآسيا الصغرى، وهما تحت الحماية المملوكية، إذ تدخل محمد الفاتح فى شئون الإمارتين، ونجح فى أن يولى عرش الإمارتين أميرين مواليين للعثمانيين، وإلى جانب ذلك رحب السلطان العثمانى بالأمراء اللاجئين إليه من بلاط السلطان المملوكى خشقدم.

---

(١) بدائع الزهور، جـ٢ ص ٣١٦.

(٢) بدائع الزهور، جـ٢ ص ٤٢٠.

بعد أن اعتلى الأشرف قايتباى عرش سلطنة المماليك فى سنة ٨٧٢هـ (١٤٦٨)، أخذت العلاقات بين المماليك والعثانيين تزداد سوءاً، ذلك أنه أنه عندما تولى بايزيد الثانى عرش الدولة العثمانية فى سنة٨٨٦هـ (١٤٨١)، نافسه فيه أخوه جم، ولكن بايزيد الثانى قضى على حركته، فلجأ جم إلى مصر، حيث رحب به قايتباى وأكرم وفادته، الأمر الذى أغضب بايزيد، ونقم على قايتباى[1].

عزم بايزيد الثانى على الانتقام من قايتباى، فانتهز فرصة شكوى على دولات أمير دلغادر من تصرفات قايتباى، وأمده بقوات ضخمة هاجم بها ملطية التابعة للمماليك فى سنة ٨٨٩هـ (١٤٨٤)، وفى هذا الصدد يقول ابن إياس[2]: «وهذا أول تحرك ابن عثمان على على بلاد السلطان». ولم يقف السلطان قايتباى عاجزاً إزاء ما حدث من على دولات وحلفائه العثمانيين، فأرسل حملته بقيادة الأمير تمراز الشمسى استطاعت إلحاق الهزيمة بهم، وأخذت رايات السلطان العثمانى، ودخلت بها حلب وهى منكسة.

ومن ناحية أخرى، حدث فى العام التالى أن أحد ملوك الهند قد أرسل مع أحد التجار هدايا قيمة للسلطان العثمانى بايزيد الثانى، وكان من بينهما خنجر نفيس مرصعا بفصوص ثمينة، ولما وصل التاجر إلى جدة استولى عليها قايتباى، فلما علم بايزيد بذلك اشتد غضبه على قايتباى. ويبدو أن قايتباى رغب فى مد يد السلام إلى بايزيد الثانى، بدليل أنه أرسل إليه الخنجر والهدايا التى بعث بها ملك الهند، فضلا عن تقديم اعتذاره عما حدث[3]. ولكن بايزيد الثانى قابل ذلك بالإساءة، إذ استولت قواته على قلعة كولك التابعة للمماليك فى آسيا الصغرى، فلم ير قايتباى بدأ من إرسال حملة فى سنة ٨٩٠هـ بقيادة الأمير أزبك، استطاعت أن تلحق الهزيمة بالعثمانيين، وأقعت عدداً كبيراً منهم فى الأسر[4]، وعلى الرغم من ذلك فقد أطلق قايتباى سراح الأسرى وأرسلهم إلى بلادهم، على أمل أن يتم الصلح بينه وبين بايزيد، وشاع فى مصر أمر الصلح بينهما[5].

(١) بدائع الزهور، جـ٣ ص ١٨٣.
(٢) بدائع الزهور، جـ٣ ص ٢٠٦ ـ ٢١٠.
(٣) بدائع الزهور، جـ٣ص ٢١٥.
(٤) بدائع الزهور، جـ٣ ص ٢١٨ ـ ٢٢٦.
(٥) بدائع الزهور، جـ٣ص ٢٣٧.

والحقيقة أن الصلح لم يتم بين المماليك والعثمانيين، بدليل أن السلطان العثماني بايزيد أرسل أسطولا إلى ميناء الأسكندرية ليقطع الطريق على الجيش المملوكي بقيادة الأمير أزبك، ولكن عاصفة قوية اجتاحت الأسطول العثماني وأغرقت معظمه، وعندئذ تقدم أزبك ووصل إلى أطنة (أذنة)، واستولى عليها بعد حصار استمر ثلاثة شهور، وعاد إلى القاهرة وفي يده كثير من الأسرى والغنائم[1].

ولم يكد الجيش المملوكي يصل إلى القاهرة، حتى استولت عساكر بايزيد الثاني على سيس وطرسوس وغيرها من البلاد الحلبية في سنة ٨٩٤هـ (١٤٨٨م)[2]. وكان أن أرسل السلطان قايتباي حملة بقيادة الأمير أزبك، استعادت كولك، واستولت على قلعة كوارة، ثم عادت الحملة إلى القاهرة في المحرم سنة ٨٩٦هـ[3].

وعلى الرغم من الانتصارات التي أحرزها المماليك ضد العثمانيين في هذا الدور، إلا أنها لم تكن حاسمة، بل كشفت القناع عن أطماع العثمانيين في الاستيلاء على باقي إمارات آسيا الصغرى، والتوسع على حساب الدولة المملوكية.

سقوط دولة المماليك:

لما تولى السلطان سليم الأول (٩١٨ـ ٩٢٦هـ ـ ١٥١٢ ـ ١٥٢٠م) عرش الدولة العثمانية، خرج عن السياسة الأوربية التي سار عليها أسلافه من السلاطين العثمانيين، فتوقف عن الزحف الغربي والتوسع في أوربا على حساب القوى الأوربية المسيحية بغزواته ناحية الشرق الإسلامي على حساب الدول الإسلامية المجاورة. وقد اختلف المؤرخون في تفسير هذه الظاهرة، فيرى البعض أن الدولة العثمانية قد بلغت مرحلة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وأنه كان عليها في أوائل القرن التالي البحث عن ميادين جديدة للتوسع، في حين يرى البعض الآخر أن الأحداث التي دارت داخل الشرق الإسلامي أو حوله في أوائل القرن السادس عشر هي التي جذبت الدولة العثمانية

---

(١) بدائع الزهور، جـ٣ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٧.

(٢) المصدر السابق، جـ٣ ص ٢٦١.

(٣) المصدر السابق، جـ٣ص ٢٧٥.

إلى الخروج إلى الشرق الإسلامى لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السنى بصفة عامة، والمقصود هنا بأحداث الشرق الإسلامى هو الزحف البرتغالى على حدود الشرق العربى ومنافذه البحرية، وأن خروج العثمانيين إلى هذه المناطق كان هدفه حماية الشرق الأدنى الإسلامى من الخطر البرتغالى[1].

وفى هذا الوقت كان العثمانيون يمتلكون أفضل مدفعية فى العالم، فقد استخدمت جيوش السلطان سليم الأول أحدث المدافع النحاسية المركبة على عجلات يجر الواحد منها زوج من الثيران[2]. ولم تكن مصر قد أدركت حتى السنوات الأخيرة من دولة المماليك حاجتها لاستخدام الأسلحة النارية، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه لم يكن ثمة تهديد خارجى على مصر يدفعها إلى طلب هذا السلاح من أوربا التى كانت على اتصال دائم بها. ثم إن تربة مصر لم تكن تنطوى على المعادن الأساسية لصب المدافع، فضلا عن تدهور الأوضاع الاقتصادية فى مصر نتيجة القحط والأوبئة والمجاعات وثورات المماليك الجلبان. وعلى الرغم من ذلك، فقد استخدمت الأسلحةالنارية على عهد السلطان قانصوه الغورى (٩٠٦ ـ ٩٢٢هـ/ ١٥٠١ ـ ١٥١٦)، ولكن المماليك عجزوا عن استخدامها بكفاءة، وبخاصة عهدوا بها إلى وحدات أقل شأناً من الناحية الاجتماعية، على حين بقى القسم الأكبر من المماليك الأصلاء بعيداً عن استخدامها.

وعلى أية حال، بدأ السلطان سليم الأول بمحاربة الدولة الصفوية الشيعية بفارس، واستطاع بقواته الضخمة ومدافعه أن يقضى على الشاه إسماعيل الصفوى فى موقعةجالديران (تشالديران) ـ بين تبريز وبحيرة أرمية ـ فى ٢ رجب سنة ٨٢٠هـ (٢٣ أغسطس ١٥١٤، ويدخل تبريز عاصمة فارس الشيعية فى ٥ سبتمبر من نفس العام[3]. كما اكتسح ديار بكر والرها ونصيبين والموصل وغيرها، واستولى على إمارة دلغادر

---

(١) محمد أنيس:الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ ـ ١٥١٩م)، (القاهرة ١٩٨١) ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) إيفانوف(نيقولاى) :الفتح العثمانى للأقطار العربية ١٥١٦ ـ ١٥٧٤ترجمة يوسفعطا الله، مراجعة د. مسعود طاهر (بيروت١٩٨٨)، ص ٦٠.

(٣) بدائع الزهور، جـ٤ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

وعاصمتها الأبلستين المشمولة بحماية المماليك[1]. وبعد هذه الانتصارات التى حققها سليم الأول، وجه اهتمامه شطر بلادالشام التى كانت جزءاً من دولة المماليك الچراكسة، وأصبحت الحرب لامحالة واقعة بينه وبين السلطان الغورى.

وفى تلك لأحيان، كانت دولة المماليك الچراكسة تمر بمرحلة ضعف شديد، فقد انهمك المماليك الجلبان فى العبث والفساد، وأخذوا ينهبون الدكاكين فى القاهرة، وتعرضوا للناس بالضرر والأذى، ولم يسلم السلطان الغورى من مضايقاتهم، بل أخذوا يطالبونه بنفقاتهم حتى ضاق به الأمر، «وبكى حتى أغمى عليه ورشوا على وجهه الماء، وهو يقول: ما بقى لى حاجة بسلطنة، فأرسلونى أى مكان تختارونه»[2]. والواقع أن الحماس لم يعد يملأ نقوس الچراكسة للدفاع عن مصر، إذ كانوا يرون أن السلطان العثمانى سليم الأول طالما أنه لم يقم بغزو الأراضى المملوكية، فليس ثمة داع للحرب أو تبريرها Casus belli. ولكن السلطان الغورى لم يأخذ برأيهم، فأعلن عن عزمه التحرك إلى بلاد الشام لإيقاف سليم الأول عند حده، سواء كان ذلك سلماً أو حربا، وكان أن جهز الغورى حملة ضخمة كانت تفتقر إلى النظام والتماسك، كما أن تمويلها كان عبئا ثقيلا على الأهالى، فقد سبب تموين الجيش شبه مجاعة بين الأهالى، وانتشر الغلاء، وانتزعت الدواب من الطواحين، واحتفى الخياطون والتجار، خشية أن تنهب بضائعهم أو يقدمون أموالا للمماليك أو القيام بخدمات إلزامية، فى حين احتجب العبيد خوفا من استخدامهم فى جر الأثقال. وكانت الخزانة المملوكية خاوية، فرواتب ضباط الجيش آنذاك كانت لاتتعدى ثلث أوسدس ما كان يدفع لهم منذ عهد السلطان قايتباى. وفرضت حكومة المماليك على الأهالى ضرائب ثقيلة لتمويل نفقات الحرب ولم يعهدوها من قبل، فى الوقت الذى كان على كل قرية صغيرة أن تمد الحملة بفرسين، فى حين التزمت كل مدينة بتسليم أربعة خيول. ولم يكن باستطاعة الفلاحين أن يتحملوا ذلك، فهربوا تاركين محاصيلهم وهجروا

---

(١) بدائع الزهور، جـ٤ ص ٤٣٥.

(٢) بدائع الزهور، جـ٤ ص٤٨٤ ـ ٤٨٥.

قراهم. وجرى تخفيض قيمة العملة لتمويل الحملة، أما أولئك الجنود الذين سيبقون بمصر بعد خروج الحملة، فلم يتسلموا رواتبهم[١].

وفي الوقت الذى كان السلطان الغورى يجهز استعدادته لمواجهة العثمانيين، وصلت رسالة من خاير بك نائب حلب تطمئن السلطان من ناحية العثمانيين، وأن سليم الأول لايرغب في قتاله، وقد تبين بعد ذلك أن خاير بك كان يخون سلطانه وبلاده لحساب العثمانيين، وقد بعث بتلك الرسالة ليهدىء أعصاب سيده، ويصرفه عن الاستعداد للحرب.

وعلى أية حال، أتم السلطان الغورى استعدادته، وحشد جيوشه فى الريدانية ـ شمالى القاهرةبين المطرية والجبل الأحمر ـ استعداداً للخروج إلى الشام، تحسباً لأية مفاجآت قد تصدر عن العثمانيين. وفى أثناء وجوده بالريدانية، وصلت رسالة ثانية من خاير بك نائب حلب، ومع تلك الرسالة رسالة من السلطان سليم موجهة إلى السلطان الغورى مليئة بالألفاظ الرقيقة والتواضع الجم، ويقول فيها السلطان سليم: «أنت والدى وأسألك الدعاء!»، ويعلق ابن إياس[٢] على رسالة السلطان العثمانى بقوله: «وكان هذا كله حيلا وخداعاً من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده، وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد».

وكان أن خرج قانصوه الغورى على رأس جيش كثيف، بعد أن أناب عنه فى السلطنة أثناء غيابه الأمير طومان باى، فوصل فلسطين، ومنها اتجه إلى حلب، فوصلها فى ١٠ جمادى الثانية ٩٢٢هـ (يوليو ١٥١٦)، وهناك ألحق جنده الأذى بأهلها، «وأخرجوا الناس من بيوتهم، وسبوا حريمهم وأولادهم، وآذوهم الأذى البليغ، وكان ذلك سببا لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة، لشدة ما حل بهم من الضرر منهم»[٣]. وفى حلب وصل رسولان من قبل السلطان العثمانى لمفاوضة السلطان الغورى فى أمر الصلح، وإمعانا من الرسولين فى خداع الغورى قالا له: «نحن فوض لنا أستاذنا الأمر، وقال مهما

---

(1) Stripling (George William Frederiek), The Ottoman Turrks and the Arabs. 1511 - 1574 (U.S.A., 1977), pp 40-41.

(٢) بدائع الزهور، جـ٥ ص ٤٥.
(٣) ابن زنبل: آخره المماليك، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة ١٩٦٢)، ص ٢١ ـ ٢٢.

اختاره السلطان افعلوه ولاتشاوروني» وقد فطن المؤرخ ابن إياس[١] إلى ماكان يرمى إليه سليم الأول من وراء سفارته، فقال: «وكل هذا حيل وخداع حتى يبطل السلطان (الغورى) عن القتال، ويثنى عزمه عن ذلك، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد». ولاشك أن قانصوه الغورى كان يعلم ما يدور فى ذهن السلطان سليم الأول، فلم ينخدع بكلام السفارة، بدليل أنه أخرج العسكر من مدينة حلب إلى معسكرهم، وأمرهم بالتهيؤ للقتال[٢].

وعلى أية حال، ففى ٢٠ رجب سنة ٩٢٢هـ (١٩ أغسطس ١٥١٦) تحرك قانصوه الغورى على رأس جيوشه لملاقاة سليم الأول، وفى اليوم التالى وقف المماليك الجراكسة والعثمانيون وجها لوجه فى سهل مرج دابق. وهناك أشاع قانصوه الغورى أن جيش العدو يضم فى صفوفه مسيحيين وأرمن وشعوبا أخرى بغيضة، وكان قانصوه يهدف بذلك إثارة الكراهية ضد العثمانيين بين صفوف جنده والشاميين المرافقين له، فضلا عن إعطاء تأثير مفاده أن الحرب بينه وبين سليم الأول حرب مقدسة يخوضها المسلمون ضد المسيحيين[٣].
وفى يوم ٢٥ رجب عام ٩٢٢هـ (٢٤ أغسطس ١٥١٦)، استعد العثمانيون لخوض معركة تعتبر واحدة من أهم المعارك التى خاضوها فى تاريخهم، ذلك أنهم لو حققوا انتصاراً على المماليك، فسيرفعون أيديهم عن حراسة الجزء الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى، ويتفرغون لحروبهم فى أوربا، بالإضافة إلى أن انتصارهم سيمنحهم مكانة عالية فى بقية البلاد الإسلامية الأخرى[٤].

وعند مرج دابق، أخذ السلطان الغورى يرتب عسكره بنفسه، فكان مكانه فى القلب، وحوله أربعون مصحفا شريفا فى أكياس من الحرير الأصفر يحملها جماعة من الأشراف، ومن حوله جماعة من الصوفية والأشراف ومعهم أعلامهم، وتولى قيادة ميمنة الجيش سيباى نائب الشام، والميسرة خاير بك نائب حلب[٥]. ولما دارت المعركة انسحب خاير بك

---

(١) بدائع الزهور، جـ٥ ص ٦٠.

(٢) ابن زنبل: آخرة المماليك، ص ٢٢.

(3) Stripling, The Ottoman Turks and the arabs.,pp. 44-45.

(4) Ibid., p. 46.

(٥) بدائع الزهور، جـ٥ ص ٦٨ ـ ٦٩.

من ميسرة الجيش، وأظهر الهزيمة دون قتال، وفر بمن معه إلى حلب. واستطاع فرسان المماليك الشجعان أن يحرزوا نصراً على جيوش العثمانيين فى أول الأمر، حتى هم السلطان سليم الأول فى الهرب أو طلب الأمان، ولكن مدفعية الجيش العثمانى أوقعت بجيش المماليك، فاختل نظامه وامتلأ ميدان المعركة بالجثث، ولبث الغورى واقفا فى مكانه، وهو يرى جيشه يلوذ بالفرار، أخذ يستغيث وينادى عسكره قائلا: «يا أغوات، هذا وقت المروءة، هذا وقت النجدة»، فلم يسمع له أحد، فالتفت إلى مشايخ الصوفية والفقراء الواقفين حوله،وقال لهم «ادعوا إلى الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعاكم»[1].

ويروى أن الغورى عندما رأى جيشه يفر من أمام عينيه، وتحقق من الهزيمة، أصيب بالشلل، وطلب جرعة ماء، فجاؤا به بها، ولكه لم يتمالك نفسه، وهوى من فوق صهوة فرسه ميتا، وداسته الخيل[2].

ولاشك أن انتصار العثمانيين فى هذه المعركة يرجع إلى استخدام المدفعية الحديثة، ذلك أنهم لو كانوا قد اشتبكوا مع المماليك بالسيوف والرماح لكان هناك شك كبير فى انتصارهم، ولو شاء المماليك استخدام المدفعية الحديثة فى القتال لتغير مصير المعركة، ولكنهم أحجموا عنها احتقاراً لها، ففى ظنهم أن الأسلحة النارية تبتعد بهم عن مبادىء الفروسية. وقد عبر المؤرخ ابن زنبل[3] عن تلك الحقيقة بدقة قائلا: «وأطلقوا (العثمانيون) المدافع والبندقيات، وحملوا على الجراكسة والعربان والمشاه مثل القطر فى الثرى، وصار النهار عليهم مثل القيامة الكبرى، وكان يجيىء كل مدفع على نحو خمسين أو ستين أو مائة نفس فصارت تلك الصحراء كالمجزرة من الدماء».

بعد الانتصار الساحق الذى أحرزه سليم الأول من مرج دابق، تحرك جنوبا متتبعاً فلول المماليك، فدخل حلب ورحب به أهلها ترحيبا عظيما، وتساقطت فى أيديه مدن حماه وحمص ودمشق. ثم واصل زحفه جنوبا للاستيلاء على مصر قلب العالم الإسلامى، وكان

---

(١) بدائع الزهور، جـ٥ ص ٦٩ ـ ٧٠؛ آخرة المماليك، ص ٣٠ ـ ٣١.
(٢) بدائع الزهور، جـ٥ ص ٧٠.
(٣) آخرة المماليك، ص ٢٩.

بها طومان باى نائبا عن قانصوه الغورى، فلما مات الأخير اعتلى طومان باى عرش السلطنة المملوكية، وتلقب بلقب الأشرف، وهو آخر سلاطين المماليك. والواقع أن طومان باى وجد نفسه فى موقف لايحسد عليه، فالمماليك فى تلك المرحلة الحرجة من تاريخ مصر، كانوا قد وصلوا إلى درجة من الانحلال والفوضى حجبتهم عن رؤية الخطر المحيط بهم. ولما لم يجد طومان باى استجابة من المماليك للوقوف ضد العثمانيين، اضطر إلى تجنيد العربان والمصريين والمجرمين والقتلة الذين أعفى عنهم للانضمام إلى الجيش المملوكى[١]، الأمر الذى جعل جيشه يفتقد النظام والتماسك، أما الجيش العثمانى، فقد زحف إلى مصر، وهو فى حالة معنوية مرتفعة، زغم المعاناة الشديدة التى قاساها، بسبب فقد الكثير من الجمال والخيول فى صقيع بلاد الشام، وفى أثناء عبور الصحراء، فضلا عن الهجمات التى كان البدو يوجهونها للجيش العثمانى فى فلسطين وحدود مصر[٢].

ولما وصلت الأخبار إلى طومان باى بأن العثمانيين بدأوا يخترقون الصحراء الشرقية فى طريقهم إلى القاهرة، أراد الخروج لملاقاتهم وهم متعبون من مشقة الطريق، ولكن المماليك طالبوه بنفقات باهظة، فأخذ يستحثهم قائلا «أخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم، فإن بيت المال لم يبق فيه درهم ولادينار، وأنا واحد منكم إن خرجتم خرجت معكم، وإن قعدتم قعدت معكم، وما عندى نفقة لكم»[٣].

وفى ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢هـ (٢٣ يناير ١٥١٧) كانت المواجهة الحاسمة بين العثمانيين والمماليك فى الريدانية ، وقد تفوقت فيها مدافع وبنادق العثمانيين على الأسلحة التقليدية التى تسلح بها المماليك، ولحقت بطومان باى هزيمة قاسية رغم أنه حارب بشجاعة وجرأة[٤]، وبذلك أصبحت القاهرة تحت رحمة العثمانيين.

---

(١) بدائع الزهور، جـ٥ ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(2) Stripling, The Ottoman Turks and Arabs., p. 52.

(٣) بدائع الزهور، جـ٥ ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٤) بدائع الزهور، جـ٥ ص ١٤٤ ـ ١٤٦؛ Stripling, op. cit., p. 53.

لم يفقد طومان باى الأمل فى الاحتفاظ بسلطنة المماليك، فعمل على تحصين بوابات القاهرة، واستدعى المصريين للدفاع عن أنفسهم، كما حرر ستة آلاف من العبيد السود وجهزهم بالأسلحة، وحفر المماليك الخنادق، وأقاموا المتاريس فى شوارع القاهرة. وفى ٣ المحرم سنة ٩٢٣هـ (٢٧ يناير ١٥١٧)دخل سليم الأول القاهرة وأخذ فى مهاجمتها، وأظهر المصريون همة عالية، إذ دافعوا عن مدينتهم، حتى أن النساء والأطفال كانوا يرمون العثمانيين بالحجارة والطوب، وحدث قتال عنيف فى شوارع القاهرة وطرقاتها دام ثلاثة أيام، وأمر سليم الأول بإشعال النار فى البيوت، وأعمل العثمانيون السيف فى كل من صادفوه، ونهبوا القاهرة؛ ولم تفلح مقاومة المماليك، فحلت بهم الهزيمة فى ٣٠ يناير سنة ١٥١٧م، واستسلموا لشروط سليم الأول[١]. واضطر طومان باى إلى الهروب، بعد أن انفض عنه رجاله، وتشتت أنصاره، والتجأ إلى الدلتا، حيث اختفى عند صديقه شيخ العربان فى البحيرة، وهو حسن بن مرعى، فأمنه وأقسم له هو وإخوته على المصحف ألا يبوحوا بسره. وللأسف فإن الشيخ لم يلبث أن خانه، وسلمه للعثمانيين، ناسياً ما فعله معه طومان باى يوم أن دفع الديون المستحقة عليه أيام السلطان الغورى. وما كاد سليم الأول يعلم بخبر القبض على طومان باى حتى فرح فرحاً شديداً، وقال: «الآن ملكنا ملك مصر»[٢].

وكان أن أمر سليم الأول بإعدام طومان باى شنقا على باب زويلة (بوابة المتولى)، فلما أتى إلى باب زويلة أنزله العثمانيون من على الفرس، وأرخوا له الحبل، ووقفوا حوله بالسيوف، ولكن طومان باى لم يفقد شجاعته فى هذا الموقف، وطلب من الناس أن يقرأوا له سورة الفاتحة ثلاث مرات، وبسط يديه وقرأ الفاتحة، ثم التفت إلى المشاعلى وقال له «اعمل شغلك»[٣].

وبإعدام طومان باى انتهت دولة المماليك، ودخلت مصر عهداً جديداً من تاريخها، فهبطت من دولة مستقلة كاملة السيادة إلى ولاية عثمانية، ويعلق ابن إياس[٤] على ذلك

---

(١) بدائع الزهور، جـ٥ ص ١٥٣ ـ ١٥٥.
(٢)ابن زنبل: آخرة المماليك، ص ١٣٢؛بدائع الزهور، جـ٥ ص ١٧٤ ـ ١٧٥.
(٣) بدائع الزهور، جـ٥ ص ١٧٦.
(٤) بدائع الزهور، جـ٥ ص ٢٠٦.

قائلا: «ومن العجائب أن مصر صارت نيابة، بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة، لأنه خادم الحرمين الشريفين، وحاوى ملك مصر....». وغادر سليم الأول القاهرة فى ٩ مايو سنة ١٥١٧م إلى تركيا، بعد أن أخذ معه الكثير من كنوز مصر، وأخذ ألف وثمانمائة من أمهر الصناع والعمال والحرفيين المصريين.

والواقع أن الحديث عن العهد الانتقالى لمصر بعد سقوطها فى أيدى العثمانيين، لايدخل معظمه ضمن موضوع الدراسة التى نحن بصددها، لأنه يرتبط بمصر فى العصور الحديثة أكثر مما يرتبط بمصر فى العصور الوسطى. ويكفى القول إنه ترتب على الفتح العثمانى للشرق الأدنى الإسلامى نتائج هامة، منها أنه خلق فى الشرق الأدنى وحدة سياسية بعد تفككه بسقوط الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، وقد أكسبت هذه الوحدة نوعاً من الاستقرار النسبى لمناطق الشرق الأدنى كانت فى أمس الحاجة إليه، كما أن الفتح العثمانى قد أنقذ العالم السنى فى آسيا الصغرى والشام ومصر والعراق إلى حد ما من السيطرة الشيعية وحصرها داخل إيران وحدها، بالإضافة إلى أن الفتح العثمانى استطاع أن يوقف توغل الخطر البرتغالى فى البحار العربية، وبالتالى أنقذ العالم العربى من ذلك الخطر[١].

لم يكن ضم العالم العربى إلى النفوذ العثمانى احتلالا أو استعماراً تحت ستار الدين،بل ربطت الوشيجة الدينية المسلمين من رعايا الدولة العثمانية بالسلطان العثمانى برباط متين، على أساس أن السلطان كان الرئيس الأعلى لأكبر دولة إسلامية فى العالم؛ كما أن العاطفة الدينية الإسلامية كانت أكثر تأصلا وعمقا فى نفوس رعايا الدولة من العاطفة الوطنية، وعلى أحسن الفروض كانت العاطفتان الدينية والوطنية متشابكتين بحيث كان يصعب الفصل بينهما[٢]. ولاشك أن الولايات العربية كانت تنظر إلى الدولة العثمانية على أنها الدرع الواقى الذى يحمى حريتها فى الحفاظ على تقاليدها المحلية الموروثة، وفى مزاولة شعائرها الدينية، وفى أن تحيا حياة أفضل فيما لو احتلتها دولة أوربية مسيحية[٣].

---

(١) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ١٠٣.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى: الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها (القاهرة ١٩٨٠)، جـ١ ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٣) نفس المرجع والجزء، ص ٢٦.

وأخيراً، فعلى الرغم من أن العثمانيين حكموا مصر من خارجها، أى أنهم لم يتخذوها مقراً لحكم دولتهم الواسعة فى آسيا وأفريقية وأوربا، شأن مصر فى ذلك شأن بقية أقطار العالم العربى، فالحقيقة أن تبعية مصر للعثمانيين اختلفت كلية عن أية تبعية شهدتها قبل الفتح العربى لها فى القرن السابع الميلادى. فمصر لم تشعر أنها محتلة أو خاضعة لدولة أجنبية، لأن السلام ـ كما ذكرنا ـ ذلك الرباط الروحى المتين كان يجمع بينها وبين الدولة العثمانية، فضلا عن أن السلطان العثمانى كان خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين، كما كان الأمر على عصر الخلفاء الراشدين فى المدينة المنورة، والخليفة الأموى بدمشق، والخليفة العباسى ببغداد.

بعض مظاهر الحضارة فى مصر المملوكية:

وصف ابن خلدون[١] أحوال مصر فى عصر المماليك قائلا: «فمُلك مصر فى غاية الدعة والرسوخ، إنماهوسلطان ورعية، ودولتها قائمة بملوك الترك (سلاطين المماليك) وعصائبهم، يغلبون على الأمر واحداً بعد واحد..». وهو يقصد بذلك أن المماليك عاشوا كطبقة مغلقة على نفسها، وكانوا يتصارعون على الحكم ويتآمر بعضهم عل بعض. ويتضح ذلك إذا مات أحد السلاطين، وهو فى العادة لايموت على فراشه ميتة طبيعية، بل بالعنف والاغتيال، كان يخلفه ابنه على عرش السلطنة، ولكن أمراء المماليك الأقوياء المتنافسين كانوا ينسجون المؤامرات ويقتلون بعضهم بعضاً، حتى يستطيع أقواهم أن يستولى على العرش، ويؤمن حياته على أعداد وشجاعة المماليك التابعين له، إلى أن يخلع بدوره ويحل محله آخر؛ ولذلك نجد أن أغلب سلاطين المماليك قد حكموا أشهراً أو بضع سنين،فيما عدا الناصر محمد بن قلاوون من المماليك البحرية، وقايتباى من المماليك الجراكسة[٢].

ولابن خلدون[٣] ملحوظة حادة فى وصف المصريين فى العصر المملوكى، فقد قال عنهم: «وأهل مصر كأنهم فرغوا من يوم الحساب»، إشارة إلى أن المصريين مغلوبين على

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت ١٩٨٨)، جـ١ ص ٢٠٢.

(2) Javis, Pharoh to Farouk (London, 1956), p 78' Muir, The Mamluke Dynasty, p.219; Mwarlowe, Four Aspects of Egypt, p. 208.

(٣) العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٧ ص ٦٤٩.

أمرهم لاوجود لهم فى ظل حكم المماليك، ولاصوت لهم، وقد قنعوا بالاستسلامَ والرضى بالحياة العادية الرتيبة أو شئون الحياة اليومية، مع المشاركة فى الاحتفالات المملوكية العامة مثل عودة السلطان منتصراً من الحرب، أو الاحتفال بختان ابنه أو زواج ابنته[1]، أو الاحتفال بشفائه من مرضه، وبخروجه من القاهرة وعودته إليها، وحفلة توليته عرش السلطنة. ويرى الدكتور حسين مؤنس[2] أن ابن خلدون قد جاوز الصواب فى ملحوظته عن أهل مصر، والسبب أنه قد طاف بأرجاء الدنيا، فوجد شعوبا قلقة مضطربة تفترسها الهموم وتفرق أهلها الأهواء والمطامع، ثم أتى إلى مصر فوجد ناسا هادئين ثابتين، يأخذون الدنيا كما هى دون إسراف فى شكوى أو استسلام لخوف. فراغه ذلك وغاب عن إدراكه. ونضيف إلى ذلك أن الدولةالمملوكية كانت دولة مرتبة منظمة، ذات تقاليد راسخة، ولهذا خضع المصريون لنظمها، ونعموا بالأمن والاستقرار، وزاولوا أعمالهم الحضارية فى الزراعة والصناعة والتجارة والفن والفكر والبناء والإبداع.

على أن ابن خلدون(٣) وصف مظاهر الحضارة المصريةوصفاً رائعاً عندما انتقل إلى القاهرة قادما من بلاد المغرب فى سنة ٧٨٤هـ (نوفمبر ١٣٨٢) فى عصر المماليك الجراكسة، وكانت هذه أول مرة يرى فيها القاهرة، فقال: «فانتقلت إلى القاهرة أول ذى القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومَدْرَج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسى الملك، تلوح القصور والأواوين فى جوه، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه، وتضيىء البدور والكواكب بين علمائه،وقد مَثَلَ بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء، يسبقهم النهل والعَلَلَ سيحه، ويجبى إليهم الثمرات شجه...» ويضيف ابن خلدون[4] إلى ذلك فى مكان آخر قائلا: «ونحن لهذا العهد (عصر المماليك الجراكسة) نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها

---

(١) محمد مصطفى زيادة: «الدولة المملوكية الأولى»، ص ٥٠٣.

(٢) مصر ورسالتها، ص ١١٨.

(٣) مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. على عبد الواحد (القاهرة ١٩٦٥)، جـ١ ص ١٠٥؛ العبر، جـ٧ ص ٦٤٨ ـ ٦٤٩.

(٤) المقدمة، جـ٣ ص ٩٩١؛العبر، جـ١ ص ٥٤٨ ـ ٥٤٩.

مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جملتها تعليم العلم». كما يقول: «ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر، فهي أم العالم، وإيوان الإسلام، وينبوع العلم والصنائع»[١].

العمارة والفنون:

على الرغم من أن المماليك كانوا طبقة حاكمة تميل إلى البطش والقسوة والقوة، إلا أنهم كانوا رعاة للفنون التي لم تشهد لها مصر مثيلامنذ عهد البطالمة، وتمتعوا بذوق راق وحب للفنون، فملأوا سماء القاهرة بالتحف الهندسية الرائعة[٢]. ولازالت القاهرة تزخر بالمساجد والمدارس والقباب والخوانق والأضرحة والقصور والأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها من التحف المعمارية. وقد عنى سلاطين المماليك وأمراؤهم عناية تامة منذ قيام دولتهم بتشييد المنشآت العامة حتى يكاد يخطئها العد، ويتضح ذلك فيما يقوله أبو المحاسن[٣] عن الظاهر بيبرس: «وبنى فى أيامه بالديار المصرية مالم يبن فى أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين)، ولا ملوك بنى أيوب الأبنية والرباع والخانات والقياسر والدور والحمامات».

ويعتبر عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٨ ـ ٧٠٨هـ/ ١٢٩٩ ـ ١٣٠٨) أزهى عصور دولة المماليك على الإطلاق، «فقد أكثر من العمائر..، فامتدت أيدى الناس إلى العمائر، وكأنما نودى فى الناس ألا يبقى أحد حتى يعمر، فعظمت عمارة مصر والقاهرة وظواهرهما فى أيامه عمارة لم يعهد مثلها»[٤]. ومن أهم منشآته فى مدينة القاهرة الميدان العظيم، والقصر الأبلق بالقلعة، والإيوان ومسجد القلعة، وحوش الغنم والميدان الناصرى، وبستان باب اللوق، وقناطر السباع[٥]. ومن بين الأعمال العظيمة التى أنجزت فى عصر الناصر محمد، حفر قناة من الإسكندرية إلى فوة، وبذلك أعاد وصل الإسكندرية

---

(١) العبر، جـ١ ص ٧٤٩.

(2) Kinross (Lord), Portait of Egypt, (Newyork, 1966), p. 87.

(٣) النجوم الزاهرة،جـ٧ ص ١٩٦.

(٤) المقريزى: المقفى، جـ٧ ص ٢٠٣.

(5) Marlowe, Four Aspects of Egypt., p. 215.

بالنيل؛ كما أن الخليج الذى شيده ويمتد من النيل عند مصر القديمة إلى القلعة، لازالت آثاره باقية[1] وبلغ اهتمام الناصر بالعمارة أن أفرد لها ديوانا، وبلغ مصروفها فى كل يوم اثنى عشر ألف درهم، وأقل ما كان يصرف من ديوان العمارة فى اليوم مبلغ ثمانية آلاف درهم[2].

وفى عصر المماليك الجراكسة كان السلطان قايتباى (٨٧٣ ـ ٩٠٢هـ/ ١٤٦٨ ـ ١٤٩٦)محبا للعمارة، فقد بنى ورمم كثيراً من المساجد والقلاع والحصون والمدارس والزوايا، ولايضارع عصره فى المبانى وفرة وجمالا سوى عصر الناصر محمد بن قلاوون[3]. وفى عهد قايتباى أضيف إلى مدينة القاهرة حى جديد هوحى الأزبكية، نسبة لمنشئه الأمير أزبك أحد الأمراء البارزين فى عهد قايتباى، وقد بدأ أزبك فى إنشائه أواخر عام ٨٨٠هـ (١٤٧٥) وحفر به بركة وأجرى لها الماء من الخليج الناصرى، ودب العمران إلى ذلك الموقع، وأخذ الناس فى بناء القصورالفاخرة على تلك البركة، ورغب الناس فى سكناها وصارت مدينة بمفردها، ومازال إسم أزبك يطلق على حى الأزبكية حتى الآن[4]. أما مدينة الإسكندرية فقد حظيت بعناية السلطان قايتباى، فقد أنشأ بها قلعة أطلق عليها اسم البرج، وتعتبر أكبر آثاره الحربية، وكانت القلعة متصلة بالشاطىء، وتشتمل على مسجد وطاحونة وفرن ومخازن للأسلحة ومقعد مطل على البحر لرؤية المركب التى تدخل الميناء[5].

وإذا انتقلنا إلى الفنون فى عصر المماليك نجد أنها وصلت حد الروعة والإتقان والرقى، ويشهد على ازدهار فن النحت على الخشب فى العصر المملوكى، أن الفنانين استطعوا أن يبدعوا فى زخرفة الحشوات بالرسوم الدقيقة، وأصبح العنصر الزخرفى السائد فى ترتيب الحشوات تجميعها بحيث تؤلف أطباقا نجمية وأجزاء من أطباق. أما رسوم الحشوات فكانت

---

(1) Marlowe, Four Aspoects of Egypt., p. 215.

(٢) الخطط،جـ٢ ص ٧٠.

(٣) عبد الوهاب حمودة: صفحة من تاريخ مصر فى عصر السيوطى (القاهرة ١٩٦٥) ص ٦ ـ ٧.

(٤) بدائع الزهور، جـ٣ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠؛ عبد الرحمن عبد التواب: قايتباى المحمودى (القاهرة ١٩٧٨)، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٠٣.

تمتاز بأنواع المراوح النخيلية والفروع النباتية والوريقات، وما إلى ذلك مما تبدو فيه الثروة الزخرفية واضحة(1).

كذلك ازدهرت فى عصر المماليك صناعة الشبكيات من الخشب المخروط، المعروفة باسم المشربيات، التى كانت تتخذ فى واجهات البيوت، لتلطيف النور وإدخال النسيم العليل، وتمكين أهل الدار من رؤية من بالخارج دون أن يكون العكس ممكنا(2).

وكان الإقبال على صناعة التحف المعدنية عظيما فى عصر المماليك، وقد وصلت إلينا من هذا العصر أبواب وشماعيد وكراسى وصناديق وغيرها، برز فيها مختلف الأساليب الفنية فى صناعة المعادن، من حفر وتكفيت وتخريم(3). وازدهرت فى عصر المماليك صناعة التكفيت، أى تطعيم النحاس بالذهب والفضة، وقامت هذه الصناعة فى البداية على أكتاف فنانين جاءوا من الموصل فراراً من المغول، ثم نبغ فيها الصناع المصريون، وقد بلغ ازدهار تلك الصناعة ذروته فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون(4).

الحياة الاقتصادية:

اهتم سلاطين المماليك بالزراعة، باعتبارها مصدر الثروة الأول الذى عاش عليه المصريون فى مختلف العصور، كما أنها كانت ـ ولاتزال ـ الحرفة الأساسية لمعظم الأهالى، ولذلك عنى سلاطين المماليك بحفر الترع وإقامة الجسور الكثيرة، حرصا على وصول المياه إلى أراضى لم تصل إليها من قبل، مما زاد فى رقعة الأراضى الصالحة للزراعة، وبالتالى كثرة الغلات والخيرات.

وفى عصر المماليك قسمت الأراضى الزراعية إلى أربعة وعشرين قيراطا، اختص السلطان منها بأربعة قراريط للكلف والرواتب وغيرها، وخصص عشرة قراريط للأمراء، أما العشرة الباقية فكانت من نصيب الأجناد(5). وروعى فى ذلك التقسيم أن توزع الأرض فى شكل

---

(1) زكى محمد حسن: الفنون الإسلامية، ص ٤٦٢.

(2) زكى محمد حسن: الفنون الإسلامية، ص ٤٧٠.

(3) المرجع السابق، ص ٥٥١.

(4) المرجع السابق، ص ٥٥٣ ـ ص٥٥٤.

(5) الخطط، جـ١ ص ٨٧.

إقطاعات تتفاوت من حيث الرى والخصوبة ووفرة الإنتاج، فاختص السلطان وكبار أمرائه بأجود هذه الأراضى، أما المتوسطة الجودة فتقطع للمماليك السلطانية، أما الأراضى التى كانت أقل من ذلك فى الجودة، فكانت تقطع للأجناد والعربان والتركمان[1].

أوجب النظام الإقطاعى فى مصر فى زمن المماليك، أن يقوم السلطان بإعادة توزيع الإقطاعات، كلما دعت الحاجة، وجرت العادة أن يقوم كل سلطان جديد عند ولايته للعرش بإجراء تعديلات فى التوزيع، قد تكون فى نطاق محدود، وقد تكون عامة شاملة، أماعن التوزيع الإقطاعى بشكل شامل، فيقوم السلطان بمسح الأراضى وحصرها وتقدير درجة خصوبتها لربط خراج مناسب عليها وإعادة إقطاعها، وعرفت هذه العملية فى المصطلح باسم «الروك»[2]. والروك كلمة قبطية أصلها «روش» ومعناها الحبل، ثم استخدمت للدلالة على عملية قياس الأرض بالحبل، وهى بدورها مشتقة من اللفظ الديموطيقى «روخ» ومعناها تقسيم الأرض[3]. واشتهر فى عصر المماليك الروك الحسامى الذى أجراه السلطان حسام الدين لاجين سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٦)، والروك الناصرى الذى أجراه السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥هـ (١٣١٥).

وإلى جانب الزراعة اهتم سلاطين المماليك بالثروة الحيوانية، فعملوا على تحسين سلالتها، وجلب الأنواع الممتارة لتربيتها والإكثار منها، وقد لقيت أغنام الصعيد شهرة فى مصر لطيب لحمها ومرعاها وكثرة توالدها، وعرف عن السلاطن الناصرمحمد بن قلاوون أنه كان يفضل أغنام الصعيد، فبنى حوشا بالقلعة فى سنة ٧٣٨هـ (١٣٣٧)، وأودع بها ألفى رأس من الصعيد[4]، وصار يتتبع مراعى الأغنام فى عيذاب وقوص وبلاد النوبة، ويجلب الأنواع الممتازة منها[5].

---

(١) صبح الأعشى، جـ٣ ص ٤٥٨؛ إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية، ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) إبراهيم على طرخان: النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٨)، ص ٩٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٦.

(٤) السلوك، جـ٢ ص ٤٣٣؛ النجوم الزاهرة، جـ٩ ص ١١٩.

(٥) السلوك، جـ٢ ص ٥٣١؛ النجوم الزاهرة، جـ٦ ص ١٧٠.

وفى عصر المماليك ارتقت الصناعة، وأصبحت على درجة كبيرة من الجودة والإتقان، ومن أهم الصناعات فى العصر المملوكى صناعة المنسوجات من الحرير والصوف والكتان والقطن، وامتازت المنسوجات بجودتها وروعةنقوشها وزخارفها، ويشهد على ذلك قطع النسيج المتبقاة من ذلك العصر. وأنشأ السلاطين دور الطراز تصنع فيها الخلع التى يمنحها السلاطين للأمراء وكبار رجال الدولة، وتنقش عليها أسماء السلاطين وألقابهم.

وبرع المصريون فى الصناعات الجلدية وبخاصة السروج التى استوردوا جلودها من بلغاريا، وانتشرت صناعة تكفيت (تطعيم) النحاس بالذهب والفضة، وصياغة الذهب والفضة، والمصنوعات المعدنية وخاصة الأوانى النحاسية والثريات ذات النقوش الجميلة.

وازدهرت صناعة الزجاج فى مصر فى العصر المملوكى، وكان أهم مراكزها الفسطاط والفيوم والأشمونين والإسكندرية. وكذلك صناعة الخزف التى تمتاز برسوم الطيور والحيوانات القريبة من الطبيعة، فضلا عن الرسوم النباتية الجميلة[١]. وعرفت مصر فى نهاية العصر المملوكى صناعة القاشانى لكسوة الجدران، ولكن هذه الصناعة لم تبلغ فى مصر ما بلغته من الأزدهار فى إيران وتركيا وبلاد المغرب والأندلس، فقد كان المصريون يفضلون تغطية الجدران بالرخام[٢].

خضع الصناع وأصحاب الحرف فى العصر المملوكى لنظام النقابات، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم فيما بينهم وبعضهم بعض، وفيما بينهم وبين الأهالى، كما يكون لهم رئيس أو شيخ يرأسهم ويفض مشاكلهم ويرجعون إليه فى كل ما يهمهم. ولما كان دخول أى شخص غريب فى هذه الحرفة يؤدى إلى منافسة أصحابها الأصليين، فإنهم كانوا لايمرنون أحداً على طرق صناعتهم، إلا أن يكون من أبنائهم، ولا يسمحون لأى شخص فى مشاركتهم إلا أن يكون قد أتى ليحل محل أحدهم، وفى هذه الحالة يقبل بشروط خاصة[٣].

(١) زكى محمد حسن: فنون الإسلام، ص ٣٢١.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٢٦.
(٣) سعيد عاشور: العصر المملوكى فى مصر والشام، ص ٢٨٤.

أما التجارة فى عصر المماليك فقد لعبت الدورالبارز كمصدر للثروة، سواء كانت تجارة داخلية أو خارجية، ولكن التجارة الخارجية ساهمت بالنصيب الأكبر فى دخل دولة المماليك وثرائها. وقد جاء قيام دولة المماليك فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى مصحوبا بازدهار طريق البحر الأحمر وموانى مصر، واضمحلال طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب. ويرجع السبب فى ذلك إلى احتلال الصليبيين لمملكة بيت المقدس سنة ١٠٩٩م وامتداد سيطرتهم حتى خليج العقبة، مما عرض القوافل للخطر، فغيرت طريقها إلى طريق النيل - عيذاب[١]. كذلك أدى ظهور المغول واستيلائهم على بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨)، وامتداد نفوذهم إلى بلاد الشام وآسيا الصغرى،وموانىء البحر الأسود، وانتعاش طريق البحر الأحمر. وكان تجار الهند والحبشة واليمن يفرغون سلعهم وبضائعهم فى ميناء عيذاب على البحر الأحمر، ومن عيذاب ينقلون السلع على ظهور الجمال عبر صحراء مصر الشرقية إلى النيل عند مدينة قوص، ومنها إلى ميناء الإسكندرية أو دمياط.

لم يأل سلاطين المماليك جهداً فى تشجيع تجارة البحر الأحمر، فرحبوا بتجار الشرق المترددين على موانى مصر المطلة على البحر الأحمر، وخاصة عيذاب التى وصفها الرحالة ابن جبير[٢] بأنها «أحفل مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة». كذلك حرصت دولة المماليك على تأديب العربان المعتدين على قوافل التجارة بين النيل والبحر الأحمر. ففى سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١) اشتد القتال فى صحراء عيذاب بين عرب جهينة وعرب رفاعة، فكتب السلطان المنصور قلاوون إلى صاحب سواكن «بأن يوفق بينهم، ولايعين طائفة على أخرى خوفا على فساد الطريق»[٣].

(٣) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، جـ٢ ص ٢٩.
(٢) رحلة ابن جبير، ص ٤٥.
(٣) السلوك، جـ١ ص ٧٠٠.

ومما يدل على اهتمام المماليك بتجارة مصر الخارجية، أن السلطان المنصور قلاوون أرسل إلى نوابه بالثغور بحسن معاملة التجارة والتودد إليهم، ومراعاة العدالة فيما يجبونه منهم من أموال. وقد أورد القلقشندى[1] رسالة بعث بها السلطان لناظر ثغر الإسكندرية يأمره فيها بتنمية تجارة الثغر، «ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذى كانوا ألفوه منه، فإنهم هدايا البحور، ودوالبة الثغور، ومن ألسنتهم يطلع على ما تجنه الصدور، وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور..».

وهيأت دولة المماليك وسائل الراحة لإقامة التجار الأوربيين فى مينائى الإسكندرية ودمياط، فبنت الفنادق Fondachi ووضعتها تحت تصرف هؤلاء التجار، حتى يعيشوا وفق النمط الذى اعتادوه فى بلادهم. وكانت الفنادق مبان كبيرة مربعة الشكل، مكونة من عدة طوابق، وبها فناء داخلى يجرى به عمليات فك البضائع وربطها، ويشغل الطابق الأرضى مخازناً. وفى الأدوار العلوية مساكن عديدة يشغلها التجار، وفى الليل يقوم موظف خاص بغلق الفنادق من الخارج، والويل لأى أوربى يضبط خارج فندقه. وكان القنصل يحدد الأشخاص الذين لهم حق السكن فى الفندق[2].

على أن نشاط تجارة مصر الخارجية فى عصر دولة المماليك البحرية، اختلف كثيراً فى عصر دولة الممايك الجراكسة. ذلك أن المماليك فى عصر دولتهم الثانية، تطرق إليهم الفساد، وكانوا فى حاجة إلى الأموال يستعينون بها فى صراعهم المستمر، ولذلك فرضوا ضرائب باهظة على التجارة، كما لجأوا إلى احتكار بعض السلع الهامة وخاصة التوابل، مما أدى إلى ارتفاع أسعارها ارتفاعا فاحشا. كما أدى تحول التجارة بين الشرق والغرب عن طريق مصر إلى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى إلى حرمان مصر من منابع ثروتها التى كانت تملأ خزائنها، فكسدت التجارة والزراعة وتأخرت الصناعات، وكثرت حوادث السلب والنهب وغارات العربان، وعانت مصر الأمرين من المجاعات والأوبئة، إلى أن سقطت مصر فى أيدى العثمانيين.

(١) صبح الأعشى، جـ١١ ص ٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٢) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى جـ٣ ، ص ـ٣٠ ـ ٣٠٤.

الحياة الدينية:

كانت القاهرة فى عصر دولة المماليك دون نزاع أكثر العواصم الإسلامية ازدهاراً بالبحث والدرس، وحملت وحدها مشعل الثقافة العربية الإسلامية، وحافظت عليها من خطر الضياع، بعد أن ذوت مراكز العلم والتنوير فى معظم البلاد الإسلامية، خاصة بعد سقوط بغداد فى أيدى المغول وتدميرهم لكنوز المخطوطات، وتعرض قرطبة فى الأندلس لحركة الاسترداد المسيحية، وإلحاق الضرر ببلاد الشام على أيدى الصليبيين والمغول جميعا، واستقبلت مصر العلماء والباحثين والطلبة من كل مكان لينهلوا من مراكز العلم بها(١).

وفى العصر المملوكى زاد عدد المدارس زيادة كبيرة ليس فى مصر والقاهرة فحسب، بل فى الأقاليم أيضا، ومما يدل على كثرة المدارس التى شيدها سلاطين الممايك ماذكره الرحالة ابن بطوطة(٢) الذى زار القاهرة فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى)، إذ لفت نظره أن «المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها»، ومن المحتمل أن سياسة الإكثار من المدارس فى عصر المماليك، إنما ترجع إلى حرص السلاطين والأمراء على الظهور فى صورة حماة العقيدة الإسلامية السنية، العاملين على نشرها، وذلك لينسى رعاياهم ماضيهم الذى ارتبط بالرق.

كذلك استعاد الأزهر نشاطه العلمى والدينى، بعد أن مد له السلطان الظاهربيبرس يد العناية، فجدد فى بنائه ورده إلى الحالة التى كان عليها أيام الفاطميين، وعين له الفقهاء والمحدثين والقراء، فأضحى مركز البحث الأول فى العالم الإسلامى جميعه، يؤمه الطلاب من كل صواب، من الصين وفارس، ومن العراق والشام والمغرب(٣)، للتعمق فى دراسة الدين من تلاوة القرآن ودراسته وتلقينه، وما يتصل به من فقه وحديث وتفسير ونحو، ولازال الأزهر يؤدى رسالته فى علوم الدين والدنيا بهمة ونشاط.

---

(١) عبد اللطيف حمزة: الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية، ص ٣٦؛ محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، مجلد ٣ ص ١٣؛ عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٢) رحلة ابن بطوطة: جـ١ ص ٢٧.

(٣) عبد اللطيف حمزة: المرجع السابق، ص ١٢٨؛ ابراهيم مدكور: الحياة الثقافية بين القاهرة وبغداد، ص٦٤.

وقد شملت علوم الدين فى مصر المملوكية التوحيد والتفسير والحديث، وبرز فيها رحال مختلفون، وربما كان الباحث حجة فيها جميعا، وقد وضح منهج التأليف الذى يدور حول الجمع والتلخيص أو الشرح والتحليل، وقل فيه الإبتكار والأصالة، وإن لم يخل من جدل ذكى ونقاش محكم.وتنافس فقهاء المذاهب فيما بينهم، وكان لكل مذهب قضاء خاص[1]. ويكفى أن نشير بين المالكية إلى شهاب الدين القرافى أشهر فقهاء عصره، الذى انتهت إليه رياسة المالكية، وألف كتبا كثيرة رحب بها أهل مذهبه، ونالت من الشهرة حظا وافرا، وتوفى بدير الطين (دار السلام) بالقرب من مصر القديمة سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥)[2]. وكذلك ابن خلدون الذى تولى قضاء المالكية بمصر. ومن فقهاء الحنفية نذكر منهم جمال الدين عبد الله الزيلعى المتوفى سنة ٧٦١هـ (١٣٥٩)، «وكان من أعيان الحنفية، وله شهرة زائدة بين الناس بالعلم»[3].

أما فقهاء الشافعية فكثيرون، من بنهم شيخ الإسلام قاضى القضاة الشافعية تقى الدين أبو الفتوح محمد بن مجد الدين المعروف بابن دقيق العيد، وقد قال عنه السبكى: «ابن دقيق العيد، هوالعالم المبعوث على رأس المائة السابعة، كما جاء فى الحديث»، وله عدة مؤلفات، وتوفى عام ٧٠٢هـ (١٠٣٢م)[4]. وكذلك تقى الدين السبكى المتوفى عام ٧٥٦هـ (١٣٥٥) والد صاحب كتاب «طبقات الشافعية» وقد قال عنه السيوطى[5]: «لو قدر الله تعالى بعد الأئمة الأربعة فى هذا الزمان مجتهداً عارفا بمذاهبهم أجمعين يركب لنفسه مذهبا من الأربعة، بعد اعتبار هذه المذاهب المختلفة كلها، لازدان الزمان به، وانقاد الناس، فاتفق رأينا على أن هذه الرتبة لاتعدو الشيخ تقى الدين السبكى، ولاينهى لهاسواه». وقد ألف السبكى عدة مؤلفات، قيل إنها بلغت نحو ستين مؤلفا، «يحق لها أن تكتب

---

(١) ابراهيم مدكور: المرجع السابق، ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) حسن المحاضرة: جـ١ ص ٣١٦ ؛ أحمد بدوى: الحياة العقلية فى عصرالحروب الصليبية، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١ ص ٥٦٩.

(٤) بدائع الزهور، جـ١ القسم الأول، ص ٤١١.

(٥) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٣٢١.

بماء الذهب، لا بالحبر المداد، لما فيها من النفائس البديعية والدرر النفيسة»[١]. ومن فقهاء الشافعية أيضا علم الدين البلقينى المتوفى سنة ٨٠٤هـ (١٤٠١) شيخ السيوطى.

أما أئمة الحديث فى عصر المماليك، فقد نبغ منهم ابن حجر العسقلانى المتوفى عام ٨٥٢هـ (١٤٤٨م)، المصرى مولداً ووفاة، وكان حجة فى سند الحديث وتميز الرواة، وقد قال عنه السيوطى: «انتهت إليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأسرها، فلم يكن فى عصره حافظ سواه»، وله كتاب مشهور فى شرح الحديث، اسمه «فتح البارى بشرح البخارى»[٢].

التصوف:

من مظاهر النشاط الدينى فى مصر فى عصر المماليك انتشار التصوف واتساع نطاقه إلى حد كبير، حتى تحول إلى ظاهرة اجتماعية. وأطلق الصوفية على أنفسهم اسم «الفقراء» لأن الفقر شعار الصالحين، وكل واحد من هؤلاء الفقراء له شيخه الذى يرتبط به وبطريقته وبأوامره، فإذا ارتبط أحدهم بشيخ من مشايخ الصوفية وأصبح من مريديه، ألبسه الشيخ خرقة التصوف،ويلتزم المريد بطاعة شيخه طاعة عمياء، وبالغ بعض شيوخ الصوفيةفى عصر المماليك، فاشترطوا فى العهد الذى يأخذونه على مريديهم ألا يبقى للمريد تصرف فى ماله ولا فى نفسه[٣].

ونتيجة لانتشار التصوف فى مصر، وفد عليها فى القرن السابع الهجرى (الرابع عشر الميلادى) كثير من مشايخ الصوفية، مثل أبى الحسن الشاذلى، وأبى عباس المرسى، وأبى القاسم القبارى، والسيد أحمد البدوى، وهؤلاء وغيرهم قد ضاقوا بالحالة التى وصل إليها المسلمون فى المغرب والأندلس، فغادروا بلادهم إلى المشرق، حيث وجدوا الناس مهيئين لتلقى تعاليمهم، والتربة صالحة لاستنبات آرائهم ومذاهبهم، فاندفع الكثيرون إلى الدخول تحت لواء مشايخ الصوفية.

---

(١) بدائع الزهور: جـ١ القسم الأول ص ٥٥٦.

(٢) إبراهيم مدكور: الحياة الثقافية بين القاهرة وبغداد،ص ٦٥ ـ ٦٦ ؛محمودرزق سليم: عصر سلاطين المماليك، مجلد ٣، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٣) عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى، ص ١٨ ـ ٢٠.

وجارى سلاطين المماليك وأمراوهم حركة التصوف بمصر، ومشاركة عامة الشعب فى الاعتقاد فى الصوفية والعطف عليهم، فأنشأوا الكثير من البيوت التى خصصت للصوفية، والتى أطلق عليها خوانق، وربط، وزوايا، وأوقفوها، كما أوقفوا على من يقيم بها من الصوفية أو من طلبة العلم الصوفية الكثير من الأوقاف[١]. وقد أثارت كثرة هذه المؤسسات الخاصة بالصوفية دهشة الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى العصر المملوكى، وشبهها بعضهم بالملاجىء، ذلك لأن بيوت الصوفية كانت مأوى لطوائف المريدين يقيمون فيها ليلهم ونهارهم، كما اتخذت مأوى لأصحاب العاهات، وكبار السن والعميان، فضلا عن المطلقات من النساء[٢].

على أنه إذا كانت حياة الصوفية فى أوائل العصر المملوكى تعتمد على الزهد والتقشف والتقوى وتأثر بالمجتمع دون انفصال عنه، فإننا نجد فى أواخر عصر المماليك تحولا فى الجماعات الصوفية من الإيجابية إلى السلبية، ونقصد بذلك أن الفساد قد تطرق إلى بعض الصوفية، فعدلوا عن التقشف، وأهملوا التمسك بأعظم مظاهر التصوف وهو الزهد، وتهافتوا على الدنيا، وأهملوا القيام بفروض الدين. وظهرت فرق من المتصوفة التى تحرص على ضم أصحاب المغانى واللهو وتعاطى الحشيش، حتى ظهرت فرق من المتصوفة ممن يطلق عليهم «القرندرية» نسبة إلى الشيخ حسن القرندرى، وهم أقرب إلى المجاذيب منهم للصوفية، كاوا يحلقون شعور رؤوسهم ولحاهم وشعرحواجبهم ورموش أعينهم، ويزعمون أن ذلك نوع من التقوىٰ والعبادة. وقد لفت القرندرية نظر الرحالة طافور فكتب عنهم: «ويوجد بالقاهرة رجال يحلقون رؤوسهم ولحاهم وحواجبهم وأهدابهم، ويحيون حياة تشبه عيش المجانين، زاعمين أنهم يفعلون ذلك تطهراً، وأنهم ـ فى سبيل الله ـ يهربون من الدنيا ومباهجها، وأنهم من أجل هذ السبب يحلقون كل شيء على أجسامهم»[٣].

---

(١) محمد محمد أمين: الأوقافوالحياة الاجتماعية فى مصر، ص ٢٠٦.

(٢) سعيد عاشور: المجتمع الصرى فى عصر سلاطين المماليك،ص ١٧٠.

(٢) رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى (القاهرة ١٩٦٨)، ترجمة د. حسن حبشى، ص٦٣.

وفى أواخر عصر المماليك سادت الخرافات، وشاعت الأوهام، ولجأ الناس إلى المشايخ لقضاء المطالب، والشفاء من الأمراض، ورد الغائب، وتقديس سكان الأضرحة والقباب، ونسبوا إليهم الأساطير والصفات الخارقة التى تبلغ حد المعجزات، الأمر الذى كان له أسوأ الأثر فى المجتمع المصرى.

الأدب واللغة:

ازدهرت الحياة الأدبية فى مصر المملوكية ازدهاراً واسعاً، بصورة لم تشهدها من قبل فى تاريخها الوسيط، وإن كان يؤخذ على الأدب شعراً ونثراً ضعف اللغة الفصحى، ودخول كثير من الألفاظ الدارجة، وقد خلا من الابتكار والتجديد. وقد كثر فى عصر المماليك نوع من المدح كان الشعراء صادقين فيه، وهذا النوع هو مدح الرسول ﷺ، بدأ به البوصيرى، ونهج الشعراء من بعده نهجه. والبوصيرى هو شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى المتوفى سنة ٦٩٥هـ (١٢٩٦م)، ويعتبر من أبرز شعراء العصر المملوكى، «وشعره فى غاية الحسن واللطافة، عذب الألفاظ، منسجم التركيب»، ونظم قصيدة البردة فى مدح الرسول الكريم، وهى قصيدة مشهورة[١]. وقد توفى فى نفس العام الشاعر أبوحفص عمر بن الحسين المصرى المعروف بسراج الدين الوراق، وكان شاعراً كثير النظم، «حسن التخيل، جيد المقاصد، صحيح المعانى، عذب التركيب عارفاً بالبديع وأنواعه»[٢]. ومن شعراء هذا العصر أحمد بن عبد الملك العزازى المتوفى سنة ٧١٠هـ (١٣١٠م)، وكان شاعراً مشهوراً، أديبا بارعا جيد النظم، وله قصائد فى الموشحات[٣]. وكذلك الشاعر يحيى أبو الحسين المصرى المعروف بالجزار المتوفى عام ٦٧٩هـ (١٢٨٠م)، وكان ماجنا ظريفا حلو المناظرة، مدح الملوك والوزراء والأمراء[٤]. وهناك الشاعر شرف بن أسد المصرى المتوفى سنة ٧٣٨هـ (١٣٣٧م)، وكان شاعراً ماجنا ظريفا، وله شعر عامى كثير من

---

(٣) رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى (القاهرة ١٩٦٨)، ترجمة د. حسن حبشى، ص٦٣.

(١) ابن شاكر الكتبى: فوات الوفيات (القاهرة ١٩٥١)، جـ٢ ص ٤١٢ ـ ٤١٩.

(٢) المصدر السابق، جـ٢ ص ٢١٣ ـ ٢١٩؛ النجوم الزاهرة، جـ٨ ص ٨٣.

البلاليق والأزجال والموشحات، قليل اللحن[1]. وكذلك الأديب المشهور جمال الدين بن نباته المصرى المعروف بابن نباته المتوفى عام ٧٦٨هـ (١٣٦٧م)، وقد فاق أهل زمانه فى النظم والنثر، وسار على نهج القاضى الفاضل، وألف فى الأدبيات كثيراً من الكتب، منها كتاب مجمع الفرائد،وكتاب القطر النبات، وكتاب سرح العيون فى رسالة ابن زيدون، وكتاب الفاضل من إنشاء الفاضل وغيرها[2].

أما الإنتاج اللغوى فى عصر المماليك، فقد حظى بعناية كبيرة، فخلف جمال الدين بن مكرم المصرى المعروف بابن منظور المتوفى سنة ٧١١هـ (١٣١١) معجمه الشهير «لسان العرب» وهو أكبرمعجم لغوى وصل إلينا حتى الآن. جاء فى الحقيقة كتاب لغة ونحو وصرف وفقه وأدب وأخبار وأحاديث وتفسير فى وقت واحد[3]. وتوافر على دراسة النحو طائفة قل أن يتوافر مثلهم، نذكر منهم ابن مالك المتوفى سنة ٦٧١هـ (١٢٧٢)، وهو صاحب «الألفية المعروفة باسمه». وكذلك بهاء الدين النحاس، ولد بحلب سنة ٦٢٧هـ، ثم جاء إلى القاهرة، كان شيخ العربية والقراءات، حسن الأخلاق متواضعا، انتهت إليه رئاسة النحو بمصر، وتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٩م)[4]. أما ابن هشام المصرى المتوفى سنة ٧٦١هـ (١٣٦٠م)، فقد يسر النحو وصفاه، وسلك فى عرضه منهجا جديداً، وامتاز بكثير من الأصالة والابتكار[5]. وقد قال عنه ابن خلدون: «مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له أنحى من سيبويه»[6]. ومن علماء النحو فى العصرُ المملوكى بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل المتوفى سنة ٧٦٩هـ (١٣٦٧م)، وقد علق على «الألفية» وشرحها، وله تصانيف فى النحو[7]. وكذلك ابن

---

(٣) أبو المحاسن: المنهل الصافى، جـ١ تحقيق محمد محمد أمين (القاهرة ١٩٨٥، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣ ص ٢٩٣.
(١) فوات الوفيات، جـ١ ص ٣٨١ ـ ٣٨٤.
(٢) النجوم الزاهرة، جـ١١ ص ٩٥؛ بدائع الزهور، جـ١ القسم الثانى، ص ٦١ ـ ٦٢.
(٣) عبد اللطيف حمزة: الأدب المصرى، ص ٣٦ ـ ٣٧؛ محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، مجلد ٤، ص ٦٥ ـ ٦٦.
(٤) فوات الوفيات، جـ٢ ص ٣٥٠ ـ ٣٥٣.
(٥) إبراهيم مدكور: الحياة الثقافية بين القاهرة وبغداد، ص ٦٦ ـ ٦٧.
(٦) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٥٣٦.
(٧) حسن المحاضرة، جـ١ ص ٥٣٧.

الدماميني المتوفى سنة ٨٢٧هـ (١٤٢٤م)، اشتغل بالأدب، ففاق في النحو والنظم، وحاز شهرة واسعة في علم العروض[١].

وينفرد العصر المملوكي بنوع خاص من الأدب تبلور فيه، وهو الأدب الشعبي، وسار هذا التبلور جنبا إلى جنب مع تبلور الشخصية المصرية، وقد برز الأدب الشعبي في عصر المماليك، كما ظهرت فيه النسخة الكاملة من قصص ألف ليلة وليلة وأكثر الألوان الأخرى من الأدب الشعبي. والواقع أن قصص ألف ليلة وليلة كانت مرآة صادقة للشعب المصري في أخلاقه وعاداته وخرافاته، وعقيدته الإسلامية التي ملكت عليه كل حواسه، ونوع السخرية التي كان يسخر بها من حكامه. وما حدث في ألف ليلة وليلة حدث مثله تماما في سيرة بني هلال وسيرة الظاهر بيبرس، فقد جاءت هاتان السيرتان في كثير من المواضع كذلك صورة دقيقة للحياة المصرية، مما يدل على تبلور الشخصية المصرية في جميع جوانبها بصورة نهائية في عصر المماليك أكثر من أي عصر سابق له[٢].

مدرسة التاريخ في مصر المملوكية:

يعتبر علم التاريخ أبرز العلوم التي حظيت بمكانة مرموقة في مصر المملوكية، فقد شهدت مصر في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) طائفة من المؤرخين العظام حملوا راية التدوين في التاريخ المصري، وجعلوا من مصر مركز الدائرة في التاريخ العام، وفي ذلك ما يخالف القاعدة التي كان يتبعها المؤرخون السابقون الذين جعلوا من بغداد مركزاً لهذه الدائرة. وقد أبدى المؤرخون المصريون اهتماماً خاصاً بمقاييس النيل، وذكروا ارتفاعه وانخفاضه في حوادث كل سنة، فعلوا ذلك شعوراً منهم بأن النيل واهب الحياة في مصر، وفي ذلك ما يدل بوضوح على النزعة المصرية الصميمة عندهم، فهم يكتبون بذوق ومزاج مصر، وروح وعقلية مصرية[٣].

---

(١) عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر في عصر السيوطي، ص ١٢٦.

(٢) عبد اللطيف حمزة: الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية، ص ٢٨٨؛

Arberry, The Contribution to Islam., p. 357.

(٣) عبد اللطيف حمزة: الأدب المصري، ص ٢٨٧.

ومن أشهر مؤرخي مصر العظام في عصر المماليك المقريزي المتوفى عام ٨٤٥هـ (١٤٤٢م) الذي ألف كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، وهو الذي يعرف باسم أقصر وأشهر هو «الخطط»، ويعتبر المصدر الوحيد الذي يتناول وصف المدن والآثار المصرية والخطط والشوارع والحارات والأسواق والمدارس والحمامات والسجون في الفسطاط والقاهرة، وما تخللها من زيادة أو نقص على مر العصور. وإلى جانب هذا عني هذا الكتاب بشرح النظم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية التي توالت على مصر، ورسوم البلاط في مصر وأحوال الولاة والخلفاء والسلاطين، وعادات المصريين وتقاليدهم. ولم يؤلف المقريزي كتابه تقرباً لحاكم أو أمير، بل ألفه ليشبع عاطفته الوطنية، إذ يقول في المقدمة: «وكانت مصر هي مسقط رأسي، وملعب أترابي، ومجمع ناسي، ومغنى عشيرتي وحامتي، وموطن خاصتي وعامتي، وجؤجؤي الذي ربى جناحي في وكره، وعش مأربي، فلا تهوى الأنفس غير ذكره، لازلت منذ شذوت العلم وآتاني ربي الفطانة والفهم، أرغب في معرفة اخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها..»[1]. وزادت مؤلفات المقريزي الكبرى والصغرى على مائة كتاب، منها كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك»، وقد ألفه ليكون تاريخا للأيوبيين والمماليك، فجاء خير مرجع في هذا الصدد. وله أيضا كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة»، وهو الكتاب الوحيد الذي تعرض بالبحث للحياة الاقتصادية والأوبئة والمجاعات في مصر الإسلامية. وألف المقريزي كتاب (المقفى)، وهوكما يتضح من عنوانه يتناول تراجم البارزين من أبناء مصر أو ممن وفدوا عليها أو أقاموا بها خلال العصر الإسلامي، وكان مقدراً له أن يخرج من ثمانين مجلداً، ولكنه توفي قبل أن يتمه[2].

وممن عاصروا المقريزي المؤرخ أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ (١٤٤٨م)، صاحب كتاب «إنباء الغُمر بأنباء العمر»، وهو من كتب الحوليات التي كانت تذكر تاريخ كل سنة على حدة، ويدل على رقة أحاسيس المؤرخ، إذ اعتنى بذكر

---

(١) الخطط، جـ١ ص ٢.

(2) Arberry, op. cit., p. 358.

حال الورد كلما وصل إلى موسم الربيع[١]، ويعتبر هذا الكتاب مصدراً قيما من مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى الحقبة التى يتناولها (٧٧٣ ـ ٨٥٠هـ) ؛ وقد كان ابن حجر بمركزه العلمى الرفيع، وصلاته العديدة مع كبار الشخصيات، فى مركز يمكنه من تتبع الأحداث العامة. وله كتاب «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة»، وهو معجم كبير ضمنه تراجم أعيان القرن الثامن الهجرى، من سنة ٧٠١ إلى آخر سنة ٨٠٠هـ، سواء من مصر أو مختلف البلاد الإسلامية الأخرى[٢]. وكذلك المؤرخ بدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥هـ (١٤٥١م) صاحب كتاب «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان»، وهو من أهم كتب الحوليات التاريخية التى دونت فى القرن الخامس عشر الميلادى، وقد ساعد العينى فى الوقوف على كثير من الأحداث المعاصرة كثرة الوظائف الهامة التى تولاها فى حياته، وما تمتع به من مكانة مرموقة عند سلاطين المماليك، لاسيما السلطان برسباى. وممن عاصروا المقريزى المؤرخ خليل بن شاهين الظاهرى المتوفى سنة ٨٤٠هـ (١٤٦٨م)، وأهم مؤلفاته كتابه المسمى «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك»، وبهاء الدين محمد العمرى الخالدى صاحب كتاب «المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشاء»[٣].

أما أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م)، وهو من أصل مملوكى، فقد احتل مركز الصدارة بين المؤرخين فى مصر المملوكية بعد وفاة أستاذه المقريزى والعينى، وأهم كتبه كتاب «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»، وهو كتاب كبير فى تاريخ مصر الإسلامية مرتب حسب السنين على طريقة ابن الأثير، ولكن الذى يمتاز به أبو المحاسن عن سابقيه أنه جعل مصر هى المحور الذى تدور عليه أحداث التاريخ بعد أن كانت مكة أو المدينة أو دمشق أو بغداد محوراً عند سابقيه من المؤرخين، وفى ذلك تحقيق للشخصية المصرية، كما أضاف إليه زيادة النيل ونقصانه، وتراجم الذين ماتوا من أعلام المصريين فى كل سنة[٤]، ولأبى المحاسن كتب أخرى، نذكرمنها كتاب «حوادث

---

(١) محمد مصطفى زيادة: المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (القاهرة ١٩٥٥)، ص١٧.

(٢) محمد عبد الله عنان: مؤرخو مصر الإسلامية، ص ١١٠ ـ ١١١.

(٣) محمد مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص ١٨ ـ ٢٥.

(٤) عبد اللطيف حمزة: الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجىء الحملة الفرنسية، ص ٢٣٨.

الدهور في مدى الأيام والشهور»، وهو ذيل لكتاب السلوك الذى ألفه أستاذه المقريزى، فجاء ترتيبه على السنين والشهور. ومن أشهر كتب أبى المحاسن كتاب «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى»، وهو كتاب تراجم جمع فيه حوالى ثلاثة آلاف ترجمة لمشاهير العلماء والأمراء والسلاطين الذين عاشوا فى مصر والشام فى عصر دولتى المماليك الأولى والثانية، بالإضافة إلى من عاصرهم من مشاهير المشرق والمغرب، من المسلمين وغير المسلمين سواء[1].

وعاصر أبو المحاسن اثنين ممن اشتغلوا مثله بالتاريخ المصرى، وهما بحسب الترتيب الزمنى ابن الصيرفى المتوفى سنة ١٤٩٤م، والسخاوى المتوفى سنة ٩٠٢هـ (١٤٩٧)، صاحب كتاب «التبر المسبوك فى ذيل السلوك»، وأعظم مؤلفاته بلاريب كتابه الضخم «الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع»، وهو كتاب تراجم ليس له نظير فى كتب التراجم الإسلامية، ويمتاز بروحه النقدية اللاذعة، بيد أن هذه الروح جعلته يميل إلى التجريح والهدم، وقد ترجم السخاوى لكثير من أعلام العصر،فلم يعجبه أحد ما خلا أستاذه ابن حجر العسقلانى[2].

ويعتبر المؤرخ محمد بن أحمد بن إياس المصرى الحنفى المعروف بابن إياس والمتوفى سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٤)، أعظم المؤرخين شأناً فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر للميلاد، أى أنه عاصر آخر أيام دولة المماليك والفتح العثمانى لمصر، الأمر الذى جعل لكتبه مكانة فريدة فى تصوير هذه المرحلة الانتقالية فى حياة مصر. وابن إياس سليل أسرة مملوكية، ودرس على جماعة من أعلام عصره، ولاسيما السيوطى، وأهم كتبه هو «بدائع الزهور فى وقائع الدهور»، تناول فيه تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العهد العثمانى. وممن عاصروا ابن إياس السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ (١٥٠٥م)، صاحب كتاب «حسن المحاضرة، فى أخبار مصر والقاهرة»، وهو تاريخ لمصر والقاهرة عاصمتها، مع فصول إضافية فى النظم التركية المملوكية وأساليبها وطبقات العلماء والأدباء والصوفية فى مصر.

---

(١) سعيد عاشور: «مكانة ابن تغرى بردى بين مؤرخى مصر فى القرن التاسع الهجرى»، مقالة فى بحوث ودراسات تاريخ العصور الوسطى، (بيروت١٩٧٧)، ص ٤٢٤.

(٢)محمد عبد الله عنان: مؤرخو مصر الإسلامية،ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

وفى عصر المماليك ظهر نوع من التأليف لم يسبق له مثيل فى التاريخ الإسلامى، بل سبق ما صنعه أصحاب دوائر المعارف المحدثين بنحو أربعة قرون، ونعنى به الدراسةالموسوعية التى احتوت كثيراً من المعلومات المتنوعة، ووصل إلينا منها نماذج مختلفة، وقد كتبها رجال شغفوا بالدرس والبحث، وقضوا وقتا طويلا فى الجمع والتحصيل، ثم أخذوا يسجلون ما جمعوه من المعلومات الإنسانية فى شتى الفروع. وأبرز هؤلاء الموسوعيين شهاب الدين النويرى المتوفى سنة ٧٣٢هـ (١٣٣١)، وقد ولد بنويره إحدى قرى بنى سويف، ونشأ وتربى بقوص التى كانت وقتئذ من أعظم البيئات العلمية بمصر. وألف كتاب «نهاية الأرب فى فنون الأدب» فى ثلاثين جزءاً، ورتبه على خمسة فنون، وهى الكون، والإنسان، والحيوان، والنبات، والتاريخ، وتحت كل فن خمسة أقسام، فجاء دائرة معارف العصر فيه علم وفلسفة وأدب ولغة وتاريخ[١].

ومن الموسوعيين أيضا شهاب الدين بن فضل العمرى ـ نسبة إلى عمر بن الخطاب ـ المتوفى سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٨)، صاحب كتاب «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار»، وهو موسوعة جغرافية، تناول فيها كثيراً من المعارف الجغرافية والتاريخية والدينية والأدبية والعلمية وغيرها. وله كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف»، وفيه يشرح رتب المكاتبات السلطانية وإجراءاتها، ويعرض نماذج من العهود والتقاليد والتفويض والمراسيم والمناشير، وكذلك نماذج عديدة من الوثائق والمكاتبات الرسمية والدبلوماسية، ثم يتحدث عن أوضاع الممالك وتقاسيمها الإدارية، وعن مراكز البريد ووسائل المواصلات البحرية[٢].

ومن أشهر الموسوعيين فى عصرالممالك شهاب الدين أحمد بن عبد الله القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م)، صاحب كتاب «صبح الأعشى فى كتابة الإنشا»، وقد ولد فى قلقشندة إحدى قرى قليوب، ودرس بالقاهرة والإسكندرية على أكابر شيوخ العصر، وتولى بعض الوظائف الإدارية، والتحق بخدمة ديوان الإنشاء فى سنة ٧٩١هـ (١٣٨٨) فى

---

(١) إبراهيم مدكور: الحياة الثقافية بين القاهرةوبغداد، ص ٦٨.

(٢) المرجع السابق والصفحة: عبد اللطيف حمزة: الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية، ص ٣٧ ـ ٣٩.

عهد السلطان برقوق. واتخذ القلقشندى صناعة الإنشا موضوعا لكتابه، ولكنه تطرق إلى سرد كثير من المعارف الإنسانية فى عصره، ويعتبر صبح الأعشى موسوعة ضخمة يفخر بها الفكر العربى.

والواقع أن المجال لايتسع لذكر جميع جوانب الحياة العملية والأدبية والدينية فى مصر المملوكية، فضلا عن كل الشخصيات التى ساهمت بجهودها فى بناء حضارتها الزاهرة. وكل ما نستطيع قوله أن القاهرة غدت مركز الإشعاع العلمى والثقافى فى العالم الإسلامى كله، وكانت مقصد العلماء المسلمين من كل حدب وصوب، وشاركت فى حماية التراث الإسلامى بعد سقوط بغداد تحت سنابك المغول، وقيام حركة الاسترداد المسيحية فى الأندلس.

ومهما يكن من أمر، فقد رأينا أن المماليك كانوا فى أصولهم طبقة طارئة على مصر، أتو إليها صغاراً ونشأوا وتربوا فى ربوعها، ولم يعرفوا لهم وطناسواها، ولذلك حافظوا على استقلالها، ودافعوا عن أرضها ضد أى معتد حاول النيل منها. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل استطاع المماليك أن يشيدوا إمبراطورية ضخمة حققت وزنا فى السياسة العالمية فى العصور الوسطى، فمدت نفوذها إلى الشام وبلاد اليمن والحجاز وبرقة، وفتحت بلاد النوبة وقضت على ممالكها المسيحية، واعترفت بها كل دول العالم الإسلامى ونهلت من حضارتها التى لم تحققها أية دولة إسلامية من قبل. وخطب ود سلاطين المماليك ملوك وحكام أوربا وآسيا عن طريق إبرام المعاهدات والاتفاقيات وإرسال الهدايا. وقد صدق المقريزى[1] عندما قال عن المماليك «إنهم كانوا سادة يدبرون الممالك، وقادة يجاهدون فى سبيل الله، وأهل سياسة، يبالغون فى إظهار الجميل، ويردعون من جار أو تعدى».

(١) الخطط، جـ٢ ص ٢١٣.

خاتمة

يتضح من كل ما مر بنا أن مصر في العصور الوسطى فى الفترة الواقعة بين الفتح العربى والفتح العثمانى، وهى فترة تمتد حوالى تسعة قرون (٦٤١ ـ ١٥١٧م)، كانت ولاتزال جزءاً من العالم الإسلامى. ولاحاجة بنا إلى القول إن الإسلام لايعرف سيطرة دولة على أخرى، ولايميز بين دولة وزخرى، ولذلك لم تعرف مصر فى العصر الإسلامى الشعور القومى أو القومية بالمعنى الذى يدل عليه هذا المصطلح فى الوقت الحاضر، وهو المصطلح الذى ظهر فى أوروبا فى أواخر القرن الثامن عشر، وفى خلال القرن التاسع عشر الذى عرف بعصر القوميات.

وخلال الفترة الطويلة التى مررنا بها فى عجالة، تعاقبت على مصر أسرات حاكمة من غير أبنائها، أدت كل منها دورها فى تاريخها السياسى، ودعمت نشاطها الحضارى. ولكن المصريين ظلوا على ما هم عليه، محتفظين بتراثهم وتقاليدهم وعاداتهم التى تمتد فى أعماق التاريخ لآلاف السنين. وليس هذا حسب، بل كانت مصر قادرة على امتصاص واستيعاب الأسرات الحاكمة الوافدة عليها، والجيوش والجماعات التى رافقتها، والتى جاءت فى إثرها، وغيرت تكوينها العرقى والثقافى والحضارى، فمصر ذاتها سبيكة منصهرة متلاحقة من الأعراق والأجناس، لايعرف بعضها البعض، وتتعايش معا بلا تمايز وبلاتفرقة. وفى ذلك يقول الدكتور جمال حمدان[1]: «فى مواجهة موجات الغزو الخارجى، كانت مصر تمارس «الغزو من الداخل»، بمعنى أنها كانت دائما تتمتع بقوة امتصاص نادرة وحيوية بيولوجية تبتلع وتهضم بها معظم العناصر الوافدة حتى تصهرها ـ كأنها البوتقة ـ فى الجسم الكبير». ويكاد يتفق هذا القول تماما مع ما أشار إليه الدكتور سليمان حزين[2] فى سياق حديثه عن سكان مصر، إذ قال: «ولكن الاختلاط بين سكان مصر يمتاز بأنه قديم، وبأنه بلغ حد الامتزاج والتداخل التام بين الصفات الجنسية الأصلية والوافدة. ولقد أعطى ذلك أهل مصر قوة، وساعدهم على «هضم» من اختلط بهم وعلى تمثيل العناصر

---

(١) شخصية مصر، ج٢ ص ٣١٧.

(٢) حضارة مصر، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

الدخيلة تمثيلا لم يلبث معه أن انمحى الأثر الوافد، أو تلاشى فى الصفة الأصلية بعد أن عدلها بعض التعديل». وإذا كانت أمريكا تدعى أنها بوتقة الانصهار Melting pot للجنسيات والشعوب التى وفدت عليها عبر القرون الأربعة الأخيرة، وتزعم أنها قد كونت من هذا الخليط ما يسمى بالشخصية الأمريكية، فمن حق مصر أن تفخر بأنها أقدم بوتقة أنصهار فى العالم، وأن نتاج هذا الانصهار هو سبيكة واحدة متجانسة نظراً للعمق التاريخى لهذا الانصهار، ولأنه تم عبر قرون أطول[1].

على أنه إذا كانت مصر على مر الزمن قد احتفظت بشخصيتها النابعة من بيئتها الفريدة وحضارتها الأصيلة الضاربة فى أعماق الزمان، فإنها قد غيرت ملامحها فى اللغة والدين من العصر الفرعونى والمسيحى إلى العصر الذى ارتبطت خلاله بالإسلام. فمصر كانت منذ الفتح العربى لها ـ فى الحقيقة والواقع ـ قوة لها شخصيتها الذاتيةالغلابة، بدليل ما قاله عمرو بن العاص فاتح مصر: «ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة»، وعندما سقطت بغداد قاعدة الخلافة العباسية فى العراق أمام المد المغولى، سقط هذا المد نفسه أمام مصر الإسلامية»[2].

لقد نعمت مصر الإسلامية فى العصور الوسطى باستقلالها، وإن تفاوت هذا فى النوع والدرجة. ففى عصر الولاة (٢١ ـ ٢٥٤هـ/ ٦٤١ ـ ٨٦٨) الذ يمتد من الفتح العربى لمصر حتى قيام الدولة الطولونية، حرص معظم الولاة على استثمار موارد مصر وثرواتها فيما يعود بالخير على شعبها الذى ارتضى الإسلام دينا، وبدأ يتعرب من الجيل الأول بعد الفتح، فى الوقت الذى كانت مصر جزءاً من العالم الإسلامى الواسع الذى كانت تشمله وحدة سياسية وحضارية عامة. وفى هذا العصر شهدت مصر ولاة أكفاء عمل معظمهم على إقامة مجتمع عادل وفقا لمبادىء الإسلام، وفيه انصرف المصريون لمزاولة شئون حياتهم اليومية، لايشكون من ثقل ضرائب أو مساوىء حكم أجنبى بغيض، على نحو ما ساد فى العصر الرومانى فى التاريخ القديم، وفيما بعد فى التاريخ الحديث عندما جاء نابليون بونابرت إلى مصر على رأس حملته سنة ١٧٩٨م، وكذلك الأمرعندما نكبت مصر بالإحتلال البريطانى فى سبتمير ١٨٨٢م.

---

(١) ميلاد حنا: الأعمدة السبعة للشخصية المصرية (القاهرة ١٩٩٣)، ص ١٠٨.

(٢) شخصية مصر، جـ٢ ص ٣١٧.

وبقيام الدولة الطولونية (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م)، تغير وضعها عما كان عليه فى عصر الولاة،فقد جاء أحمد بن طولون وهو من أصل تركى إلى مصر، واستقل بها استقلالا حقيقيا فى مضمونه، فلم يعد للخليفة العباسى أى نفوذ سياسى على مصر، فيما عدا أنها اكتفت بذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة،تعبيراً عن انتمائهاالدينى إلى الإسلام الذى يجسده الخليفة العباسى إمام المسلمين. ويعتبر أحمد بن طولون أول سلسلة الحكام البارزين الذين حكموا مصر فى فترات متقطعة، وتركوا بصماتهم واضحة فى تاريخ مصر. وأصبحت مصر فى عصره إمبراطورية واسعة تمتد إلى برقة غربا، وإلى الشام شمالا وتخوم العراق شرقا وإلى حدود الدولة البيزنطية شمالا، وإلى النوبة جنوبا.وقد رأينا أنه استغل ثروات مصر البشرية والمادية فى تكوين جيش قوى، وبناء نهضة عظيمة لم تعرفها مصر منذ الفتح العربى لها.

وفى عهد الدولة الإخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م)عرفت مصر الإسلامية ثانى دولة مستقلة بعد الدولة الطولونية. وقد عرفت الدولة الإخشيدية بهذا الإسم نسبة إلى مؤسسها محمد بن طغج الإخشيد، وهو من أصل تركى مثل أحمد بن طولون. ولم يمارس الإخشيديون حكمهم بوصفهم أقلية مميزة أو أجانب عن مصر، بل حرصوا على الانتماء إليها، واتخذوها وطنا لهم، ونهضوا بشئونها، فالتف حولهم الشعب المصرى.

لم يقدر للدولة الإخسيدية أن تعيش طويلا، ففى أواخر عهدها انتشرت الفوضى والمجاعات والأوبئة، فى الوقت الذى كان الفاطميون منذ بدئ قيام دولتهم فى بلاد المغرب يتطلعون إلى الإستيلاء على مصر، لإقامة دولة تنافس العباسيين، ولم يغب عن بال الفاطميين ثراء مصر وأهمية موقعها الجغرافى وقربها من بلاد الشام. وقد رأينا أن الفاطميين نجحوا فى فتح مصر سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م)، وأصبحت مصر مركز خلافة شيعية تقف على قدم المساواة مع الخلافة العباسية السنية فى بغداد. ومنذ ذلك التاريخ استقل الفاطميون بمصر استقلالا تاماً لا تشوبه أدنى شائبة، وبقى هذا الاستقلال قائما حتى الفتح العثمانى لمصر سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م).

لم يدخل الفاطميون مصر دخول الغزاة المنتقمين المستغلين، وإنما كان غرضهم استمالة المصريين إليهم، حتى يتفرغوا لأهدافهم الرامية إلى توحيد العالم الإسلامى تحت نفوذهم ونشر المذهب الشيعى وصد خطر الدولة البيزنطية. ولذلك أعلنوا للمصريين الأمان على أنفسم وأموالهم وبلادهم. ومنذ قيام الدولة الفاطمية ذات الأصل العربى، قفزت مصر إلى مركز الصدارة فى العالم الإسلامى، ويكفى أن رقعة دولتهم فى عهد الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ ـ ٩٩٦م) امتدت من بلاد العرب شرقا إلى ساحل المحيط الأطلسى غربا، ومن أقصى بلاد الشام شمالا إلى بلاد النوبة جنوبا. وقد وجه الفاطميون كل جهودهم للنهوض بمصر،فكان عصرهم يفيض بالرخاء والازدهار الحضارى، بدليل ما خلفته مصر من آثار باقية على مر الزمن تشهد للفاطميين بالعظمة والقوة. كما هيىء لمدينة القاهرة منذ إنشائها أن تضم أعرق جامعة فى العالم، وهى جامعة الأزهر التى كانت منذ نشأتها ـ ولاتزال ـ منهلا للثقافةوالعلوم الدينية.

على أن الدولة الفاطمية التى بلغت الذروة فى الازدهار والقوة فى عصرها الأول، أصابها الضعف والانحلال فى عصرها الثانى المعروف بعصر نفوذ الوزراء، الأمر الذى مهد للأيوبيين القضاء عليها.ويلاحظ أنه على الرغم من أن المصريين قد أحبوا الفاطميين وشعروا بالحزن لزوال دولتهم، إلا أنهم لم يتابعوهم فى مذهبهم الشيعى، وظلوا على المذهب السنى، مما يدل بوضوح على أن الشعب المصرى محافظ فى المسائل الدينية.

أما الأيوبيون، فيتضح لنا من دراسة موطنهم الأصلى ونشأتهم الأولى أنهم أكراد الجنس والأصل، ولكنهم عرب باللغة والحضارة والإسلام. ولم يأت الأيوبيون لمصر لغزوها واحتلالها ونهب ثرواتها، بل لتدعيم الجبهة الإسلامية تحت زعامة حاكم مسلم واحد هو نور الدين محمود، كى يستطيع أن يطوق الصليبيين من الشام شمالا ومصر جنوبا. وقد رأينا أن الخلافة الفاطمية فى النصف الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) كانت قد وصلت إلى مرحلة بالغة الضعف، وأدى التنافس بين الوزراء الفاطمين إلى أن استعان بعضهم بمملكة بيت المقدس الصليبية، على حين استنجد البعض الآخر بنور الدين محمود فى الشام. ولاريب أن كلا من الصليبيين ونور الدين محمود، قد أدرك أن القوة التى ستظفر بمصر سيكون لها الغلبة فى الصراع الدائر بينهما، لأن مصر بما تمتلكه من ثروات

مادية وبشرية وموقع جغرافى استراتيجى، تستطيع أن تقلب ميزان القوى فى الشرق الأدنى. وكان أن شهدت الفترة الأخيرة من حياة نور الدين امتداد التنافس بينه وبين الصليبيين حول الاستيلاء على مصر، واتخذ التسابق بين الفريقين صورة حملات أرسلها نور الدين إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه، انتهت بالقضاء على سلطة الوزراء الفاطميين الذين سولت لهم نفسهم الاستنجاد بالصليبيين، وتولى شيركوه منصب الوزارة فى مصر الفاطمية. غير أن شيركوه ما لبث أن توفى فجأة فى مارس سنة ١١٦٩م، وخلفه فى المنصب ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى، الذى اتخذ خطوات أدى إلى زوالالخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م)، وقطع الخبة للفاطميين وأقامها للخليفة العباسى فى بغداد.

أدرك صلاح الدين أهمية مصر فى القيام بالدور الفعال فى معركة الجهاد ضد الصليبيين، ولذلك استقر رأيه على تأسيس دولة فى مصر تحمل اسم أسرته، قادرة على القيام بهذا الدور، بينما كان نور الدين يرى أن دور مصر فى الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين، لايتعدى كونها ولاية غنية تمده بنفقات الحرب والقوة البشرية،. وبعد أن أراح الموت نور الدين الدين فى أبريل سنة ١٧٧٤م، وانتهى صلاح الدين من تثبيت نفوذ دولته فى مصر والشام، أخذ على عاتقه توحيد الجبهة الإسلامية فى مصر والشام والعراق بعد وفاة نور الدين محمود، وقد مكنت مصر بمواردها الغنية صلاح الدين من القيام بتلك المهمة العظيمة. وبعد ذلك واصل صلاح الدين جهوده الرامية إلى هدم المعاقل الصليبية. وقد فاضت المصادر الإسلامية والأوربية بأخبار انتصاراته على الصليبيين، وهى الانتصارات التى توجها بسحقهم فى موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، وأصبحت مملكة بيت المقدس الصليبية أثراً بعد عين، على أية حال، برزت شخصية مصر فى عهد حكامها الأيوبيين، فغدت أعم دولة فى منطقة الشرق الأوسط، وقلب المقاومة فى العالم الإسلامى ضد الصليبيين.

وقد رأينا أن المماليك جاءوا إلى مصر كرقيق من بلاد مختلفة وجنسيات متعددة، ووجه الأهمية هنا أنهم أتوا إلى مصر أطفالا صغاراً، ولم يعرفوالهم وطنا غيرها، ونشأوا فيهاوتربوا تربية إسلامية. ومهما قيل فى أنهم أجانب عن مصر على أساس أن أصولهم الأولى لم تكن مصرية، فإن هذا القول غير مقبول تماما، لأن الواقع يدحضه، فلايوجد وطن يجرى

فى عروق أبنائه دماء نقية،صحيح أن المماليك عاشوا فى مصر كطبقة حاكمة منعزل
الشعب المصرى، طابعها الاستعلاء، فلم يختلطوا بالمصريين، ولم يصهروا إليهم، ول
فى النهاية ذابوا وتحللوا فى الشعب المصرى، واختلطت دماؤهم بدمائه.

والمماليك أصحاب فضل على مصر والعالم الإسلامى، فهم الذين جعلوا من مص
مرهوبة الجانب، فى وقت كادت جحافل الغزاة الصليبيين والمغول والوثنيين أن تطبق
من الغرب والشرق. فوقف المماليك ـ كما رأينا ـ سداً معيناً أمام قوات الحملة الص
السابعة بقيادة لويس التاسع فى المنصورة سنة ١٢٥٠م، فى وقت كانت مصر بدون سل
كما أوقف المماليك خطر المغول البربرى فى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠
وأنقذوا بذلك مصر والحضارةالإسلامية من الضياع. ومن ناحية أخرى، دك المماليك م
وحصون طائفة الإسماعيلية ـ الباطنية أو الحشيشية ـ بالشام، وقضوا على ممالك ا
المسيحية فى جنوب مصر، وأحيوا الخلافة العباسية فى القاهرة، بعد أن قتل هولاكو الم
المستعصم آخر الخلفاء العباسيين فى بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨)، ولاشك أن اتخاذ
فاعدة للخلافة الإسلامية أكسبها احترام العالم الإسلامى.

وقد عنى المماليك أكبر عناية بتخليد أسمائهم فى منشئات معمارية أعطت مصر م
من الجمال الهندسى الرائع، ولازالت أحياء القاهرة تزخر بآثار سلاطين المماليك وأمرائ
من مساجد ومدارس وقباب وخوانق وأضرحة وقصور وغيرها من التحف المعمارية والف
وكانت القاهرة دون نزاع أكثر العواصم الإسلامية ازدهاراً بالبحث والدرس، وخاصة
سقوط بغداد فى أيدى المغول، وتعرض قرطبة فى الأندلس لحركة الاسترداد المسيحية،
أصاب بلاد الشام من أضرار على أيدى الصليبيين والمغول.

لقد رفع المماليك رأس مصر عاليا فى العالم الإسلامى، وحققوا وزناًفى السياسة العا
وجعلوا من القاهرة مركزاً لسفراء الدول الأوربية الذين دأبوا على الحضور إلى مصر لإ
المعاهدات والاتفاقيات، حاملين الهدايا والرسائل من ملوكهم، غير أن الازدهار الذى نعم
به مصر فى عصردولة المماليك، تعرض لخطر أوربى قبل أن يشرف القرن الخامس ع
الميلادى على نهايته. فقد ظهرت البرتغال بجهودها الكشفية ذات الطابع الصليبى ال

انتهت بوصول ڤاسكو دى جاما إلى ساحل ملبار الهندى ـ عن طريق رأس الرجاء الصالح ـ فى مايو سنة ١٤٩٨م، الأمر الذى أدى إلى الإطاحة بحصيلة الضرائب الهائلة التى كان سلاطين المماليك يحصلون عليها وكونت ثرائهم. وعبثا حاولت دولة المماليك إيقاف البرتغاليين، فدخلت فى حرب معهم، نالت فيها هزيمة ساحقة فى معركة ديو البحرية فى ٣ فبراير سنة ١٥٠٩م، ومن ثم لم تعد مصر سوقا عالمية للتجارة، ولم يمض على تلك المعركة سوى سنوات قليلة، حتى سقطت الدولة المملوكية فريسة هينة فى أيدى العثمانيين سنة ١٥١٧م.

ومهما يكن من أمر، فإن الأسرات الحاكمة التى توالت على مصر فى العصور الوسطى قد استقلت بها، وشيدت تاريخها، ودعمت حضارتها، ودافعت عنها ضد الأخطار الخارجية. ولهذا لانقبل الآراء الخاطئة التى تزعم أن حكام مصر العصور الوسطى كانوا جسما غريبا فى أرض غريبة عنهم. ففى عهود حكمهم لم يذق المصريون طعم الاحتلال الذين ذاقوا مرارته وقسوته على أيدى غزاة كالفرس والرومان.

وقد رأينا أن نفوذ مصر السياسى قد امتد فى أغلب العصور الوسطى، فشمل الشام أحيانا والسودان أحيانا أخرى. ولم يكن ذلك قط احتلال للشام بالمعنى المألوف حاليا من كلمة احتلال، ذلك أن مصر والشام منذ أقدم العصور تجمعهما مصالح سياسية وحربية وتجارية واحدة. وارتبط مصير كل منهما بالآخر، فما من غزوات استهدفت الشام إلا واتجهت إلى مصر، كما أن الاستيلاء على مصر كان يتبعه حتما الاتجاه إلى الشام، وفى مختلف العصور الإسلامية، وعلى وجه التحديد، منذ قيام الدولة الطولونية، وحتى الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧م، كانت كل معارك الدفاع عن مصر تجرى على أرض الشام وخاصة جنوبه. وقد رأينا كيف صدت مصر الخطر المغولى، وألحقت به هزيمة ساحقة على أرض فلسطين، فى موقعة عين جالوت. أما السودان فلسنا فى حاجة إلى تقديم الأدلة على مدى الارتباط الوثيق القائم بينه وبين مصر، ذلك الارتباط الذى أوجدته وأكدته عوامل طبيعية وحضاريةواحدة منذ أقدم العصور. فنهر النيل العظيم شريان الحياة على جنبات الوادى لازال يربط بين شمالى الوادى وجنوبه، ومنذ فجر التاريخ وعلاقات النسب والمصاهرة والثقافة تعمق الروابط بين شعبى هذا الوادى.

وصفوة القول، إنه إذا كان حكام مصر الإسلامية فى العصور الوسطى، قدجرت فى عروقهم دماء عربية وأخلاط من دماء أخرى، فإن ذلك لم يقف حائلا دون انتمائهم لمصر وترابها، ولم يكن أولئك الحكام فى نظر المصريين أجانب عنهم طالما أنهم مسلمون. فهم ــ كما رأينا ــ أصحاب الفضل فى نشر الأمن والإستقرار فى ربوعها وتدعيم حضارتها، مما جعلها خير ملجأ للعلماء، والأدباء والفقهاء من سائر أنحاء العالم الإسلامى، وتاريخ مصر منذ القدم هو تاريخ شعبها الخالد، ولم يكن فى يوم من الأيام تاريخ ملوكها وقادتها، فهؤلاء مصيرهم إلى الزوال،والفتوحات العسكرية تصبح أثراً بعد عين، وتبقى الشعوب صانعة الحضارة، ومعجزة الشعب المصرى تكمن فى أنه فرض شخصيته وحضارته المتماسكة على حكامه فى كل العصور.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

ابن الأثير: (على بن أحمد بن أبى الكرم، ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٨م)

الكامل فى التاريخ، ٩ أجزاء (بيروت ١٩٨٧).

التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق د. عبد القادر أحمد طليمات (القاهرة ١٩٦٣م).

الأدفوى: (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن على الأدفوى الشافعى، ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).

الطالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد (القاهرة ١٩٦٦م).

ابن إياس : (أبو البركات محمد بن أحمد، ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م)

بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق د. محمد مصطفى. خمسة أجزاء، (القاهرة ١٩٨٢م)

ابن أيبك الداوداري: (أبو بكر عبد الله، ت بعد ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)

كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السادس وعنوانه: الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق د. صلاح المنجد (القاهرة ١٩٧٧).

ابن بطوطة: (شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى، ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)

مهذب رحلة ابن بطوطة، جزءان (القاهرة ١٩٣٤).

البلوى: (أبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بالبلوى، عاش فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى)

سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد على (القاهرة بدون تاريخ).

ابن جبير: (أبو الحسن محمد بن أحمد الكنانى الأندلسى، ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)

الرحلة (بيروت ١٩٦٤م).

ابن حجر العسقلانى: (شهاب الدين بن على، ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)

رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد المجيد، مراجعة إبراهيم الإبيارى، القسم الثانى (القاهرة ١٩٦١م).

ابن خلدون: (عبد ارحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م).

العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد الرابع (بيروت ١٩٨٨م).

المقدمة، تحقيق د. على عبد الواحد وافى، جـ١ ، ٣ (القاهرة ١٩٦٥م).

ابن خلكان: (أبو القاسم شمسالدين أحمد بن أبى بكر، ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)

وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ٨ أجزاء، تحقيق د. إحسان عباس (بيروت ١٩٦٨م).

ابن زنبل: (أحمد الرمال، ت ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م)

أخر المماليك، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة ١٩٦٢م).

السيوطى: (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد، ت ٩١١هـ/ ص١٥٠٥م)

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، حزءان (القاهرة ١٩٦٨م).

ابن شاكر الكتبى: (أبو عبد الله محمد بن شاكر، ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)

فوات الوفيات، جزءان، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

ابو شامة: (عبد الرحمن بن إسماعيل بن عثمان، ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)

الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية (بولاق ١٢٧٨هـ)؛ الجزء الأول، القسم الثانى، تحقيق د. محمد حلمى أحمد، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٦٢م).

ابن شاهنشاه الأيوبى: (محمد بن تقى الدين بن عمر، ت ٦١٧هـ/ ١٢٣٠م)

مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق د. حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٨م).

ابن شداد: (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع، ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق د. جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٦٤م).

ابن عبد الحكم: (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم القرشى،ت ٢٥٧هـ/ ٨٧١م)

فتوح مصر وأخبارها (القاهرة ١٩٩١م).

ابن العميد: (أخبار الأيوبيين (القاهرة بدون تاريخ)

ابن القلانسي: (أبو يعلى حمزة بن أسد بن على بن محمد التميمى، ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)

ذيل تاريخ دمشق، ٣٦٠ ـ ٥٥٥هـ، تحقيق د. سهيل زكار (سوريا ١٩٨٣م).

القلقشندى: (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على، ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩م).

مآثر الأنافة فى معالم الخلافة (الكويت ١٩٦٤م).

ابن كثير: (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر الحافظ، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)

البداية والنهاية، ١٢ جزءاً (بيروت ١٩٨٠م).

الكندى: (أبو عمر محمد بن يوسف بن يعوق، ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م)

الولاة والقضاة (بيروت ١٩٠٨م).

أبو المحاسن: (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى، ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٧١م)

المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، جـ١ تحقيق د. محمد محمد أمين (القاهرة ١٩٨٥م).

مفضل بن أبي الفضائل: (ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م).

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد (باريس ١٩١١ ـ ١٩٢٠م)

المقريزى: (تقى الدين أحمد بن على، ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)

السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ ـ ٢ (٦ أقسام) تحقيق د. محمدمصطفى زيادة، جـ٣ ـ ٤ (٦ أقسام)تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور، (القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٧٣م).

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان (بولاق ١٢٧٠هـ)، وطبعة التحرير.

البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، مع دراسات فى تاريخ العروبة فى وادى النيل. تحقيق وتأليف د. عبد المجيد عابدين (القاهرة ١٩٦١م).

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، جـ١ تحقيق د. جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٤٨م)، جـ٢ ـ ٣ تحقيق د. محمد حلمى أحمد (القاهرة ١٩٧١ ـ ١٩٧٣م).

المقفى، ٨ أجزاء (بيروت ١٩٩١م).

ابن ميسر: (محمد على بن يوسف بن جلبى المعروف بابن ميسر، ت ٦٣٧هـ/ ١٢٧٨م)

أخبار مصر، الجزء الثانى (القاهرة ١٩١٩م).

ناصر خسرو: (ت ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م)

سفرنامه، ترجمة د. يحيى الخشاب (القاهرة ١٩٩٣م).

النويرى الإسكندرانى: (محمد بن قاسم بن محمد النويرى الإسكندرانى، ت بعد ٧٧٥هـ/ ١٣٧٢م)

كتاب الإلمام بالإعلام لما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الإسكندرية، تحقيق د. عزيز سوريال عطية (الهند ١٩٧٣ ـ ١٩٧٦م).

ابن واصل: (جمال الدين محمد بن سالم، ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٦م)

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ثلاثة أجزاء، تحقيق د. جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠م).

ثانياً: المراجع العربية والمترجمة:

إبراهيم طرخان: (دكتور)

النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٨م).

إبراهيم العدوى: (دكتور)

قوات البحرية فى مياه البحر المتوسط (القاهرة ١٩٦٣م).

مصر والشرق العربى درع الإسلام (القاهرة ١٩٨٤م).

إبراهيم مدكور: (دكتور)

الحياة الثقافية بين القاهرة وبغداد، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس ـ أبريل ١٩٦٩م (القاهرة ١٩٧١م).

إبراهيم نصحى: (دكتور)

«مصر فى عصر البطالمة»، موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثانى (القاهرة بدون تاريخ).

أحمد أحمد بدوى: (دكتور)

الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية. (القاهرة بدون تاريخ).

أحمد أمين:

فجر الإسلام (القاهرة ١٩٨٧م).

أحمد علبى: (دكتور)

ثورة الزنج وقائدها على بن محمد (بيروت ١٩٦١م).

أحمد مختار العبادى: (دكتور)

فى التاريخ العباسى والفاطمى (الإسكندرية ١٩٨٧م).

قيام دولة المماليك فى مصر والشام (القاهرة ١٩٨٨م).

أرنولد (توماس):

الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى (القاهرة ١٩٧٠م).

إيڤانوف (نيقولاى):

الفتح العثمانى للأقطار العربية ١٥١٦ ـ ١٥٧٤م، ترجمة يوسف عطا الله، مراجعة د. مسعود طاهر (بيروت ١٩٨٨م).

أيمن فؤاد سيد: (دكتور)

الدولة الفاطمية فى مصر (بيروت١٩٩٢م).

بتلر (الفرد):

فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد (القاهرة ١٩٣٣م).

بل (هـ. آيدرس):

مصر من الإسكندرالأكبر حتى الفتح العربى، دراسة فى انتشار الحضارة الهلينية واضمحلالها، ترجمة د. عبد اللطيف أحمد على (القاهرة ١٩٦٨م).

جمال الدين الشيال: (دكتور)

«مصر فى العصر الفاطمى»، موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثانى، (القاهرة بدون تاريخ).

جمال حمدان: (دكتور)

شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان، جـ٢ (القاهرة ١٩٨١م).

حسن ابراهيم حسن: (دكتور)

تاريخ عمرو بن العاص (القاهرة ١٩٢٣).

المعز لدين الله، بالإشتراك مع دكتور طه أحمد شرف (القاهرة ١٩٦٤م).

حسن أحمد محمود: (دكتور)

الإسلام والثقافة العربية (القاهرة ١٩٥٨م).

حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولونى (القاهرة ١٩٦٠م).

العالم الإسلامى فى العصر العباسي، بالاشتراك مع دكتور أحمد إبراهيم الشريف (القاهرة بدون تايخ).

حسنين محمد ربيع: (دكتور)

النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين (القاهرة ١٩٦٤م).

حسين فوزى: (دكتور)

سندباد مصرى (القاهرة ١٩٩٠م).

حسين مؤنس: (دكتور)

نور الدين محمد (القاهرة ١٩٥٩م).

ـ مصر ورسالتها (القاهرة ١٩٨٩).

ـ «تاريخ مصر من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون»، موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثانى (القاهرة بدون تاريخ).

حكيم أمين عبد السيد: (دكتور)

قيام دولة المماليك الثانية (القاهرة ١٩٦٧م).

درويش النخيلى: (دكتور)

فتح الفاطميين للشام فى مرحلته الأولى من ٣٥٨ ـ ٣٦٢هـ (القاهرة ١٩٧٩م)

راشد البراوى: (دكتور)

حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطمين (القاهرة ١٩٤٨م)

رنسيمان (ستيڤن:

تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العرينى، ٣ أجزاء (بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩).

رؤوف حبيب:

تاريخ الرهبنة والديرية فى مصر وآثارها الإنسانية على العالم (القاهرة ١٩٧٨م).

زكى محمد حسن: (دكتور)

الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٤٥م).

الفنون الإسلامية (القاهرة بدون تاريخ).

سعد قوسه سعد:

أمجاد العصر القبطى، مراجعة الأنبا اغريغوريوس (القاهرة ١٩٧١م).

سعيد عبد الفتاح عاشور: (دكتور)

بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى (بيروت ١٩٧٧م).

قبرس والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧م).

الناصر صلاح الدين (القاهرة ١٩٦٥م).

العصر المماليكى فى مصر والشام (القاهرة ١٩٦٥م).

الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام (القاهرة ١٩٧٠م).

الحركة الصليبية، جزءان (القاهرة ١٩٧٨م).

مصر فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٨٩م).

سليمان حزين: (دكتور)

حضارة مصر أرض الكنانة (القاهرة ١٩٩١م).

السيد الباز العرينى: (دكتور)

مصر فى عصر الأيوبيين (القاهرة ١٩٦٠م).

الشرق الأوسط والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٦٣م).

مصر البيزنطية (القاهرة بدون تاريخ).

سيدة إسماعيل كاشف: (دكتور)

أحمد بن طولون (القاهرة ١٩٦٥م).

مصر فى عصر الإخشيديين (القاهرة ١٩٧٠م).

مصر فى عصر الولاة من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية (القاهرة بدون تاريخ).

طافور:

رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة د. حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٨م).

الطاهر عبد الحكيم: (دكتور)

الشخصية الوطنية المصرية (القاهرة ١٩٨٦م).

عبد الرحمن عبد التواب:

قايتباى المحمودى (القاهرة ١٩٧٨م).

عبد العزيز محمد الشناوى: (دكتور)

الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها (القاهرة ١٩٨٠م).

عبد اللطيف أحمد على: (دكتور)

كفاحنا ضد الغزاة (القاهرة ١٩٥٧م).

عبد اللطيف حمزة: (دكتور)

الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيىء الحملة الفرنسية (القاهرة بدون تاريخ).

عبدالمنعم ماجد: (دكتور)

خلافة دولة الفاطميين وسقوطها فى مصر (القاهرة ١٩٥٨م).

التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر (القاهرة ١٩٨٥م).

عبد الوهاب حمودة: (دكتور)

صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى (القاهرة ١٩٦٥م).

عزيز سوريال عطية: (دكتور)

العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ترجمة د. فيليب صابر سيف، مراجعة أحمد خاكى (القاهرة ١٩٧٢م).

«الكنيسة القبطية والروح القومى فى مصر فى العصر البيزنطى»، المجلة التاريخية المصرية، العدد الأول، مايو ١٩٥٠م.

على إبراهيم حسن: (دكتور)

دراسات فى تاريخ المماليك البحرية (القاهرة ١٩٤٨م).

- مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى (القاهرة ١٩٤٩م).

على بيومى:

قيام الدولة الأيوبية فى مصر (القاهرة ١٩٥٢م).

فولكف (أولج):

القاهرة، مدينة ألف ليلة وليلة، ترجمة أحمد صليحة (القاهرة ١٩٨٦م).

لوريمر (چون):

تاريخ الكنيسة، جـ٣ (القاهرة ١٩٨٢م).

لويس (أرشيبالد. ر.):

القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة د. محمد شفيق غربال (القاهرة بدون تاريخ).

لين بول (ستانلى):

سيرة القاهرة (القاهرة ١٩٥٠م).

محسن محمد حسن: (دكتور)

الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين (بيروت ١٩٨٦م).

محمد أنيس: (دكتور)

الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤ ـ ١٥١٩ (القاهرة ١٩٨١م).

محمدجمال الدين سرور: (دكتور)

النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة (القاهرة ١٩٦٤م).

الدولة الفاطمية فى مصر (القاهرة ١٩٦٦م).

تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق (القاهرة ١٩٦٧م).

محمد حمدى المناوى: (دكتور)

الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى (القاهرة ١٩٧٠م).

محمد شفيق غربال: (دكتور)

تكوين مصر (القاهرة١٩٥٧م).

محمد عبد العزيز مرزوق: (دكتور)

الناصر محمد بن قلاوون (القاهرة ١٩٦٤م).

محمد عبد الله عنان: (دكتور)

مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى (القاهرة ١٩٦٩م).

محمد عبد المنعم خفاجى:

التراث الروحى للتصوف الإسلامى فى مصر (القاهرة بدون تاريخ).

محمد محمد أمين: (دكتور)

الأوقاف والحياة الاجتماعيةفى مصر (٦٨٤ ـ ٩٢٣هـ (القاهرة ١٩٨٠م).

محمد مصطفى زيادة: (دكتور)

بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الرابع، الجزء الأول مايو ١٩٣٦ (الطبعة الثانية ١٩٥٣م).

المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (القاهرة ١٩٥٥م).

«الدولة المملوكية الأولى»، موسوعة تاريخ الحضارة الإسلامية، المجلد الثانى.

«الدولة الأيوبية»، موسوعة تاريخ الحضارة الإسلامية، المجلد الثانى.

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة (القاهرة ١٩٦١م).

محمد كامل حسين: (دكتور)

طائفة الإسماعيلية (القاهرة ١٩٥٩م).

محمود الحويرى: (دكتور)

الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد (القاهرة ١٩٧٩م).

العادل الأيوبى (القاهرة ١٩٧٩م).

أسوان فى العصور الوسطى (القاهرة١٩٨٠م).

ساحل شرق أفريقية من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالى (القاهرة ١٩٨٦).

بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها فى التصدى للصليبيين (القاهرة ١٩٩٢م).

رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية، ط٢ (القاهرة ١٩٩٣م).
، سليم: (دكتور)
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، القسم الثانى،(القاهرة ١٩٤١م).
(دكتور)
:من دقلديانوس إلى دخول العرب»، موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، المجلد لثانى.
سقا:
الحياة الأبية فى مدينة القاهرة»، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس ـ ريل ١٩٦٩، جـ ٣ (القاهرة١٩٧١م).
بدر: (دكتور)
صر الإسلامية (القاهرة ١٩٥٩م).
:
ريخ الكنيسة القبطية (القاهرة ١٩٨٣م).
سعداوى: (دكتور)
يش مصر فى أيام صلاح الدين (القاهرة ١٩٥٩م).

يخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى،٤ أجزاء(القاهة١٩٨٥ ـ ١٩٩م).
بية:

Arberry (A.T.):

"The Contribution to Islam " in the legacy of I by S.R.K.G lanville (London, 1942).

Ashtor (E.):

A social and Economic History of the Near East in the Middle Ages. (London, 1976).

Asimov (Isaak):

The Egyptians. (U.S.A., 1967).

Baldwin (Marshall W.):

"The latin States under Baldwin III and Amarlic I, 1143-1174", in Setton (ed.), A History of the Crusades. Vol.I. (Philadelfia, 1955).

Bill (H. I.):

"Egypt and the Byzantine Empire", in the Lagacy od Egypt. Ed. by S.R. K. Hlanville (London, 1942).

Butler (Alferd):

The Arab Conquest of Egypt. (London, 1930).

Creasy (Sir Edward):

Turkey and the Balkans (U.S.A., 1928).

Diehl (Charles:

Historic de L'Empire Byzantine (Paris, 1920).

Frend (W.H.C):

"Old and new Rome in the Age of Justinian", in Relation between East and west in the Middle Ages. Ed. by Derek Baker. (London, 1972).

Grant (M.):

From Alexander to Cleopatra. (London, 1982).

Grousset (René):

1- The Empire of the Steppes - A History of Central Asia Tran. from the French by Naomi Walford. (New Jersy,1970).

2- Histore des Croisade. Vol. I.

Guth (Poul):

Saint Louis Roi de France. (Paris, 1980).

Hardy (Edward Rochie:

Christian Egypt: Church and People. (New York, 1952).

Hitti (Philip K.):

History of the Arabs. (London, 1972).

Howorth (Henry H.):

History of the Mongols from the 9th to the 19th century, Part III, (London, 1888).

Jones (A.H.M.):

A Hist of the Mongols from the 9th to the 19th Century. Part III, (London, 1888).

King (E.J.):

The Kinights Hospitallers in the Holy Land. (London, 1931).

Kinross (Lord):

Partrait of Egypt. (New York, 1966).

Lacy O'Leary: "The Coptic Church and Egptian Monasticism", in the Legacy of Egypt.

Lamb (H.):

The Crusades. Flame of Islam. (London, 1936).

Lane - Poole (S.):

A History of Egypt in the Middle Ages. (London, 1901),

Lewis (Bernard):

"The Islamilites and the Aseassins.,(ed.), A Hitory of the Crusodes.Vol. I.

Levtchenko (M.V.):

Pyzance des Origines A 1453. (Paris, 1949).

Mango (Cyril):

Byzantium, (London, 1980).

Marco Polo:

The Travelo.

Marlowe (Johan):

Four Aspects of Egypt. (London, 1966).

Mayer (H.E.):

The Crusades. Tran. from german by Johan Gillingham. (London, 1991).

Milne (Grafton, M. A.):

A History of Egypt under Roman Rule. Vol. v. (London, 1924).

Muir (Sir William):

The Mamluke or Slave Dynasty of Egypt 1260-1517 A. D. (London, 1896).

Munier (H.):

L'Egypte Byzantine de Dioclétien á La Conqüete Arabe, (Caire, 1932).

Naphtali (Lewis):

Life in Egypt under Roman Rule (Oxford, 1985).

Newby (P.H.):

Saladin in his Time. (London, 1983).

Ostrogorsky (George):

History of the Byzantine State (U.S.A., 1969).

Parkes (James):

A History of Palestine from 195 A. D. to Modern Timews (London, 1949).

Rogers (R.W):

A Hist. of the Arcient Persia. (New York, 1957).

Petit - Dutaillis (Charles):

Saint Louis., in Camb. Med. Hist. Vol. VI (London, 1957).

Rostovtzeff (M.):

Rome. (New York, 1960).

Runciman (Steven):

A History of the Crusades. Vol. II. (Cambridge, 195 - 1954).

Schulumberger (G.):

Campagnes du Roi Ier de Jerusalem en Egypte. (Paris, 1906).

Sinnigen (W.G.) & Book (A.E.R.):

A History of Rome to A .D 565. (London, 1977).

Stevenson (W.B.):

The Crusades in the East (Cambridge, 1907).

Stripling (George Williman Frederick):

The Ottoman Turks and the Arabs. 1511 - 1574. (U.S.A., 1977).

Treece (Henry):

The Crusades. (U.SA., 1964).

Wallace (Sherman Le Roy):

"Census and Pool - Tax in Ptolemaic Egypt" Reprinted from the American Journal of Philology, Vol. LIX, no. 4, October, 1938.

Wallis Budge (E.A.):

Egypt Under the Saites, Persians and Ptolemies (Netherlands, 1986).

Wiet (G.):

Precis de L Histore d'Égypte. Deuxiéme partie.

William of Tyre:

A History of Deeds done beyond the Sea, Vol. I. Tran. by Babcock (E.A.) & Krey (A.C.). New York, 1943).

Wood Travis (H.):

Pharaoh to Farouk. (London, 1956).

محتويات الكتاب

